الجامع لأحكام القرآن الكريم

تفسير القرطبي

دار الريان للتراث

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة


تفسير القرطبي

طبعة خاصة

بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

- دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩
- مصر الجديدة : ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

٩

تفسير القرطبي

لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

دار الريان للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكيّة فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »(١) إلى آخرها . وهى ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع «حمٓ» من «عٓسٓقٓ» ولم تقطع «كهيعص» و «المٓرٓ» و «المٓصٓ» ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سُوَرٍ أولها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن «حم» مبتدأ و « عسق » خبره . ولأنها عدّت آيتين، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة . وقيل : إن الحروف المعجمة كلها فى المعنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِىّ . وكتبت « حم . عسق » منفصلا و « كهيعص» متصلا لأنه قيل : حمّ؛ أى حمّ ما هو كائن، ففصّلوا بين ما يقدر فيه فعل و بين ما لا يقدر . ثم لو فُصل هذا ووُصل ذا لجاز؛ حكاه القُشيرى . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « حم . سق » قال ابن عباس:

---

(١) آية ٢٣ .

وكان عليّ رضي الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرني عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق » ؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق ، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة ، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت ! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا؛ فذلك قوله : «حم . عسق» . أي عزمة[1] من عزمات الله وفتنة وقضاء حُم : حم . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع في هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[2] والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها — وفي رواية بأهلها — فلهيَ أسرع ذهابا في الأرض من الوَتد الجيد في الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس «حم . سق» بغير عين . وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود ؛ حكاه الطبري[3] . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه ، و « الميم » مجده ، و «العين» علمه ، و « السين » سَناه ، و « القاف » قدرته ، أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجده وعلوه وسَناه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن ، و « الميم » من المجيد ، و «العين» من العليم ، و «السين» من القدوس ، و «القاف» من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبدالله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيري واللفظ للثعلبي : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة في وجهه؛

(١) أي حق من حقوقه . (٢) وروي بفتح أوله وثانيه . (٣) في بعض النسخ : «حكمه» بالكاف .

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : "أخبرت ببلايا تنزل بأمتي من خسف وقذف ونار تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال" . والله أعلم . وقيل : هذا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود ، و « الميم » ملكه الممدود ، و « العين » عزه الموجود ، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه في المقام المحمود ، وقربه في الكرامة(١) من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : «حم . عسق» ؛ فلذلك قال : « يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدوي : وقد جاء في الخبر أن "« حم . عسق » معناه أوحيت إلى الأنبياء المتقدمين". وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير ومجاهد «يوحَى» (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسم فاعله مضمرا ؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة ، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل ، التقدير : يوحيه الله إليك ، كقراءة ابن عامر وأبي بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » أي يسبحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ بخصومة * وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح(٢)

فقال : لِيُبْكَ يزيدُ ، ثم بين من ينبغي أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيزُ الحكيمُ » . وقرأ الباقون « يوحي إليك » بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدم في غير موضع(٣) .

---

(١) في نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما في كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حرى في مرثية يزيد . (راجع الشاهد الخامس والأربعين) .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائي بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء، وهى قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار؛ كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقد مضى فى سورة « مريم » بيان هذا (١) . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التى تليها ؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٢) » . وقال الضّحاك والسُّدّى : «يتفطرن» أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن . وقيل : «فوقهن» ، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى ينزهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجّبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح فى موضع التعجّب . وعن علىّ رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِم» بأمر ربهم؛ قاله السُّدّى . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن فى الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدى . بيانه فى سورة المؤمن : «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا (٣)» . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبى . وقال وهب ابن منبّه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا » . قال المهدوى : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين . وقال أبو الحسن الماوردى عن الكلبى : ان الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذين اختُبرا وبُعثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزّهرة

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

وهربا إلى إدريس — وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض . الماوردي : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهر قول مقاتل. الثاني — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم؛ قاله الكلبي .

قلت : وهو أظهر، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد رُوي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحْول عن أبي عثمان عن سلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله في السّراء فنزلت به الضّراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدمي ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدمي كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلّ على أن الآية في الذاكر لله تعالى في السراء والضراء ، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : « إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (١) — إلى أن قال — إنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم (٢) » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزّمخشري . وقال مُطرِّف : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم (٣) . ﴿ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هَيّب وعَظّم جلّ وعزّ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف . وفى الخبر : " أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط " أى صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله ؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليك و إلى من قبلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًّا بيّناه بلغة العرب . وقيل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هدًى . ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء ، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع على الموضع و « من » زائدة .

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى وليّك يا محمد وولىّ من اتبعك ، لا ولىّ سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

قوله تعالى : وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدّين هو الإسلام لا غيره، وأمور الشرائع إنما تُتلقى من بيان الله . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجر على البدل من الهاء فى « عليه » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدّم [1] . ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيل معناه إناثا . وإنما

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٧ جـ ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ جـ ١٤ ص ٣٤ وما بعدها و ٣١٩

قال : « من أنفسكم » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهـد : نَسْلاً بعد نسـل .
﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمـانية التى ذكرها فى « الأنعام »(١) ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم و ينشئكم «فيه» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وآبن كَيْسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يذرؤكم فيه » يكثركم به ؛ أى يكثركم بجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيـل : إن الهـاء فى « فيه » للجعل ، ودلّ عليـه « جعَل » ؛ فكأنه قال : يخلقكم و يكثركم فى الجعل . آبن قُتيبة : « يذرؤكم فيه » أى فى الزوج؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : ويكون « فيه » فى الرحم ، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لهـا ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أى ليس مثله شيء . قال :

* وصاليات كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ(٢) *

فأدخل على الكاف كافاً تأكيدا للتشبيه . وقيـل : المثل زائدة للتوكيد ؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعـالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا(٣) » . وفى حرف ابن مسعود « فإن آمنوا بمـا آمنتم به فقد اهتدوا » قال أوس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخـيـل * يغشاهم مطـر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هذا الباب أن الله جل آسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمـائه وعلىّ صـفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يُشبَّه به ، و إنمـا جاء ممـا أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيق ؛ إذ صفات القـديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمـائه و بصفاته على ما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القـدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المـائة وكتاب سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزمر »(1) بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم أيضا فى غير موضع(2) .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ . (2) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٩ ص ٣١٤

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ، قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » وقد تقدم القول فيه[1] . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضح وبيّن المسالك . وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزلُ اذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِية . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا أن اقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به » ، كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ، مثل أن امشوا ، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانية ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى حديث الشفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أول نبىّ[2] بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة ، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، وإنما كان تنبيها على بعض

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى نسخ الأصل : « كما أن آدم أول رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذا بوظائف الحياة والبقاء ؛ واستقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات وأوضح له الآداب فى الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر(١) بالأنبياء — صلوات الله عليهم — واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا؛ يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة ،وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى اجعلوه قائما؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث؛ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا فى معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذى شرع لهم؛ وقاله الوالبى عن ابن عباس، وهو قول الكلبى . وقال قتادة : يعنى تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضى يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع.

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عظم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كبر على المشركين فاشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها على من

---

(١) فى ابن العربى : « ويتناشر » .

تاولها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ »(1) يريد نبيا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »(2) على ما تقدم بيانه هناك . وقيل : أمم الأنبياء المتقدمين ؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال ابن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المنفكين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » . فالمشركون قالوا : لم خص بالنبوة! واليهود حسدوه لما بعث ؛ وكذا النصارى .

﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(3) . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : «إن الذين أورثوا الكتاب» قريش . «من بعدهم» من بعد اليهود والنصارى . « لفى شك » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم ؛ يعنى من قبل مشركى مكة ، وهم اليهود والنصارى .

---

(1) آية ٤٢ راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧

(2) آية ٨٩ راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(3) آية ٤٦ سورة القمر .

قوله تعالى : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أى فتبينت شكهم فادع إلى الله ؛ أى إلى ذلك الدين الذى شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدم أول « البقرة »[1] . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها ؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أى لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أى أن أعدل ؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »[2] . وقيل : هى لام كى ، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل فى جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل فى الأحكام . وقيل فى التبليغ . ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود ؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نسخت بقوله « قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ »[3] الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ ؛

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبة

لأن البَراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، و بعد العناد لا حجة ولا جدال. قال النحاس : و يجوز أن يكون معنى « لا حُجَّةَ بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتج عليكم و يقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحول القبلة : لا تصلّ الى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد، لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه ، ويجازى كُلًّا بما كان عليه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه الى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بابنته

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ رجع الى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »(١) فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى لا ثبات لها كالشىء الذى يزلّ عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

---

(١) آية ٧٣ سورة مريم .

(بالتحريك) أى زلق . ودحضت رجله تدحض دحضًا زلقت . ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿ وعليهم غضبٌ ﴾ يريد فى الدنيا . ﴿ ولهم عذابٌ شديدٌ ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذى أنزلَ الكتَابَ ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة . ﴿ بالحَقّ ﴾ أى بالصدق . ﴿ والميزَانَ ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (١) » . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿ وما يُدرِيكَ لعلَّ السَّاعةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها . يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف . فـ « لعل الساعة قريب » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قريب » نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد ؛ قال الله تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين (٢) » . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة ... فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

قوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتيـة ، أو إيهاما للضَّعفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة ؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون »(١) . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكّون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار ؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يبعثهم

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِىّ بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السُّدّى : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبَرّ والفاجر ؛ حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظى : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ * يسائلهم فيـه الجليـل ويلطف

وقال جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهم فى الرزق من وجهين : أحدهما ـــ أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى ـــ أنه لم يدفعه إليك مَرّةً واحدة فتبذّره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن علي الكتاني : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويقبل عليه. وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جل وعز امحت آثارهم واضمحلت صورهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خففوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب " . قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه :

أمر بأفناء القبور كأنني * أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شق فاه الله قدر رزقه * وربي بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ؛ وعلى هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا من أظهر الجميل وستر القبيح " . وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »(1) ، « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »(2) ، وقال : « وما جعل عليكم في الدين من حرج »(3) ، « يريد الله أن يخفف عنكم »(4) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة . وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه . وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيل : هو الذي يعفو عمن يهفو . وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجا ، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا . وقد مضى في « الأنعام »(5) قول أبي العالية والجنيد أيضا . وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله . ﴿ يرزق من يشاء ﴾ ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمال حكمة؛ ليحتاج

---

(1) آية ٣٤ سورة إبراهيم . (2) آية ٢٠ سورة لقمان . (3) آية ٧٨ سورة الحج .

(4) آية ٢٨ سورة النساء . (5) راجع جـ ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

البعض إلى البعض؛ كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »(١)، فكان هذا لطفاً بالعباد . وأيضاً ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »(٢) على ما تقدّم بيانه . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمر : واحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . ومنه سمي الرجل حارثا . والمعنى : أي من طلب بما رزقناه حرثًا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »(٣) . وقيل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أي من أطاع فله الثواب . وقيل : « نزد له في حرثه » أي نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية في الغَزْو؛ أي من أراد بغَزْوِه الآخرة أوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتي منها . قال القُشيريّ : والظاهر أن الآية في الكافر؛ يوسع له في الدنيا ؛ أي لا ينبغي له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : "من عمل لآخرته زدناه في عمله وأعطيناه من الدنيا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيباً في الآخرة

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع جـ ١٣ ص ١٨
(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار". وروى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : وقوله عز وجل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ » من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » أي في حسناته . « ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا » أي من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا « نُؤْتِهِ مِنها » ثم نسخ ذلك في سبحان : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(١). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقل أحدكم اللّهُمّ اغفرلى إن شئت اللّهُمّ ارحمني إن شئت". وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ . وقد ذكرنا في « هود »(٢) أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار . والله المستعان .

مســألة : هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قوله : إنه من توضأ تَبَرُّداً أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليـه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي.

قوله تعالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ألهم ! والميم صلة والهمزة للتقريع . وهـذا متصل بقوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً »، وقوله تعالى : «اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزَانَ» كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

(١) آية ١٨ (٢) راجع جـ ٩ ص ١٤

القيامة حيث قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» . ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فى الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . ﴿وإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا القتلُ والأسر والقهر ، وفى الآخرة عذاب النار . وقرأ ابن هُرْمُز « وأنّ » بفتح الهمزة على العطف على « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ » والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب « لولا » جائز . ويجوز أن يكون موضع « أنّ » رفعا على تقدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ، فيكون منقطعا مما قبله كقراءة الكسر، فاعلمه .

قوله تعالى : تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أى خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى من جزاء ما كسبوا . والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر . ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ نازل بهم . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة : الموضع الكثير الخضرة . وقد مضى فى « الروم »[1] . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى من النعيم والثواب الجزيل . ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى لا يوصف ولا تهتدى العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذى يقدر قدره .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرئ « يُبَشِّر » من بشّره ، « ويُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور و يزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلًا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكْثَرَ الناسُ علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسطَ الناس فى قريش ، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَدَه ؛ فقال الله له : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا ما بينى و بينكم فتصدّقونى . فـ « الْقُرْبَىٰ » ها هنا قرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقال : "صِلُونى كما كنتم تفعلون" . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس . وفى البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ » فقال سعيد بن جُبير : قُرْبَىٰ آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ؛ فقال : إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربى . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدّى . وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ » قالوا : يا رسول الله ، من

هؤلاء الذين نودّهم ؟ قال : "عليّ وفاطمة وأبناؤهما". ويدل عليه أيضا ما روى عن عليّ رضى الله عنه قال: شكوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى. فقال: "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا". وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "حُرِّمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عِتْرتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقيني يوم القيامة". وقال الحسن وقتادة : المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعته . و « الْقُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفَى . وروى قَزَعة بن سُوَيد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة". وروى منصور وعوف عن الحسن «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة فى القُرْبَى» قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه ؛ فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا «وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»(1) ؛ فأنزل الله تعالى « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ»(2) فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ»(3) ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ»(4)، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ»(5) ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل . ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبيّ : وليس بالقويّ ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٧ سورة سبأ .
(٣) آية ٨٦ سورة ص . (٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون . (٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ سورة القلم

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من مات على حُبّ آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة . ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغْض آل محمد لم يَرَح رائحة الجنة[1] . ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي" .

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَريّ في تفسيره بأطول من هذا فقال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان . ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم مُنْكَر ونكير . ألا ومن مات على حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة . ألا ومن مات في حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة" . قال النحاس : ومذهب عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال : كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : "قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لقرابتي ولا تكذبوني" .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس في البُخاريّ والشَّعْبيّ عنه بعينه؛ وعليه لانسخ. قال النحاس : وقول الحسن حسن ، و يدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدي قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي قال أخبرنا أسد ابن موسى قال حدّثنا قَزَعة[2] — وهو ابن يزيد البصري — قال حدّثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا أسئلكم على ما أتيتكم به من البيّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تقربوا إليه بطاعته". فهذا المبيّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبله : « إِنْ أَجْرِيَ إلا على الله » .

---

(١) أي لم يشم ريحها؛ يقال : راح يَرِيح، وراح يَرَاح، وأراح يُرِيح . والثلاثة قد روي بها الحديث .

(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد؛ وهو ممن يروي عن ابن أبي نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

الثانيــة ـ واختلفوا فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قَدِم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ؛ فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مِقْسم عن ابن عباس قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فخطب فقال للأنصار : " ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بى . ألم تكونوا خائفين فأمّنكم الله بى ألا تردّون علىّ " ؟ فقالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : " تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ... " فعدّد عليهم . قال : فجثَوْا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك ؛ فنزلت : « قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المودّة فى القُرْبَى » . وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبىّ : وهذا أشبه بالآية ؛ لأن السورة مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب . وأصل القرف الكسب ؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله ؛ أى يكسب . والاقتراف الاكتساب ؛ وهو مأخوذ من قولهم : رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقد مضى فى « الأنعام »(1) القول فيه . وقال ابن عباس : « وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة: «غفور» للذنوب، «شكور» للحسنات. وقال السُّدّى: «غفور» لذنوب آل محمد عليه السلام، «شكور» لحسناتهم.

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(1) راجع جـ ٧ ص ٧٠

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الميم صلة ، والتقدير أيقولون افترى . واتصل الكلام بما قبلُ ؛ لأن الله تعالى لما قال : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ »(١) ، وقال « اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ »(٢) قال إتماما للبيان : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » يعنى كفار قريش قالوا : إن محمدا اختلق الكذب على الله . ﴿ فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به فى هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : « إن يشأ الله » يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم . وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك . وقيل : المعنى لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب . فالخطاب له والمراد الكفار ؛ ذكره القشيرى . ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « يختم على قلبك » تام . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والله يمحو الباطل ؛ فحذف منه الواو فى المصحف ، وهو فى موضع رفع . كما حُذفت من قوله « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »(٣) ، « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ »(٤) ولأنه عطف على قوله « يختم على قلبك » . وقال الزجاج : قوله « أم يقولون افترى على الله كذبا » تام ؛ وقوله « ويمح الله الباطل » احتجاج على من أنكر ما أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته فى المفترين . ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أى الإسلام فيثبته ﴿ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ﴾ أى بما أنزله من القرآن . ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ عام ، أى بما فى قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)

---

(١) آية ١٥ من هذه السورة . (٢) آية ١٧ من هذه السورة .
(٣) آية ١٨ سورة العلق . (٤) آية ١١ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ » قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد اتهموه فأنزل «أم يقولون افترى على الله كذبا » الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة . وقد مضى الكلام فى معنى التوبة وأحكامها[1]، ومضى هذا اللفظ فى «براءة»[2] . ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أى عن الشرك قبل الإسلام . ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين : الأول وهو «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» والثانى «وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

«الذين» فى موضع نصب؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا، أى يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى فى «البقرة»[3] . وقال ابن عباس : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفّعهم فى إخوانهم . « وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ » قال : يشفّعهم فى إخوان إخوانهم . وقال المبرّد : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين » فى موضع رفع . ﴿وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) آية ١٠٤ راجع جـ ٨ ص ٢٥٠

(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل: إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفّة تمنّوا سَعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأرَتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة وبنى قَيْنُقَاع فتمنّيناها فنزلت . ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . و بَسَط الشيء نشره . و بالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا . وقال ابن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ؛ لقوله : " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا " وهــذا هو البَغْى ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المــال لمــا انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع. وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبِض تارة ليتضرّعوا و يبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمَخْشَرِىّ : « لبغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : " أخوَف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها " . ولبعض العرب :

وقد جعــل الوَسْمِىُّ يُنْبت بيننا * وبين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحطا[(١)]

يعنى أنهم أحيَوا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذْخ والكبر؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « ينزّل بقدرٍ ما يشاء » يجعلَ من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيرا .

---

(١) الوسمى : مطر أوّل الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسىّ . وفى نسخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوى عنه الدنيا، مصلحةً له . فليس ضيق الرزق هواناً ولا سَعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : "من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنى لأغضب لهم كما يغضب اللّيث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه . وما تقرب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيّدًا فإن سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته . وإن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة وإنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجب فأفسده . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . وإنى لأدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير" . ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٢٨)

قرأ ابن كثير وابن مُحَيصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « يُنْزِل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وَثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قَنِطوا » بكسر النون ؛ وقد تقدّم جميع هذا (١) . والغيث المطر ؛ وسمى الغَيْث غيثاً لأنه يغيث

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦، ٦٦٧ وجـ ١٤ ص ٣٤

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثاً . وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثاً فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعيّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثاً؛ أى مُطرنا . وقال ذو الرُّمّة : قاتل الله أَمَةَ بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم؟ فقالت : غِثنا ما شئنا . ذكر الأول الثعلبى والثانى الجوهرى . وربما سمى السحاب والنبات غَيْثاً . والقنوط الإياس؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكر أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين، قَحَط المطرُ وقلّ الغيث وقَنَط الناس؟ فقال : مطرتم إن شاء الله؛ ثم قرأ « وهو الذى ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارًّا فى وقته وغير وقته؛ قاله الماوَرْديّ . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطر؛ وهو قول السُّدّى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر؛ ذكره المهدوى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء؛ ذكره القشيرى، والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ «الولى» الذى ينصر أولياءه . «الحميد» المحمود بكل لسان .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال الفرّاء : أراد ما بثّ فى الأرض دون السماء؛ كقوله « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من الملح دون العذب . وقال أبو عليّ : تقديره وما بث فى أحدهما، فحذف المضاف . وقوله « يخرج منهما » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) آية ٨ سورة النحل .

قوله تعالى : وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بما كسبت » بغير فاء . الباقون « فبما » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوى : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والإثبات أحسن . وإن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى رَوّاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شئ . ومما يحقق ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشئ من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : "ماله رحمه الله لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا" . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال على رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . وإذا كان يكفر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الآية . " يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه ". وقال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلّا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر". وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسالك عما أرى بك من الوجع، فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير» فهذا مما كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عما بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا ؟ قال : هذا بما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سيرين لما ركبه الدَّين آغتم لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوَارِى(1) قيل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير» . وقال عِكْرمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بها ؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السَّبُع لحمه وقتله ؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : "ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة " . فكان أبو سليمان الدارانى إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» وقد مضى القول فيه(2) . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(1) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحواريين (شرح القاموس) . (2) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ .

بشؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنَانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما ــ أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم. الثانى ــ أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بفائتين الله؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال، وواحد الجوارى جارية، قال الله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» (٢) . سُمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : هى المرأة الشابة؛ سُمّيت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبى . وذكر الماوردى عنه أنها الجبال . وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا:

وإنّ صخرا لتأتمّ الهُداة به * كأنه علَمٌ فى رأسه نار

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينة «الرياح» بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد الماء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهو راكد . وركّد

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

الميزان آستوى . وركد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التى يركد فيها الإنسان وغيره . وقرأ قتادة « فيظللن » بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضللت أضل (١) . وفتح اللام هى اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبار على البلوى شكور على النعماء . قال قطرب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر وإذا آبتلى صبر . قال عون بن عبد الله : فكم من منعم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن، أى يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردى . وقيل : « ويعفو عن كثير » أى ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القشيرى : والقراءة الفاشية « ويعف » بالجزم ، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف « يعف » على هذا، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك بل المعنى الاخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهى جيدة فى المعنى . ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعنى الكفار ؛ أى إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة. وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع (٢)، ومضى القول فى ركوب البحر فى « البقرة (٣) » وغيرها بما يغنى عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

(١) فى الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وجـ ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

« ويعلمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله فى سورة التوبة « ويُخزِهم وينصرْكم عليهم »(1) ثم قال « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » رفعا . ونظيره فى الكلام إن تأتنى آتك وينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(2) صرف من حال الجزم الى النصب استخفافا كراهيةً لتوالى الجزم؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِك أبو قابوس يهلكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ(3)
ويُمْسِكَ بعده بذناب عَيْشٍ * أَجَبِّ الظَّهرِ ليس له سَنام(4)

وهذا معنى قول الفرّاء، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزما؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك ، وإن شئت قلت: وأكرمْك بالجزم . وفى بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو على والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأول فى تقدير المصدر؛ أى ويكون منه عفوٌ وأن يعلم، فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول : إن تأتنى وتعطينى أكرمك ، فتنصب تعطينى ؛ أى إن يكن منك إتيان وأن تعطينى . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السُّدّى : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أى يميل عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾

---

(1) آية ١٤ (2) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (3) أبو قابوس : كنيته النعمان بن المنذر ؛ يريد أنه كان كالربيع فى الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ؛ أى لا يوصل الى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به و بجوده وعدله ونفعه للناس ، ومن كان فى ذمته وسلطانه فهو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس فى الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (4) ذناب كل شيء : عقبه ومؤخره . والأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا فى طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره ، وقد بقى منه ذنبه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسعة فى الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أى فإنما هو متاعٌ فى أيام قليلة تنقضى وتذهب؛ فلا ينبغى أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . وجاء فى الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين فى موضع جرّ معطوف على قوله : « خير وأبقى للذين آمنوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول فى الكبائر فى « النساء »(١) . وقرأ حمزة والكسائى « كبير الإثم » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) ، وكما جاء فى الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفى « النجم »(٣) . ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعنى الزنى . وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها . والفواحش داخلة فى الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة الى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد؛ فكرر لتعدد اللفظ ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنها كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم . قيل : نزلت فى عمر حين شُتم بمكة . وقيل فى أبى بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ راجع جـ ٥ ص ١٥٨ وما بعدها . (٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم . و ١٨ سورة النحل .
(٣) آية ٣٢

انفاق ماله كله وحين شُتم فحلُم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة، فتصدّق به كله فى سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ـ الى قوله ـ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئا؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى فى آل عمران « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »(1) . وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إنى عفوت لظالمى ظلمى * ووهبت ذاك له على علمى

ما زال يظلمنى وأرحمه * حتى بكيت له من الظلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا الى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يتشاورون فى الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أى إنهم لانقيادهم إلى الرأى فى أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم . وقال

(1) آية ١٣٤ راجع ج ٤ ص ٢٠٦

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورود النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم فى دار أبى أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم ، فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربى : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب الى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم .

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو مشورة حازم (١)

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخوافى (٢) قوة للقوادم

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك : وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة . وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبى بكر والأنصار ما سبق بيانه (٣) . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فاستقر رأى أبى بكر على القتال . وتشاوروا فى الجَدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب ؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَد عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فَمُرِ المسلمين فلينفروا الى كسرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حزَبَنى أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون ؛ فإن أصبت فهم المصيبون ، وإن أخطأت فهم المخطئون .

(١) البيتان لبشار بن برد . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش (٢) فى الأصول « نافع » . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٠٢٤

الثالثة ــ قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشورى من الأحكام عند قوله تعالى «وشاوِرْهُمْ فى الأمر» (١) . والمَشُورة بركة . والمَشْوَرة : الشُّورَى ، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سمحاءَكم وأمرُكم شُــورَى بينكم فظَهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شرارَكم وأغنياؤكم بخلاءَكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها". قال حديث غريب. ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى ومما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدم فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

فيــه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ ﴾ أى أصابهم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا ... » الآيات كلها . وقيل : هو عام فى بَغْى كل باغ من كافر وغيره؛ أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه . وهذه إشارة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا الى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وَقِحًا فى الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة و يسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت « وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »[2] . وقوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »[3] . وقوله : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ »[4] .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيَا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى و إقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » . و يقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » . وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ ، فأما المصرّ على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم و يدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع الى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) آية ٣٩ راجع جـ ١٢ ص ٦٧ (٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٥ سورة المائدة . (٤) آية ٢٢ سورة النور .

الثانيـــة – قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين ؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ». وصنف ينتصرون من ظالمهـم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَـا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأول الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ مَن مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان :"خذى من ماله مايكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفىً فى « البقرة »(١) . وقال ابن أبى نَجيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . وإذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به ؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها ؛ فالأول ساء هذا فى مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »(١) مستوفى .

الثالثـــة – قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »(٢) فى هذا ما فيه كفاية ، والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجـنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حلمنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧

وإذا ظُلمنا صبَرْنا وإذا سِيء إلينا عفونا ؛ قالوا ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين وذكر الحديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن ٱنتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليه إن ٱستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمى فيه كحَدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فان لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فان كان قطعا فى سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيِّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال ٱبن جُريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال، فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعــة ـ قال ابن العربى : هذه الآية فى مقابلة الآية المتقدّمة فى « براءة » وهى قوله « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ »(١)؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها(٢) على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنــة ـ واختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوما يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص ، وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى . قال : ويدل عليه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاسعة ـ واختلف العلماء فى التحليل ؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يحلل أحدا من عرض ولا مال . وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحللان من العرض والمال . ورأى مالك التحليل من المال دون العرض . روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجل يسلف الرجل فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فإن الله تعالى يقول « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) آية ٩١ (٢) فى ابن العربى : « أثبتها » .

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندى مخالف للأوّل ؛ يقول الله تعالى « إنما السبيلُ على الذين يَظلِمُون الناس » ويقول تعالى « ما على المحسنين من سبيل » فلا أرى أن يجعله من ظلمه فى حِلّ . قال آبن العربى : فصار فى المسئلة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحال؛ قاله سعيد آبن المسيب . الثانى — يحلّله؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك . وجه الأوّل ألّا يحلل ماحرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثانى أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعِرْضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وإن كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغترّ الظلمة ويسترسلوا[1] فى أفعالهم القبيحة . وفى صحيح مسلم حديثُ أبى اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج الىّ ، فقد علمتُ أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن آختبأت منى ؟ قال : أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك، خشيتُ والله أن أحدّثك فأكذبك ، وأن أعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنتُ والله مُعسِراً . قال قلت : آلله ؟ قال الله[2]؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فآقض ، وإلا فأنت فى حِلّ ... وذكر الحديث . قال آبن العربى : وهذا فى الحىّ الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمحّل[3]؛ فكيف بالميت الذى لا محالةَ له ولا ذمّة معه .

العاشرة — قال بعض العلماء : إن مَن ظُلم وأخذ له مال فإنما له ثواب ما آحتبس عنه الى موته ، ثم يرجع الثواب الى ورثته ، ثم كذلك الى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودى المالكى : هذا صحيح فى النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم الى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

---

(١) فى بعض الأصول : « ويستسرون » وفى البعض الآخر : « ويستشرون » . (٢) قال النووى : « الأوّل بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثانى بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا ، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » . (٣) فى آبن العربى : « التحلل » وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهرى » .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى صبر على الأذى و « غفر » أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرَق فيمسح العَرق ، ثم قام فتلا هـذه الآية؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . وبالجملة العفو مندوب اليه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا اليه كما تقدّم؛ وذلك إذا آحتيج الى كفّ زيادة البغى وقطع مادّة الأذى ، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشة رضى الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهى ؛ فقال لعائشة : " دونكِ فانتصرى " خرجه مسلم فى صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبر » عن المعاصى وستر على المساوئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى من عزائم الله التى أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التى وفق لها . وذكر الكلبى والفراء أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهى المدنيات من هذه السورة . وقيل : هذه الآيات فى المشركين، وكان هـذا فى ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول آبن زيد، وقد تقدّم . وفى تفسير آبن عباس « وَلَمَنْ آنتصر بعد ظُلْمِه » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعلياً رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظلم والكفر . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِن بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِن سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُردّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذاب هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون . وقيل : آل فرعون خصوصا، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عرضهم عليها؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم، ويعرضون على العذاب فى قبورهم؛ وهذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خاشعين » . وقوله : « من الذّل » متعلق بـ«ـينظرون» . وقيل : متعلق بـ«ـخاشعين» . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تاما؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفيّ . وقال قتادة والسدّى والقُرَظيّ وسعيد بن جُبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « من » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العذاب المخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه و بينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنة من الحور العين . و فى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون »". وقد تقدم[1] . وفى مسند الدارمى عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهن واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهِىّ وله ذكر لا ينثنى " . قال هشام ابن خالد : " من ميراثه من أهل النار " يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون . ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة؛ لأنه قد سدت عليه طريق النجاة .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدّم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ يريد يوم القيامة؛ أى لا يردّه أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا. ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر ؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ، وقاله الكلبى . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها . وقيل : « من نكير » أى إنكار ما ينزل بكم من العذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الايمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الايمان . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر بها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم .

قوله تعالى : لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر ، وذلك أن الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْءَمًا ، غلاما وجارية ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . قال القُتَبِيّ : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوّجت إبلى إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْمًا ؛ مثل حَمِدَ يَحْمَد . وعَقُمت تَعْقُم ، مثل عُظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْكُ العقيم ، أى تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم ؛ أى لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم ؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقُم وعُقْم ؛ قال الشاعر (1) :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهَه * إن النساء بمثله عُقُمُ

---

(١) فى لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومى . وقيل هو لحزين الليثى »

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وَهَب لُلوط الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت فى الأنبياء ، ثم عمّت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعنى لوطا عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعنى ابراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعنى يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربى : قال علماؤنا « يهب لمن يشاء إناثا » يعنى لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . « ويهب لمن يشاء الذكور » يعنى إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » يعنى آدم، كانت حوّاء تلد له فى كل بطن توءمين ذكرا وأنثى ، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم فى شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[1] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضى الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق، وينفذ الوعد ، ويحقّ الأمر، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففى الحديث : "إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[2]، فتقول قَطِ قَطِ[3] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر" .

الثانيــة — قال ابن العربى : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شىء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شىء لا عن حاجة؛ فإنه قدوس

---

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وابراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية . (٢) قال القسطلانى : « أى يذللها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط فى يده » . (٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوينُ مع الكسر والمعنى : حسبي حسبي قد اكتفيت .

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا فى الجنين بالوضع ؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا و إذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا "(١) . وكذلك فى الصحيح أيضا " إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله" .

قلت : هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال " نعم " فقالت لها عائشة : تَرِبَتْ يداك وأُلَّت(٢)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعيها وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك . إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله و إذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه " . قال علماؤنا : فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضى الشبه؛ وقد جاء فى حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لليهودى : " ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مَنِىُّ الرجل مَنِىَّ المرأة أذكرا باذن الله و إذا علا مَنِىُّ المرأة مَنِىَّ الرجل آنثا باذن الله ... " الحديث . فجعل فى هذا الحديث أيضا العلو يقتضى الذكورة والأنوثة ؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للاعمام والذكورة إن علا مَنِىّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِى المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين . والذى يتعيّن تأويله الذى فى حديث ثَوْبان فيقال : إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقنى فلان فسبقته أى غلبته ؛ ومنه قوله تعالى :

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون و بالقصر وتشديد النون . (٢) قوله : « تربت يداك » . معناه : ما أصبت ! وهو فى الأصل بمعنى صار فى يدك التراب ولا أصبت خيرا أى افتقرت ، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون : قاتله الله ؛ الى غير ذلك . وقوله «وألت» : أى صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام . وروى بضم الهمزة مع التشديد ؛ أى طعنت بالألة وهى الحربة . قال ابن الأثير : وفيه بعد ؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث .

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين قيل عليه : علا . ويؤيد هذا التأويل قوله فى الحديث. "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا" . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال: إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا، الثانى أن يخرج ماء المرأة أولا ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا و يكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا و يكون أكثر . و يتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة. وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأتى به فريضَ العرب ومعمَّرها(١) عامرَ بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جَنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقَضّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجىء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قُصِدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأمة : ورِّثه من حيث يبول ؛ فعقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الاسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهد علىّ رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفَرَضيُّون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث ؟ قال : من حيث يبول . وروى

---

(١) فى ابن العربى : « ومعتمدها » . و يقال أنه عاش ثلثمائة عام .

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورِّثوه من أوّل ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علىّ ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ، وحكاه المزنى عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة فى البول ؛ فإن خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحكى عن علىّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه ، فإن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى آية المواريث فى « النساء »[1] مجوّداً والحمد لله .

الرابعة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفى وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذُكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما » فهذا إخبار عن الغالب فى الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برباط أبى سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودّى اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

فيـــه مسألتانـــ :

الأولى ـــ قوله تعـالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتّى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسـلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله « وما كان لبشر أنــ يكلّمــه الله إلا وَحْيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿ وَحْيًا ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث فى قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث فى رُوعِى[1] إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ما حَلّ ودَعُوا ما حُرِم " . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها فى منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أو منــ وراءِ حِجاب » كما كلم موسى . « أو يرسل رســولا » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا و يرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما فى المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أومن وراء حجاب » كما كلّم موسى « أو يرسل رسولا » إلى النــاس كافّة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسلُ رســولا فيوحِى » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل « يرسل » بالرفع فى موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرســلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمــه الله إلا أن يوحى أو يرســل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون فى موضــع الحال ؛ التقدير أو بأن يرســل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أن يكلمه » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(١) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

الثانيـــة ـــ احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمّى فيها مكلّما للمرسَل إليـه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا فى الرجل يحلف ألّا يكلم فلانا فكتب إليـه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثّورى : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى : لا يبين أن يحنَث . وقال النَّخَعىّ : والحكم فى الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث فى الكتاب والرسـول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث فى الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث فى الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث فى ذلك كله عند مالك . و إن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه فى الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث فى الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون . وقد مضى فى أول « سورة مريم »(1) هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وكذلكَ أوْحينا إليكَ ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ رُوحًا ﴾ أى نبوة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّى : وحيًا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(1) راجع جـ ١١ ص ٨٦

مالك بن دينار . وسماه روحا لأن فيه حياة من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله « ويسئلونك عن الروح » على القرآن أيضا « قل الروح من أمر ربى » أى يسئلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القشيرى : وهو من مجوزات العقول ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن[1] قبل النبوة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا »[2] قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : ألِلعب خُلقت ! وقيل فى قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ »[3] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لا تَحْزَنِى » على قراءة من قرأ « مَنْ

---

(١) كذا فى الأصل .   (٢) آية ١٢ سورة مريم .   (٣) آية ٣٩ سورة آل عمران .

تَحْتِهَا » ، وعلى قول من قال إن المنادى عيسى ونص على كلامه فى مهده فقال « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا » . وقال : « فَفَهَّمْنَاهَا سليمانَ وَكُلًّا آتينا حُكْمًا وَعِلْمًا »(١) وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبى يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما. وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ»(٢) : أى هديناه صغيرا؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل ابداء خلقه. وقال بعضهم: لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ؛ ولم يقل أفعل؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة(٣) . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ما هم إخوته بإلقائه فى الجب بقوله تعالى : « وأَوْحَيْنَا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا »(٤) الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " لما نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان وبُغِّض إلىّ الشعر ولم أَهُمّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد " . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا »(٥) . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّئ واصْطُفِى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) فى الأصول : «خمسة عشر شهرا» راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما ٱفترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وٱختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، و بتلونه في معبوده محتجين، ولكان تو بيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع في الحجة من تو بيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثة — وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم؛ هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا ٱستبان عندها (١) في أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبي المعالي . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ؛ ثم ٱختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، و إن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعزّ. وأنه

(١) في الأصول : « عندهما » .

صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر(١) ولا حضر حلف المطر(٢) ولا حلف المطيبين(٣)؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه؛ فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع. وقال الدّارَقُطْني: إن عثمان وَهِم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه؛ والمعروف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله: "بُغِّضت إليّ الأصنام" وقوله في قصة بَحيرا حين استحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم باللات والعُزّى إذ لقيه بالشام في سَفْرته مع عمه أبي طالب وهو صبيّ، ورأى فيه علامات النبوّة فأخبره بذلك؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطّ بُغْضَهما" فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؛ فقال: "سل عما بدا لك". وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان

(١) الموضع الذي يجتمعون للسمر فيه. (٢) كذا في الأصول. (٣) في الأصول: «المطيب».

قال ابن الأثير: «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق. فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الاسلام بقوله صلوات الله عليه: "لا حلف في الاسلام". وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة" يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق؛ وبذلك يجتمع الحديثان، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الاسلام. والممنوع منه ما خالف حكم الاسلام».

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم: "شهدت غلاما مع عمومتي حلف المطيبين". اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم في دار ابن جدعان في الجاهلية وجعلوا طيبا في جفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم؛ فسموا المطيبين. وقال عليه السلام: "شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت الى مثله في الاسلام لأجبت". قال ابن الأثير: يعني حلف الفضول. (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف. طيب. فضل).

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » وقال: « أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » (٢) وقال « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبدًا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين ؛ على ما تقدم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » (٣) والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبى . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى من الذى يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ؛ وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة .

---

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل . (٣) آية ١٣ من هذه السورة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدم . وقيل : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » أى كنت من قوم أُمّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(1) . روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السُّدِّى : القرآن . وقيل الوحى . أى جعلنا هـذا الوحى ﴿ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوة؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء»(2) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزلة الفعل فى الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك و إدبارك يعجبنى؛ فتوحّد، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أى تدعو وترشـد ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجَحْدَرىّ وحَوْشب « و إنك لَتُهْـدَى » غير مُسَمَّى الفاعل؛ أى لَتُـدْعَى . الباقون « لتهدى » مسمى الفاعل . وفى قراءة أُبَىّ « و إنك لتدعو » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد، و إنمـا يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال « و إنك لتهدى » أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى «و إنك لَتَهْدِى إلى صراط مستقيم» قال : « ولكل قوم هاد » . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النوّاس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا . ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله «ألا إلى الله تصير الأمور» وغرق مصحف فآمّحى كله إلا قوله « ألا إلى الله تصير الأمور » . والحمد لله وحده .

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٠٥ سورة البقرة .

سورة الزخرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »[1] . وهي تسع وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ تقدّم[2] الكلام فيه . وقيل : « حم » قسم . « والكتاب المبين » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بما شاء . والجواب « إنا جعلناه » . وقال ابن الأنباري : من جعل جواب «والكتاب» « حم » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على «الكتاب المبين» . ومن جعل جواب القسم «إنا جعلناه» لم يقف على «الكتاب المبين» . ومعنى «جعلناه» أي سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى : « ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »[3] . وقال السدى : أي أنزلناه قرآنا . مجاهد : قلناه . الزجاج وسفيان الثوري : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزلناه بلسان العرب؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثوري وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربيّ . وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية في قوله « جعلناه » ترجع إلى القرآن وإن لم يجرِ له ذكر في هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدّم في غير موضع .

---

(١) آية ٤٥ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ (٣) آية ١٠٣ سورة المائدة .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ»(١) وقال تعالى : «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ»(٢) . وقال ابن جريج: المراد بقوله تعالى « وإنه » أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . «لَعَلِيٌّ» أى رفيع عن أن ينال فيبدل. « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإنه فى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » . وكسرَ الهمزةَ من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون، وقد تقدم(٣) .

قوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ افنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب؛ أى أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدى ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طَيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين؛ فى قراءة من فتح. ومن كسر جعلها للشرط

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة . (٢) اية ٢١ سورة البروج . (٣) راجع جـ ٥ ص ٧١

وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل فى اللفظ . ونظيره «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[1] وقيل : الجواب محذوف دل عليه ما تقدّم ؛ كما تقول : أنت ظالم إن فعلت . ومعنى الكسر عند الزجاج الحال ؛ لأن فى الكلام معنى التقرير والتوبيخ . ومعنى ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضا ؛ يقال : صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه . وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته . والأصل فيه صفحة العنق ؛ يقال : أعرضت عنه أى وليته صفحة عنق . قال الشاعر[2] :

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن ملّ منها ذلك الوصلَ ملّتِ

وانتصب « صَفْحا » على المصدر لأن معنى «أفنضرب» أفنصفح . وقيل : التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً . ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين . واختار أبو عبيدة الفتح فى «أنْ» وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم .

قوله تعالى : وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ « كم » هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء . كما قال « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»[3] أى ما أكثر ما تركوا . ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أى لم يكن يأتيهم نبى ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك . يعزى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسلّيه . ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أى قوما أشدّ منهم قوة . والكناية فى «منهم» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله « أفنضرب عنكم الذكر صفحا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم . و«أشدّ» نصب على الحال . وقيل هو مفعول؛ أى فقد أهلكنا

---

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة . (٢) هو كثير عزة . (٣) آية ٢٥ سورة الدخان .

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين؛ فخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم، حكاه النقاش والمهدوى . والمَثَلُ : الوصف والخبر .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعنى المشركين . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع[1] .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبارٍ منه عن نفسه، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض . ﴿مِهادا﴾ فراشا و بساطا . وقد تقدم[2] . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿وجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل « لعلكم تهتدون » فى أسفاركم؛ قاله ابن عيسى . قيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٩

يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أى أحيينا. ﴿بِهِ﴾ أى بالماء. ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أى مقفرة من النبات. ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أى من قبوركم؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى فى «الأعراف»[1] مجوّدا. وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر «يَخْرُجون» بفتح الياء وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

قوله تعالى: وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أى والله الذى خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أى الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات؛ كما قال تعالى «وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»[2] و «مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»[3]. وقيل ما يتقلّب فيه الانسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ فى البر والبحر. ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ذكر الكناية لأنه ردّه إلى ما فى قوله «ما تركبون»؛ قاله أبو عبيد. وقال الفرّاء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذكّر، وجمع الظهور، أى على ظهور هذا الجنس.

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠ (٢) آية ٧ سورة ق. (٣) آية ٧ سورة الشعراء.

الثانيــة ــ قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليـه السلام : " بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لم أُخلق لهذا إنمـا خلقت للحرث " فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر " . وما هما[1] فى القوم . وقد مضى هذا فى أوّل سورة « النحل »[2] مستوفًى والحمد لله .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ يعنى به الابل خاصة بدليل ما ذكرنا، ولأن الفلك إنمـا تركب بطونها ، ولكنـه ذكرهما جميعا فى أوّل الآية وعطف آخرها على أحدهما . ويحتمل أن يجعل ظاهرها باطنهما ؛ لأن المـاء غمره وستره وباطنهما ظاهرا ؛ لأنه آنكشف للظاهرين وظهر للبصرين .

الرابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى ركبتم عليه . وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا فى البر والبحر . ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ أى ذلّل لنا هذا المركب . وفى قراءة علىّ بن أبى طالب « سبحان من سخر لنا هذا » . ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أى مطيقين ؛ فى قول آبن عباس والكلبى . وقال الأخفش وأبو عبيدة: « مقرنين » ضابطين . وقيل : ممـاثلين فى الأيد والقوّة ؛ من قولهم : هـو قِرْن فلان إذا كان مثله فى القوّة . ويقال : فلان مُقْرِن لفلان أى ضابط له . وأقرنت كذا أى أطقته . وأقرن له أى أطاقه وقوِىَ عليه ؛ كأنه صار له قِرنا . قال الله تعالى : « وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين . وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب :

لقد علم القبائل ما عُقَيلٌ * لنـا فى النائبات بمقرنينـا

وقال آخر :

ركبتم صَعْبَتى أشرًا وحَيْفًا * ولستم للصِّعاب بمقرنينـا

والمُقْرِن أيضا : الذى غلبته ضَيعته ؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها ، أو يكون يسقى إبله ولا ذائد له يذودها . قال آبن السِّكِّيت : وفى أصله قولان : أحدهما ــ أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله

(١) أى أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامسة — علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ، وهى قوله تعالى : « وقال آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »(١) فكم من راكب دابة عثرت به أو شَمَسَت أو تَقَحَّمت(٢) أو طاح من ظهرها فهلك(٣) . وكم من راكبين فى سفينة آنكسرت بهم فغرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وآتصالا بأسباب من أسباب التلف أمر ألا ينسى عند آتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم(٤) — وهى التى لا تتحرك هزالا — فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرن، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت(٥) به القعود حتى صرعته فآندقّت عنقه . ذكر الأول الماوردى والثانى آبن العربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقولُ متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سبحانَ الذى سَخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين . وإنّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال، اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلَب ، والحَوْر بعد الكَوْر، وسوء المنظر فى الأهل والمال . يعنى بـ « الحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعد آجتماعه . وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة ، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) فى الأصول : «فهلكت» . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : «الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذى لا يقوم من الهزال . وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورُزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح» . (٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول : و يلاحظ أن القعود مذكر .

على جمل صَعْب فقلتُ له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذى سخّر لنا هـذا وما كنا له مُقْرِنين . وإنا إلى ربنا لمُنْقَلِبونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر ــ ثلاثا ــ اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعتُ ، وقال كما قلت ؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد ــ أو قال ــ عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فآغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره " . خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه . وذكر الثعلبيّ نحوه مختصرا عن عليّ رضى الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله فى الركاب قال : "باسم الله ــ فإذا استوى قال ــ الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين" . وروى آبن أبى نَجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » قال له الشيطان تَغَنَّه ؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس . ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو فى بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم(١) وهم على ظهور الدواب أو فى بطون السفن وهى تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزَّمَخْشرِيّ : ولقد بلغنى أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ؛ فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ؛ فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به فى هذه الآية ! ؟

(١) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ؛ يريد بذلك تحسين اسمها .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزْءًا ﴾ أى عِدلًا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات؛ عَجَّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السمٰوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات؛ قال الشاعر :

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عَجَبٌ * قد تجزئ الحُرَّةُ المِذكار أحيانا

الزمخشرى : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادّعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتا، وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب *

* زُوِّجْتُها من بنات الأوس مُجْزِئَةً (١) *

وإنما قوله « وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله « ولئن سألتَهُمْ » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِن عِبادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله؛ فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقرئ « جُزُؤا » بضمتين .
﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم .
« مُبِينٌ » مظهر الكفر .

---

(١) وتمامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة ؛ تقديره آتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ أى آختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفيته بكذا ؛ أى آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله آختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه آتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى »[(1)] .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أى بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أى صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ قيل ببطلان مثله الذى ضربه . وقيل : بما بُشّر به من الأنثى ؛ دليله فى سورة النحل « وإذا بُشّر أحدُهم بالأنثى »[(2)] . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لأبى حمزة[(3)] لا يأتينا * يَظَلّ فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا * وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرئ « مسودٌ ، ومسوادٌ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه آسم «ظل» و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون فى « ظل » ضمير عائد على أحد وهو آسمها ، و « وجهه »

---

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) فى رواية «حمزة» بالحيم . وفى بلوغ الأرب للآلوسى : « لأبى الذلفاء » .

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر «ظل» . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء، ويرفع « مسودا » على أنه خبره، وفى «ظل» اسمها والجملة خبرها . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبى حاتم ؛ وذلك لفساد مثله وبطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية (١) .

قوله تعالى : أَوَ مَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ ﴾ أى يُرَبّى ويَشِبّ . والنُّشوء : التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْت فيهم . ونُشِّئ وأُنْشِئ بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وثّاب وحفص وحمزة والكسائى وخلف « يُنَشَّأ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أى يربى ويكبر فى الحلية . واختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح الياء وإسكان النون ، واختاره أبو حاتم ؛ أى يرسخ وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله الهروى . فـ«يُنَشَّأ» متعد، و «ينشأ» لازم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هن الجوارى زيّهن غير زِىّ الرجال . قال مجاهد : رُخّص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية. قال الكيا : فيه دلالة على إباحة الحُلِىّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦

قلت ــ روى عن أبى هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياكِ والتحلّى بالذهب ! فإنى أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى فى المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفى مصحف عبد الله « وهو فى الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله من هذا وصفه ! أى لا يجوز ذلك . وقيل : المنشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو فى الخصام غير مبين » على هذا القول : أى ساكت عن الجواب . و « مَن » فى محل نصب ؛ أى اتخذوا لله من ينشأ فى الحلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أوّل الكلام وهو قوله « بما ضَرَب » ، أو على « ما » فى قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل فى هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً ﴾ قرأ الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم فى قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبّاد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن فى مصحفى « عبد الرحمن » فقال : امحها واكتبها « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(١) . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ »(٢) . وقولُه تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »(٣) . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قولُه تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »(٤) وقوله « وَلَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »(٥) . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

---

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف .
(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذِكْر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسئلون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أَؤُشْهِدوا »[1] بهمزة آستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبي عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقق الهمزتين . والباقون « أشهِدوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » على الخبر، «ستكتب» قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شهادتهم » رفعا . وقرأ السُّلمى وآبن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص « سنكتب » بنون، « شهادتهم » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « ستكتب شهاداتهم » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»[2] وفى يس : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »[3] . وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٧

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا » أى مالهم بقولهم : الملائكة بنات الله؛ من علم؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعني الأوثان؛ أى مالهم بعبادة الأوثان من علم . « مِن » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون؛ فلا عذر لهم فى عبادة غير الله عز وجل . وكان فى ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضى ذلك منا، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله؛ أى من قبل القرآن بما ادعوه؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أى على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « على إِمَّةٍ » بكسر الألف . والأمة الطريقة . وقال الجوهرى : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمة أيضا لغة فى الأمّة، وهى الطريقة والدين؛ عن أبى عبيدة . قال عدى بن زيد فى النعمة :

ثم بعد الفلاح والمُلْكِ والأمّة وارتهم هناك القبور

عن غير الجوهرى . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دين؛ ومنه قول قيس بن الخطيم

كنا على أمة آبائنا * ويقتدى الآخر بالأول

قال الجوهري : والأمّة الطريقة والدِّين، يقال : فلان لا أمة له؛ أي لا دين له ولا نِحْلة . قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمة وكَفُورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفى بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على مِلة » وهذه الأقوال متقاربة . وحكى عن الفرّاء على ملة على قِبْلة . الأخفش : على استقامة، وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وهل يأثَمَنْ ذو أُمّة وهو طائع

الثانيـــة — ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أى نهتدى بهم . وفى الآية الأخرى « مقتدون » أى نقتـدى بهم، والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفى هـذا دليل على إبطال التقليد؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة » مستوفى (1) . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضا . يُعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » (2) . والمترَف : المنعَّم، والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى ﴾ أى قل يا محمد لقومك : أوليس قد جئتكم من عند الله بأهدى؛ يريد بأرشد . ﴿ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ يعنى بكل ما أرسـل به الرسل . فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سـواه . وقرئ « قل وقال وجئتكم وجئناكم » يعنى أتتبعون آباءكم ولـو جئتكم بدين أهـدى من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى فى « البقرة » القول فى التقليد وذمه فلا معنى لإعادته (1) .

(1) راجع جـ ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية . (2) آية ٤٣ سورة فصلت .

قوله تعالى : فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿فانظُرْ كيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [(١) وقراءة العامة « قل أولو جئتكم » . وقرأ ابن عامر وحفص «قال أوَ لَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قل أو لو جئنا كم» بنون وألف؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أى ذكّرهم إذ قال . ﴿إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهرى : وتبرّأت من كذا، وأنا منه بَراء، وخَلاء منه، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فى الأصل؛ مثل: سَمِع سَمَاعا . فاذا قلت : أنا برىء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت فى الجمع : نحن منه بُرَآء مثل فقيه وفقهاء، وبِراء أيضا مثل كريم وكِرام، وأبراء مثل شريف وأشراف، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، و بريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات و برايا . و رجل برىء و بُراء مثل عجيب وعُجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس . ﴿إلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا؛ مع عبادة الأوثان . و يجوز أن يكون منقطعا؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير فى « جعلها » عائد على قوله « إلا الذى فطرنى » . وضمير الفاعل فى «جعلها» لله عز وجل؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقيـة فى عقبه، وهم ولده و ولد ولده ؛ أى إنهـم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا فى ذلك . والعقب من يأتى بعده . وقال السدى : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « فى عقبه » أى فى خلفه . وفى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية فى عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهـد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتـادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »(١) . القرظى : وجعل وصية إبراهيم التى وصى بها بنيه وهو قوله «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ»(٢) — الآية المذكورة فى البقرة — كلمة باقيـة فى ذريته وبنيـه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أسلمت لرب العـالمين » وقـرأ « هو سماكم المسلمين من قبل » . وقيل : الكلمة النبوة . قال ابن العربى : ولم تزل النبوة باقية فى ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانيـــة — قال ابن العـربى : إنمـا كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما فى قوله « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ »(٣) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد . ثانيهما قوله « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »(٤) . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(٥) فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح .

الثالثـــة — قال ابن العربى : جرى ذكر العقب ها هنا موصولا فى المعنى ، وذلك مما يدخل فى الأحكام وترتب عليه عقـود العُمْرى(٦) والتحبيس . قال النبىّ صـلى الله عليه وسلم :

---

(١) آخر سورة الحج . (٢) آية ١٣٢ (٣) آية ١٢٤ سورة البقرة . (٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم . (٥) آية ٨٤ سورة الشعراء . (٦) العمرى (كحبلى) : تمليك التى مدة العمر .

" أيُّمَا رَجُلٍ أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذى أعطِيَها لا ترجع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " . وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأوّل ـ الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته فى الإناث والذكور . وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ »[1] . وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس؛ يقول المحبِّس : حبست على ولدى أو على عقبى . وهذا اختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ»[2] . قالوا : فلما حرّم الله البنات حَرُمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »[3] مستوفًى .

اللفظ الثانى ـ البنون؛ فإن قال: هذا حبس على ابنى؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد. ولو قال ولدى، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد. وإن قال على بنىّ ، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك : من تصدّق على بنيه وبنى بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن فى ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين . فإن قيل فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحسن ابن ابنته : " إن ابنى هذا سيِّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . قلنا : هذا مجاز ، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بابنى ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ،

---

(١) آية ١١ سورة النساء . (٢) آية ٢٣ سورة النساء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢١

لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها[1] . ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » . وقال تعالى « ومن ذريته داود وسليمان — الى قوله — من الصالحين »[2] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ اذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسميه ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقا ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ اذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا ، ولا يسمى ولد الابنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى ؛ لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، و ولد الابن انما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وانما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا في «الأنعام»[2] والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « ومن ذريته داود وسليمان — الى أن قال — وزكريا ويحيي وعيسى » . وإنما كان من ذريته من قبل أمه . وقد مضى في « البقرة »[3] اشتقاق الذرية وفي « الأنعام » الكلام على « ومن ذريته » الآية ؛ فلا معنى للاعادة .

---

(١) في نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفي ابن العربي « مسمياتها » .

(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٣١ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

اللفظ الرابع ــ العقب : وهو فى اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير؛ أى جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السوادَ . وعَقَب يَعْقِب عقوبا وعَقْبًا اذا جاء شيئا بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه . والمِعْقَاب من النساء : التي تلد ذكرا بعد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : فى القرآن «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ» . وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : ها هنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد وولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدى . وفى الصحاح والعقِب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهى مؤنثة . وعقب الرجل أيضا ولده وولد ولده . وفيه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهى أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ»(١) . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . واختلف فى الذرّية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام فى الذرية هنا وفى «الأنعام»(٢) .

اللفظ الخامس . نسلى ؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدى وولد ولدى؛ فانه يدخل فيه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقِبى ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسلى ونسل نسلى، كما اذا قال عقبى وعقب عقبى . وأما اذا قال ولدى أو عقبى مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس ــ الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهل الاجتماعُ ،

---

(١) آية ٢ سورة الواقعة .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل في القُعْدُد[1] من النساء، والعصبة مشتقة منه وهي أخص به . وفي حديث الإفك : يا رسول الله، أهْلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعني عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها ويحل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقي ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسي : يدخل في الأهل كل من كان من جهة الأبوين؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعاني إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذان لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك في كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالاتْ . الثاني — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه؛ قاله عليّ بن زياد . الثالث — قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كنانة : يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى[2] » قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة ؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[3] » دعا النبي صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة في الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدم من قول علمائنا .

(١) في الأصول : « ومن دخل في العقد » . وفي ابن العربي : « ومن دخل في العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بما في شرح الباجي على الموطأ ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل في ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندي العصبة أو من كان في قعددهن من النساء » . والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه) : القربى .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع ج ١٣ ص ١٤٣

اللفظ العاشر ــ القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــوم آل حصــن أم نســاء

ولكنــه أراد أن الرجل إذا دعا قومــه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمَــة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة .

اللفظ الحادى عشر ــ الموالى؛ قال مالك : يدخل فيــه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهــذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسـنة المبيّنة له ؛ والتفريع والتتميم فى كتاب المسائل، والله أعلم .

قوله تعـالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقـرئ « بل متعنـا » . ﴿ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى فى الدنيـا بالإمهال . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صـلى الله عليـه وسلم بالتوحيـد والإسلام الذى هو أصـل دين إبراهيم . وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبــه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَـذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾

وقرئ « على رَجْل » بسكون الجيم . ﴿ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقا لنزل علىّ أو على أبى مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عَيِيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن فى رواية عنه « معايشهم » . وقيل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علىّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم ؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغنى والفقر ؛ فبعضهم غنى وبعضهم فقير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خَوَلًا وخدّاما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : يعنى ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال ، والاسم السُّخرية (بالضم) . والسُّخْرِيّ والسِّخْرِى (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمُّوا « سخريا » إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرأا « سِخريا » . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خير مما يجمعون ﴾ أي أفضل مما يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة ، وقيل الجنة . وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه ؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل . وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدي وغيرهم . وقال ابن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » في طلب الدنيا واختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » . وقال الكسائي : المعنى لولا أن يكون في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانية — قرأ ابن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ؛ اعتبارا بقوله تعالى « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع ؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيل : هو جمع سقيف ؛ مثل كَثِيب وكُثُب ، ورَغِيف ورُغُف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سُقوف ؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فُعُولا كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام في « لبيوتهم » بمعنى على ؛ أي على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى « وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » كذلك قال هنا « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَعارِجَ ﴾ يعني الدَّرَج ؛ قاله ٱبن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليـلة المعراج . والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتـان . « ومعاريج » قرأ أبو رجاء العُطَارِدي وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهي المراقي والسلالِم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي على المعارج يرتقون و يصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أي علوت سطحه . وهـذا لأن من علا شيئا وٱرتفع عليه ظهر للناظرين . و يقال : ظهرت على الشيء أي علمته . وظهرت على العدوّ أي غلبته . وأنشد نابغـة بني جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَــلَوْنا السماء عِزّةً ومهـابةً * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهـرا (١)

أي مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقال " إلى أين " ؟ قال إلى الجنة ؛ قال " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعــة ــ استدل بعض العلمـاء بهذه الآية على أن السقف لاحقّ فيه لرب العُلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله. قال ابن العربي : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسـقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلوّ له الى السماء . واختلفوا في السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهـم من قال ليس له في باطن الأرض شيء . وفي مذهبنا القولان . وقـد بيّن حديث الاسرائيلي الصحيح فيما تقدّم : أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنمـا اشتريت الدار دون الجرّة ، وقال البائع : إنمـا بعت الدار بمـا فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهمـا ولده من بنت

(١) رواية البيت كما في كتاب الأغاني جـ ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : * بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * .
وروايته كما في جمهرة أشعـار العرب : * بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا *
وروايته كما في اللسان مادة «ظهر» : * بلغنا السماء مجـدنا وسـناؤنا *

الآخر ويكون المال لهما . والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع؛ فإذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للبتاع منه .

الخامسة — من أحكام العُلْو والسُّفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبنى علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو؛ لئلّا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبنى على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبنى السفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبنى . وروى ابن القاسم عن مالك فى السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل: إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعا" — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوا جميعا " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث

لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفال »[1] . وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها ، وقد مضى فى « آل عمران »[2] فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيّناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى و لجعلنا لبيوتهم . وقيل : «لبيوتهم» بدل اشتمال من قوله « لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ » . « أبواباً » أى من فضة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك؛ وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأسِرّة، والأسِرّة جمع السرير؛ فيكون جمع الجمع . ﴿ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ﴾ الاتكاء والتوكّؤ : التحامل على الشىء ؛ ومنه « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . ورجل تُكَأَة ؛ مثال هُمَزة ؛ كثير الاتكاء . والتُّكَأة أيضا : ما يُتّكأ عليه . واتكأ على الشىء فهو متّكئ؛ والموضع متّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أفعله) أى ألقاه على هيئة المتّكئ . وتوكأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو ، ففُعل به ما فُعل باتّزن واتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ؛ عن ابن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ »[3] وقد تقدم . وقال ابن زيد : هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ؛ وأصله الزينة . يقال : زخرفت الدار؛ أى زينتها . وتزخرف فلان؛ أى تزين . وانتصب «زخرفا» على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ؛ والمعنى فجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب؛ فلما حذف «من» قال «و زخرفا» فنصب . ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر « و إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف؛ وقد ذُكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لمّا »؛ فـ « ما » عنده بمنزلة الذى، والعائد عليها محذوف؛ والتقدير : و إن كل ذلك للذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

هو متاع الحياة الدنيا ، وحذف الضمير هاهنا كحذفه في قراءة من قرأ « مَثَلًا ما بَعُوضَةٌ فَما فوقها[1] » و « تَمَامًا على الذِى أَحْسَنُ[2] » . أبو الفتح : ينبغي أن يكون « كُلُّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إن » مخففة من الثقيلة، وهي إذا خففت و بطل عملها لزمتها اللام في آخر الكلام للفرق بينها وبين « إن » النافية التي بمعنى ما، نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن آتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد في بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يحزن عبدى المؤمن لكللت رأس عبدى الكافر بالإكليل، ولا يتصدّع ولا ينبض منه عرق بوجع . وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" . وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما * فإنك فيها بين ناهٍ وآمرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن زِفٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضي الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٢

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة «ومَنْ يَعْشَ» بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عشًا إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجلًا غائبَ الوافِدَيْن[1] * مختلفَ الخلقِ أعْشَى ضريرا

وقوله :

أأن رأت رجلًا أعْشَى أضرَّ به * رَيْبُ المنونِ ودهرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد :

متى تأتِه تَعْشُو إلى ضَوْءِ ناره * تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[2]

وقال آخر :

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره * إذا الريح هبّت والمكان جديب

الجوهري : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعشى (بالكسر) يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشُوان؛ لأن الواو لما صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت فى التثنية على حالها . وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أَعْشَى أَعْشَوِىّ . وإلى العَشِيَّة عَشَوِىّ . والعشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شىء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابطٌ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا »[3] أى نواصل لكم الذكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس.

(١) فى اللسان مادة «وفد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ ؛ فاذا هرم الانسان غاب وافداه » . (٢) البيت للحطيئة . (٣) آية ٥

وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرى . وفى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشفع بملَك حتى يقضى الله بين خلقه ؛ ذكره المهدوى . وقال القشيرى : والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْت إلى كذا أى قصدته . وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه، فتفرق بين «إلى» و «عن»؛ مثل : مِلْتُ إليه، ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ، يُعْرِض؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف فى اللغة . وقال القُرَظى : يولّى ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه. وأنكر العُتْبى عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبى الهيثم والأزهرى . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السُّلَمى وابن أبى اسحاق و يعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيِّض» (بالياء) لذكر «الرحمن» أولا ؛ أى يقيِّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون. وعن ابن عباس « يُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ » أى ملازم ومصاحب . قيل : «فهو» كناية عن الشيطان؛ على ما تقدّم. وقيل: عن الإعراض[(1)] عن القرآن؛ أى هو قرين للشيطان . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل الهدى ؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن « مَن » فى قوله « ومَن يعش » فى معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى و يحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : و يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص؛ يعنى الكافر يوم القيامة . الباقون « جاءانا » على التثنية ، يعنى الكافر وقرينه وقد جُعلا فى سلسلة واحدة ، فيقول الكافر ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[(2)] ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد و إن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعَيْنٌ لها حَدْرةٌ بَدْرةٌ * شُقّت مآقيهما من أُخُرْ[(3)]

(1) فى الأصول : «عن التعرض» . (2) آية ١٧ سورة الرحمن . (3) البيت لامرئ القيس . وحدرة : مكتنزة صلبة ، وقيل الواسعة الجاحظة . و بدرة : تبدر بالنظر ، وقيل تامة كالبدر .

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْدَ مَشْرِق أطول يوم فى السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم فى السنة ، ولذلك قال « بُعْدَ المشرقين » . وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فغلَّب اسم أحدهما، كما يقال : القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبى بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرِير :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم * والعُمَران أبو بكر ولا عُمَر

وأنشد سيبويه :

* قَدْنِيَ من نَصْر الخُبَيْبَيْن قَدِى *

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت، لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخُدْرِىّ : إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقول الله للكافر لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم فى الدنيا هذا الكلام ؛ وهو قول الكافر « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى لا تنفع الندامة اليوم . «إنكم» بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنه . الباقون بالفتح . وهى فى موضع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا، وذلك أن التأسى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى * على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزّى النفس عنه بالتأسّى

فإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قرناءكم وأنتم فى العذاب مشتركون كما اشتركتم فى الكفر .

قوله تعالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى ، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش . ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و « نَذْهَبَنَّ بك » على هذا نتوفينك . وقد كان بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تقرّ به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبىّ إلا وقد أُرِى النقمة فى أمته . وروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضا، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسلفا . وإذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حىٌّ لتقرّ عينه لما كذّبوه وعصوا أمره" .

قوله تعالى : فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ فـ ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» (١) أي شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم ؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء، فتشرّفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمّى عربيًّا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى الخلافة فإنها فى قريش لا تكون فى غيرهم ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلِمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه، حكاه ابن أبى سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماوردىّ والثعلبىّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببغداد فإن بنى التميمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهم، وتهمّمت الخلافة بهم . ورأيت بمدينة السلام ابنى أبى محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَيْنة بن عبد الله التميمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب

---

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء .

يقول وقد سئل عن الحنّان المنّان فقال : الحنان الذى يُقبل على من أعرض عنه ، والمنان الذى يبدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًا : أ كَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « و إنه لذكْرٌ لك ولقومك » يعنى القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم . قال الماوَرْدى : « ولقومك » فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن . الثانى — لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أىّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال: أقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزَاة فدعا فاطمة فقال: "يافاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أُغْنِي عنك من الله شيئا" وقال مثل ذلك لنِسْوَته ، وقال مثل ذلك لعِتْرته ، . ثم قال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم: "ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون . إنما أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجِمَام(1) الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى". وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التى تدفع النَّتْن بأنفها كلكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عُبِّيّة الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقىٌّ وفاجر شقىّ" . خرجهما الطبرى . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الحُجُرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أى عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفرّاء . وقال ابن جُرَيج : أى تسألون أنت ومن معك على ما أتاك . وقيل تسألون عما عملتم فيه ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

(1) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأذن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصل بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : " سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أسأل قد اكتفيت " . قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . فى غير رواية ابن عباس : فصلَّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل[1] قام فقال : "إن ربّى أوحى إلىّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله " ؟ فقالوا : يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل و إنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبىّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتّبع أثرك" . وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى « وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » قال : لقِىَ الرسل ليلة أسرى به . وقال الوليد بن مسلم فى قوله تعالى «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال: سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثنى عن قتادة قال سألهم ليلة أسرى به، لقى الأنبياء ولقى آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح فى تفسير هذه الآية . و « مِن » التى قبل « رسلنا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجماعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا . وروى أن فى قراءة ابن مسعود « واسأل الذى أرسلنا إليهم قبلك رسلنا » .

(١) انفتل عن الصلاة : اذا انصرف عنها .

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ«ـمن » على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسُّدّى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وآبن عباس أيضا. أى واسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رسلنا » على هـذا تام ؛ ثم ابتـدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى واسأل تُبّـاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم والمراد أمته . ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهـة كما أخبر عمن يعقل فقال « يعبدون » ولم يقـل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهـة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهـة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان فى شك منه . وآختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسـلم لهم على قولين : أحدهما ـــ أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى . الثـانى ـــ أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى آبن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك" . وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوه، وأقام الحجة باستشهاد الأنبياء واتفاق الكل على التوحيد أكد ذلك بقصة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل: « إلا هى أكبر من أختها » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح . ومعنى الأُخُوّة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات ؛ وهوكقوله تعالى : « لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ »(١) . والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ لما عاينوا العذاب قالوا يأيها الساحر ؛ نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « يأيها الساحر » يأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفة ذم . وقيل : يأيها الذى غلبنا بسحره ، يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبته بالسحر ؛ كقول العرب : خاصمته فخصمته أى غلبته بالخصومة ، وفاضلته ففضلته ؛ ونحوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوة ويحيى بن وثّاب « أيُّهُ الساحر » بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللَّجُوجُ النفس * أفق عن البيض الحسانِ اللُّعْسِ

---

(١) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى «النور»(1) معنى هذا . ووقف أبو عمرو وآبن أبى إسحاق و يحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إننا لمهتدون » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدّوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ، فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم. وقيل: إنه أمر من ينادى فى قومه؛ قاله آبن جريج . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخا فى مثلها ؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ يعنى أنهار النيل ، ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس(2) . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل: من تحت سريره. وقيل: «من تحتى» أى تصرّفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجرى. قال القُشَيْرِىّ: و يجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبوبية؛ إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعل خارق للعادة. وقيل : معنى « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله « تجرى من تحتى » أى أفرقها على من يتبعنى ؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨

(2) فى كتاب روح المعانى للألوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيل المبارك ؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ، لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الاسلام».

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتي وقوتي وضَعْف موسى . وقيـل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى . والواو في « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلك مِصر » و «تجرى» نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وٱسم الإشارة مبتدأ ، و « الأنهار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجرى » خبر للمبتدأ . وفتح الياء من « تحتيَ » أهل المدينة والبَزّي وأبو عمرو، وأسكن الباقون . وعن الرشـيد أنه لما قرأها قال : لأُوَلِّيَنّها أخس عبيدي، فولّاها الخَصِيبَ، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التي ٱفتخر بها فرعون حتى قال «أليس لى ملك مصر»؟! والله لهي عنـدى أقلّ من أن أدخلها! فثنى عِنانه . ثم صرّح بحاله فقال ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدّي : «أم» بمعنى «بل» وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني ما كان في لسانه من العقـدة ؛ على ما تقدّم في « طـه »(١) . وقال الفراء : في « أم » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله «أليس لى ملك مصر». وقيل : هي زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة؛ والمعنى أنا خير من هـذا الذي هو مهين . وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ * وبين النَّقَا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ(٢)

أي أنت أحسن أمْ أمّ سالم . ثم ٱبتـدأ فقال أنا خير . وقال الخليـل وسيبويه : المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ « بأم » على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أم أنا خير» أي أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

الثقفى ويعقوب الحضرمى أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثانى . وقيل : مَن وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تبصرون » من قوله « أفلا تبصرون » . ولا يتم الكلام على « تبصرون » عند الخليل وسيبويه؛ لأن « أم » تقتضى الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله « أفلا تبصرون » ثم ابتدأ « أم أنا خير » بمعنى بل أنا خير؛ وأنشد الفرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتها أم أنتِ فى العين أملحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفرّاء أن بعض القراء قرأ « أمَا أنا خير » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أنا خير » وقد ذُكر .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزىّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أَسْوِرة » جمع سِوار، كخمار وأخمرة . وقرأ أُبَىّ « أساور » جمع إسوار . وابن مسعود « أساوير » . الباقون « أساورة » جمع الأسورة؛ فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساورة » جمع « إسوار » وألحقت الهاء فى الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهى لغة فى سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته ، فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعنى متتابعين، فى قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى : هلا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أهْيَبَ فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا

كرسل الملوك في الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، و إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — في قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — في قول الكلبي — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّب مع مجيء الملائكة كما كُذّب مع ظهور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى ؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابي : المعنى فاستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أي أزعجه ، واستخفه أي حمله على الجهل ؛ ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »(١) . وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيل : استخفّ قومه أي وجدهم خفاف العقول . وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه ، فلابدّ من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى اتبعوه ؛ يقال استخفه خلاف استثقله ، واستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

قوله تعالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : أي غاظونا وأغضبونا . وروى عنه عليّ بن أبي طلحة : أي أسخطونا . قال الماوردي : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام . القُشَيْري : والأسف هاهنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات ، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل ؛ وهو معنى قول الماوردي .

---

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

وقال عمر بن ذرّ : يأهل معاصي الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، واحذروا أسفه ؛ فإنه قال « فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم » . وقيل : «آسفونا» أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السحرة وبنى اسرائيل . وهو كقوله تعالى : « يُؤْذُونَ اللهَ »[1] و « يحاربون الله »[2] أى أولياءه ورسله .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أى جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مِجْلَز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم، «ومَثَلًا» لمن يعمل عملهم . وقال مجاهد : «سلفا» إخبارًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، «ومثلا» أى عبرة لهم . وعنه أيضا «سلفا» لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار . قتادة : « سلفا » إلى النار، « ومثلا » عِظَةً لمن يأتى بعدهم . والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَف يَسْلُف، سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا؛ أى تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أى تقدّم . والقوم السُّلّاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجلِ : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس . وقرأ حمزة والكسائى «سُلُفا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر، ومعناهما واحد . وقرأ علىّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعى وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أى فِرقة متقدّمة . قال المُؤَرِّج والنَّضْر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة، نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

لمّا قال تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهًا؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت له قريش إن محمدا يتلو « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؛ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عُزَيْرًا ، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله « يَصِدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(٢) . ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ؛ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقل ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء »(٣) . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : " يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله " . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيًّا وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعالى « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّون » (بضم الصاد) ومعناه يُعرضون ، قاله النَّخَعِيّ ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان ، مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون ، ويَنِمُّون ويَنُمُّون ، ومعناه يَضِجُّون . قال الجوهرى : وصَدَّ يَصُدّ صديدا ، أى ضجّ . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفَرّاء : هما سواء ، منه وعنه . ابن المُسَيّب : يصدون يضجون . الضحاك يعجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون ؛ فيكون المعنى : من أجل المَثَل يعدلون . ولا يتعدّى « يصدون » بمن ، ومن كسر فمعناه يضجون ؛ فـ « من » متصلة بـ « يصدون » والمعنى يضجون منه .

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ فما بعدها .

قوله تعالى : وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السُّدّى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن نكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآية . وقال قتادة : « أم هو » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أآلهتنا » بتحقيق الهمزتين، ولين الباقون . وقد تقدم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جدلا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذى عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — «ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » " .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبه إلى الله عز وجل ، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلهم . وقيل: المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

وسلم؛ والأول أظهر . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أى بدلا منكم ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يكونون خلفا عنكم ؛ قاله السُّدّى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهرى : إن « مِن » قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى فى « براءة »(١) وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة و إن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف ؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جُبير : يريد القرآن ؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام ، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عِكرمة « وإنه للعلم » (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهِد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل ؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث، خرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى صحيح مسلم " فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىّ

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤١

دِمَشْق بين مَهْرُودَتَيْن(١) واضعًا كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسَه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريحَ نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهى] حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ(٢) فيقتله ... " الحديث ... وذكر الثعلبى والزمخشرى وغيرهما من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيَّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق(٣) بين مُمَصَّرَتَيْن(٤) وشعر رأسه دَهِين و بيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى و يصلّى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البِيَع والكنائس و يقتل النصارى إلّا من آمن به " . وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شتّى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بينى و بينه نبى و إنه أول نازل فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يقاتل الناس على الإسلام " . قال الماوَرْدِى : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ، منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضى التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهيًا عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

قلت : ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَمًا عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ ولَيَقْتُلَنّ الخنزير ولَيَضَعَنّ الجزية ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشحناء والتباغُض والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم " وفى رواية " فأمّكم منكم " قال ابن أبى ذئب : تدرى " ما أمّكم

(١) أى شقتين أو حلتين . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .
(٣) فى روح المعانى : « أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ... » .
(٤) الممصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة .

منكم" ؟ قلت : تخبرني ؛ قال : فأمّكم بكتاب ربّكم وسُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم ".
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نصّ على أنه ينزل مجدّدًا لدين النبيّ صلى الله عليه وسلم للذى دُرس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيل : « وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : " بُعثت أنا والساعةُ كهاتين " وضمّ السبابة والوسطى ؛ خرّجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فلاَ تَمْتَرُنَّ بها ﴾ فلا تشكّون فيها ؛ يعنى فى الساعة ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال السُّدّى : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة . ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى طريق قويم إلى الله ، أى إلى جنّته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله « واتبعون » فى الحالين ، وكذلك « وأطيعون » . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغترّوا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ؛ فإن شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها مما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »(1) وغيرها

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْق الطير والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية

هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوّة؛ قاله السّدّى. ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح . وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى . ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة . الزجاج : المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد : وبيّن لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ »[١] : وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. ويقال للنية : عَلُوق وعَلّاقة . قال المفضّل البكرى :

وسائلة بثَعْلَبة بن سَيْر[٢] * وقد علقت بثعلبةَ العَلُوقُ

وقال مقاتل : هو كقوله « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »[٣]. يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهًا أو ابن إله . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم، وما سواه معوّج لا يؤدّى سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)

(١) آية ٢٨ سورة غافر . (٢) يريد ثعلبة بن سيار . (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم ، وفيهم قولان: أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجاهد والسدي . الثاني — فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هذا في سورة « مريم »[1] . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا وأشركوا ، كما في سورة «مريم»[1] . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أي ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون . ﴿ إلا الساعة ﴾ يريد القيامة . ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنون . وقد مضى في غير موضع[2] . وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . ويكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ويتصل هذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »[3] .

قوله تعالى : ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء ، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أُمية بن خلف الجُمحي وعُقبة بن أبي مُعيط ، كانا خليلين ، وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي معيط ؛ فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تتفل في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بدر صبرا[4] ، وقُتل أمية في المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية . وذكر الثعلبي رضي الله عنه في هذه الآية قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب ،

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٥٨ من هذه السورة (٤) الصبر: نصب الإنسان للقتل .

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ، يا رب فلا تُضلّه بعدى ، واهده كما هديتنى ، وأكرمه كما أكرمتنى ؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول يا رب ، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر ، ويخبرنى أنى ملاقيك ؛ فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : ويموت أحد الكافرَيْن فيقول : يا رب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألّا تَهده بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى ؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول : يا رب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب ؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضل .

قوله تعالى : يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "يا عبادى لا خوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرْصة رءوسهم ؛ فيقول المنادى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبى فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : «يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرفع الخلائق رءوسهم ، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكّس الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادى الثالثة : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يا عباد » .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾

قال الزجاج : « الذين » نصب على النعت لـ « عبادى » لأن « عبادى » منادى مضاف . وقيل : « الذين آمنوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو[1]] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا ، أو الذين آمنوا يقال لهم « ادخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش « يا عِبادِيَ » بفتح الياء وإثباتها فى الحالين ؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة . ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيل : زوجاتكم من الحور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون ، والفرح فى القلب . قتادة : تنعمون ، والنعيم فى البدن . مجاهد : تسَرّون ، والسرور فى العين . ابن أبى نجيح : تعجبون ؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم »[2] .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٧١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شىء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

« والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ »[1] . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبسوا الحرير ولا الدّيباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها[2] فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة". وقد مضى فى سورة « الحج »[3] أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلة سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها ، فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا ، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا . ﴿وأكْوابٍ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : « ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضةٍ وأكْوابٍ »[4] . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى قِلابة قال : يُؤْتَوْن بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ « شرابا طهورا » . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفُلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميد والتكبير ــ فى رواية ــ كما يلهمون النَّفَس" .

الثانيــة ــ روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم " وقال : " لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها " وهذا يقتضى التحريم ، ولا خلاف فى ذلك .

---

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . وراجع جـ ١٤ ص ١٨٥ . (٢) قوله « فى صحافها » على حد قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... » فالضمير « عائد على الفضة » ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩ (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

واختلف النـاس فى استعمالها فى غير ذلك . قال ابن العـربى : والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها فى شىء ؛ لقول النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتى حلّ لإناثها" . والنهى عن الأكل والشرب فيهـا يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة ، وذلك يستوى فيـه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة" فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثـــة — إذا كان الإناء مُضَبَّبا بهما أو فيه حَلْقة منهما ؛ فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبى صلى الله عليـه وسلم . قال ابن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئا ممـا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعـــة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعـالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمـع صِحاف . قال الكسـائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشبـع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشبـع الرجلين والثـلاثة ، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

---

(١) فى ابن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ؛ معرّب .

صَرِيفِيَّــة طَيِّبٌ طَعْمُهَـا * لهـا زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ [١]

وقال آخـــر [٢] :

مُتَّــكِئاً تَصْــفِق أبوابُهُ * يسعى عليه العَبْدُ بالكُوب

وقال قتادة : الكُوب المدوّر القصير العنق القصير العروة . والإبريق المستطيــل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها . وقال قُطْرُب : هى الأباريق التى ليست لها عُرًى . وقال مجاهد : إنها الآنية المدوّرة الأفواه . السُّــدّى : هى التى لا آذان لها . ابن عَزيز: «أكواب» أباريق لا عُرَى لها ولاخراطيم ، واحدها كوب.

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّى ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التى لا آذان لهـا ولا عُرًى .

قوله تعـالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذىّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هل فى الجنــة من خيل ؟ قال : " إن اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [فى الجنة [٣]] حيث شئت" . قال : وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل فى الجنــة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : " إنْ يُدخلك الله الجنــة يكن لك فيهـا ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك" . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وفيها ماتشتهيه الأنفس» ، الباقون « تشتهى الأنفس» أى تشتهيه الأنفس ، تقول : الذى ضربت زيد ، أى الذى ضربته زيد . ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ تقــول : لَذّ الشىءُ يَــلَذّ لذاذا ، ولذاذة . ولَذِذت بالشىء ألَذّ (بالكسر فى المـاضى والفتح فى المستقبل) لذاذا ولذاذة ؛ أى وجدته لذيــذا . والتلذذت به وتلذذت به بمعنًى . أى فى الجنــة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر . وقال سعيد بن جبير : «وتلذ الأعين» النظر إلى الله عز وجل ؛ كما فى الخبر : " أسألك لذة النظر إلى وجهك " . ﴿ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

---

(١) الصريفية : الخمر المنسوبة الى صريفون ، وهى قرية عند عكبراء ، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع) . (٢) هو عدى بن زيد . (٣) زيادة عن سنن الترمذى .

قوله تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أى يقال لهم هذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالَوَيْه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك و إلى جهنم بهذه ؛ ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا فى « قد أفلح المؤمنون »[1] من حديث أبى هريرة، وفى « الأعراف »[2] أيضا .

قوله تعالى : لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكهانىّ الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهم فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصى . ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لايخفف عنهم ذلك العذاب . ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى آيسون من الرحمة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقد مضى فى « الأنعام »[3] . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعالى : وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما « ونادوا يا مالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم « ونادوا يا مال » باللام خاصة ؛ يعنى رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى مالك : يا مال ، وفى حارث : يا حار ، وفى فاطمة : يا فاطم ، وفى عائشة : يا عائش ، وفى مروان : يا مرو ، وهكذا . قال :

حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قبلى ولا مَلِكُ (١)

وقال امرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُريك وَميضه * كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (٢)

وقال أيضا :

أفاطِم مَهْلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنت قد أزمعتِ صَرْمِى فأجْمِلِ (٣)

وقال آخر (٤) :

يا مَرْوَ إن مَطِيَّتِى محبوسةٌ * ترجو الحِباء وربُّها لم ييأس

وفى صحيح الحديث " أى فل ، هَلُمّ " . ولك فى آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما ـ أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر ـ أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف . وذكر أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا محمد بن يحيى المروزىّ قال حدّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوى وكان أغار على بنى عبدالله ابن غطفان فغنم وأخذ ابل زهير وراعيه يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية . (٢) يروى « أصاح » . والحبى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل : المتراكب . (٣) فاطمة هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطيعة . (٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحاله ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمرى) .

عيينة عن مجاهد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « بيت من ذهب »[١] ، وكنا لا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « ونادوا يا مالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام؛ وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صَفْوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر «ونَادَوْا يامالكُ لِيَقْضِ علينا ربك» بإثبات الكاف. وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أوذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخزنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذين فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِن العذابِ»[٢] فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب؛ فردّتْ عليهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ » قال : فلما يئسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكًا، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يامالك ليقض علينا رَبُّك » قال : سألوا الموت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ،قال: والسنة ستون وثلثمائة يوم ،والشهر ثلاثون يوما ،واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال : « إنكم ماكثون » وذكر الحديث ؛ ذكره ابن المبارك . وفى حديث أبى الدَّرْداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون ادْعوا مالكا فيقولون يامالك لِيَقْضِ علينا رَبُّك قال إنكم ماكثون" . قال الأعمش : نُبِّئْت أن بين دعائهم و بين إجابة مالك إياهم ألف عام ؛ خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِىّ : بين ندائهم و إجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك .

---

(١) فى قوله تعالى : « أو يكون لك بيت من زخرف » آية ٩٣ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم ؛ أى إنكم ما كثون فى النار لأنا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم ؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلكم . وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم ، وأما الأتباع فما كان لهم أثر . ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ أى للإسلام ودين الله ﴿ كَارِهُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوة ، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه ؛ فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . « أَبْرَمُوا » أحكموا . والإبرام الإحكام . أبرمت الشيء أحكمته . وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل ، وهو الفتل الثانى ، والأول سَحِيل ؛ كما قال :

* ... ... من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[(1)] *

فالمعنى أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كيدًا ؛ قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكلبى : أم قضَوْا أمرًا فإنا قاضون عليهم بالعذاب . وأم بمعنى بل . وقيل : « أَمْ أَبْرَمُوا » عطف على قوله « أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[(2)] » . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم فى أنفسهم أبرموا أمرًا آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(1) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى . والبيت كما فى ديوانه :

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل ، الغزل الذى لم يبرم . (2) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ أى ما يسرّونه فى أنفسهم ويتناجَوْن به بينهم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثانى : إذا جَهَرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فُصِّلَتْ »[1] .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معناه ؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّى : المعنى ما كان للرحمن ولد ؛ فـ« إن » بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدئ « فأنا أول العابدين » أى الموحِّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أوّل من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أوّل من يعتقده ؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد ؛ أى لا سبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام ؛ كقوله : « وإنّا أو إيّاكم لعلى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين »[2] . والمعنى على هذا : فأنا أوّل العابدين لذلك الولد ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . وقال السُّدِّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده ؛ على أن له ولدا ولكن لا ينبغى ذلك . قال المَهْدَوِىّ : فـ« إن » على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود ، وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدِين .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ (٢) آية ٢٤ سورة سبأ . راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليمانى « فأنا أوّل العَبِدين » بغير ألف ، يقال ، عَبِدَ يَعْبَد عَبَدًا (بالتحريك) إذا أنِف وغضب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبى زيد . قال الفرزدق :

أولئك أجلاسى فجئنى بمثلهم * وأَعْبَدُ أن أهجو كُلَيْبًا بدارِم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْنِى هجوتهم * وأَعْبَدُ أن يهجى كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهرى : وقال أبو عمرو وقوله تعالى «فأنا أوّل العابدين» من الأَنَف والغضب ؛ وقاله الكسائى والقُتَبى ، حكاه الماوردى عنهما . وقال الهَرَوِى : وقوله تعالى « فأنا أوّل العابدين » قيل هو من عَبِد يَعْبَد ؛ أى من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبدُ فهو عَبِد ؛ وقلّما يقال عابد ، والقرآن لا يأتى بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أوّل من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له . وروى أن امرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضى الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له علىّ : قال الله تعالى « وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا » وقال فى آية أخرى « وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ » فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ . قال عبد الله بن وهب : يعنى ما استنكف ولا أنِف . وقال ابن الأعرابى : «فأنا أوّل العابدين» أى الغضاب الآنفين . وقيل : «فأنا أوّل العابدين» أى أنا أوّل من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم . أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكى : عَبَدَنى حقّى أى جحدنى . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام . الباقون وعاصم « وَلَد » وقد تقدّم[1] . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى تنزيها له وتقديسا . نزّه نفسه عن كل ما يقتضى الحدوث ، وأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه . ﴿ عما يصفون ﴾ أى عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعنى كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة . أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ إما العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو محكم ، وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن مُحَيْصن ومجاهد وحُميد وابن القعقاع وابن السَّمَيْقَع « حتى يَلْقوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ، وفتح القاف هنا وفى « الطور »(1) و « المعارج »(2) . الباقون « يُلَاقُوا » .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

هذا تكذيب لهم فى أن لله شريكا وولدا ؛ أى هو المستحق للعبادة فى السماء والأرض . وقال عمر رضى الله عنه وغيره : المعنى وهو الذى فى السماء إله فى الأرض(3) ؛ وكذلك قرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله » وهذا خلاف المصحف . و « إلٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أى وهو الذى فى السماء هو إله ؛ قاله أبو على . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « فى » بمعنى على ، كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى على جذوع النخل ؛ أى هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدّم(4) .

قوله تعالى : وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ، وقد تقدّم(5) . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « وإليه يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن مُحَيْصن وحُميد ويعقوب وابن أبى إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

(1) آية ٤٥ (2) آية ٤٢ (3) فى بعض نسخ الأصل : « ... فى السماء إله وفى الأرض ... »
(4) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (5) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

قوله تعالى : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ «مَن» فى موضع الخفض . وأراد بـ «الذين يدعون من دونه» عيسى وعُزيرًا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : «من» فى محل رفع ؛ أى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعنى الآلهة — فى قول قتادة — أى لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعنى عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفرًا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» أى اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى المؤمنين إذا أذن لهم . قال ابن عباس : «إلا من شهد بالحق» أى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أى لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و «إلا» بمعنى لكن ؛ أى لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن فى جملة «الذين يدعون من دونه» الملائكة . ويقال : شَفَعْته وشَفَعْت له ؛ مثل كِلْته وكِلْت له . وقد مضى فى «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها[1] . وقيل : «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق فى الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِـدَ بِالْحَقِّ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدل على معنيين . أحدهما — أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى — أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالمـا بها . ونحوه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إذا رأيت مثل الشمس فأشهد و إلا فدَعْ" . وقد مضى فى « البقرة »(١) .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُـم مَّنْ خَلَقَهُـمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُـمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى لأقروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنهـا حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا»(٢) .وقيل : أى ولئن سألت الملائكة وعيسى « من خلقهم» لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فأنى يُؤفك هؤلاء فى آدعائهم إياهم آلهة .

قوله تعـالى : وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فى « قِيـلِه » ثلاث قراءات : النصب ، والجرّ ، والرفع . فأمّا الجرّ فهى قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جرّحمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا اختيار الزجاج . وقال الفرّاء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أنّا لَا نَسْـمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »(٣) . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس محمد آبن يزيد المبرد بأيّ شيء تنصب القيل؟ فقال : أنصبه على « وعنده علم الساعة و يعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجعون » ، ولا على « يعلمون » . و يحسن الوقف على « يكتبون »(٤) . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى : لا نسمع سِرهم ونجواهم

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩ . (٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .
(٤) فى آية .

وقيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يكتبون » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر ؛ كأنه قال : وقال قيله ، وشكا شكواه إلى الله عز وجل ، كما قال كعب بن زُهير :

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها[1] وقيلَهـمُ * إنك يابنَ أبى سُلْمَى لمَقتولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع « قيله » فالتقدير : وعنده قِيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قيلُه هذا القول . الزمخشرىّ : والذى قالوه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمـن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمـرك ، ويكون قوله « إنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون » جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارَبِّ ، أو قيله يارَبِّ قسمى ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنبارى : ويجوز فى العربية «وقيله» بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون . المَهْدَوِىّ : أو يكون على تقدير وقيلُه قِيلُه يارَبّ ؛ فحذف قيله الثانى[2] الذى هو خبر ، وموضع « يارَبِّ » نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنـع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء فى « قيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال « قل إن كان للرحمن ولَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارَبَّ » بفتح الباء . والقيـل مصدر كالقول ؛ ومنه الخـبر "نهى عن قيل وقال" . ويقال : قلت قولًا وقيلًا وقالًا . وفى النساء « ومَن أصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا[3] » .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قال قتادة : أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فاصفح عنهم » أى أعرض عنهم . ﴿وقُلْ سَلامٌ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فسوف تعلمون » ثم نُسخ هذا فى سورة « براءة » بقوله تعالى : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[4]» الآية . وقيل : هى مُحْكَمَـة لم تنسخ . وقراءة العـامة « فسوف

(١) أى ناحيتيها . (٢) فى الأصول : «الأول» . (٣) آية ١٢٢ . (٤) آية ٥ .

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيّه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تعلمون » (بالتـاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين بالتهديد . و « سَلَامٌ » رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم ؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا »(١) . وهى سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفى مسند الدارمىّ عن أبى رافع قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزوّج من الحور العين " . رفعه الثعلبىّ من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفى لفظ آخر عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبى أمامة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة بَنى الله له بيتا فى الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

إن جعلت «حمٓ» جواب القسم تمّ الكلام عند قوله «المبين» ثم تبتدئ « إنّا أنزلناه » . و إن جعلت « إنّا كُنّا مُنْذِرِين » جواب القسم الذى هو « الكتاب » وقفت على «منذرين» وابتدأت «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» . وقيل : الجواب «إنا أنزلناه» ، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم ، والهاء فى « أنزلناه »

---

(١) آية ١٥ .

للقرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله « إنا أنزلناه » كَنَى به عن غير القرآن؛ على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »[1] . والليلة المباركة ليلة القدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة وليلة البراءة، وليلة الصَّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لِستّ مضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان". ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نجماً نجماً فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل كان ابتداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة هاهنا ليلة النصف من شعبان . والأول أصح لقوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهذا المعنى قد مضى فى « البقرة »[2] عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الذِى أُنْزِلَ فِيهِ القرآن »، ويأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

قال ابن عباس : يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران؛ قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يُبْرَم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان بن المغيرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء . (٢) آية ١٨٥ راجع جـ ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه فى الموتى" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر" ذكره الثعلبي . وخرج الترمذى بمعناه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب". وفى الباب عن أبى بكر الصديق قال أبو عيسى: حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرطاه عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن عائشة ، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبى كثير لم يسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يسمع من يحيى بن أبى كثير .

قلت : وقد ذكر حديثَ عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه فى غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هى ليلة القدر على ما بيناه . روى حماد ابن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفى كل رمضان هى؟ قال : أىْ والذى لا إله إلا هو ، إنها فى كل رمضان ، إنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ؛ يقال : يحج فلان ويحج فلان . وقال فى هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ، وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هى للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فنص على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله « فى ليلة مباركة » ؛

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرى : «وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ « نفَرّق » بالتشديد، و « يَفْرق » كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب « كل»؛ والفارق الله عز وجل . وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه « نفرق » بالنون . ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كلّ شأن ذى حكمة؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة » .

قوله تعالى : أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : « أمرًا » فى موضع المصدر ؛ والتقدير : أنزلناه إنزالا . الفرّاء والزجاج : « أمرا » نصب بـ « يُفْرَق » ؛ مثل قولك : يفرق فرقا . فأمرٌ بمعنى فرق فهو مصدر ؛ مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : « يفرق » يدلّ على يؤمر ؛ فهو مصدر عمل فيه ما قبله . ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الفراء : « رحمة » مفعول بـ«مرسلين» . والرحمة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : « رحمة » مفعول من أجله ؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله « أمرا » . وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : « أمرا » نصب على الاختصاص؛ جعل كلّ أمر جزلا فخمًا بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه

فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفى قراءة زيد بن علىّ « أمرٌ من عنـدنا » على هو أمر، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن « رحمةٌ » على تلك هى رحمة، وهى تنصر انتصابها بأنه مفعول له.

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . البـاقون بالرفع ؛ رَدًّا على قوله «إنه هو السميع العليم» . وإن شئت على الابتداء، والخبر لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو رب السموات والأرض . والجر على البدل من « ربّك » وكذلك « ربّكم وربّ آبائكم الأولين » بالجر فيهما؛ رواه الشَّيْزَرِي[(1)] عن الكسائى . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هـذا الخطاب مع المعترف بأن الله خالق السموات والأرض ؛ أى إن كنتم موقنين به فٱعلموا أن له أن يرسل الرسـل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق؛ أى ينبغى أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذى يحيى ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذى يريد اليقين ويطلبه؛ كما تقول : فلان يُنْجِد، أى يريد نجدا. ويُتْهِم؛ أى يريد تهامة . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شىء . و « هو يحيى ويميت » أى يحيى الأموات و يميت الأحيـاء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مالككم ومالك من تقدم منكم. واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أى ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمـان والإقرار فى قـولهم : إن الله خالقهم ؛ و إنمـا

(١) هو عيسى بن سليمان أبوموسى الحجازى ، كان حجازيا ثم انتقل الى شيزر (كحيدر، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها ، أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائى ، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك . وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب؛ وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين؛ قاله قتادة . وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمّيَ الحافظ رقيبا . وفي الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعدُ ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : عليّ وآبن عباس وآبن عمر وأبو هريرة وزيد بن عليّ والحسن وآبن أبي مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخُدْريّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه ؛ كالزُّكْمة . وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كل مسمع منه ؛ ذكره الماوردي . وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل عن حُذيفة بن أسيد الغِفَاريّ قال : آطّلع النبيّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون " ؟ قالوا : نذكر الساعة ؛ قال : " إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخانَ والدّجالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزولَ عيسى بن مريم وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسوف خَسْفٌ بالمَشرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرِهم " . في رواية عن حُذيفة "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسف في جزيرة العرب والدُّخانُ والدّجالُ

ودابةُ الأرض و يأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عدَن تُرحّل الناس". وخرجه الثعلبيّ أيضا عن حُذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول الآيات خروجًا الدجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قعر عدَن أبيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمسي معهم إذا أمسوا". قلت: يا نبيّ الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: " «فَٱرْتَقِبْ يوم تأتى السماءُ بدُخانٍ مُبِينٍ» يمـلأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليـلة أما المؤمن فيصيبه منه شـبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره". فهذا قول. القول الثانى — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم. والحديث عنه بهذا فى صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ. قال البخاريّ: حدثنى يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال قال عبد الله: إنما كان هـذا لأن قريشا لـما استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينـه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعـالى: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مبِينٍ. يَغْشَى ٱلنَّـاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فأُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَرَ فإنها قد هلكت. قال: "لِمُضَرَ! إنك لجرىء". فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ». فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل «يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ». قال: يعنى يوم بدر. قال أبو عبيدة: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبِيّ: سُمِّيَ دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لـما حجبت السماءَ الغبرة؛ قاله عبـد الرحمن الأعرج. ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فى موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى يقول الله لهم : « هـذا عذاب أليم » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هـذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك ؛ اكشف عنا العذاب فـ « إنا مؤمنون » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض فى سنة الجَدْب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ؛ ولهذا يقال لسَنة الجَدْب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال الماوردىّ وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى من أين يكون لهم التذكّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكرى والذِّكر واحد ؛ قاله البخارىّ . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إياه . وقيل : أى أنّى ينفعهم

قولهم : « إنا مؤمنون » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أي علمه بَشَرٌ أو علمه الكَهَنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أي وقتا قليلا ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أي في زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا في القيامة قال : أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أي مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أي ننتقم منهم يوم نَبْطِش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « منتقمون » . وهو بعيد أيضا ؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعلّقه بقوله : « عائدون » ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو اذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب ، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إِنَّا كَاشِفو العذابِ قليلا إنكم عائدون » كلام تام . ثم ابتدأ « يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أي ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يومَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛

كما تقول : آتق النار اتق العذاب. و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ فى قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأُبَىّ بن كعب ومجاهد والضّحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، واختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع أو قَحْط يقع قبل يوم القيامة . الماوردى : ويحتمل أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . و يقال : انتقم الله منه ؛ أى عاقبه . والاسم منه النَّقمة والجمع النَّقِمات (١) . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أى آبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أى أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجىء الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى كريم فى قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوة و إسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعونى . فـ « عِبادَ الله » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معى عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبادَ الله » على هـذا مفعول . وقيل : المعنى أدُّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربى . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أمين على الوحى فاقبلوا نصحى . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) فى كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبّروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . آبن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جُرَيج : لا تَعَظَّمُوا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارَ ترفعُ المحتقر؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيّنة . والمعنى واحد؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعّدوه بالقتل فآستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال آبن عباس : تشتمونِ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْت » نافع وآبن كثير وآبن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »(١) . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول : نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي ﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »(٢) أى به . ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا(٣) لا لِيَ ولا عَلَيّ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : فخلّوا سبيلى وكُفُّوا عن أذاى . والمعنى متقارب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) آية ٣٥ سورة القصص . (٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت . (٣) أى مكفوفا عنى شركم .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أي فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ بفتح «أن» أي بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أي مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان .

قوله تعالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادي؛ أي بمن آمن بالله من بني إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أي قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فاسر » بوصل الألف . وكذلك ابن كثير ؛ من سرى . الباقون « فأسر » بالقطع؛ من أسرى . وقد تقدم[1] . وتقدم خروج فرعون وراء موسى في « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[2] » وإغراقه وإنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيــة — أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليــل سترا مُسْــدلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب ؛ فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَسْرِي ويُدْلِج[3] ويترفّق ويستعجل؛ بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفي الصحيح عن النبيّ صــلى الله عليــه وسلم "إذا سافرتم في الخِصْب فأعطُوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها[4] " . وقد مضى في أول « النحل[5] » ؛ والحمد لله .

قوله تعالى : وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها . وجـ ٨ ص ٣٧٧ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٢٢٧ وما بعدها . وجـ ١٣ ص ١٠٥ وما بعدها . (٣) قوله : « يسرى » أي يسير عامة الليل . و « يدلج » أي سار من أول الليل . وربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « في السنة » أي في القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا في السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٧٣

قال آبن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أى طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن آبن عباس أيضا سمتا . الضحاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ؛ لقوله : « فَٱضْرِبْ لهم طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ؛ وهو المعروف فى اللغة . وقاله قتادة والهروى . وقال غيرهما : منفرجا . وقال آبن عرفة : وهما يرجعان إلى معنًى واحد وإن اختلف لفظاهما ؛ لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوًا؛ أى ساكنة . قال :

والخيل تمزع رَهْوًا فى أعنّتها * كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَد (١)

الجوهرى : ويقال آفعل ذلك رَهْوًا؛ أى ساكنا على هِينَتِك (٢). وعيشٌ راهٍ؛ أى ساكن رافه. وخِمْسٌ راهٍ؛ إذا كان سهلا . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أى فتح؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل؛ يقال : جاءت الخيل رهوا . قال آبن الأعرابى : رَهَا يَرْهُو فى السير أى رَفَق . قال القطامى فى نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذلةٌ * ولا الصدورُ على الأعجاز تتّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوة : المكان المرتفع، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء؛ وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون فى مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفى الحديث أنه قضى أن "لا شفعة فى فِناء ولا طريق ولا مَنْقَبة ولا رُكْح ولا رَهْو (٣)" . والجمع رِهَاء . والرَّهْو : المرأة الواسعة الهَنِ؛ حكاه النَّضْر بن شُمَيل . والرَّهْو : ضرب من الطير؛ ويقال :

---

(١) البيت للنابغة الذبياني . و « تمزع » : تمرّ مرًّا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة ؛ ففى بعضها « تمرح » بالراء والحاء . وفى البعض الآخر : « تمرع » بالراء والعين . ويروى : « غربا » بدل « رهوا » أى حدة . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر . (٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هى الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذى يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

هو الكُرْكِيّ . قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى ــ وقاله القُشَيْرِيّ ــ أي سِرْ ساكنا على هِينَتك ؛ فالرّهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأوّل هو من نعت البحر؛ أي اتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لمـا قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هـذا . وقيل : ليس الرّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أي فرج . فقوله : « رهوا » أي منفرجا . وقال الليث : الرهو مَشْيٌ في سكون؛ يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض . وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا؛ أي ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا . ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن فرعون وقومه . ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفًى[(١)] . ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ النَّعمة (بالفتح) التنعيم ؛ يقال : نعّمه الله وناعَمه فتنعّم . وامرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمة ؛ بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) اليَـدُ والصَّنيعة والمِنة وما أنعم به عليـك . وكذلك النُّعمَى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النِّعمة؛ أي واسع المـال . جميعه عن الجوهريّ . وقال ابن عمر : المراد بالنَّعمة نيل مصر . ابن لهيعة : الفيوم . ابن زياد: أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعة . وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمَة (بفتح النون وكسرها) ؛ حكاه المـاورديّ . قال : وفي الفرق بينهما وجهان : أحدهما ــ أنها بكسر النون في المِلْك ، وبفتحها في البَدَن والدِّين ؛ قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثاني ــ أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة ، وبالفتح من التنعيم وهو سَعة العيش والراحة ؛ قاله ابن زياد .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

قلت : هـذا الفرق هو الذى وقع فى الصّحاح وقد ذكرناه . وقـرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة «فَكِهِين» بغير ألف، ومعناه أشِرِين بَطِرين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيِّب النفس مَزّاحا . والفكِه أيضا الأشِر البطِر . وقرئ «وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فَكِهِين» أى أشِرين بطِرين . و«فاكهين» أى ناعمين . القشيرى : «فاكهين» لاهين مازحين؛ يقال: إنه لفاكه أى مَزّاح . وفيه فُكاهة أى مزح . الثعلبيّ : وهما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفارِه والفَرِه . وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك؛ فيوقف على «كذلك» . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبي : «كذلك» أفعل بمن عصانى . وقيل : «كذلك» كان أمرهم فأهلكوا . ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعنى بنى إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا»(١) الآية .

قوله تعالى : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى لكفرهم . ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالى الشاتيات، قال الشاعر :

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

فالريح تبكي شَجْوَها * والبرق يلمع في الغمامه[1]

وقال آخر[2] :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة * تُبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية[3] :

أيا شجر الخابور مالك مُورِقًا * كأنك لم تجزع على ابن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : في الكلام إضمار ؛ أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : « وَٱسأل القرية » بل سرّوا بهلاكهم ؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه و باب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ــ ثم تلا ــ «فما بكت عليهم السماء والأرض» ". يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله ، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدويّ النحل ! . وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما : إنه يبكي عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قولَ مجاهد . وقال شُريح الحضرمي قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرَباء يوم القيامة ــ

(١) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ الحميري . وقد ورد هذا البيت في الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هي ليلى بنت طريف الشيباني ترثي أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة .

قيل : من هم يارسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « فما بكت عليهم السماء والأرض » — ثم قال — ألا إنهما لا يبكيان على الكافر " .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحَرّانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعىّ قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقيل: بكاؤهما حمرة أطرافهما؛ قاله علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — وعطاء والسُّدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السُّدّى : لما قُتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها . وقال محمد بن سيرين : أخبرونا أن الحمرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرْنا دمًا يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدارَقُطنىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " . وعن عُبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان، الحمرة والبياض ؛ فإذا غابت الحمرة حَلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سيرين . وقد تقدم فى « سبحان »[(١)] عن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ، وحمرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت، وإذا أدرّت السماء بحمرتها قيل بكت، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك؛ فإن فقدت نور المؤمن أغبرّت فدرّت

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

باغبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها درّت بغبرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كلّ شيء ، وإنا لنى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة ، فتدرّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسف وحزن .

قلت : والقول الأوّل أظهر ؛ إذ لا استحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم ـ كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت »[(1)] ـ فكذلك تبكى ؛ مع ما جاء من الخبر فى ذلك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١)

يعنى ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكلفهم الأعمال الشاقة . ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من « العذاب المهين » فلا تتعلق « من » بقوله : « من العذاب » لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هذا علوّ مدح بل هو عُلُوٌّ فى الإسراف ؛ كقوله : « إن فرعون علا فى الأرض[(2)] » . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أى على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿ على العالَمِينَ ﴾ أى عالمى زمانهم ؛ بدليل قوله لهذه الأمة : « كنتم خير

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ و جـ ١١ ص ١٥٧ و جـ ١٥ ص ٣٤٤ (٢) آية ٤ سورة القصص .

أمة أخرجت للناس »[١] . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهم . ويكون قوله : « كنتم خير أمة » أي بعد بني إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ أي من المعجزات لموسى . ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى . ويكون هذا الخطاب متوجها إلى بني إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفراء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معا من قوم فرعون وبني إسرائيل . وفي قوله : « بلاء مبين » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا »[٢] . وقال زهير :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو[٣]

الثاني — عذاب شديد ؛ قاله الفراء . الثالث — اختبار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[٤] .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران . (٢) آية ١٧ سورة الأنفال . (٣) صدره :
* رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم * (٤) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿إنّ هؤلاء ليقولون﴾ يعنى كفار قريش ﴿إن هى إلا موتتنا الأولى﴾ ابتداء وخبر . مثل « إن هى إلا فتنتك »[1] ، « إن هى إلا حياتنا الدنيا »[2] ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أى بمبعوثين . ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم[3] . والمنشورون المبعوثون . قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال : يا محمد، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا؛ أحدهما ــ قُصَىّ بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا؛ لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فأتوا بآبائنا» مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : « ربّ ارجعون »[4] قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿أهم خير أم قوم تبّع﴾ هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تبع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين ، وكِسْرَى للفُرْس، وقَيْصر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمّىَ كل واحد منهم تُبّعا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظّل؛ وقال :

---

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٧٨
(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

يَرِد المياه حَضِيرةً ونَفِيضةً * وِرْدَ القَطاة إذا اسْمَأَلَّ التُّبَّعُ[1]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلي : تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت، و إن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تبع؛ قاله المسعودى . فمن التبابعة : الحارث الرائش، وهو ابن همال ذى سَدَد[2] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك ، الذى تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس، الذى ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبَّعٌ لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا". فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه، وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غَزْوَه ، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ اسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوه إليه . ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ

فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وابنَ عَمّ

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء — ويقال بناحية حمير — فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبّى ولَمِيس" ويروى أيضا : حبي وتماضر ، ويروى أيضا : هذا قبر رضوى وقبر حُبّي ابنتا تبع ، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

---

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم. وقيل : النفر يغزى بهم . وقيل غير هذا . واسمأل الظل : قصر وضمر؛ وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرفة .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فى الكتاب الذى كتبه : « أما بعد، فإنى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنّتك ، وآمنت بربّك وربّ كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربّك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتُك فيها ونِعْمَت، وإن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة؛ فإنى من أمتك الأوّلين وبايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملّتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : «لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبيّ الله ورسوله، خاتم النبيّين ورسول ربّ العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبّع الأوّل » . وقد ذكرنا بقيّة خبره وأوّله فى « اللمع اللؤلؤية فى شرح العشر بينات النبويّة[1] » للفارابى رحمه الله . وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نبيًّا أو ملِكا؛ فقال ابن عباس : كان تبع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع مِلكا من الملوك، وكان قومه كُهّانًا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبَانًا ففعلوا، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تسبّوا تُبّعًا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبّعًا كان رجلا من حِمير، سار بالجنود حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَند فهدمها؛ حكاه الماوردى . وحكى الثعلبى عن قتادة أنه تبع الحِميرى، وكان سار بالجنود حتى عبر الحِيرة . وبنى سَمَرْقَند وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبى : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمى تبعا لأنه تَبِع مَن قبله . وقال سعيد بن جُبير : هو الذى كسا البيت الحِبَرات[2] . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلًا لقربهم من دارهم وعظمهم فى نفوسهم؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم — لأنهم كانوا مجرمين — كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمّى أوّلهم تبعًا لأنه اتبع قرن الشمس وسافر فى الشرق مع العساكر .

(١) اضطربت الأصول فى هذا الكتاب وفى اسم مؤلفه ، ولم نعثر عليه .

(٢) الحبرات (بكسر ففتح جمع حِبَرَة وحَبَرَة) : ضرب من برود اليمن مُنَمَّر .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أهلكناهم » صلته . ويكون « مِنْ قبلِهم » متعلقًا به . ويجوز أن يكون « مِن قبلهم » صلة « الذين » ويكون فى الظرف عائد إلى الموصول . وإذا كان كذلك كان «أهلكناهم» على أحد أمرين: إمّا أن يقدّر معه «قد» فيكون فى موضع الحال. أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين. ويجوز أن يكون « والذين من قبلهم » ابتداء خبره «أهلكناهم» . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع جر عطفا على « تبع » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . ويجوز أن يكون « الذين » فى موضع نصب بإضمار فعل دل عليه « أهلكناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل: لاهين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »[1] . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعني أكثر الناس . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[2] . ونظيره قوله تعالى: « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[3] . فـ«يوم الفصل» ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »[4] أى الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القرّاء فى رفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ . (٢) آية ٣ سورة الممتحنة . (٣) آية ١٤ سورة الروم .
(٤) آية ١٧ سورة النبأ .

« مِيقَاتُهُمْ » على أنه خبر « إن » واسمها « يَوْمَ الفَصْلِ » . وأجاز الكسائى والفرّاء نصب « ميقاتهم » . بـ « إن » و « يوم الفصل » ظرف فى موضع خبر « إن » ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول. والمَوْلَى : الوَلِىّ وهو ابن العمّ والناصر . أى لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريبٌ عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا [(١)] » الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ ﴾ « مَن » رفع على البدل من المضمر فى « يُنْصَرُون » ، كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغنى عنه ويشفع وينصر . أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائى والفرّاء نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون استثناء متصلا ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيمُ بأوليائه ؛ كما قال « شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ [(٢)] » فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء ؛ إلا حرفا واحدا فى سورة الدخان « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

---

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافر .

ابن الأنبارى . و ﴿ الْأَثِيمِ ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء . وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؛ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى أبى قال حدثنا نصر قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : عَلَّم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؛ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ؛ قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلّم ، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشرى : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةً معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدّى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى علىّ بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِي » بالتاء حملًا على الشجرة . وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيصن ورُوَيس عن يعقوب « يغلى » بالياء حملًا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يُحمل على المهْل لأنه

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم؛ من أثم يأثم إثمًا؛ قاله القشيرى وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام . وفى الصحاح : وقد أثم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع فى الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الأَثِيمِ » أى ذى الإثم الفاجر؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنا محمد أن فى جهنم الزقوم ، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر؛ فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه فى هذه الشجرة فى سورة « الصافات وسبحان »(1) أيضا .

قوله تعالى : خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أى يقال للزبانية خذوه؛ يعنى الأثيم . ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أى جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ؛ أى تجرّه إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسًا :

* نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه(2) *

وفيه لغتان : عَتَلَه وعَتَنه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فَٱعْتِلوه » بالكسر، وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِن عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبى جهل بمقمع من حديد ؛ فيتفتّت رأسه عن دماغه ؛ فيجرى دماغه على جسده؛

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(2) القائل هو أبو النجم؛ وقبله :

طار عن المهر نسيل ينسله * عن مفرع الكتفين حرّ عَطَلُه

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميا قد انتهى حره فيقع فى بطنه؛ فيقول الملَك : ذُق العذاب . ونظيره « يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ »(١) .

قوله تعالى : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنبارى : أجمعت العوام على كسر « إنّ » . وروى عن الحسن عن علىّ رحمه الله «ذق أنك» بفتح «أن» ، وبها قرأ الكسائىّ . فمن كسر « إن » وقف على « ذُقْ » . ومن فتحها لم يقف على « ذق » ؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم . قال قتادة : نزلت فى أبى جهل وكان قد قال : ما فيها أعزّ منّى ولا أكرم؛ فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وقال عكرمة : التقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرنى أن أقول لك أولَى لك فأولى " فقال : بأى شىء تهددنى ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه ؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . أى يقول له الملك : ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك . وقيل : هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أى قال له : إنك أنت الذليل المهان . وهو كما قال قوم شعيب لشعيب : « إنّك لأنت الحليمُ الرشيدُ »(٢) يعنون السفيه الجاهل فى أحد التأويلات على ما تقدّم(٣) . وهذا قول سعيد بن جبير . ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أى تقول لهم الملائكة : إن هذا ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

---

(١) آية ١٩ سورة الحج . (٢) آية ٨٧ سورة هود (٣) راجع جـ ٩ ص ٨٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « فى مُقام » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائى : المَقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال :

* عفت الديارُ محلُّها فمُقامُها (١) *

قال الجوهرى : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجُنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و(بالضم) يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرا ويقدّر فيه المضاف، أى فى موضع إقامة . ﴿ أَمِينٍ ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل « من مقام أمين » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّنْدُس : مارقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى فى « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك الذى ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل : أى كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام فى العين فى « والصافات » (٣) . والحُور : البيض، فى قول قتادة والعامة، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التى يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه فى كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فى حرف ابن مسعود « بعِيس عِين » (٤) . وذكر أبو بكر الأنبارى أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين

(١) هذا أوّل معلقة لبيد . وتمامه : * بمنًى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض يخالطه شىء من شقرة .

قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ في « حم » الدخان « بعيس عِين . لا يذوقون طعم الموت إلا الموتة الأولى » . والعيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس، واحدها بعير أعْيَس وناقة عَيْساء . قال امرؤ القيس :

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنه * كما تَرْعَوِي عِيطٌ إلى صوت أعْيَسا (١)

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات (٢) البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلّة، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سُمّيت الحُور حورا لأنهنّ يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ . وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحَوَر أعينهنّ. والحَوَر : شدّة بياض العين في شدّة سوادها . امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر . يقال : احورّت عينه احورارا، واحورّ الشيء ابيضّ . قال الأصمعي : ما أدري ما الحَوَر في العين؟ وقال أبو عمرو : الحَوَر أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس في بني آدم حَوَر ؛ وإنما قيل للنساء : حُور العين لأنهنّ يشبّهن بالظباء والبقر . وقال العجّاج :

* بأعينٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ (٣) *

يعني الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدَق . والعِين جمع عَيْناء ؛ وهي الواسعة العظيمة العينين . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العِين قبضات التمر وفِلَق الخبز " . وعن أبي قِرْصافة (٤) سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمامة من المسجد مهور الحور العين " . وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) العيط (جمع عيطاء) . الناقة الفتية التي لم تحمل . (٢) الثاقب : المضيء .

(٣) في الأصول : * بأعين محورات بيض *

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : * إذ ترمي من خلل الخدور *

وبعده : * خزر بألباب إلى صُور *

(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكناني .

قال : " كنس المساجد مهور الحور العين " ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا فى (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيما أفضل فى الجنة ، نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر آبن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن آبن أنعُم عن حِبّان بن أبى جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهنّ الجنة فُضّلن على الحُور العين بما عملن فى الدنيا . وروى مرفوعا إن " الآدميات أفضل من الحُور العين بسبعين ألف ضعف " . وقيل : إن الحور العين أفضل ، لقوله عليه السلام فى دعائه : " وأبدله زوجًا خيرا من زوجه ". والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورٍ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين فى « بحور عين » سواء .

قوله تعالى : يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

قال قتادة : « آمنين » من الموت والوَصَب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أى لا يذوقون فيها الموت ألْبتّة لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع ، أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع فى تَفَرُّق فالجٍ * فلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغدّتِ (١)

(١) فى كتاب سيبويه : * من كان أشرك *

والقائل هو عنز بن دجاجة المازنى . وفالج هذا ؛ هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأساء اليه حتى رحل عنهم ، ولحق ببنى ذكوان بن بهثة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم الى بنى أسد ، فدعا هذا الشاعر المازنى على بنى مازن حيث اضطروه فألجئ الى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم ؛ لأنه لم يرض فعلهم ، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن ، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغدة ، وهى من أدواء الإبل كالذبحة . والعلواء : النماء والارتفاع . والمتنبى : المتمى والمغذى . ويروى بكسر الياء ، ومعناه الثابت النامى . (عن شرح الشواهد) .

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كناشِرةَ الذى ضيَّعتُمُ * كالغصن فى غُلَوائه المتنبِّت

وقيل : إن « إلا » بمعنى بعد؛ كقولك : ما كلّمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى؛ أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(١) . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس . وقال القُتَبِيّ : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الرَّوح والرَّيحان، وكان موته فى الجنة لاتصافه بأسبابها؛ فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذى يكره ذوقه ، فاستعير فيه لفظ الذوق . ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم . ف‍ « فضلا » مصدر عمل فيه « يَدْعُون » . وقيل : العامل فيه « ووقاهم » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكذا؛ أى ناله وظَفِر به .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون وينزجرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »(٢) . ختم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا؛ كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » على ما تقدم . ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

النقاش . وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب وعدك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة ؛ جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم .

سورة الجاثية

مكّية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هي : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ »[1] نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ذكره الماوردي . وقال المهدوي والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر رضي الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » ثم نسخت بقوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[2] . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و﴿ تَنزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » اسم السورة . و« تنزيل الكتاب » مبتدأ . وخبره « من الله » . والكتاب القرآن. و« العزيز » المنيع. « الحكيم » في فعله . وقد تقدّم جميع هذا[3] .

قوله تعالى : إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى فى «البقرة»(١) وغيرها . وقراءة العامة « وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ » « وتصريف الرِّياح آياتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم « إنّ » وخبرها «فى السموات» . ووجه الكسر فى «آيات» الثانى العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير « آيات » لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إنّ» على تقدير حذف «فى» ؛ التقدير: وفى اختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت « فى » لتقدّم ذكرها . وأنشد سيبويه فى الحذف :

أكُلَّ امرئٍ تحسِبين امرأً * ونارٍ توَقَّدُ بالليل نارا(٢)

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف» على قوله : « وفى خلقكم » ثم قال : « وتصريف الرياح آيات » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين ؛ لأنه عطف على « واختلاف » على «وفى خلقكم» ، وعطف «آيات» على موضع « آيات » الأول ، ولكنه يقدّر على تكرير «فى» . ويجوز أن يرفع

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها ، وجـ ١٤ ص ٥٨ (٢) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع « اختلاف » و « آيات » جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تلك آياتُ الله ﴾ أى هذه آيات الله، أى حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يتلوها » بالياء . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى « تؤمنون » بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ « ويلٌ » وادٍ فى جهنم . توعّد من ترك الاستدلال بآياته . والأفّاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أثيم » أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوى النضرُ بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة (1)، وهو أن ينحى عليها صارًّا أذنيه . و « أنْ » من « كأنْ » مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن . كما فى قوله : * كأنْ ظَبْيَة تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ (2) *

---

(1) العانة : الأتان (الحمارة) . (2) ويروى : إلى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية : * ويوما توافينا بوجه مقسم * والمقسم : المحسن . و « تعطو » : تتناول و « السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

ومحل الجملة النصب؛ أي يصرّ مثل غير السامع ، وقد تقدّم في أوّل « لقمان » القول في معنى هذه الآية[1] . وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في « البقرة »[2] .

قوله تعالى : وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله في الزقوم : إنه الزبد والتمر ، وقوله في خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلّ مخزٍ . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنمُ . وقال ابن عباس : « من ورائهم جهنم » أي أمامهم ؛ نظيره « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »[3] أي من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * أدبّ مع الولدان أزحف كالنَّسْر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أي من المال والولد ؛ نظيره « لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا »[4] أي من المال والولد . ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي دائم مؤلم .

قوله تعالى : هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر ؛ يعني القرآن . وقال ابن عباس : يعني كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي جحدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز العذاب ؛ أي لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) أي عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »(٢) أي لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن مُحَيصن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « أليم » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده ، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام . وقرأ ابن عباس والجَحْدري وغيرهما « جميعا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء ، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أي تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء محذوف ؛ أي ذلك ، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ جزم على جواب « قل » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه ؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال ابن العربيّ : وهـذا لم يصح . وذكر الواحديّ والقشيريّ وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لهـا المُرَيْسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي ، وأبطأ عليه فقال: ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قِرب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبي بكر ، وملأ لمولاه . فقـال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيـل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمرَ رضي الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مهران قال : لمـا نزلت « مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا »(١) قال يهوديّ بالمدينة يقال له فِنْحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبـه ؛ فجاء جبريل عليـه السلام إلى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : "إن ربّك يقول لك قُلْ لِلذين آمنوا يَغْفِرُوا لِلذين لا يَرْجُون أيامَ الله" . وأعلم أن عمـر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه، فلما جاء قال : "يا عمر، ضع سيفك" قال : يا رسول الله، صدقت، أشهد إنك أرسلت بالحق . قال : "فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله" قال : لاجرمَ! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي .

قلت : وما ذكره المهـدويّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عبـاس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدّي وعليـه يتوجه النسخ في الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينـة أو في غزوة بني المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى « يغفروا » : يعفوا ويتجاوزوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أي لا يرجون ثوابه . وقيل : أي لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ؛ كقوله : « مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا »(٢) أي لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٣ سورة نوح .

مثل عذاب الأمم الخالية . والأيام يعبر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافون البعث. ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى ليجزى الله. وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لنجزى» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «لِيُجْزَى» بياء مضمومة وفتح الزاى على الفعل المجهول، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجزاءُ قوما ، نظيره «وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة «الأنبياء»[1] . قال الشاعر :

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جَرْوَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[2]

أى لَسُبَّ السَّبُّ .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

تقدم[3] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة. ﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الحكم : الفهم فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . «والنبوة» يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام. ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الحلال

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٣٤ (٢) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق .

من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام . وقيل : يعني المنّ والسلوى في التيه . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي على عالَمِي زمانهم ؛ على ما تقدّم في « الدخان »[1] بيانه ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، وينصره أهل يثرب . وقيل : بيّنات الأمر شرائع واضحات في الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : « إلا من بعد ما جاءهم العلم » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بغيًا » أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للنافسة في الرياسة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة الماء — وهي مورد الشاربة — : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع . والشرائع في الدين : المذاهب التي شرعها الله لخلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أي على هدًى من الأمر . قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . مقاتل : البينة؛ لأنها

---

(١) راجع جـ ١٦ ص

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّــنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغــة بمعنيين : أحدهما ــ بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »(١) . والثاني ــ أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلنــاك على طريقة من الدِّين وهي ملةّ الإسلام ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »(٢) .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانيــــة ــ قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لمــا دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعــالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

---

(١) آية ٩٧ سورة هود (٢) آية ١٢٣ سورة النحل .

قوله تعالى : هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر، أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحدود والأحكام . وقرئ « هذه بصائر » أى هذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدّى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى اكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المائدة[1] . ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي : « الذين اجترحوا » عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة . و « الذين آمنوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم فى قوله : «ولئن رُجِعْتُ إلى رَبِّى إنّ لى عندَه لَلحُسنَى»[2] . وقوله « أم حسب » استفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربية يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقوم يقولون : فيه إضمار، أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سواءٌ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى «محياهم ومماتهم» يعود على الكفار، أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سواء » بالنصب، واختاره أبو عبيد قال : معناه

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٦ . (٢) آية ٥٠ سورة فصلت .

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «ومماتهم» بالنصب؛ على معنى سواء فى محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون «محياهم ومماتهم» بدلا من الهاء والميم فى نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير فى «محياهم ومماتهم» للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الدارى، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكى «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلى فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعرى! من أى الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ أى ولكى تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى فى الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذى يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

شيئا وهويه اتخذه إلها . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ؛ فإذا رأى ما أحسن منه رمى به وعبد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ؛ مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه . وقال الشعبيّ : إنما سُمّى الهوى [هوًى] لأنه يهوى بصاحبه فى النار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوًى فى القرآن إلا ذمّه ؛ قال الله تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ»(١) . وقال تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»(٢) . وقال تعالى «بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ»(٣) . وقال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللَّهِ»(٤) . وقال تعالى : «وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ»(٥) . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" . وقال أبو أمامة سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى" . وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله" . وقال عليه السلام : "إذا رأيت شحّاً مطاعا وهوًى متّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شحّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب" . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) آية ٢٩ سورة الروم . (٤) آية ٥٠ سورة القصص .
(٥) آية ٢٦ سورة ص .

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فاخضع لحبك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس فى شهواتها * والحر يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق

فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسيّ :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوارِيّ : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذ كم؟ قال : مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعيانى الدواء، وقد عزمت على الكَيّ . قلت وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت فى أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وللعلماء فى هذا الباب فى ذم الهـوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيـه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » (١) .

قوله تعـالى : ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سـبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ؛ أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول ؛ فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى . ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (٢) أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمـزة والكسائى « غَشْوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى فى « البقرة » (٣) . وقال الشاعر :

أما والـذى أنـا عبـدٌ له * يمينًـا ومالَك أبدى اليمـينا

لـئن كنت ألبستنى غَشْوة * لقد كنت أصـفيتك الوُدّ حينا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أى من بعد أن أضـله . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإماميـة ومن سلك سبيلهم فى الاعتقاد ؛ إذ هى مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : «وختم على سمعه وقلبه» إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدم فى أول «البقرة» (٤) . وحكى ابن جريج أنها نزلت

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .
(٢) فى بعض نسخ الأصل : « الهوى » بالواو .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٦ .

فى الحارث بن قيس من الغياطلة[1] . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ؛ فتحدثا فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك ! ؟ قال : يا أبا عبد شمس ، كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ؛ فلما تمّ عقله وكمل رشده ، نسميه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدّث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء . ومعنى « نموت ونحيا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبى . وقرئ « ونُحيا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى نحيا ونموت ؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمرّ » . وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا و يميتنا ؛ فنزلت هذه الآية . وقال قُطْرُب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤَيب :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تتوجّعُ * والدهرُ ليس بمعتِبٍ مَنْ يجزَعُ

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشجر الملتف ، واختلاط الظلام » .

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهرَ وأنا الدهرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار".

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولنّ أحدكم ياخَيْبَةَ الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب فى جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فنُهُوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم ..." الحديث . ولقد أحسن من قال، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُم الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمورٌ له آمرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أموالُه جَمّةٌ * تزداد أضعافًا على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ * يزداد إيمانًا على فَقْره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجانى لشىء لحَيْنِه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدَّهْرا
ولكن متى ما يبعث الله باعثًا * على معشر يَجعل مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر"
فقلت : وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إن محلا وإن مرتحلا * وإن في السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعدل * وولى الملامة الرجلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قميئة :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى * فكيف بمن يرمى وليس برام
فلو أنها نبل إذًا لاتقيتها * ولكنني أرمى بغير سهام
على الراحتين مرة وعلى العصا * أنوء ثلاثا بعدهن قيامي

ومثله كثير في الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا رب سواه . ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي علم . و « من » زائدة ؛ أي قالوا ما قالوا شاكين . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر . وقيل أشاروا إلى التناسخ ؛ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثمّ دفعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حجتهم» خبر كان، والاسم «إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نطفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : « فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلَوْا به كما يُدلِى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تحيةٌ بينهم ضَرْبٌ وَجيع *[1]

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة ألبتة . فإن قلت : كيف وقع قوله « قل الله يحييكم » جواب « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبكّت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شىء عليه » .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ « يوم » الأول منصوب بـ « يخسر » و « يومئذ » تكرير للتأكيد

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو فى المشى .

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل في « يومئذ » « يَخْسَر » ، ومفعول « يَخْسَر » محذوف ؛ والمعنى يَخْسَرون منازلهم في الجنة .

قوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي من هَوْل ذلك اليوم . والأُمّة هنا : أهلُ كل ملة . وفي الجاثية تأويلات خمس : الأول ــ قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثاني ــ مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث ــ متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع ــ خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس ــ باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجَثْوُ : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى في « مريم »[1] : وأصل الجثوة[2] : الجماعة من كل شيء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كأني أراكم بالكُوم[4] جاثين دون جهنم" ذكره الماوردي . وقال سلمان : إن في يوم القيامة لساعةً هي عشر سنين يَخِرّ الناس فيها جُثاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي "لا أسألك اليوم إلا نفسي" . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذي يجعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كتابها » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمى « كُلَّ أمةٍ » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانيـة من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جُثوها شيء من حال شرح الجثو كما فى الثانيـة من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بيّن . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم ؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »(1) . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(2) وقد تقدّم(3) . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعملون . قال علىّ رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيـه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهّرين فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمال بنى آدم فيعارضـون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيـه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهـل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظـة

(1) آية ٤٩ سورة الكهف . (2) آية ٦٢ سورة المؤمنون .

(3) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ و جـ ١٢ ص ١٣٤ .

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحوّل المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »(1) فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « والساعةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف

(1) آية ٣٥ سورة القلم .

على موضع « إن وعد الله » . ولا يحسن على الضمير الذى فى المصدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد فى الشعر . ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هى حق أم باطل . ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عند المبرد : إن نحن إلا نظن ظناً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل بهم وأحاط . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أى تركتم العمل له . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مسكنكم ومستقركم . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُزُوًا ﴾ لعبا . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى خدعتكم بأباطيلها وزخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها ، وأن لابعث . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . وقد تقدّم[1] . وقرأ حمزة والكسائى « فاليوم لا يَخْرُجُونَ » بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ و جـ ١٤ ص ٤٩ و جـ ١٥ ص ٥٢

«كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا»[1] الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا» . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السموات وربُّ الأرض رَبُّ العالمين» بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبُّ . ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله أعلم .

سورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ تقدّم[2] . ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ تقدّم أيضا . ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعنى القيامة ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا ﴾ خُوِّفوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُولُّون لاهون غير مستعدِّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى . قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أى نصيب ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أى فى خلق السموات مع الله . ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى من قبل هذا القرآن .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أو أثارة » بألف بعد الثاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب فى الأرض " . ذكره المهدوى والثعلبى . قال ابن العربى : ولم يصح . وفى مشهور الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت: هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ؛ خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجى)(١) قال حدّثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل « أو أثارة من علم » قال " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربى : واختلفوا فى تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

---

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه النسبة .

ومنهم من قال جاء للنهى عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه ؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا * ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع (١)

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظناً مبنياً على ظن ، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تلك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمته فى ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : قوله عليه السلام : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة — فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجدون إصابته ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسير قوله : "كان نبى من الأنبياء يخط " أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذى يخطه الحازى (٢) فيعطى حُلوانا فيقول : اقعد حتى أخط لك ، وبين يدى الحازى غلام معه ميل ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

---

(١) البيت للبيد . والرواية فيه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطرق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات . (٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوّة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإن سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل و يمضي على أمره مسرورا . و إذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهمّ لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك " . وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في « المائدة »[1] وغيرها . ومضى في « الأنعام »[2] أن الله سبحانه متفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جَرْى العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، و إذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر ؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدّم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنداد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط ، وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . و إذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : " يحدث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية " . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢

ما فيه وإن لم يعلموا ما فى الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك ــ فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أو أثارة من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبى وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفى الصحاح «أو أثارةٍ من علم» بقية منه . وكذلك الأَثَرَة (بالتحريك) . ويقال : سمنت الإبل على أثارة؛ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردى والثعلبى قول الراعى :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا فى أكِنَّته فغارا

وقال الهَرَوىّ : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : روايةٍ تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظى : هو الإسناد . الحسن : المعنى شىء يثار أو يستخرج . وقال الزجاج : « أَوْ أَثَارَةٍ » أى علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأَثْر ، وهى الرواية يقال : أثرت الحديث آثُرُه أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه حديث مأثور ؛ أى نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تَمَارَيْتُمَا * بُيِّنَ للسامع والآثر

ويروى « بَيَّن » وقرئ « أَوْ أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين . والمأثور : ما يُتحدّث به مما صح سنده عمن تحدّث به عنه . وقرأ السُّلَمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أى خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرَة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبى والثانيةَ الماوردى . وحكى الثعلبى عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائتوني بِكِتَابٍ مِن قبلِ هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهى الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . فالملائكة أعداء الكفار ، والجن والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ[1] » . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

---

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أي تقوله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة في « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضيّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله و يفتريه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، و إذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لا تقدرون على أن تردّوا عني عذاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة في الشيء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا في الحديث أي اندفعوا فيه . وأفاض البعير أي دفع جِرّته من كَرِشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأفضن بعد كُظومهنّ بجِرّة * (1)

(1) هذا عجز بيت الراعي ، وصدره كما في معجم البلدان لياقوت في « حقيل » :

* من ذي الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الإبل الذي أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما في بطونها أفضن بجرة .

وأفاض الناس من عرفات إلى منى أى دفعوا، وكل دفعة إفاضة . ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيدًا ﴾ نصب على التميز . ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعبادة المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أول من أرسل، قد كان قبلى رسل ؛ عن ابن عباس وغيره . والبِدْع : الأول . وقرأ عكرمة وغيره « بِدَعا » بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع . وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى ؛ مثل نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع . وشيء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع . وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قُطْرُب قول عدىّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى * رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد[1]

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيًّا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يُفعل به؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[3] الآية . ونزلت «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا»[4] . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

---

(١) هذا رواية البيت كما فى نسخ الأصل . والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى * رجالا فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٢ سورة الفتح . (٣) آية ٥ سورة الفتح . (٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

ابن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتُوفِّيَ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب! إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه" ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟! قال: "أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم" . قالت : فوالله لا أزكّى بعده أحدًا أبدًا . ذكره الثعلبي، وقال : وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر الله له ذنبه في غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاريّ ، وروايتي فيه: "وما أدرى ما يُفعل به" ليس فيه "بي ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله، على ما يأتي بيانه . والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر . قال النحاس : محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أول السورة إلى هذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين "ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم" في الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة . وليس يجوز أن يقول لهم ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدرى أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدثنا وكيع قال حدثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن «وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا» قال أبو جعفر : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدرى صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»(1) . وذكر الواحدى وغيره عن الكلبي عن أبي صالح عن

(1) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ؛ فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وما أدرى ما يُفعل بِى ولا بِكم » أى لا أدرى أأخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال: " إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحَى إلىّ " أى لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به . قال القُشَيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض علىّ وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى؛ ولا أدرى ما يفعل بكم ؛ أأمتى المصدّقة أم المكذّبة ، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قذفا ، أو مخسوف بها خسفا ؛ ثم نزلت « هو الذِى أرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[1] . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[2] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته؛ ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنه . وقيل: أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة؛ ثم بيّن الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأوّل؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

(١) آية ٣٣ سورة التوبة . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقرئ « يوحى » أى الله عز وجل . تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سَلَام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور فى التوراة ، وأنه نبيّ من عند الله . وفى الترمذى عنه : ونزلت فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ « وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (1) . وقد تقدّم فى آخر سورة «الرعد» . وقال مسروق : هو موسى والتوراة ، لا ابن سَلَام ؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله « وكفرتم به » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة ؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين ، والسورة مكية . قال القُشَيْرِيّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سَلَام قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بعامين . ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع فى سورة مكية ؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ضعوها فى سورة كذا . والآية فى محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود فى أشياء ؛ أى شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لى من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة فى محاجة اليهود ، ولما جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله ، اجعلنى حَكَمًا بينك و بين اليهود ؛ فسألهم عنه : " أىّ رجلٍ هو فيكم " قالوا : سيّدنا وعالمنا . فقال : " إنه قد آمن بى " فأساءوا القول فيه .. الحديث ،

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥

وقد تقدّم (١) . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلّام ، وقالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك؛ فسئل فشهد ثم أسلم . ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجُرجاني . « مِثْل » صلة ؛ أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى هذا الشاهد . ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان . وجواب « إن كان » محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون ؛ قاله الزجاج . وقيل : « فآمن واستكبرتم » أليس قد ظلمتم ؛ يبيّنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقيل : « فآمن واستكبرتم » أفتأمنون عذاب الله . و « أرأيتم » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام ؛ ولذلك لا يقتضى مفعولا . وحكى النقاش وغيره : إن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى سبب نزولها على ستة (٢) أقوال :

الأوّل — أن أباذرّ الغفارى دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفارُ الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

الثانى — أن زِنِّيرة (٣) أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللاتُ والعُزّى ؛ فردّ الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنِّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥ (٢) كذا فى نسخ الأصل . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .

(٣) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات الى الاسلام ، وممن يعذب فى الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصدّيق وأنقذهم من التعذيب .

الثالث – أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأسد وحَنْظَلة وأشجع ، قالوا لمن أسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزَينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم إذ نحن أعزّ منهم؛ قاله الكلبي والزّجاج، وحكاه القُشيرى عن ابن عباس. وقال قتادة : نزلت فى مشركى قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بلال وصُهيب وعمّار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس – أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سَلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبى . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ، فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار فى قولهم : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه ، لو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره الماوردى . ثم قيل : قوله « ما سبقونا إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، و يجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »[(1)] . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعنى الإيمان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأوّلين . وقيل لبعضهم : هل فى القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم ؟ قال الله تعالى : « وإذ لم يَهْتَدُوا بِهِ فسيقولون هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ومثله « بل كَذَّبُوا بِمَا لم يُحيطُوا بِعِلْمِهِ »[(2)] .

قوله تعالى : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(١) آية ٢٢ سورة يونس . (٢) آية ٣٩ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ أى التوراة ﴿إِمَاماً﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله . وفى الكلام حذف؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك . و « إماماً » نصب على الحال؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إمامًا . «ورحمةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفا ولاما صارت معرفة . ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ يعنى للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿لِسَاناً عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أى مصدّق لما قبله عربيا؛ و « لسانا » توطئة للحال أى تأكيد ؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا ؛ فتذكر رجلا توكيدا . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته ؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق، وهو النبى صلى الله عليه وسلم . و يبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قراءة العامة « لينذر » بالياء خبرا عن الكتاب ؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وابن عامر والبزّى بالتاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » . ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ « بشرى » فى موضع رفع؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفًا على الكتاب؛ أى وهذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض ؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلما حذف الخافض نصب . وقيل : على المصدر ؛ أى وتبشر المحسنين بشرى؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية تقدم معناها[1] . وقال ابن عباس : نزلت فى أبى بكر الصديق . والآية تعم . ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه، فقد يطيعهما وقد يخالفهما؛ أى فلا يبعد مثل هذا فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيريّ .

الثانيــة — قوله تعالى : « حسنا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى فى سورة (الأنعام وبنى إسرائيل) : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا[2] » وكذا هو فى مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا[3] »

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبْح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر .
وقد مضى القول فى هذا وفيمن نزلت (١) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد، قال : وكذلك لفظ الكره فى كل القرآن بالفتح إلا التى فى سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » (٢) لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعف والشُّهْد والشَّهْد؛ قاله الكسائى، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائى أيضا والفرّاء فى الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره؛ أى قهرا وغصبا؛ ولهذا قال بعض أهل العربية : إن كرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، و إن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . وروى أن عثمان قد أُتِىَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضى عليها بالحدّ؛ فقال له علىّ رضى الله عنه : ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى فى « البقرة » (٣) . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر فى ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نُطْفَة وعَلَقَة ومُضْغَة فلا يكون له ثقل يُحَس به ، وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ » (٤) . والفِصال الفطام . وقد تقدّم فى « لقمان » (٥) الكلام فيه . وقرأ الحسن و يعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . وروى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق، وكان حمله وفصاله فى ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفى الكلام إضمار؛

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

أى ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هــذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة. وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين ســنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيــه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وســلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشــجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبــد الله ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبيّ ، وما ٱستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ، وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضره . فلما نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وســلم وهو ابن أربعين ســنة ، صدّق أبو بكر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وســلم وهو ابن ثمانية وثلاثين ســنة . فلما بلغ أربعين ســنة قال : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » الآية . وقال الشــعبيّ وابن زيد : الأشُدّ الحُلُم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » الكلام[1] فى الآية . وقال السدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص . وقد تقدّم[2] . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى ألهمنى . ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ فى موضع نصب على المصــدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿ عَلَيَّ ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهــداية ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربيانى صغيرا . وقيــل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ! أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده . ووالده هو أبو قحــافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمّه

---

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨ و ج ١٤ ص ٦٣

أم الخير ، واسمها سَلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبي قحافة « قَيْلة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبي بكر الصديق اسمها « قُتيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العُزّى . ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة " .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل ذريتي صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لي خَلَف صِدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن علي : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغْوَل : اشتكى أبو معشر ابنه إلى طَلْحة بن مُصَرِّف ؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه . ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يتقبل ، ويتجاوز » بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما ؛ أى نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشىء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التى قبلها « ووصينا الإنسان » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نتقبل عنهم » أى نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات ، وليس فى الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿ فى أصحاب الجنة ﴾ « فى » بمعنى مع ، أى مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك فى جميع أهل البلد ، أى مع جميعهم . ﴿ وعد الصدق ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أى وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشىء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذى وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حق اليقين »(١) . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا فى غير موضع(٢) . ﴿ الذى كانوا يوعدون ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أفٍّ » مكسور منوّن . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم « أفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منوّن ؛ وكلها لغات ، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »[١] . وقراءة العامة « أتعدانِنِي » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حَيْوَة والمغيرة وهشام « أتعدانّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من « أن أُخرج » . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسُّدِّى وأبو العالية ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث ؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ » أى العذاب ، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد ؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيّة[٢] ، أتبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : هو الذى يقول الله فيه «والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما» الآية . فقال : والله ما هو به ، ولو شئت لسمّيت ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فَضَضٌ[٣] من لعنة الله . قال المهدوى : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أولئك الذين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٢ .

(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

(٣) كل ما انقطع من شىء أو تفرّق فهو فضض ؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

حَقّ عليهم القول» يراد به من اعتقد ما تقدّم ذكره؛ فأول الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلى » قال مع ذلك : فأين عبد الله ابن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون . فقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبى بكر فى سورة «الأنعام» عند قوله « له أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى »(1) ما يدل على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله «أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ» . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعنى والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغُوَاثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أى صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى صدْق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أى ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعنى الذين أشار إليهم ابن أبى بكر فى قوله أحْيُوا لى مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله « وقد خلت القرون من قبلى » . فأما ابن أبى بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه فى قوله «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» على ما تقدّم . ومعنى «حَقّ عليهم القولُ» أى وجب عليهم العذاب، وهى كلمة الله : "هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أى مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدّمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أى ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٨

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ٱبن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سِفالا، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إنّ وعد الله حقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو ٱختيار أبى عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسىء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكّرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقرّبون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وٱبن كثير « أأذهبتم » بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حَيْوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطوّلة على الاستفهام . الباقون بهمزةٍ واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن محيصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ، يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؛ يُوبّخ ويقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

« أذهبتم طَيِّبَاتِكُم » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ؛ يعنى المعاصى . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون الهوان . قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بغيًا وظلمًا . وقيل : « أذهبتم طيباتكم » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ، أى شبابه وقوته . قال الماوردىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأول أظهر ، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاءً وصنابا وصلائق ، ولكنى استبقى حسناتى ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذ . قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء ، سُمِّى بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصَّلاء أيضا : صلاء النار ، فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النار . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبرذون : صِنابِىّ ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو مايسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد ، قال جرير :

تُكَلِّفُنِي معيشةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالصَّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف » (١) . وأما الكراكر فكراكر الإبل ، واحدتها كِرْكِرة وهى معروفة ؛ هذا قول أبى عبيد . وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير ، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكِركِرة أيضا الجماعة من

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

الناس . وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد . قال أعشى باهلة :

تَكْفِيـــهِ حُـــزَّةُ فِلْذٍ إن ألَمَّ بهـــا * من الشِّـــواء ويُرْوِي شُرْبَهُ الغُمَرُ (١)

وقال قتـادة : ذكر لنا أن عمر رضي الله عنـه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة . ولمـا قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا! فمـا لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير! فقال خالد ابن الوليد : لهم الجنة؛ فاغرورقت عينا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم في حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مَشْرُبَته (٢) حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أُهُبًا (٣) جلودا معطونة قد سطع ريحها؛ فقلت : يارسول الله، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كِسرى وقيصر في الدِّيباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالسا وقال : "أفي شك أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيـا" فقلت : استغفر لي ! فقال : "اللهُمّ اغفر له" . وقال حفص بن أبي العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت ، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقَديد، وأقل ذلك اللحم الغريض (٤) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ؛ فجيء بخبز متفلع (٥) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنـا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال : يابن أبي العاص أما ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعنـاق (٦) سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تُخرج مَصْلِيّة (٧) كأنهـا كذا وكذا ،

---

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثاني) : القدح الصغير .

(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذي يشرب منه الناس . (وبضم الراء وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم الهمزة والهاء، وبفتحهما على غير قياس؛ جمع إهاب؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطري .

(٥) في نسخة من الأصل : « متقلع » بالقاف . والمتفلع : المشقق . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجلْ[1] ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم فى العيش! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أذهبتم طيّباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيّبا كان أو قَفارا[2] ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسّر، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنا . ومعيشة النبىّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويُعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «أجاده» .

(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

تناول الطيب الحلال مأذون فيه ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين . ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ أى آذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد ، وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقْف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا ، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف] وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج . وقيل : الحِقف جمع حِقاف . والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حقِّف أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطاة حِقف أحقَفا [(١)] *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طىَّ الليالى زُلَفًا فزلفا * سَماوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار . وقال امرؤ القيس :

كحقف النقا [(٢)] يمشى الوليدانِ فوقه * بما احتسبا من لين مَسٍّ وتَسْهالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهده ما ذكرناه . وقال قتادة : هى جبال

(١) هذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسيره الى العجاج ؛ ولم نعثر عليه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة : جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل . (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْر قريب من عدن؛ يقال : شِحْرُ عُمان وشَحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن . وعنه أيضا : ذُكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر . وقال مجاهد : هي أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها . قال النابغة :

فأصبح عاقِلًا بجبال حِسْمَى * دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتَامِ (١)

قاله الجوهري . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضا : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بوادٍ يقال له مهرة، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيّة (٢)، فيقال : إبل مَهْرِيّة ومَهارِي . وكانوا أهل عُمُدٍ سيّارة في الربيع فإذا هاجَ (٣) العود رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبي : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرق ، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره . وروى الطُّفيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خير واديَيْن في الناس وادٍ بمكة وواد نزل به آدم بأرض الهند . وشر واديَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرموت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر في الناس بئر زمزم . وشر بئر في الناس بئر بَرَهُوت ، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي مضت الرسل . ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي من قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي ومن بعده ؛ قاله الفراء . وفي قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذا من قول المرسل ، فهو كلام معترض . ثم قال هود ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل «ألا تعبدوا إلا الله» من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

(١) قال ابن برّي : «أي حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له» . (٢) في معجم البلدان لياقوت وكتب اللغة أن الإبل المهرية تنسب الى مهرة بن حيدان أبو قبيلة . (٣) هاج البقل : إذا أخذ في اليبس .

مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟
لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك . الثاني — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع ؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنة :

إن تك عَن أحسن الصنيعة مأ * فُوكًا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك نبي ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجيء العذاب . ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ لا عندى . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم . ﴿ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى سؤالكم استعجال العذاب . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ قال المبرد : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور ؛ وبيّنه قولُهُ : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أى فلما رأوا السحاب عارضا . و « عارضا » نصب على التكرير ؛ سُمّيَ بذلك لأنه يبدو فى عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » استبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهرى : والعارض السحاب يعترض فى الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أى ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا فى الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

يارُبَّ غابِطِنا لوكان يطلبكم * لاقَى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابى بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه وقائمة لن تقومه ؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأول تعريفا، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هـذا قول النحويين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُـوَ ﴾ أي قال هُودٌ لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هـو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هي ريح » أي قال الله قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم : «فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا» ثم بيّن ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عُذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هـود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظّعينة(١) فترفعها كأنها جرادة، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أول ما رأو العارض قاموا فمـدّوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهـم الريح ما بين السماء والأرض مثـل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهـم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما(٢)، ولهم أنين؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر؛ فهي التي قال الله تعـالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها . قال ابن عباس : أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدّمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شيء » من دَمَر دماراً . يقال : دمّره تدميرا ودمارا ودمّر عليـه بمعنًى . ودَمَر يَدْمُر دُمورا دخل بغير إذن . وفي الحديث : " من سبق طَرْفُه استئذانه فقد دَمَر " مخفف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبُوع تَدْمُرِيّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَواته(٣) إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .

(٣) جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

عُرف فى وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية؟ فقال: "يا عائشة، ما يُؤَمِّنُني أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" خرجه مسلم والترمذي، وقال فيه: حديث حسن. وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نُصرت بالصَّبا[(١)] وأهلكت عادٌ بالدبور". وذكر الماوردي أن القائل «هذا عارضٌ مُمْطِرنا» من قوم عاد: بكر بن معاوية؛ ولما رأى السحاب قال: إنى لأرى سحابا مرمدا، لا تدع من عاد أحداً[(٢)]. فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه فى ناديهم. قال ابن إسحاق: واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلين أعلى ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتَدْمَغُهم بالحجارة حتى هلكوا. وحكى الكلبي أن شاعرهم قال فى ذلك:

فدعا هود عليهم * دعوةً أضحَوْا همودا

عصفت ريح عليهم * تركت عاداً خمودا

سخّرت سبع ليال * لم تدع فى الأرض عودا

وعمر هود فى قومه بعدهم مائة وخمسين سنة. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة «لا يرى إلا مساكنهم» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ «ترى» بالتاء. وقد روى ذلك عن أبى بكر عن عاصم. الباقون «تَرَى» بتاء مفتوحة. «مساكنَهم» بالنصب؛ أى لا ترى يا محمد إلا مساكنهم. قال المهدوي: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذى هو المساكن المؤنثة؛ وهو قليل لا يستعمل إلا فى الشعر. وقال أبو حاتم: لا يستقيم هـذا فى اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول فى الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز لا ترى إلا زينب.

(١) الصبا (بالفتح): ريح الشمال. والدبور: ريح الجنوب.

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبرى: «خذها رمادا رمددا، لا تذر من عاد أحدا» والرمدد (بالكسر): المتناهى فى الاحتراق والدقة.

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائي : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفراء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة ؛ تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القُتَبي

وأنشد الأخفش :

يُرَجِّي المرءُ ما إن لا يراه * وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودَوْلَةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذي . و « إن » بمعنى ما ؛ والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ يعني قلوبا يفقهون بها . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من عذاب الله . ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون . ﴿ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أحاط بهم . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادي؛ والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ يريد حِجْر ثمود وقُرَى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ يعنى الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعظات ؛ أى بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن فى الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ﴾ «لولا» بمعنى هلّا ؛ أى هلّا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»(١) ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكسائىّ : القُرْبان كلُّ ما يُتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولى اتخذ الراجع(٢) إلى الذين المحذوف ، والثانى « آلهةً » . و « قُرْبَانًا » حال ، ولا يصح أن يكون « قربانا » مفعولا ثانيا . و « آلهة » بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشرىّ . وقرئ «قُرُبانا» بضم الراء . ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أى هلكوا عنهم . وقيل : « بل ضلوا عنهم » أى ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هى جماد . وقيل : ضلوا عنهم ؛ أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أى والآلهة التى ضلّت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زُلْفَى . وقراءة العامة « إِفْكُهُمْ » بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفاك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير «وذلك أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الضمير الراجع .

والفاء والكاف، على الفعل؛ أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد. والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك: أَفَكَه يأْفِكه أَفْكًا؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء. وقرأ عكرمة «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم: يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم. وذكر المهدوي عن ابن عباس أيضا «آفِكهم» بالمد وكسر الفاء؛ بمعنى صارفهم. وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه «آفَكهم» بالمد؛ فجاز أن يكون أفعلهم؛ أي أصارهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم. ودليل قراءة العامة «إفكهم» قوله ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون. وقيل «إفْكُهم» مثل «أَفَكُهم». الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر؛ قاله المهدوي.

قوله تعالى: وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش؛ أي إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصرون على الكفر. ومعنى «صَرَفنا» وجهنا إليك وبعثنا. وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب — على ما يأتي — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرفوا عنه إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النُّصْرة فقصد عبد ياليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم: هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدا؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب فما ينبغي لي أن أكلمك. ثم أغروا به سفهاءهم

---

(١) يمرط: ينزع.

وعبيدهم يسبُّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعُتبة وشَيْبة ابني ربيعة . فقال لجُمَحِيّة : "ماذا لقينا من أحمائك" ؟ ثم قال : "اللّهمّ إني أشكو إليك ضَعْف قوتي وقلّة حِيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربي ؛ لمن تَكِلُني ! إلى عبد(1) يتجهّمني(2) ، أو إلى عدوّ ملّكته أمري ! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك" .

فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانيّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعه في هذا الطبق ثم ضعه بين يدي هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم "بآسم الله" ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من أيّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك" ؟ قال : أنا نصراني من أهل نِينَوَى . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى" ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : "ذاك أخي كان نبيًا وأنا نبيّ" فآنكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبي صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سيّدي ما في الأرض خير من هذا ، أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ . ثم آنصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلي فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرِست السماء ورُمُوا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فآستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفة : بل أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(1) في سيرة ابن هشام : «بعيد» . (2) أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نِينَوى وجمعهم له؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إني أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعني"؟ فأطرقوا، ثم قال الثانية فأطرقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له «شِعْب الحَجُون» وخطّ لى خطا وأمرنى أن أجلس فيه وقال: "لا تخرج منه حتى أعود إليك". ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها، وسمعت لَغَطًا وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وغَشِيته أسْوِدة[1] كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم طَفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال: "أنمت"؟ قلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا؛ فقال: "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال: "هل رأيت شيئا"؟ قلت: نعم يا رسول الله، رأيت رجالًا سُودًا مُسْتَثْفِرِى[2] ثيابا بيضًا؛ فقال: "أولئك جنّ نَصِيبِين سألونى المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل[3] ورَوْثة وبعرة". فقالوا: يا رسول الله يُقَذِّرها الناس علينا. فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيّ الله، وما يغنى ذلك عنهم! قال: "إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل" فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لغطا شديدا؟ فقال: "إن الجنّ تدارأت[4] فى قَتِيل بينهم فتحاكموا إلىّ فقضيت بينهم بالحق". ثم تبرز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتانى فقال: "هل معك ماء"؟ فقلت يا نبيّ الله، معي إداوة[5] فيها شيء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال: "تمرة طيّبة وماء طهور". روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضا عن ابن مسعود. وليس

(١) أسودة (جمع السوّاد) والسواد والأسودات والأساود: جماعة الناس. وقيل هم الضروب المتفرقون.

(٢) الاستثفار: أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه. (٣) العظم الحائل: المتغير قد غيره البلى.

(٤) تدارأ: اختلف. (٥) الإداوة: إناء صغير من جلد.

في حديث معمر ذكر نبيذ التمر . وروى عن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا[1] فقال: ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء الزُّطّ . قال : ما رأيت شبههم إلا الجن ليلة الجن فكانوا مستفزين يتبع بعضهم بعضا . وذكر الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدثني قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن بنبيذ فتوضأ به وقال: "شراب وطهور" . ابنُ لَهِيعة لا يحتج به . وبهذا السند عن ابن مسعود أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمعك ماء يابن مسعود" ؟ فقال : معي نبيذ في إداوة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبَّ عليّ منه" . فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" تفرد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث . قال الدارقطني : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن . كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال : ما شهدت ليلة الجن . حدثنا أبو محمد بن صاعد حدثنا أبو الأشعث حدثنا بشر بن المفضل حدثنا داود بن أبي هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ قال لا . قال الدارقطني : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة راويه . وعن عمرو بن مُرَّة قال قلت لأبي عبيدة : حضر عبد الله بن مسعود ليلة الجن؟ فقال لا . قال ابن عباس : كان الجن سبعة نفر من جن نَصِيبِين فجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم . وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسعة أحدهم زَوْبعة . وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوَى . وقال مجاهد : من أهل حران . وقال عكرمة : من جزيرة الموصل . وقيل : إنهم كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين . وروى ابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال : "رفعت إليّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزِر نهرها" . وقال السهيلي : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قالوا « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وقيل في أسمائهم : شاصر[2] وماصر ومنشى

---

(١) الزط : جيل أسود من السند . وقيل : إعراب « جَتّ » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .
(٢) في كتب اللغة : « شصار » ككتاب .

وماشى والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دُرَيد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبى إسحاق السَّبِيعى عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان فى نفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها؛ فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا : ما ندرى من عمرو بن جابر! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ، وهو الحيّة التى رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولّوا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذى كفّنه هو صفوان بن المُعَطّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبى بنحوه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا فى سفر فرأينا حية متشحّطة فى دمائها، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا : أيكم دفن عَمْرًا ؟ قلنا : وما عمرو! قالوا الحية التى دفنتم فى مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبىّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيّين من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقتل . ففى هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن فى سفر ولا حَضَر الدفن ؛ والله أعلم . وذكر ابن أبى الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه فى خِبائه تَلْهَث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها ، فأتِى من الليل فسلّم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جنّ نَصِيبين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْلىّ : وبلغنا فى فضائل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلى أن عمر بن عبد العزيز كان يمشى بأرض فلاة، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح " . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

عائشة رضى الله عنها حية رأتها فى حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت فى المنام فقيل لها . إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجن الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، وآشترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلى : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجن ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس بآسم علم ؛ فإن الأسماء التى ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ آبن عساكر فى تاريخه : هامة بن الهيم[1] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمنى الجن وممن لقى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلّمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و «المرسلات» و«عمّ يتساءلون» و«إذا الشمس كُوّرت» و«الحمد» و«المعوّذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك فى دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقى نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردىّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد آبن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يُسَمِّى جِنّ نَصِيبِين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأخفر والأرد وأنيان[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أى حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض اسكتوا لآستماع القرآن . قال آبن مسعود : هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى بعض الأصول : «الأهيم» .

(٢) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التى بين أيدينا مضطربة فيها .

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قالوا أنصتوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة ، فأنزل الله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أنصتوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى متقارب . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقرأ لاحق بن حميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد ؛ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك ؟ فجاءوا وادى نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين من وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلة الجنّ ليلتان ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وفى صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتى بيانه فى « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » . وفى صحيح مسلم عن معْن قال : سمعت أبى قال سألت مسروقا من آذن[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود ـ أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(١) آذن : أعلم .

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا؛ ولذلك قالوا : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وعن ابن عباس أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت : «أُنزِل من بعدموسى» . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا يدل على أنه كان مبعوثًا إلى الجنّ والإنس . قال مُقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسوَدَ وأحِلّت لِيَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى وجُعلت لِيَ الأرض طيّبةً طهورا ومسجدًا فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاة صلّى حيث كان ونُصِرْتُ بالرُّعْب بين يدَىْ مَسِيرةِ شَهْرٍ وأُعْطِيتُ الشفاعةَ" . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجنّ والإنس . وفى رواية من حديث أبى هريرة "وبُعثت إلى الخلق كافّةً وخُتم بى النبيّون" . ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا، فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مسألة — هذه الآى تدلّ على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون: إنهم كما يعاقبون

فى الإساءة يجازَوْن فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى . وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيري : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »[1] يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال فى أول الآية : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي »[2] ــ إلى أن قال ــ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم؛ وسيأتى لهذا فى سورة « الرحمن » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم . و « أنّ » واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجز ويضعف عن إبداعهن . يقال : عَيَّ بأمره وعَيِيَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع عَيُوا ، مخففا ، وعَيُّوا أيضا بالتشديد . قال :

(١) آية ١٣٢ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة الأنعام .

عَيُّوا بِأَمرِهِمُ كما * عَيَّتْ ببيضتها الحمامهْ (١)

وعييت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه ، وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعى » بكسر العين وإسكان اليـاء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو ظلية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكةٌ * تمشى بِسُـدَّة بيتها فتُـعِى (٢)

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وَكَفَى بِاللهِ شهيدا » ، وقوله : « تَنْبُتُ بالدُّهْنِ » (٣) . وقال الكسائىّ والفرّاء والزجاج : الباء فيـه خَلَف الاستفهام والجحد فى أوّل الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقـائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقـدير : أليس الله بقادر ، كقوله تعـالى : « أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ » (٤) . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدرىّ وابن أبى إسحاق و يعقوب « يقدر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول البـاء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السَّمواتِ والأرض قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص (٢) السدّة : الفناء .

(٣) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٤) آية ٨١ سورة يس

قوله تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم . فأمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدى : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدة . وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . ويوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضر . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبي والكلبي ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام » وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(1) . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره على بن مهدى الطبرى ، قال : وإنما دخلت « من » للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البز وأكسية من الخز . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متى ؛ ألا ترى أن

(1) آية ٩٠ سورة الأنعام .

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولى مُغاضباً لقومه ؛ فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليه الحوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسل عذابي إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العذاب ببنى إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بنى إسرائيل ؛ فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين »[1] ثم ابتلى في ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيا في جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »[2] . وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة ، فقعد تحت ظلها . وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : " إنها مَعْبر فاعبروها ولا تعمروها " . فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهدا في الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : مُحْكَمَة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

---

(١) آية ١٣١ سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة الشعراء .

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب بهم ؛ فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ماعاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . فـ « بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »[(١)] ، وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ »[(٢)] . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله آبن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نهار » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لهم » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، ـ وهى رافعة ـ بشىء ليس منهما . ويجوز فى العربيـة : بلاغا وبلاغ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهارٍ بلاغٍ . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القراء « بَلِّغْ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « من نهار » ثم يبتدئ « بلغ » . ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله آبن عباس وغيره . وقرأ آبن مُحَيْصِن « فهل يَهْلِك إلا القوم » على إسناد الفعل إلى القـوم . وقال آبن عباس : إذا عَسُر على المرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسقى منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[(٣)] . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك مشرك[(٤)] . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

---

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .

(٤) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولّى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

سورة القتال، وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنيــة فى قول آبن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردى : فى قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »[1] . وقال الثعلبى : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جُبَير . وهى تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾

قال آبن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدى . وقال الضحاك : « عن سبيل الله » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت فى المُطْعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث آبن هشام ، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَىّ وأمية ابنا خلف ، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

---

(١) آية ١٣

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصة فى ناس من قريش . وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهى المواساة فى مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهى الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التى ترضى الله تعالى . ﴿ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه فى شىء ؛ قاله سفيان الثَّوْرِىّ . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أى إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿ وأَصْلَحَ بالَهُمْ ﴾ أى شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهى متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلى بالودّ أقبل بمثله * وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالى ؛ أى على قلبى . الجوهرى : والبال رخاء النفس ، يقال فلان رَخِىّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالى ، أى مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ، وليس بعربى . والبالة : وعاء الطِّيب ، فارسى معرب ، وأصله بالفارسية پيلة . قال أبو ذؤيب :

كأنّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً * لها من خلال الدَّأْيَتَيْنِ أَرِيجُ (١)

---

(١) اللطمية : العنبرة التى لطمت بالمسك ففتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأى : فقر الكاهل والظهر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وأنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ : الشركُ . والحقُّ : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى كهذا البيان الذى بيّن يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة؛ ذكره الماوردى . وآختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج أى فاضربوا الرقاب ضربا . وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفسُ صبراً . وقيل : التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب . وقال : «فضرب الرقاب» ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه .

الثانيــــة ــ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أى أكثرتم القتل . وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى : «حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ»[(1)] . ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أى إذا أسرتموهم . والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا ؛ يقال : أوثقته إيثاقا ووثاقا . وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشىء الذى يوثق به كالرِّباط ؛ قاله القشيرى . وقال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق أى شدّه، وقال تعالى : «فَشُدُّوا الوَثاق» . والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيــه . وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفلتوا . ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ . ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام، و « مَنًّا » و « فِدَاءً» نصب بإضمار فعل . وقُرئ « فَدًى » بالقصر مع فتح الفاء ؛ أى فإما أن تمنّوا عليهم منًّا ، وإما أن تفادوهم فداءً . روى عن بعضهم أنه قال : كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِىَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجاج، لاجازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال : ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال « فإذا لقيتُم الَّذِينَ كفروا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمّا فِدَاءً » فى حق الذين كفروا ؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم

فقال الحجاج : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلّوا سبيل من بقى . فخُلِّىَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل .

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

الثالثة — واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، وهى فى أهل الأوثان . لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(١) وقوله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »(٢) وقوله : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جُرَيج والعَوْفى عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزىّ : كُتب إلى أبى بكر فى أسير أُسر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا؛ فقال : اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إلىّ من كذا وكذا .

الثانى — أنها فى الكفار جميعا. وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أُسر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيرد إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية . وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبًا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » قال نسخها « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وهو قول الحكم .

الثالث — أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثَّورى عن جُوَيبر عن الضحاك « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » قال نسخها « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء « فَإِمَّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداء » . وقال الحسن أيضا : فى الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فَضَرْبَ الرِّقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ».

---

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير فى يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار فى ثلاثة منازل : إما أن يمنّ، أو يفادى ، أو يسترق .

الرابع ـ قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »(١) . فإذا أُسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

الخامس ـ أن الآية محكمة ، والإمام مخيّر فى كل حال؛ رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك؛ قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَةَ بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ، وفادى سائر أسارى بدر، ومنّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفى وهو أسير فى يده، وأخذ من سلمة بن الأَكْوَع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين ، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم ، وقد منّ على سَبْيِ هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقد مضى جميعه فى (الأنفال)(٢) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، إذا كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيه الصلاح للمسلمين . وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعى وأبى عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبًا عن أبى حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عز وجل التوفيق .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السلام . وعن مجاهد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام ؛ فيُسْلِم كلّ يهودىّ ونصرانى وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب . ونحوه

---

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

عن الحسن والكلبي والفراء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب، أى الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورَا
ومن نَسج داود يحدى بها * على أثر الحىّ عِيرًا فعيرًا (١)

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى أثقالها . والوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها. قال ابن العربى: « قال الحسن وعطاء: فى الآية تقديم وتأخير؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمَرَنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس فى تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على ما تقدّم ؛ أى الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام؛ وهو كما قال تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٢) » . أى هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لانتصر منهم » أى أهلكهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت فى الأصول . وروايته فى كتاب « الأعشين » :

ومن نسج داود موضونة * تساق مع الحى عيرا فعيرا

والموضونة : الدرع المنسوجة . وفى شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...

(٢) آية ٥٥ سورة ص .

ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة . ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين ؛ كما فى السورة نفسها . ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قراءة العامة « قاتلوا » وهى اختيار أبى عبيد . وقرأ أبو عمرو وحفص « قُتِلوا » بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدد التاء على التكثير . وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعنى الذين قتلوا المشركين . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هُبَلُ . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا سواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون " . فقال المشركون : إن لنا العزّى ولا عُزّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم . وقد تقدم ذكر ذلك فى (آل عمران)(1) .

قوله تعالى : سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

قال القشيرى : قراءة أبى عمرو « قُتِلوا » بعيدة ؛ لقوله تعالى : « سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ » والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدى من بقى منهم ؛ أى يحقق لهم الهداية . وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر . قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » . ومنه قوله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ »(2) معناه فاسلكوا بهم إليها .

قوله تعالى : وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ (2) آية ٢٣ سورة الصافات .

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحة هذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا][(1)] حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه][(1)] بمنزله فى الدنيا " . وقيل : « عرَّفها لهم » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عَرَّف طرقها ومساكنها و بيوتها لهم ؛ فحذف المضاف . وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكّل بعمل العبد يمشى بين يديه و يتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، و يعرّفه المَلَك جميع ما جعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس « عرّفها لهم » أى طيّبها لهم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام مُعَرَّف أى مطيَّب ؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا و يمدحه .

* عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللّطائم[(2)] *

يقول : كما عَرُف الإتْب ، وهو البقير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمَّين له تلبسه النساء . وقيل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال : حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيل : « عرّفها لهم » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرف المطيعين أنها لهم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقد تقدم (١) . وقال قُطْرب : إن تنصروا نبىّ الله ينصركم الله ؛ والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب . وقد مضى فى « الأنفال » (٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا ؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ » (٣) ثم نفاها بقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » (٤) . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » (٥) ومثله كثير ؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء ، والنصب بما يفسّره « فَتَعْسًا لَهُمْ » كأنه قال : أتعَس الذين كفروا . و « تعسًا لهم » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء ، مثل سَقيًا له ورَعيًا . وهو نقيض لَعًا (٦) له . قال الأعشى :

* فالتَّعْس أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا (٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأوّل — بُعْدًا لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جُريج . الثانى — حزنًا لهم ؛ قاله السدى . الثالث — شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد . الرابع — شَتْمًا لهم من الله ؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكا لهم ؛ قاله ثعلب . السادس — خَيْبَةً لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحا لهم ؛ حكاه النقاش . الثامن — رغما لهم ؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع —

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة .
(٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع . (٧) فى اللسان وكتاب الأعشين : «أدنى» بدل «أولى» . وصدره :
* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *
واللوث (بالفتح) : القوّة . وعفرناة : قوية .

شرًا لهم، قاله ثعلب أيضا . العاشر - شقوة لهم، قاله أبو العالية . وقيل : إن التّعس الانحطاط والعثار . قال ابن السِّكِّيت : التعس أن يخرّ على وجهه . والنُّكس أن يخرّ على رأسه . قال: والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْسًا، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أتعستَني يا مُجَمِّعُ

يقال : تعسًا لفلان، أي ألزمه الله هلاكا . قال القُشَيْرِيّ : وجوز قوم تَعِس (بكسر العين).

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض" خرّجه البخاري . في بعض طرق هذا الحديث "تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش[2]" خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان . ودخلت الفاء في قوله « فَتَعْسًا » لأجل الإبهام الذي في « الذين »، وجاء « وأضل أعمالهم » على الخبر حملا على لفظ الذين ؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حَمْلًا على المعنى ، وأضل حملا على اللفظ .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس ، لأنهم ﴿كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾

---

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله « شيك » أي أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يسير هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمره تدميرا، ودمّر عليه بمعنى . ثم تواعد مشركى مكة فقال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

أى وليهم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا » . فالمولى : الناصر هاهنا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه * مولى المخافة خلفها وأمامها (١)

قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم فى الشعب، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدم (٢) . ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

---

(١) البيت من معلقة لبيد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف ، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدّم فى غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ فى الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غدهم . وقيل: المؤمن فى الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام فى « كأين » فى (آل عمران)(1) . وهى هاهنا بمعنى كم ؛ أى وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاح قيْد للاسير المكبّل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أى أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجونى لما خرجت منك " . فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى « على بينة » أى على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة الوَحْى . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال « سُوء » على لفظ « مَن » « واتبعوا » على معناه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزوجل : « إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات؛ أى صفة الجنة المعدّة للمتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى «الرعد»(1) . وقرأ علىّ بن أبى طالب «مِثال الجنة التى وعِد المتقون» . ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى غير متغيّر الرائحة . والآسن من الماء مثلُ الآجن . وقد أَسَن الماء يأسُن ويأسِن [أسْنًا و] أُسُونا إذا تغيّرت رائحته . وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْنًا وأُجونا . ويقال بالكسر فيهما : أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أسَنًا وأجَنًا؛ قاله اليزيدى . وأسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)(2) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشى عليه أو دار رأسُه . قال زُهير :

قد أترك القِرن(3) مُصْفَرًّا أناملُه * يَميد فى الرُّمح مَيد المائح الأَسِن

ويروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللّحيانى : إذا نزع إليه فى الشبه . وقراءة العامة « آسن » بالمدّ . وقرأ ابن كثير وحُميد « أسِن » بالقصر، وهما لغتان؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسِن للحال، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (2) أى فى الماضى . (3) وفيه رواية أخرى : « يغادر القرن »

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة . (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) أى لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها(١) الأيدى كخمر الدنيا ، فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون . يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى . واستلذّه عدّه لذيذا . (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) العسل ما يسيل من لُعاب النحل . « مُصَفًّى » أى من الشمع والقذى ، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل . وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقّق الأنهار بعدُ " . قال : حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " . وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سَيْحان نهر عسلهم . وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر . والعسل : يذكر ويؤنث . وقال ابن عباس : «من عَسَلٍ مُصَفًّى» أى لم يخرج من بطون النحل . (وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) « مِن » زائدة للتأكيد . (وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) أى لذنوبهم . (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) قال الفراء : المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد فى النار . فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » . وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم . ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم . (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا) أى حارا شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم ؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم . والأمعاء : جمع مِعًى ، والتثنية معيان ، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا .

---

(١) رنّق الماء : كدره .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام، وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت(١) والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشُم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أى إذا فارقوا مجلسكَ . ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال ابن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى الآن ؛ على جهة الاستهزاء . أى أنا لم ألتفت إلى قوله . و «آنفا» يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف، وروضة أُنُف؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أُنُف : إذا لم يُشرب منها شيء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر(٢) :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنفَ القِصاع

(١) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : «اللُّصيت» بالتاء المثناة من فوق . وفى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أول ص ١٦٩٩) : «اللصيب» بالباء الموحدة . (٢) هو الحطيئة .

وقال آخر[١] :

إن الشِّواء والنَّشيل والرُّغُف * والقَيْنَة الحسناءَ والكأسَ الأُنُف

* للطاعنين الخيل والخيل قُطُف[٢]

وقال امرؤ القيس :

* قد غَدَا يحملني في أنفه[٣] *

أي في أوّله . وأَنْفُ كلّ شيء أوّله . وقال قتادة في هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع . وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ في الكفر . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى . وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هدى . وقيل : ما يستمعونه من القرآن هدى ؛ أي يتضاعف يقينهم . وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثاني — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم ؛ قاله الكلبيّ . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي ألهمهم إياها . وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها — آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع . الثاني — ثواب تقواهم في الآخرة ؛ قاله السدّيّ . الثالث — وفّقهم للعمل الذي فرض عليهم ؛ قاله مقاتل . الرابع — بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّيّ أيضا . الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية . الماورديّ : ويحتمل . سادسا —

---

(١) هو لقيط بن زرارة . والنَّشيل : ما طبخ من اللحم بغير تابل . والرغف جمع رغيف . ويقال : أرغفة ورغفان .

(٢) في الأصول : « حنف » والتصويب عن اللسان مادة « قطف » . وقد ورد هذا الشطر في اللسان مادة « نشل » : « للضاربين الهام والخيل قطف » . وقطفت الدابة : أساءت السير وأبطأت .

(٣) تمامه : * لاحق الأيطل محبوك ممرّ *

أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أماراتها وعلاماتها . وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء؛ فبعثه من أشراطها وأدلتها ؛ قاله الضحاك والحسن . وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضم السبابة والوسطى ؛ لفظ مسلم . وخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه . ويروى " بعثت والساعة كفرسى رهان " . وقيل : أشراط الساعة أسبابها التى هى دون معظمها . ومنه يقال للدون من الناس: الشَّرَط . وقيل: يعنى علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها . ومنه الشَّرْط فى البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزمعتِ بالصُّرْم بيننا * فقد جعلت أشراط أوله تبدو

ويقال : أشرط فلان نفسه فى عمل كذا أى أعلمها وجعلها له . قال أوس بن حجر يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة[1] يقطعها ليتخذ منها قوسا :

فأشْرَط نفسه فيها وهو مُعْصِمٌ * وألقى بأسبابٍ له وتوكّلا

---

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِيّ .

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : «رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ»(١) . وقرئ « بَغَتَّة » بوزن جَرَبَّة(٢) ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها؛ وهي مروية عن أبي عمرو . الزمخشري : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتَة » بفتح الغين من غير تشديد؛ كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة « إنْ تَأْتِهِم بغتة » . قال المهدوي : ومن قرأ « إن تأتِهِم بغتة » كان الوقف على « الساعة » ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكّوا في مجيئها « فقد جاء أشراطها » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ «ذكراهم» ابتداء و«أنّى لهم» الخبر. والضمير المرفوع في « جاءتهم » للساعة؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفي الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثاني — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك " ذكره الماوردي .

قوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قال الماوردي : وفيه — وإن كان الرسول عالما بالله — ثلاثة أوجه : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثاني — ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . الثالث — يعني فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حُمُر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة .

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « اعلَمُوا أنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ ــ إلى قوله ــ سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم(١) » وقال : « وَاعْلَمُوا أنَّمَا أمْوَالُكُمْ وَأوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ(٢) » . ثم قال بعدُ : « فَاحْذَرُوهُم(٣) » . وقال تعالى : « وَاعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأنَّ للهِ خُمُسَهُ(٤) » . ثم أمر بالعمل بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما ــ يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني ــ استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية . أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمْعًا(٥) [عليه](٦) خيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها ــ يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم . الثاني ــ « متقلبكم » في أعمالكم نهارا « ومثواكم » في ليلكم نياما . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤١ سورة الأنفال . (٥) يريد مثل جمع الكف، وهو أن يجمع الأصابع و يضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال، وهو الشامة في الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول، وهي حبيبات تعلو الجسد .

« متقلبكم » فى الدنيا . « ومثواكم » فى الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : « متقلبكم » فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . « ومثواكم » مقامكم فى الأرض . وقال ابن كيسان : « متقلبكم » من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . « ومثواكم » فى القبور .

قلت : والعموم يأتى على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شىء من حركات بنى آدم وسكناتهم ، وكذا وجميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخرى . سبحانه ! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحى وحرصا على الجهاد وثوابه . ومعنى «لولا» هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين . وفى قراءة عبد الله « فإذا أنزلت سورة مُحْدَثَة » أى محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أى فرض فيها الجهاد . وقرئ « فإذا أنزلت سورة وذَكَر فيها القتالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا ، ولميلهم فى السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فأولى لهم » قال الجوهرى : وقولهم : أَوْلَى لك ، تهدّد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل للدَّرّ يُحْلَب من مَرَدّ

قال الأصمعي : معناه قاربه مايهلكه ؛ أي نزل به . وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها * وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد في « أولى » أحسن مما قال الأصمعي .

وقال المبرد : يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت : أولى لك ؛ أي قاربت العطب . كما روى أن أعرابيا كان يوالي رمى الصيد فيفلت منه فيقول : أولى لك . ثم رمى صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أولى يطعم القوم صدتهم * ولكن أولى يترك القوم جوعا

وقيل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أي شيء فاتك ! وقال الجرجاني : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل ، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام . وقد تم الكلام على قوله : « فأولى لهم » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أولى لهم . وقيل : أي وليهم المكروه . ثم قال : « طاعة وقول معروف » أي طاعة وقول معروف أمثل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على « فأولى لهم » . وكذا من قدر يقولون منا طاعة . وقيل : إن الآية الثانية متصلة بالأولى . واللام في قوله « لهم » بمعنى الباء ؛ أي الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله . وهي قراءة أبي « يقولون طاعة » . وقيل : إن « طاعة » نعت لـ « سورة » ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فأولى لهم » . وقال ابن عباس : إن قولهم « طاعة » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين . والمعنى لهم طاعة وقول معروف قبل وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فأولى » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي جد القتال ، أو وجب فرض القتال ، كرهوه . فكرهوه جواب « إذا » وهو محذوف . وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر . ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أي في الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

قوله تعالى : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى « إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا . وقال الكلبي : أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . وقيل : « فهل عسيتم » أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى في « البقرة » القول فيه مستوفى[1] . وقال بكر المزني : إنها نزلت في الحرورية والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عني بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء ، قالا : نزلت في بني أمية وبني هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض » — ثم قال — هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ علي بن أبي طالب « إن تُوُلِّيتم أن تفسدوا في الأرض » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤

يعقوب . يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحاربتموهم . ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتل . وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم « وتَقْطعوا » بفتح التاء وتخفيف القاف ، من القطع ؛ اعتبارا بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »(١) . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وتَقَطَّعوا » مفتوحة الحروف مشددة ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بينهم »(٢) . الباقون « وتُقَطِّعوا » بضم التاء مشددة الطاء ، من التقطيع على التكثير ؛ وهو اختيار أبى عبيد . وتقدم ذكر «عسيتم» فى (البقرة)(٣) . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز «عَسِى» بالكسر . قال الجوهرى : ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك ، وعَسِيت بالكسر . وقرئ «فهل عَسِيتم» بالكسر .

قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة »(٣) مستوفى .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته . (فَأَصَمَّهُمْ) عن الحق . ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أى قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبار بأن من فعل ذلك حقت عليه لعنته ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه ؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فهل عسيتم » ثم قال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها" . وأصل القُفْل اليُبْس والصلابة . ويقال لما يبس من الشجر : القُفْل . والقفيل مثله . والقفيل أيضا نبت . والقفيل : الصوت . قال الراجز :

لما أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا

* كيف قريْتَ شيخك الأَزَبَّا(٤) *

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) جـ ٣ ص ٢٤٤

(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر.

القِرْشَب (بكسر القاف) : المسن ؛ عن الأصمعي . وأقفله الصوم أي أيبسه ؛ قاله القشيري والجوهري . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان . أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر ؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال : « على قلوب » لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة . والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها .

الثالثة — في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هذا مَقام العائذ من القطيعة . قال نعم أما تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم «فهل عَسَيتم إن تَوَلّيتم أن تُفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها»" . وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار . وقال قتادة وغيره : معنى الآية فلعلكم ، أو يخاف عليكم ، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء . قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تَوَلّوا عن كتاب الله تعالى ! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن . فالرحم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان ، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » [1] . وعلى قول الفراء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية ؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا ؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك يوجب القتال . وبالجملة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ؛ فالعامة رَحِم الدِّين ، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم ، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم . وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة ؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم ،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رحم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدّثنا شعبة قال أخبرنى محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسيء إلىّ فيجيبها ربها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رَحِم . ورواه البخارى .

الرابعة ـ قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدّم(1) . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هذا خَلْقُ الله »(2) أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهم " كمل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرَّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما ـ أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثواب مَن وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين ، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما ـ

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ (2) آية ١١ سورة لقمان .

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ — ثم قال — وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(١) . وقوله : "فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة" مقصود هـذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من استجار به فأجاره ، وأدخله في ذمتـه وخُفارته(٢) . وإذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهـدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرّحم : "أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك" . وهذا كما قال عليه السـلام : "ومن صلى الصبح فهو في ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يكبّه في النار على وجهه" .

قوله تعـالى : إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعـد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن . ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي مدّ لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال : إن الذي أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضـل . وقال الكلبيّ ومُقاتل : إن معنى « أملى لهم » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال في عذابهم . وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدَري ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملي لهم . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الذمام .

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهدوى : ومن قرأ « وأَمْلِى لهم » فالفاعل اسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ وتُسَبِّحُوهُ »(1) ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول .

* قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه. وقراءة العامة « أسرارهم » بفتح الهمزة، جمع سِرّ ؛ وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « إسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر، نحو قوله تعالى: « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »(2) جُمع لاختلاف ضروب السّرّ .

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم. ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »(3) . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله

---

(1) آية ٩ سورة الفتح . (2) آية ٩ سورة نوح . (3) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك فى القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعنى الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدم .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ؛ يعنى المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ؛ فقال السدى : غشهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قُطْرُب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضغن . قال :

* وذى ضِغن كففت النفس عنه *

وقد تقدم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو * عليك ويخرج الداء الدفينا

قال الجوهرى : الضغن والضغينة : الحقد . وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضِغْناً . وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد . واضْطَغَنْت الصبىّ إذا أخذته تحت حضنك . وأنشد الأحمر :

* كأنه مُضْطَغِنٌ صَبِيّا *

أى حامله فى حجره . وقال ابن مُقْبل :

إذا اضطغنتُ سلاحى عند مَغْرِضها * ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا (١)

وفرس ضاغنٌ لا يعطى ما عنده من الجَرْى إلا بالضرب . والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أى لعرّفناكهم . قال ابن عباس : وقد عرّفه إيّاهم فى سورة « براءة » (٢) . تقول العرب : سأريك ما أصنع ؛ أى سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : « بما أراكَ الله » (٣) أى بما أعلمك . ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم . قال أنس : ما خفى على النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؛ كان يعرفهم بسيماهم . وقد كنا فى غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم (٤) الناس ، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم . وقال ابن زيد : قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأَبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله ، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أى فى فحواه ومعناه . ومنه قول الشاعر :

* وخير الكلام ما كان لحنَا *

أى ما عُرِف بالمعنى ولم يُصَرَّح به . مأخوذ من اللحن فى الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب ، ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أى أذهب بها فى الجواب لقوته على تصريف الكلام . أبو زيد :

(١) المغرض : جانب البطن أسفل الأضلاع . و « رئاس السيف » : مقبضه . و « الشاسف » : اليابس من الضمر والهزال . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦ . (٣) آية ١٠٥ سورة النساء .

(٤) فى نسخ الأصل : « يشكونهم » .

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عنى (بالكسر) يلحنه لحنا أى فهمه. وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس فاطنتهم؛ قال الفَزَارِيّ:

وحديثٍ أَلَذُّه هــو ممـا * يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيـا * نًا وخير الحديث ما كان لحنَا

يريد أنهـا تتكلم [بشىء] وهى تريد غيره، وتُعَـرِّض فى حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: «ولتعرفنهم فى لحن القول». وقال القَتَّال الكِلاَبِيّ:

ولقد وَحَيْتُ (1) لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمـرتاب

وقال مرار الأسدى:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابنى * صدودُك تُرْضين الوشاةَ الأعاديَا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليـه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم. قال أنس: فلم يَخْفَ منافق بعـد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ عَرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منها.

قوله تعـالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور. وقيل: لنعاملنكم معاملة المختبرين. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّىٰ نَعْـلَمَ» حتى نميز. وقال علىّ رضى الله عنه. «حتى نعلم» حتى نرى. وقـدْ مضى

(1) فى اللسان: «لحنت».

فى « البقرة »[(١)]. وقراءة العامة بالنون فى « نَبْلُوَنَّكُمْ » و « نعلم » « وَنَبْلُوَ ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من « نبلو » على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : « حَتَّى نَعْلَمَ » . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ؛ فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضيل بن عِياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللّهمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » الآية[(٢)]. ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ أى عادّوه وخالفوه . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى علموا أنه نبىّ بالحجج والآيات . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ بكفرهم . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهرى : بالكبائر. ابن جُريج : بالرياء والسمعة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية . (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

وقال مقاتل والثمالي : بالمنّ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسلامه . وكله متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانيـــة ـــ احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع ـــ صلاةً كان أو صوما ـــ بعـد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنــه . وقال من أجاز ذلك ـــ وهو الإمام الشافعيّ وغيره ـــ : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع ، والتطوّع يقتضي تخييرا . وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار . وقـد مضى في « البقـرة » الكلام فيه[1] . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القليب[2] . وحكمها عام .

قوله تعـالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ و وَهَنَهُ غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إنني لست بمَوْهُونٍ فَقِرْ[3] *

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا عجز بيت لطرفة ، وصدره :

* وإذا تلسنني ألسنها *

ووهن أيضا (بالكسر) وَهْنًا أى ضعف ، وقرئ « فما وِهِنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)[1] .

الثانيــة ــ قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى الصلح . ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثــة ــ واختلف العلمــاء فى حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقــوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا »[2] ؛ لأن الله تعــالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَــا » مخصوص فى قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هــذا المعنى مستوفى[2] . ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ أى بالنصر والمعونة ، مثل « وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[3] . ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَرَه يَتِره وَتْرًا وتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله " أى ذهب بهما . وكذلك وَتَرَه حقّه أى نقصه . وقوله تعالى : « وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ؛ وأنت تريد فى البيت ؛ قاله الجوهرى . الفرّاء : « ولن يَتِرَكُم » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال . راجع جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ٦٩ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدم فى « الأنعام »(1) . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها فى الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق فى سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة . نظيره «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»(2) الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحفى بالمسئلة وألحف وألحّ بمعنى واحد . والحَفِيّ المستقصى فى السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء فى الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى فى أخذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصن وحُمَيد « وتَخْرُج » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانُكُم » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبى عمرو « ويخرجُ » بالرفع فى الجيم على القطع والاستئناف . والمشهور عنه « ويُخْرِج » كسائر القراء ، عطف على ما تقدّم .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(1) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (2) آية ٥٧ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أى هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدعون ﴿ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى على نفسه ؛ أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليها . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذى عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المدينى أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيّا لتناوله رجال من فارس". وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبى : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِينًا ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبرى : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبى موسى الأشعرى أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحبّ إلىّ من الدنيا " . والله أعلم .

سورة الفتح

مدنية بإجماع، وهى تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة فى شأن الحُدَيْبِيَة.
روى محمد بن إسحاق عن الزهرى عن عُرْوة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحُدَيْبِيَة من أولها إلى آخرها. وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب : ثَكِلَتْ أمّ عمر، نَزَرْتَ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر : فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن، فما نَشِبْتُ[2] أن سمعت صارخًا يصرخ بى؛ فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه؛ فقال : "لقد أنزلت علىّ الليلة سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — «إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا»". لفظ البخارىّ. وقال الترمذى : حديث حسن غريب صحيح. وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال : لما نزلت «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. ليغفر لك اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما — إلى قوله — فوزا عظيما» مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهَدْىَ بالحديبية، فقال : "لقد أنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعا". وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شمتوا النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى : «وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ» وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : «إنا فَتَحْنَا لك فَتْحًا مُبِينًا لِيغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر». ونحوه قال مقاتل

---

(١) أى ألححت عليه وبالغت فى السؤال.
(٢) أى ما لبثت وما تعلقت بشىء.

ابن سليمان : لما نزل قوله تعالى : « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت على سورة ما يسرني بها حُمْرُ النَّعَم" . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح فى أول ليلة من رمضان فى صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)

اختلف فى هذا الفتح ما هو؟ ففى البخارى حدثنى محمد بن بشار قال حدثنا غُنْدَر قال حدثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال : الحُدَيْبِيَة . وقال جابر : ما كنا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال الفرّاء[(٢)] : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا نَعُدّ مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة[(٣)] ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمجّ فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح و يسألوكم القضية و يرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا" . وقال الشعبي فى قوله تعالى « إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، و بويع بيعة الرضوان ،

---

(١) آية ٩ سورة الأحقاف . (٢) فى تفسير الطبرى : « البراء » .

(٣) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْىُ مَحِلَّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعَوْفى : هو فتح خَيْبَر . والأول أكثر، وخَيْبَرُ إنما كانت وعدًا وُعِدوه، على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سيقول الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ »[1] ، وقوله «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ »[2] . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف[3] فوجدنا نبى الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَمِيم[4] ، فلما اجتمع الناس قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح". فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى « فَتْحًا » يدل على أن مكة فتحت عَنْوة[5]؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على مافتح عَنْوةً . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال: فُتح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها[6] ، ويأتى .

قوله تعالى : لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

(١) آية ١٥ من هذه السورة. (٢) آية ٢٠ من هذه السورة. (٣) الإيجاف : سرعة السير.
(٤) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (٥) أى فتحت بالقتال ، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها .
(٦) راجع جـ ٨ ص ٢

قال ابن الأنبارى : «فَتْحاً مُبِيناً» غير تام؛ لأن قوله « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ، فيجمع الله لك به ما تقرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستانى : هى لام القَسَم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزّمخشرىّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر » مَرْجِعَه من الحديبية ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت علىّ آية أحبّ إلى مما على وجه الأرض " . ثم قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك ؛ فماذا يُفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ – حتى بلغ – فَوْزًا عَظِيمًا » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجَمِّع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» فقيل : « ما تقدّم من ذنبك » قبل الرسالة . « وما تأخر » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسفيان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح – إلى قوله – توّابا » . « لِيغفِر لك اللهُ ما تقدم مِن ذنبِك » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ» إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : «لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» ماعملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ» كل شىء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان الصغائر(1) على الأنبياء فى سورة « البقرة » ؛ فهذا قول . وقيل :

(1) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

« ما تقدّم » قبل الفتح . « وما تأخّر » بعد الفتح . وقيل : « ما تقدم » قبل نزول هـذه الآية . « وما تأخر » بعـدها . وقال عطاء الخُراسانىّ : « ما تقـدّم من ذنبك » يعنى من ذنب أبويك آدم وحوّاء . « وما تأخّر » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وما تأخّر » من ذنوب النبيين . وقيل : « ما تقدّم » من ذنب يوم بَدْر . « وما تأخّر » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو ويقول : " اللّهُمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبَد فى الأرض أبدا " وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخرفيوم حُنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبى سفيان : " ناولانى كفًّا من حَصْباء الوادى " فناولاه فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال : " شاهت الوجوه . حم . لا ينصرون " فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى فى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : " لو لم أرمهم لم ينهزموا " فأنزل الله عز وجل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى »(1) فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو على الرُّوذْبَارِىّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : فى الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

---

(1) آية ١٧ سورة الأنفال .

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »[1] . وتقدم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »[2] . وقال ابن عباس : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقًا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينامع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «لِيدخل» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « لِيغفر لك الله ». ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاةً من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيغفر لك الله ما تقدّم مِن ذنبك وما تأخّر » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنّات » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت «وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»[3] فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صِراطا مستقيماً» نزل فى حق الأمة « وَيَهْدِيَكُمْ صِراطًا مستقيمًا »[4] . ولما قال « وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠

(٣) آية ٣ سورة المائدة . (٤) آية ٢٠ من هذه السورة .

المؤمنين» (١) . وهو كقوله تعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» (٢) . ثم قال : «هو الذي يصلي عليكم» (٣) ذكره القشيري .

قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي بإيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبي عليه السلام قتلا وأسرا واسترقاقا. ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني ظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : «بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا» . وقال الخليل وسيبويه : «السوء» هنا الفساد . ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي والأسر، وفي الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السوء» بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهري : ساءه يسوءه سوءا (بالفتح) ومساءة ومسائية، نقيض سره، والاسم السُّوء (بالضم). وقرئ «عليهم دائرة السُّوء» يعني الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . تقدم في غير موضع جميعه، والحمد لله . وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

---

(١) آية ٤٧ سورة الروم . (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « ولله جنود السموات » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير[1] هذا المعنى مبيّنا . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى « البقرة »[2] اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء ، وكذلك « يعزّروه ويُوَقِّروه ويُسَبِّحوه » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إن الذين يبايعونك » الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تعظموه وتفخّموه ؛ قاله الحسن والكلبي . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحدّ ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِيّ :

---

(١) يلاحظ أن الذى مضى فى سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

الا بَكَرَتْ مَىٌّ بِغَيْرِ سَفَاهَةٍ * تُعاتِبُ والمودودُ ينفعه العَزر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه . (وَتُوَقِّرُوهُ) أى تسوّدوه؛ قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير : التعظيم والتّرزين أيضا . والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام، ثم تبتدئ « وتسبحوه » أى تسبحوا الله (بُكْرَةً وأَصِيلًا) أى عَشِيًّا . وقيل : الضمائر كلّها لله تعالى ؛ فعلى هذا يكون تأويل « تعزروه وتوقروه » أى تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . وٱختار هذا القول القشيرى . والأوّل قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو « وتسبّحوه » من غير خلاف . وبعضه راجعا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو «وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ» أى تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة. وفى«تسبحوه» وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح . والثانى — هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح . « بُكْرَةً وأَصِيلًا » أى غُدْوة وعشيًّا . وقد مضى القول فيه(١) . وقال الشاعر :

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ * وأجلس فى أفيائه بالأصائلِ(٢)

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ) بالحُدَيْبِيَة يا محمد . (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسلم إنما هى بيعة الله ؛ كما قال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »(٣) . وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان؛ على ما يأتى بيانها فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) قيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة . وقال الكلبيّ : معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٨ . (٢) البيت لأبى ذؤيب . (٣) آية ٨٠ سورة النساء .

من البيعة . وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم . ﴿ فَمَن نَكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النكث عليه؛ لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب. ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرى « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسنؤتيه » بالنون . واختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غفار ومُزينة وجُهينة وأسلم وأشجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَدْىَ ؛ ليعلم الناس أنه لايريد حربًا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلَّف المتروك . وقد مضى فى « براءة »[(1)] . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٦

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرّا . و بالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل : هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغَنيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر و يعجل لهم النفع .

قوله تعالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا . ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلة رأس[1] لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا التزيين من الشيطان، أو يخلق الله ذلك فى قلوبهم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لا ينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى؛ قاله مجاهد . وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير . قال الجَوْهَرِىّ : البُور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِىّ :

يا رسول المليك إن لسانى * راتق ما فَتَقْتُ إذ أنا بور

وامرأة بُور أيضا ؛ حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى: «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول . وقد بار فلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارًا ؛ قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوك الرجال وقد * يهدى الإله سبيل المَعْشَر البور[2]

أى الهالك .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول محرّفا .

قوله تعالى : وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

أى هو غنيّ عن عباده، و إنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن و يعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعنى مغانم خيبر ؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خَيْبَر ، وأنها لهم خاصّة من غاب منهم ومن حضر . ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ؛ أى يَدَعُه . وأصله وَذِرَه يَذَرُه مثال وَسِعه يَسَعُه . وقد أُمِيت صدره (١) ، لا يقال : وَذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : «والعرب قد أماتت المصدر من « يذر » والفعل الماضى ، فلا يقال . ... » الخ .

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيّروا . قال ابن زيد : هو قوله تعالى « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » الآية [(١)] . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغيّروا وعد الله الذى وعد لأهل الحُدَيْبِيَة ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبري وعليه عامة أهل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم . الباقون « كلام » على المصدر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » [(٢)] . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير . والكَلِم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق . ولهذا قال سيبويه : « هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمُ من العربية » ولم يقل ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة . وتَمِيمٌ تقول : هى كِلْمة ، بكسر الكاف، وقد مضى فى « براءة » القول فيها [(٣)] . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى «فسيقولون بل تحسدوننا» فقال الله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدِّين إلا قليلا ؛ وهو ترك القتال .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .
(٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٩

قوله تعالى : قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى لَيْلَى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن ابن أبى ليلى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال ابن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْنَ إلى قوم أُولِى بأس شديد » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردّه .

الثانية ـ فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال « لن تخرجوا معِىَ أبدًا ولن تقاتلوا معِىَ عدوًّا »[(١)] فدلّ على أن المراد بالداعى غير النبى صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . الزَّمَخْشَرِى : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب فى الدِّين .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم فى المغنم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على « تقاتلونهم » أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة وإما الإسلام؛ لا ثالث لها . وفى حرف أُبَىّ « أو يُسلموا » بمعنى حتى يُسلموا؛ كما تقول : كُلْ أو تشبع؛ أى حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عينُك إنما * نحاول مُلْكاً أو نموت فنُعذَرا[(1)]

وقال الزجاج : قال « أو يسلمون » لأن المعنى أو هم يسلمون من غير قتال . وهذا فى قتال المشركين لا فى أهل الكتاب .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عامَ الحُدَيْبِيَة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لما نزلت « وإِنْ تَتَوَلَّوْا كما تَوَلَّيْتُمْ من قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت « ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ » أى لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى فى « براءة » وغيرها الكلام فيه مُبيَّناً[(2)] . والعَرَج : آفة تعرض لرجل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثراً فعلل الرِّجلين أولى أن يؤثر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

---

(١) البيت لامرئ القيس .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ وجـ ١٢ ص ٣١٢

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أي من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل .
﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « ندخله » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدم اسم الله أولا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غزوة بني المُصْطَلِق في شوال ، وخرج في ذي القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتي . وساق معه الهَدْيَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب ، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم » فورد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »(١) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكعبي ، فسلك طريقا يخرج به في ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم ، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التي مع خالد ، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ،

---

(١) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خَلَأَتْ ! خلأتْ[١] ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما خلأتْ وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطَّة يسألونى فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها " . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنَانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرُّوَاء[٢] حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسهم فى القَلِيب البراء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا ويخرج ، وعلى أن يكون بينه و بينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس و يأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدَّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا ؛ فقال لأصحابه . " اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه " فأنس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلا بد أن تكتب : باسمك اللهمّ . فقال لعلى وكان يكتب صحيفة الصلح : " امح يا على ، واكتب باسمك اللهمّ " فأبى على أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعرضه علىّ " فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

---

(١) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة . (٢) الرواء : الكثير .

يكتب « من محمد بن عبد الله » . وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسُف فى قيوده، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ؛ فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل "أنّ الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألّا يفِرّوا . وهى بيعة الرضوان تحت الشجرة، التى أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال : أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فبايعناه وعمرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة(١)، وقال : بايعناه على ألّا نفِرّ ولم نبايعه على الموت . وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرَة ؛ فبايعناه ، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبى الجعد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألف لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة . وفى رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبى أوفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة، وكانت أسلَم ثُمُن المهاجرين . وعن يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة: على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت. وعن البراء بن عازب قال : كتب علىّ رضى الله عنه الصلح بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين المشركين يوم الحديبية ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

---

(١) السمرة : شجر الطلح .

لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ: "امحه". فقال: ما أنا بالذى أمحاه،(١) فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح الا جُلُبّان السلاح .[قلت لأبى إسحاق: وما جُلُبّان السلاح ؟ قال :](٢) القِراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله(٣) ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهُمّ . فقال : " اكتب من محمد رسول الله " قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اكتب من محمد بن عبد الله " فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله، أنكتب هذا! قال "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".

وعن أبى وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفّين فقال يأيها الناس ، اتّهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال " بلى " قال . أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال " بلى " قال ففيم نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال " يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضَيّعَنِى الله أبدا" قال : فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظًا فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى، قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال : يابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا. قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى

---

(١) أمحاه : لغة فى أمحوه . (٢) زيادة عن مسلم . (٣) قوله : « أما باسم الله ... » أى فنحن ندريه . وأما البسمله التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ؛ فقال : يا رسول الله ، أوَ فَتْحٌ هو ؟ قال " نعم " . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء . وقال ابن جُريج وقتادة : من الرضا بأمر البيعة على ألا يفروا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . ﴿ فأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما في قلوبهم » من الكآبة بصد المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك رؤيا منام" . وقال الصدّيق: لم يكن فيها الدخول في هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وأثابَهُمْ فَتْحًا قريباً ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتح خيبر . وقيل فتح مكة . وقرئ « وآتاهم » ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يأخُذُونَهَا ﴾ يعني أموال خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحًا قريبًا » والواو مُقحَمة . وقيل : «ومغانم» فارس والروم .

قوله تعالى : وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تأخُذُونَهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة . وقال ابن زيد : هي مغانم خيبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ أي خيبر ؛ قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجّل لكم صلح الحديبية . ﴿ وكَفَّ أيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعني أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبري ؛ لأن كف أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله « وهو الذي كفّ أيْدِيَهُمْ عنكم »(١) . وقال ابن

(١) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : فى « كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عنكم » يعنى عُيينة بن حِصْن الفزارى وعوف بن مالك النَّضْرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل فى قلوبهم الرعب وكفّهم عن المسلمين . ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين ، فيعلموا أن الله يحرسهم فى مشهدهم ومغيبهم . وقيل : أى ولتكون كف أيديهم عنكم آية للؤمنين . وقيل : أى ولتكون هذه التى عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو فى « ولتكون » مقحمة عند الكوفيين . وقال البصريون : عاطفة على مضمر ؛ أى وكف أيدى الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يزيدكم هُدًى ، أو يثبتكم على الهداية .

قوله تعالى : وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ « أخرى » معطوفة على « هذه » ؛ أى فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى . وعن ابن عباس أيضا والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال « لم تقدروا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب فى الحال كما كان فى مكة ؛ قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أى أعدها لكم ؛ فهى كالشيء الذى قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »[1] . وقيل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) آية ١٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحُدَيْبِيَة . وقيل : « ولو قاتلكم » غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر ؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةَ » على المصدر . وقيل : « سنة الله » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرتَها ۞ فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم[2] متسلِّحين يريدون غِرّة[3] النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سِلْمًا[4]

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى . (٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ، أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم . (٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » . وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والاذعان ...... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » . وقال عبد الله بن مغفّل المُزَنيّ : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا " . قالوا : اللهم لا ؛ فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم» الآية . وذكر ابن هشام عن وكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا ، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنَيم ، اطّلع الثَّنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هل لكم علىّ ذمة " ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبى : هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكفّ أيدى المسلمين عنهم . وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان فى خيل المشركين . قال القشيرى : فهذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكْوَع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عمر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا وليس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيهما ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبى جَهْل خرج إليك فى خمسمائة فارس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك فى خمسمائة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؛ فيومئذ سُمِّى بسيف الله ، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفُر[1] . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط فى الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : اضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : هَمّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كف اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يريد به مكة . الثانى — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال الماوردى : وفى قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » بفتح مكة . وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا ؛ لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت فى الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين . وروى الترمذى قال : حدثنا عبد بن حُميد قال حدثنى سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ؛ فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : « وهو الذى كَفَّ أيديَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؛ وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنما فُتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فى ذلك فى « الحج »[2] وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة، ومنعوا الهَدْىَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِينًا ؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ أى محبوسا . وقيل موقوفا (1) . وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه، يَعكِفه و يَعْكُفه عَكْفًا ؛ ومنه قوله تعالى : « والهَدْىَ معكوفا » ؛ يقال : ما عكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه: المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم . والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء . (وبالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس . وكان الهَدْى سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا . وقد اختلف العلماء فى هذا على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » عند قوله تعالى « فإن أُحصِرتم » (2) والصحيح ما ذكرناه . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

---

(1) فى الأصول : « راتفا » . (2) راجع جـ ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

ابن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البَدَنةَ عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعُمرة كلُّ سبعة فى بَدَنة . فقال رجل لجابر : أيُشْتَرك فى البَدنة مايشترك فى الجَزُور؟ قال: ماهى إلا من البُدْن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين؛ فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خِرَاش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى ،وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلّوا ؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين مرة . ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهه ؛ فقال : "أيؤذيك هوامك" ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحلق وهو بالحديبية . خرّجه البخارى والدارقطنى . وقد مضى فى « البقرة »[(1)] .

الثالثة – قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وقرئ «حتى يبلغ الهَدِىُّ محلّه» بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »[(2)] أيضا . وهو معطوف على الكاف والميم من « صدّوكم » . و ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال ،وموضع « أنْ » من قوله «أنْ يبلغ محلّه» نصب على تقدير الحمل على « صَدّوكم » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصدّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لا يصح حمله على العكف ؛ لأنّا لانعلم «عكف» جاء متعدّيا ، ومجىء « معكوفا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ كأنه لما كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفث على معنى الإفضاء فعُدِّىَ بإلى ؛ فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٨٣ طبعة ثانية . (٢) جـ ٢ ص ٣٧٨ .

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجر فى « أن » لأن عن تقدمت؛ فكأنه قال : وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْىَ « عن » أن يبلغ محله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعَيَّاش بن أبى ربيعة وأبى جَنْدل بن سهيل ، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أى تعرفوهم . وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القوم ؛ أى أوقعت بهم . و « أن » يجوز أن يكون رفعاً على البدل من « رجالٌ ، ونساءٌ » كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الهاء والميم فى « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطأهم ؛ وهو فى الوجهين بدل الاشتمال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب « لولا » محذوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ؛ ولكنا صُنّاً من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً . وقال الضحاك : لولا مَن فى أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرّة العيب ، وهى مفعلة من العُرّ وهو الجَرَب ؛ أى يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدية فى قوله : « فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبى ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

فى « النساء » القول فيه (١). وقال ابن زيد : « مَعَرَّة » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق غُرم الدِّيَة . قُطْرُب : شدّة . وقيل غمّ .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة و إخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّى ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهــذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمتــه . ويجوز أن تتعلق بالإيمــان . ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمــة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ؛ أى جنته .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أى تميّزوا ؛ قاله القُتَبِى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علىّ رضى الله عنــه : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هــذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : " هم المشركون من أجداد نبى الله ومن كان بعــدهم وفى عصرهم كانــ فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليمــا " .

الثالثــة ــ هــذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

أيحرق هـذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم أنرمى فى مراكبهم بالنـار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» . وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميـه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليـه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . و إذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة . قال ابن العربى : « وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم» وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال ، و إنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينـة الروم فحبس عنهم المـاء ، فكانوا ينزلون الأسارى يستقون لهم المـاء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل ، فيحصل لهم المـاء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثورى الرمى فى حصون المشركين و إن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، و إن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دية . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سيما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل الترس ، ولا يكون فيـه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليـة قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كليـة ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتـل الترس مصلحة كل المسلمين ، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين . وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل التُّرْس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة ــ قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ « تزايلوا » وهو مثل « تزيّلوا » في المعنى . والتزايل : التباين . و « تزيّلوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هي تَفَيْعَلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما ــ « لولا رجال » والثاني ــ « لو تزيلوا » . وقيل جواب « لولا » محذوف ؛ وقد تقدّم . « ولو تزيلوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

العامل في « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيَّةَ ﴾ فعيلة وهي الأَنَفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيَة إذا أنِفْت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس :

أَلَا إنني منهم وعِرْضِي عِرْضُهم * كذِي الأنْف يحمي أنفَه أن يُكَشَّمَا

أي يمنع . قال الزهري : حَمِيّتهم أنفتهم من الإقرار للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالرسالة

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال .

والاستفتاح بيسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدم . وقال ابن بحر : حميتهم عصبيتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حمية الجاهلية » إنهم قالوا : قتلوا أبناءنا و إخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وهو قول على وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسلمة بن كهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مصرف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى ، وزاد « محمد رسول الله » . وعن على وابن عمر أيضا هى لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وقال الزهرى : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة ؛ فخص الله بها المؤمنين . و « كلمة التقوى » هى التى يتقى بها من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمة التقوى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء . ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ أي في العام القابل ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ ﴾ قال ابن كيسان : إنه حكاية ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه ؛ خوطب في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ »[1] . وقيل : خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه ؛ كما قال « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . وقيل : استثنى فيما يَعلم ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين »؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أي إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أي كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إنْ » بمعنى « إذ » ؛ أي إذ شاء الله؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] أي إذ كنتم . وفيه بُعْدٌ؛ لأن « إذ » في الماضي من الفعل ، و « إذا » في المستقبل ؛ وهذا الدخول في المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » . وإنما قيل له في المنام « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحرام إن شاء الله » فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إن » بمعنى « إذ » . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أي من العدو. ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال؛ ولذلك غلب المذكر على المؤنث. والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[1]. وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بمِشْقَص. وهذا كان في العُمْرة لا في الحج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق في حجته. ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال من المحلِّقين والمقصِّرين؛ والتقدير: غير خائفين. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم. وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبر فافتتحها، و رجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعدّة بأضعاف ذلك. وقال الكلبي: أي علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم. وقيل: علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم. ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك. وقيل فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة. فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه؛ فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي يعليه على كل الأديان. فالدِّين اسم بمعنى المصدر،

(1) راجع ج ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية.

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شرّعه بالحجة ثم باليد والسيف، ونسخ ما عداه . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ «شهيدا» نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيل : « شهيدا » على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوْا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

قوله تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ « محمد » مبتدأ و « رسول » خبره . وقيل : « محمد » ابتداء و « رسول الله » نعته . ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على « رسول الله » . وعلى الأول يوقف على « رسول الله » ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون « محمد » ابتداء و « رسول الله » الخبر « والذين معه » ابتداء ثان . و « أشداء » خبره و « رحماء » خبر ثان . وكون الصفات فى جملة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الأشبه . قال ابن عباس: أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل: المراد بـ « الذين معه » جميع المؤمنين . ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيل :

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « أشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه فى حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى يطلبون الجنة ورضا الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلحى قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " . وقال ابن العربى : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وكَف[(١)] المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس ؛ قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة ، وفيه : " حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود " . وقال شَهْر بن حَوْشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السَّمْت الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أى قطر سقفه .

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى « سِيماهم فى وجوههم » أهو أثر يكون بين عينى الرجل؟ قال لا ؛ ربما يكون بين عينى الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُريج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمِر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالنَّدَب فى وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثّورى : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم ؛ بيانُه قوله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراسانى : دخل فى هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء : فيه وجهان ، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا ، كمثلهم فى القرآن ؛ فيكون الوقف على «الإنجيل» و إن شئت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم ابتدأ فقال ومثلهم فى الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل ؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعنى أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ؛ فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، و يوقف على « الإنجيل » ، ويبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شطأه » يعنى فِراخه وأولاده ؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد ؛ فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه . قال الجوهرى : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش فى قوله « أخرج شطأه » أى طَرَفه . وحكاه الثعلبى عن الكسائى . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج : أخرج شطأه أى نباته . وقيل : إن الشطء شوك السُّنْبُل ؛ والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ، وهو شوك البُهْمَى[1] ؛ قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل ؛ فيخرج من الحبة

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

عشر سنبلات وتسع وثمان؛ قاله الفراء ، حكاه الماوردي . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَأه » بفتح الطاء ، وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثاب «شطاه» مثل عصاه . وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق « شَطَه » بغير همز، وكلها لغات فيها .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره ؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هـذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أي قوّى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس، أي قوّى الزرعُ الشطءَ . وقراءة العامة « آزره » بالمدّ . وقرأ ابن ذكوان وأبو حَيْوَة وحُميد بن قيس « فَأَزَرَهُ » مقصورة ، مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَةٍ[1] قد آزر الضَّالَ نَبْتُها ＊ مَجَرِّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ على عوده الذي يقـوم عليه فيكون ساقا له . والسُّوق : جمع الساق . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي يعجب هذا الزرع زرّاعَه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والشَّطْءُ أصحابه ؛ كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ؛ قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثواباً لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » في قـوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قـوم ، ولكنها عامة

---

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحاني، وهي معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) : شجرة السّدر .

مجنسة ؛ مثل قوله تعالى : « فَٱجتنبوا الرِّجْس من الأوثان »(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ؛ أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم؛ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم ، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا؛ يريد قطعت الثوب كلّه قميصا . و « مِن » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ»(٢) معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصًا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « من » مجنّسة؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن . قال زُهير :

* أمِن أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ(٣) *

أراد من ناحية أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُـو رغائبَ يعطيها ويسألها * يأبَى الظُّلامةَ منـه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ(٤)

« من » لم تُبَعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرُ . والنَّوْفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامسة — روى أبو عروة الزبيرىّ من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدمنة : آثار الناس وما سودوا الرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم ؛ أى ميز ، فصار بمنزلة المتكلم .

(٤) البيت لأعشى باهلة .

رسولُ اللهِ والذين معه » حتى بلغ « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفارَ » . فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رَدّ على الله رَبِّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح ؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »(١) . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً — إلى قوله — أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »(٢) ، ثم قال عزّ من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٣) . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس قَرْنِي ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه " خرجهما البخارى . وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشْر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتّسع تَسِيع ، وللثّمن ثَمين ، وللسّبع سَبيع ، وللسّدس سَديس ، وللربع رَبيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال " فى أصحابى كلّهم خير " . وروى عُوَيم بن ساعدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وَجَلّ اختارنى واختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانًا وأصهارًا فمن سبّهم فعليه لعنة

---

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (٢) آية ٨ سورة الحشر . (٣) آية ٩ سورة الحشر .

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا[1] ولا عدلا " . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فحذار من الوقوع فى أحد منهم ، كما فعل من طعن فى الدين فقال : إن المعوذتين ليستا من القرآن ، وما صح حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تثبيتهما ودخولهما فى جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها ، فروايته مطرحة . وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجهنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما . فمن نسبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة ، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى ألحق واحد منهم تكذيبا فقد سب ؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سب أصحابه ؛ فالمكذب لأصغرهم ــ ولا صغير فيهم ــ داخل فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألزمها كل من سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه ، وصرحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ فنظر إلى الرشيد نظر مغضب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ، فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنط وتكفن! فقلت : اللهم إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه ،

---

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

فَسَلَّنِي منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النِّطْع[1] ؛ فلما بَصُرَ بي قال لي : يا عمر بن حبيب ما تلقّاني [أحد][2] من الرد والدفع [لقولي بمثل][2] ما تلقيتني به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به][2] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول ؛ فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله ! وأمر لي بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هـذا مذهب أهل السُّنّة ، والذي عليه الجماعة من أئمة هـذه الأمة . وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ؛ فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم في بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ؛ فلا بُدّ من البحث . وهـذا مردود ؛ فإن خيـار الصحابة وفضلاءهم كعليّ وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنـة بقوله تعالى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وخاصّة العشرة المقطوع لهم بالجنـة بإخبار الرسـول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفـتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب . وسيأتي الكلام في تلك الأمور في سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى .

---

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الأديم .

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد في ترجمة عمر بن حبيب .

تفسير سورة الحجرات

مدنية بإجماع . وهى ثمانى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان فى العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتلقيب الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمىّ : « لا تَقَدَّمُوا » بفتح التاء والدال من التقدّم . الباقون « تُقَدِّمُوا » بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيــة ـ واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأوّل ـ ما ذكره الواحدىّ من حديث ابن جُرَيج قال : حدّثنى ابن أبى مُلَيكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : أَمِّر القَعْقاع بن مَعْبد . وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

فنزل فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدَيِ الله ورسوله — إلى قوله — ولو أنَّهم صبَرُوا حتَّى تَخرُجَ إليهِم » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدوِى أيضا .

الثانى — ما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدَيِ الله ورسوله » . ذكره المهدوى أيضا .

الثالث — ما ذكره الماوَرْدِىّ عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا (١) إلى المدينة ؛ فلقُوا رجلين من بنى سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بنى عامر، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا و بينك عهدا، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبىّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا، لو أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا (٢) على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جُرَيج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .

(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

عليه كالصلاة والصوم والحج؛ وذلك بين . إلا[1] أن العلماء اختلفوا فى الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم، وهو سد خلة الفقير، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة؛ وكأنه طرد الأصل فى العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها فى النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفو عنه فى الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير فى أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما فى مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلى كما قاله أبو حنيفة والشافعى، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل فى ترك التعرض لأقوال النبى صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه : " مُرُوا أبا بكر فليُصلِّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف[2] وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف[3] . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(١) فى الأصول : « وذلك أن العلماء ... » والتصويب عن ابن العربى .

(٢) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(٣) قال القسطلانى : « أى مثلهن فى إظهار خلاف ما فى الباطن؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها فى حبه؛ فعبر بالجمع فى قوله « إنكن » والمراد عائشة فقط . وفى قوله « صواحب » والمراد زليخا كذلك .

وربمـا احتج بنفاة القياس بهـذه الآية . وهو باطل منهـم ؛ فإن ما قامت دلالتـه فليس في فعله تقـديم بين يديه . وقـد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القـول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني في التقدّم المنهي عنـه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يأيُّهـا الذينَ آمنُو لا تَرْفَعُوا أصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مُلَيكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عنـد النبي صلى الله عليه وسـلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يُسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ابن أبي مُلَيكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعـا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قَدِم عليـه رَكْب بني تميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

فى ذلك ، فأنزل الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » الآية .
فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .
ولم يذكر ذلك عن أبيه[1] ، يعنى أبا بكر الصديق . وذكر المهدوى عن على رضى الله عنه :
نزل قوله « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر
وزيد بن حارثة ، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بها رسول صلى الله
عليه وسلم لجعفر، لأن خالتها عنده . وقد تقدم هذا الحديث فى « آل عمران[2] » . وفى الصحيحين
عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله،
أنا أعلم لك علمه ؛ فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه، فقال له : ما شأنك ؟ فقال :
شرٌّ ! كان يرفع صوته[3] فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار.
فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى[4] : فرجع إليه المرة
الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : "اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من
أهل الجنة " . لفظ البخارى . وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكنى أبا محمد
بابنه محمد . وقيل : أبا عبد الرحمن . قُتل له يوم الحَرّة[5] ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ،
وعبد الله . وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه
وسلم، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما قدم وفد تميم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة
بليغة جزلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

---

(١) قوله « عن أبيه » يريد جده لأمه أسماء .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل : كنت أرفع صوتى .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ، تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين انتهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وإنا رءوس الناس من كل معشر * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وإن لنا المرباع (١) فى كل غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقام حسان فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم * يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم (٢) علينا تفخرون وأنتم * لنا خول من بين ظئر وخادم

فى أبيات لهما .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لما نزلت « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ ففقده النبىّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حبط عملى . فقال عليه السلام : "لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال : ثم أنزل الله « إنّ الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ (٣) » فأغلق بابه وطفق يبكى ؛ ففقده النبىّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى . فقال : "لست منهم بل تعيش حميدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" . قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتلا ؛ وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ؛ فمر به رجل من

---

(١) فى سيرة ابن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .
(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .
(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

المسلمين فأخذها ، فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه ، إنى لما قُتلت أمس مَرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزلُه فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يَسْتَن(١) فى طِوَله ، وقد كَفَأ على الدرع بُرْمَةً ، وفوق البرمة رَحْل ؛ فأْتِ خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى أبا بكر — فقل له : إن علىّ من الدَّين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق وفلان ؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيّته . قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت ، رحمه الله ؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا تخاطبوه : يا محمد ، ويا أحمد . ولكن : يا نبىّ الله ، ويا رسول الله ، توقيراً له . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ليقتدى بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِى المسلمون عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أى لا تجهروا عليه ، كما يقال : سقط لِفيه ، أى على فيه . ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه فى محل النصب ؛ أى لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة ؛ أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى من أجل أن تحبط ، أى تبطل ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثــة — معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته ؛ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا وإدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس ، ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه .

الذى يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهرُه باهرًا لجهركم ؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وآمتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق . لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبهَروا منطقه بصخبكم . وفى قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» . وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام . وكره بعض العلماء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثلُ كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يُعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »(١) . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحى ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثناة ، بيانها فى كتب الفقه .

الخامسة — وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون . وإنما الغرض صوت هو فى نفسه والمسموع من جِرْسه(٢) غيرُ مناسب لما يهاب به العظماء ويوقَّر الكبراء ، فيتكلف الغض منه ورده إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير . ولم يتناول النهى أيضا رفع الصوت الذى يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس آبن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين : " اصرخ بالناس " وكان العباس أجهر الناس صوتا ؛ يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

---

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت .

زَجْرُ أبى عُرْوة[1] السباع إذا * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباعْ عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه .

السادسة ــ قال الزجاج : ﴿ أنْ تَحْبَطَ أعمالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أى فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدرة لام الصيرورة، وليس قوله : « أنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتم لاتشعرون » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أصْواتَهمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﴾ أى يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار[2] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة قال : لما نزلت « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » ما حدث عمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت « إنّ الّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتَهم عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أولئك الذِين ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتقْوى » . قال الفراء : أى أخلصها للتَّقْوَى. وقال الأخفش: أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس: « ٱمتحن اللهُ قلوبَهُمْ للتقْوى » طهرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله

---

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارة ؛ أى كصاحب السرار، أو كمثل المسارة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

والتقوى . وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأديمَ مَحْنًا حتى أوسعته . فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت . ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا باديًا كَلالها * قد محنت واضطربت آطالها(١)

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحَنا زَيْنٌ وذَمَّنا شَيْن . وكانوا سبعين رجلا قدموا الفداءَ ذَرارِيَ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذى نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِى زَيْنٌ وإن ذَمِّى شَيْن؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" . ذكره الترمذى عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس بأتباعه ، وإن يكن مَلِكاً نَعِشْ في جنابه(٢) . فأتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد، يا محمد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بني تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقان بن بَدْر، والأقْرَع بن حابس، وسُوَيد بن هاشم ، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقَعْقاع بن مَعْبَد، ووَكيع بن وكيع، وعُيَيْنة بن حِصْن

---

(١) الرذايا : جمع رذية ؛ وهي الناقة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة . (٢) في الطبرى : « في جناحه » .

وهو الأحمق المطاع ، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمه حذيفة وسمى عُيينة لشَتَرٍ[1] كان فى عينيه . ذكر عبد الرزاق فى عُيينة هذا أنه الذى نزل فيه « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا »[2] . وقد مضى فى آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضى الله عنه ما فيه كفاية[3] ؛ ذكره البخارى . وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد ، أخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم " . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلُمات جمع ظُلْمة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ؛ فهو جمع الجمع . وفيه لغتان[4] : ضم الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديًا رُكَباتنا * على موطن لا نخلط الجِدَّ بالهزل

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحَظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « الحُجَرات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقا إلى بنى المُصْطَلِق؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — فى رواية : لإِحْنَة كانت بينه و بينهم — ؛ فرجع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام . فبعث نبىّ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا ؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ؛ فعاد إلى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فنزلت هذه الآية ؛ فكان يقول نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : "التأنّى من الله والعجلة من الشيطان" . فى رواية : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى المُصْطَلِق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم ؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّى إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله ، والله ما خرجنا لذلك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وسُمِّيَ الوليدُ فاسقًا أى كاذبا . قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[(١)] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» من التثبت . الباقون « فتبينوا » من التبيين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ فـ « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنى .

الثانيــة ــ فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عدْلاً ؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، و إثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . و إذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وَلِياً فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وَلِياً ؛ لأنه يَلِي ما لها فيلي بُضْعَها . كالعدل ، وهو و إن كان فاسقا فى دينه إلا أن غَيْرَته موفَّرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال و يصون الحرمة ؛ و إذا وَلِيَ المال فالنكاح أولى .

الثالثــة ــ قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوّز الشافعى ونظراؤه إمامةَ الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف][(٢)] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دِيْن . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ؛ ولا استُطيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، و إذا أساءوا فاجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيَّةً أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . وبوجوب الإعادة أقول ؛

---

(١) فى بعض النسخ : « أبو الحسين » .

(٢) زيادة عن ابن العربى .

فلا ينبغى لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرًّا فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعـــة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال؛ ولا تلتفتوا إلى غير هـذا القول من رواية [تؤثر][1] أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر.

الخامســـة — لا خلاف فى أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره فى قول يبلغه أو شىء يوصله ، أو إذن يعلمه؛ إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلِّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق فى هذه المعانى إلا العدول لم يحصل منها[2] شىء لعدمهم فى ذلك . والله أعلم .

السادســة — وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعــة — فإن قضى بمـا يغلب على الظن لم يكن ذلك عمـلا بجهالة ، كالقضاء بالشاهدين العـدلين ، وقبول قول العـالم المجتهـد . وإنمـا العمل بالجهالة قبول قـول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْرى ، والذى قبلها المَهْدَوِى .

قوله تعـالى : وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

(١) زيادة عن ابن العربى (٢) فى ابن العربى : « منهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعْلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة و إثم؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأً، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم. ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم. والعَنَت الإثم؛ يقال : عَنِت الرجل. والعنت أيضا الفجور والزنى؛ كما فى سورة « النساء »[1]. والعنت أيضا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّم » بأكثر من هذا[2]. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للؤمنين المخلصين الذين لا يكذّبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل؛ أى جعل الإيمان أحبَّ الأديان إليكم. ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه. ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه. وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم؛ حسب ما تقدّم فى غير موضع. فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم؛ لاشريك له. ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد. وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتق من فَسَقت الرُّطَبةُ خرجت من قشرها . والفأرة من جُحْرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[3]. والعصيان جمع المعاصى. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ »[4]. قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأمَدِ

والرُّشد الاستقامة على طريق الحق مع تَصلُّب فيه ؛ من الرَّشادة وهى الصخرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) آية ٣٩ سورة الروم .

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشَّمات … صَلِينَ الضوءَ من صُمّ الرشادِ (١)

﴿فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ أى فعل الله ذلك بكم فضلا؛ أى الفضل والنعمة، فهو مفعول له . ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» بما يصلحكم «حكيم» فى تدبيركم .

قوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (٩)

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت : يا نبيّ الله، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة؛ فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم قال : إليك عنى ! فوالله لقد أذانى نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج. قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال،

---

(١) فى شرح شواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبى عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثافى المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون، أى التى احترقت بضوئها أى حرها . و «من صم الرشاد» بيان لها . والصم : جمع صماء، أى صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرها أثر السير، قوية بحيث يظهر الشرر من شدّة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

بالسعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت فى رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة[1] فى حق بينهما ؛ فقال أحدهما : لآخذن حق عنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت فى حرب سُمير وحاطب[2]، وكان سُمير قتل حاطبا ؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدّى : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ؛ فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ؛ فتدافعوا وتجالدوا[3] بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله « حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط » . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « اقتتلا » على لفظ الطائفتين . وقد مضى فى آخر « براءة » القول فيه[4] . وقال ابن عباس فى قوله عز وجل « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[5] » قال : الواحد فما فوقه ؛ والطائفة من الشيء القطعة منه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغى : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى ترجع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا . وقيل : أقسطوا أى اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر حربهما فى كتاب الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .

(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩٤ (٥) آية ٢ سورة النور .

الثانيــــة ــ قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما؛ إما أن يقتتلا على سبيل البَغْى منهما جميعا أولا . فإن كان الأوّل فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بمآ يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى صير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثانى وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب؛ فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغىّ عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثــــة ــ فى هذه الآية دليــل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منـع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليــه السلام : " قتال المؤمن كفر " . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر؛ تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ ، ولا يُجهز على جريح؛ ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختــلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لمــا أقيم حدّ ولا أُبطل باطل ، ولوَجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْى نسائهم وسفك دمائهم؛ بأن يتحزّبوا عليهـم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم؛ وذلك مخالف لقوله عليه الســلام : "خذوا على أيدى سفهائكم" .

الرابعــــة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصــحابة ، و إليها لجأ الأعيان من أهــل الملة ، و إياها عنى النبى صلى الله عليه وســلم بقوله : " تَقتل عمّاراً(١) الفئةُ الباغية " . وقوله عليه الســلام فى شأن

---

(١) هو عمار بن ياسر . (راجع خبره فى كتب الصحابة) .

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" . والرواية الأولى أصح ؛ لقوله عليه السلام : " تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق " . وكان الذى قتلهم علىّ بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن عليًّا رضى الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفىء إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرآء من دمه ؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أوّل مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بالقتل ؛ فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى ؛ فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] فى الشورى ، وتدافعوها ، وكان علىّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حوطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى مالا يتحصل . فربما تغيّر الدِّين وانقض عمود الإسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام فى شرط البيْعة التمكن من قتَلة عثمان وأخذ القوَد منهم ؛ فقال لهم علىّ رضى الله عنه : ادخلوا فى البيْعة واطلبوا الحق تصلوا إليه . فقالوا : لا تستحق بيعة وقَتَلةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومساء . فكان علىّ فى ذلك أسدَّ رأيا وأصوبَ قِيلاً ؛ لأن عليًّا لو تعاطى القوَد منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حربًا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر[3] وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم ، فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه فى ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أوْلى .

قلت : فهذا قول فى سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جِلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

---

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) فى ابن العربى : «الأمن» .

وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير؛ والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فتمّ لهم ذلك على ما دبّروه ، ونشِبت الحرب ؛ فكان كل فريق دافعاً لمكرّته عند نفسه ، ومانعا من الإشاطة[١] بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبى وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوّب ذلك علىّ بن أبى طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئةِ الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرْك[٢] فيما فعل ، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ومن العدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال ؛ فإنه تَلَف على تأويل . وفى طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء[٣] فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

---

(١) الإشاطة : الاهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه الهلاك .

(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة . (٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقمت وعظمت .

السابعـــة ـــ إذا خرجت على الإمام العـدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، و يدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف[1] على جريحهم ، ولا تُسبَى ذراريهم ولا أموالهم . و إذا قتل العادلُ الباغى أو الباغى العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا . ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال . وقيل : إنّ العادل يرث الباغى ؛ قياساً على القصاص .

الثامنـــة ـــ وما استهلكه البُغـاة والخـوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمنون . وللشافعى قولان . وجه قول أبى حنيفة أنه إتلاف بعُـدْوان فيلزم الضمان . والمعوّل فى ذلك عندنا أن الصحابة رضى الله عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ؛ وهم القُدْوة . وقال ابن عمـر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : " لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها " . فأما ما كان قائمـا ردّ بعينه . هذا كله فيمن خرج بتأويل يسـوغ له . وذكر الزَّمَخْشَرى فى تفسـيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها ضَمِنت بعد الفيئة ما جَنَت ، و إن كانت كثيرةً ذات منعة وشوكة لم تضمن ؛ إلا عنـد محمد بن الحسن رحمـه الله فإنه كان يُفتِى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبـل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرق عنـد وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عنـد الجميع . فحَمْلُ الإصلاح بالعدل فى قـوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما بِالعدلِ » على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قُرِن بالإصلاح الثانى العدلُ دون الأوّل ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال فى أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وتحرير قتله .

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتجه . وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين .

التاسعة — ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنَّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة ؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجشون . وقال ابن القاسم : لاتجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْليته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم يعرضوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربى : الذى عندى أن ذلك لا يصلح ؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغى ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العاشرة — لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شَجر بينهم ، وألّا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم . وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ فى التأويل وتقصيرا فى الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بَشّر قاتل ابن صفية بالنار " . وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير

غير عاصين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم فى طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير فى النار . وكذلك من قعد غير مخطئ فى التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . و إذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، و إبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم فى الدِّين ، رضى الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طهّر الله منها يدى ؛ فلا أخضب بها لسانى . يعنى فى التحرز من الوقوع فى خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتّبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهمين فى الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى فى الدِّين والحُرْمة لا فى النسب ؛ ولهذا قيل : أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ؛ فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

(١) ١٣٤ سورة البقرة .

وأخوّة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا [1] ". وفى رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابَروا ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلمُ أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْذُله ولا يَحْقِره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحَسْبِ آمرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه" لفظ مسلم . وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يَظْلمه ولا يَعيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتَار قِدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ، على ما تقدّم . وقال أبو علىّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ [2] » . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سِيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجَحْدَرىّ ويعقوب « بين إخوتكم » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقون « أخويكم » بالياء على التثنية .

الثالثــة — فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يزيل اسم الإيمان . لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصِفِّين : أمشركون هم ؟

---

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد فى ثمن سلعة ولا رغبة لك فى شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء . (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

قال : لا ، من الشرك فرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغَوا علينا .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١)

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أي معتقدا وأسلم باطنا . والسُّخرية الاستهزاء . سَخِرت منه أسخر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرت منه وسَخِرت به ، وضحِكت منه وضحِكت به ، وهزِئت منه وهزِئت به ؛ كلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِى ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا »[(١)] وقد تقدّم . وفلان سُخْرَة ؛ يتسخر في العمل . يقال : خادم سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانيـــة — واختلف في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر ، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . وجـ ١٢ ص ١٥٤ وجـ ١٥ ص ٢٢٥

فربّض كل رجل منهم بمجلسه ، وعضُّوا[1] فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسّحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح. فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فاجلس! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال: من هذا ؟ قالوا فلان؛ فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيّره بها؛ يعنى أمًّا له فى الجاهلية؛ فاستحيا الرجل، فنزلت . وقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذى تقدم ذكرهم فى أوّل السورة » آستهزءوا بفقراء الصحابة ؛ مثل عمّار وخَبّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت فى الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخرية الغنى من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه فى الدنيا خير له فى الآخرة. وقيل : نزلت فى عِكْرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلما ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وبالجملة فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيق[2] فى محادثته ؛ فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرْحَبِيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذى صنع . وعن عبد الله بن مسعود . البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا . و« قوم » فى اللغة للذكّرين خاصة . قال زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حِصْن أم نساء

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم فى الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل فى كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل فى القوم النساء مجازا، وقد مضى فى «البقرة» بيانه.[3]

---

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به . (٢) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »[1] فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت في امرأتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة ـ وهو ثوب أبيض ، ومثلها السِّبّ ـ وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت في نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عيّرن أمّ سَلمة بالقِصَر . وقيل : نزلت في عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سلمة ، يانبيّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعيِّرنني ، ويقلن لى يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلّا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعة ـ في صحيح الترمذي عن عائشة قالت : حَكَيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا ؛ فقال : " ما يسرني أني حَكَيت رجلا وأن لى كذا وكذا "[2] . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأة ـ وقالت بيدها[3] ـ هكذا ؛ يعني أنها قصيرة . فقال : " لقد مزجت بكلمة لو مُزج بها البحر لمزج " . وفي البُخاريّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس . وقال : " لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل ثم لعله يعانقها " . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .

وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصح

---

(١) أول سورة نوح . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو فى تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْز: العَيْب، وقد مضى فى «براءة» عند قوله تعالى : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ»(١) . وقال الطبرى : اللَّمْز باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْز لا يكون إلا باللسان. وهذه الآية مثل قوله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»(٢) أى لا يقتل بعضكم بعضا، لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلُ نفسه . وكقوله تعالى : «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»(٣) يعنى يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يَطْعَن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : «ولا تَلْمُزُوا» بالضم . وفى قوله «أنفسكم» تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" . وقال بكر بن عبد الله المزنى : إذا أردت أن تنظر العيوب جمّة فتأمل عيّابا؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال صلى الله عليه وسلم : "يبصر أحدكم القَذاة(٤) فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه". وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا ورِعًا * أشغَلَه عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وجعه

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦ (٢) آية ٢٩ سورة النساء . (٣) آية ٦١ سورة النور .
(٤) القذاة : هو ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقال آخر :

تكشفن مساوى الناس ما ستروا (١) * فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب، والجمع الأنباز . والنبز (بالتسكين) المصدر، تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا ؛ أى لقّبه . وفلان يُنَبِّزُ بالصبيان أى يلقبهم؛ شُدد للكثرة. ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء . وتنابزوا بالألقاب : أى لقّب بعضُهم بعضا . وفى الترمذى عن أبى جُبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره ؛ فنزلت هذه الاية « ولا تنابزوا بالألقاب» . قال : هذا حديث حسن . وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصارى . وأبو زيد (٢) سعيدُ بن الربيع صاحب الهَرَوِى ثقة . وفى مُصَنّف أبى داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، فى بنى سلمة « ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم؛ فنزلت هذه الآية « ولا تنابزوا بالألقاب » . فهذا قول . وقولٌ ثانٍ ــ قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهودى يا نصرانى؛ فنزلت . وروى عن قتادة وأبى العالية وعكرمة . وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق . وقاله مجاهد والحسن أيضا . ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد . وقيل : المعنى أن من لقّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق . وفى الصحيح "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه" . فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهمز والنبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز . وقد روى أن أبا ذَرّ رضى الله عنه كان عند النبى صلى الله عليه وسلم فنازعه

(١) فى أدب الدنيا والدين : «لا تلمس من مساوى» . (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

رجل فقال له أبو ذرّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ماترى ها هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه" يعني بالتقوى ، ونزلت «ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ» . وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقًّا على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحَه فيه فى الدنيا والآخرة" .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل الملّة . قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك فى كتبهم ما لا أرضاه فى صالح جَزَرة (١) ؛ لأنه صحّف « خرزة » فلُقّب بها . وكذلك قولهم فى محمد بن سليمان الحضرمى : مُطَيَّن؛ لأنه وقع فى طين . ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا فى الدِّين . وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصريّ يقول : لا أجعل أحدا صغّر اسم أبى [فى حلّ] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذى يضبط هذا كلّه ؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودى به فلا يجوز لأجل الإذاية . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله فى (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . فى « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليَدَيْن " قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذى النّورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشّمالين وبذى اليدين ؛ فى أشباه ذلك .

---

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو على البغدادى الحافظ . روى الخطيب البغدادى بسنده ... سمعت صالحا — يعنى جزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبى أمامة خرزة يرقى بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبى أمامة « جزرة » وإنما هى « خرزة » . راجع تاريخ بغداد فى المجلد التاسع ص ٣٢٢ فى ترجمة صالح هذا .

الزمخشرى : « روى عن النبى صلى الله عليه وسلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه " . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن؛ قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبِّهة ، ولقد لُقِّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها — من العرب والعجم — تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير » . قال الماوردى : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت — فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج، ومروان الأصفر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع — يعنى عمر — يقبّل الحجر . فى رواية الأُصَيْلِع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أى عن هذه الألقاب الذى يتأذى بها السامعون . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيل : إنها نزلت فى رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبى صلى

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما ، فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا ، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليه وسلم طعاما وإداما ؛ فذهب ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه ، فقال أسامة : ما عندي شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[(1)] لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما " فقالا : يا نبي الله ، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أي لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانيـــة ــ ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسَّسوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخاري . قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية هو التُّهمة . ومحل التحذير والنهي إنما هو تُهَمَة لا سبب لها يوجبها ؛ كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهَمة قوله تعالى : « ولا تجسسوا » وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصّر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . وإن شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجبَ الاجتناب .

---

(1) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأُونست منه الأمانة في الظاهر، فظَنُّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء" . وعن الحسن : كنا في زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن اعمل واسكتْ وظُنّ في الناس ما شئت .

الثالثــة ــ للظن حالتان : حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانيــة ــ أن يقــع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهــذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنــه على ما قررناه آنفا . وقــد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجــواز العمل به ؛ تحكّمًا في الدين ودعوى في المعقول . وليس في ذلك أصل يعوّل عليــه ؛ فإن البارئ تعالى لم يذمّ جميعه ، وإنمــا أورد الذمّ في بعضه . وربمــا تعلّقوا بحــديث أبي هريرة " إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه ؛ لأن الظن في الشريعة قسمان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود منه ما سـلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم ضدّه ؛ بدلالة قوله تعــالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ، وقوله : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا »(١) ، وقوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »(٢) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكى على الله أحدا " . وقال : " إذا ظننت فلا تُحقّق وإذا حسدت فــلا تبغ وإذا تطيّرت فامض " خرّجه أبو داود . وأكثر العلمــاء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح ؛ قاله المَهْدَوِيّ .

الرابعــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما « ولا تحسسوا » بالحاء . واختلف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؛ فقال الأخفش : ليس

(١) آية ١٢ سورة النور . (٢) آية ١٢ سورة الفتح .

تبعد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأوّل أعرف . جَسَست الأخبار وتجسّستها أى تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تتّبعوا عورات المسلمين؛ أى لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعد أن ستره الله . وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب عن أبى أُمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به . وعن أبى بَرْزة الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته " . وقال عبد الرحمن ابن عوف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج فى بيت بابُه مُجافٍ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى !؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثّقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ؛ فإذا ليس عنده إلا رجل ؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسّان ،

إذ تبيّنت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب ؛ فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى؛ قال فما فى هذا القدح؟ قال ماء زُلال؛ فقال للمرأة: وما الذى تُغَنّين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل واسْودّ جانبُه وأرّقنى ألّا خليلَ ألاعبُهْ
فـوالله لولا اللهُ أنى أراقبــه لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه
ولكنّ عقـلى والحيـاء يَكُفُّنِى وأُكْرِم بَعْـلِى أن تُنال مَرَاكِبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهذا أمِرْنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعـالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛لأن عمر لا يقرّ على الزنى ؛ وإنمـا غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مَغِيبه عنها (١) . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها . فكان هو الذى نزل فى قبرها ، فسقط من كمه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه ؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجـاء إلى أمه فقال : أخبريني ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابَهم، فتجسّس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامسـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ،فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغِيبة " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره " قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة فى جـ ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

قال : " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته ". يقال : اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهي ذكر العيب بظهر الغيب (١) . قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه . وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال قال لي معاوية — يعني ابن قرة — : لو مر بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؛ فسكت عنهما . ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : " أين فلان وفلان " ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال : " فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ مثل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ❊ وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا (٢)

---

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للقنع الكندي ، واسمه محمد بن عميرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " . فشبّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم . فمن تنقّص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً . وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " . وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " . وقوله للرجلين : " مالي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما " . وقال أبو قلابة الرقاشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما في الغيبة . وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده ، ينهاه فإن انتهى وإلا قام . وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال : قام رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأوا في قيامه عجزا فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : " أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه " . وعن سفيان الثوري قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ [1] ، إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ! فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكّمك في حسناتي .

---

(١) الجعد في صفات الرجال يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوّة) والخلق . أو يكون جعد الشعر ، وهو ضدّ السبط .

وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين ؛ والقطط : القصير الجعد من الشعر .

السابعــة — ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا فى الدين ولا تكون فى الخلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هـذا فقالوا : لا تكون الغيبة إلا فى الخَلْق والخُلُق والحسب . والغيبة فى الخَلْق أشـدّ ؛ لأن من عَيَّب صنعة فإنما عيّب صانعها . وهذا كله مردود. أما الأول فيردّه حديث عائشة حين قالت فى صفية : إنها امرأة قصيرة؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد قلت كلمة لو مُزج بهـا البحر لمزجته " . خرجه أبو داود . وقال فيـه الترمذى : حديث حسن صحيح، وما كان فى معناه حسب ما تقدّم . وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب . وأما الثانى فمردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أوّل الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعـدهم لم تكن الغيبة عنـدهم فى شىء أعظم من الغيبـة فى الدين؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر فى دينه أشد مما يكره فى بدنه . وكفى ردا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام : " إذا قلت فى أخيك ما يكره فقد اغتبته ... " الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نصًّا . وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وذلك عام للدين والدنيا . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة فى عِرضه أو ماله فليتحلله منه " . فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئا دون شىء فقد عارض ما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنــة — لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، وإنمـا هى خطيئة بينـه وبين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمَظْلَمَة يستحلها منه ، وإنمـا المظلمة ما يكون منه البدل والعِوَض فى المـال والبدن . وقالت فرقة : هى مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هى مظلمة وعليـه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت

لأخيه عنده مَظْلَمَة فى عِرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته". خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »(١) . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتها فاستحلّيها. فدلت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها. وأما قول من قال : إنما الغيبة فى المال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه؛وذلك ليس فى البدن ولا فى المال . ففى ذلك دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى فى القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ »(٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بهت مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى طِينة الخبال(٣)" . وذلك كله فى غير المال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت له عند أخيه مظلمة فى عِرْض أو مال فليتحللها منه" . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمنى . وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر، هذا رجل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (٢) آية ١٣ سورة النور .

(٣) الخبال : الفساد ؛ ويكون فى الأفعال والأبدان والعقول . و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار .

سألك أن تحله من مظلمة هي لك عنده ؛ فقال : إني لم أحرمها عليه فأحلها ، إن الله حرّم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ، وهو الحجة والمبيّن . والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ؛ وقد قال تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »(1) .

التاسعة — ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر ؛ فإن في الخبر " من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له " . وقال صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس " . فالغيبة إذًا في المرء الذي يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر . وقال الحسن لما مات الحجاج : اللهم أنت أمته فاقطع عنا سنته — وفي رواية شَيْنه — فإنه أتانا أُخَيْفِش أُعَيْمِش ، يمدّ بيد قصيرة البنان ، والله ما عَرِق فيها غبار في سبيل الله ، يُرَجِّل جُمّته ويَخْطِر في مِشْيته ، ويَصْعَد المنبر فيَهْذِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يَتّقِي ، ولا من الناس يستحي ؛ فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاةَ أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البدع غيبة . وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول : فلان ظلمني أو غصبني أو خانني أو ضربني أو قذفني أو أساء إليّ ؛ ليس بغيبة . وعلماء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك : " لصاحب الحق مقال " . وقال : " مَطْلُ الغنيّ ظلم " وقال : " لَيّ الواجد(2) يُحِلّ عِرْضَه وعقوبته " . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هند للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم فخذي " . فذكرته بالشحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لها . وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(1) آية ٤٠ سورة الشورى . (2) الواجد : القادر على قضاء دينه .

"أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم[1] فلا يضع عصاه عن عاتقه" . فهذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس[2] بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿مَيْتًا﴾ وقرئ « ميّتا » وهو نصيب على الحال من اللحم . ويجوز أن ينصب على الأخ ، ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ . وفيه وجهان : أحدهما — فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة ؛ رُوى معناه عن مجاهد . الثاني — فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ؛ أي اكرهوه . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه . وقيل : عطف على قوله : « اجتنبوا . ولا تجسسوا » . ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني آدم وحواء . ونزلت الآية في أبي هند ؛ ذكره أبو داود في (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدثنا بقيّة بن الوليد قال حدثني الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بَيَاضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوّج

---

(١) هو ابن حذيفة بن غانم القرشي . وقوله : « لا يضع عصاه » أي أنه ضراب للنساء . وقيل : هو كناية عن كثرة أسفاره ؛ لأن المسافر يحمل عصاه في سفره . (٢) هي أخت الضحاك بن قيس ، كانت من المهاجرات الأول ، وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت عند أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم ، فاستشارت النبي عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته

بناتنـا موالينا ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا » الآية . قال الزهرى : نزلت فى أبى هند خاصة . وقيـل : إنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شمّـاس . وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "من الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "انظر فى وجوه القوم" فنظر؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر؛ فقال : "فإنك لا تفضـلهم إلا بالتقوى" فنزلت فى ثابت هـذه الآية . ونزلت فى الرجل الذى لم يتفسح له : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »(١) الآية . قال ابن عباس : لمـا كان يوم فتح مكة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن؛ فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمـد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هـذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هـذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيّره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء؛ فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء؛ فإن المدار على التقوى . أى الجميع من آدم وحواء ، إنمـا الفضل بالتقوى . وفى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : "يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برّ تقىّ كريم على الله، وفاجر شقىّ هيّن على الله . والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »" خرّجه من حديث عبـد الله بن جعفر والد على بن المـدينى وهو ضعيف ، ضـعّفه يحيى بن معيـن وغيره . وقد خرّج الطبرى فى كتاب (آداب النفـوس) وحدّثنى يعقوب بن إبراهيـم قال حدّثنـا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيرى عن أبى نضرة قال : حدّثنى أو حدّثنا من

---

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا نعم؛ قال ـ ليبلّغ الشاهدُ الغائب" . وفيه عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم" .

ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهمُ آدمُ والأمّ حواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة ... وأعظمٌ خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدَى لمن استهْدَى أدلّاء
وقَدْرُ كلّ امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانية ـ بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى ، وكذلك في أول سورة «النساء»(1) . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه؛ فلعله هذا القسم؛ قاله ابن العربي .

الثالثة ـ خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدّرها وهو أعلم بها ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه،

(1) راجع جـ ٥ ص ١ وما بعدها .

بقوله للعربى : يا عجمى، وللعجمى : يا عربى ؛ ونحو ذلك مما يقع به النفى حقيقة .
انتهى .

الرابعة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى فى رحم الأم ، ويستمد من الدم الذى يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ »(١) . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »(٢) . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »(٣) . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل . وقوله تعالى: « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(٤) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتى بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خَلْق الإنسان من الماء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدم بيانه فى آخر « الشورى »(٥) . وقد قال فى قصة نوح « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »(٦) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين ، والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأَوس والخَزْرج ؛ واحدها « شَعْب » بفتح الشين ؛ سُمُّوا به

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات
(٢) آية ٨ سورة السجدة .
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .
(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .
(٥) راجع ص٥٠ من هذا الجزء .
(٦) آية ١٢ سورة القمر .

لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعْب من الأضداد ؛ يقال شعبته إذا جمعته؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم)، وهو الإشفَى؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ * بمَدْرِيَة كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ [1]

وشَعَبته إذا فرّقته ؛ ومنه سميت المنية شَعُوبا لأنها مفرّقة . فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق في الجبل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهري : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذي في الحديث أن رجلا من الشعوب أسلم [2] ؛ فإنه يعني من العجم. والشَّعب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه ؛ أي يجمعهم ويضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور [3] ؛ مثل مضر. والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتادة . ذكر الأول عنه المَهْدَوِيّ [4] ، والثاني الماوردي . قال الشاعر :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعدًا مثل سعد بن مالك

وقال آخر :

قبائلُ من شعوب ليس فيهم * كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قَحْطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس في رواية : إن الشعوب الموالي ، والقبائل العرب . قال القُشَيْرِيّ : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجِبْل [5] والترك ؛ والقبائل من العرب . الماوردي : ويحتمل أن

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أي خار على وجهه . و « المدرية » : القرن ؛ وهي المدرى والمدراة ؛ والجمع مدار ومداري . و « ذلق » ذلق كل شيء : حدّه . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما في اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شيء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد . (٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس ؛ وفيه لغات كثيرة . راجع ج ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

الشعوب هم المضافون إلى النواحى والشعاب ؛ والقبائل هم المشتركون فى الأنساب . قال الشاعر :

وتفرّقوا شُعَبًا فكل جزيرة * فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفَخِذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفَصيلة ثم العَشيرة ؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ * عددًا فى الحواء ثم القبيله

ثم تتلوها العمارة ثم الـ * ـبطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشيرة لكن * هى فى جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبيلة قبلها شَعْب وبعدهما * عِمارة ثم بَطْن تِلْوُه فَخِذُ

وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لِسَهْم ماله قُذَذُ(1)

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إنّ أكرمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقاكُمْ ﴾ وقد تقدّم فى سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وإنّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِك »(2) . وفى هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعي عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفى الترمذى عن سَمُرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الحسب المالُ والكرمُ التقوى" . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إنّ أكرمَكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكُمْ » . وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله" . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا فى غير موضع . وفى الخبر من رواية أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نَسَبًا وجعلتم

(1) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم . (2) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

نَسَبًا فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون " . وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " . وأعْرَض فى كُلِّ عِطْفَيْه . وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سرٍّ يقول : " إن آلَ أبى ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين" . وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس؟ فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ قال : فأكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ فقال : " عن معادن العرب ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا فى ذلك :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى * والعزُّ كلّ العزّ للمُتَّقِى
من عرف الله فلم تغنه * معرفةُ الله فذاك الشَّقِى

السابعة ــ ذكر الطبرى حدثنى عمر(١) بن محمد قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا مندل بن على عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبى الجعد قال : تزوّج رجل من الأنصار امرأة فطُعِن عليها فى حسبها ، فقال الرجل : إنى لم أتزوّجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة " . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللَّوْم لَوْمُ الجاهلية " . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى . قال ابن العربى : وهذا الذى لحظ مالك فى الكفاءة فى النكاح . روى عبد الله عن مالك يتزوّج المولى العربية ، واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعى :

(١) فى بعض النسخ : « عمرو » .

يراعى الحسب والمال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبنّى سالما وأنكحه هندا[1] بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعة؛ وهو مولى لامرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود.

قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ؛ و إنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ماروى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هذا " ؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح، و إن شَفَع أن يُشَفَّع و إن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، و إن شَفَع ألا يُشَفَّع ، و إن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلْء الأرض مثل هذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " تُنْكَح المرأة لمالها وجمالها ودينها — وفى رواية — ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر ابنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ابنته فالتوى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها ؛ فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى هند حين حجمه : " أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه" . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

---

(١) وتسمى فاطمة .

وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح. والتقيّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدّم النسيب منهما، كما يقدّم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى : قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

نزلت في أعراب من بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السرّ. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يَمُنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين. وقال السدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأَسْلَم وغِفَار والدِّيل وأشجع؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا؛ فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى « وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أي استسلمنا خوف القتل والسَّبْي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر، وذلك يحقن الدم. ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ أي لا ينقصكم. ﴿ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لاته يليته ويَلُوته : نقصه. وقرأ أبو عمرو « لا يَأْلِتكم » بالهمزة، من أَلَتَ يَأْلِت

ألتنا ؛ وهو اختيار أبي حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى : « ومَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »[1] قال الشاعر :

أبلغ بنى ثُعَل عنّى مُغلغلةً * جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتاً ولا كَذِبا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رُؤْبة :

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْني عن سُرَاها لَيْتُ

أى لم يمنعني عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فَعَل وأفْعَل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أى ما نقصه ؛ مثل ألته ؛ قاله الفراء . وأنشد :

ويأكلن ما أغنى الوَلِيُّ فلم يَلِتْ * كأنّ بحافات النِّهاء المَزارِعا[2]

قوله : فلم « يَلِتْ » أى لم ينقص منه شيئا . و « أغنى » بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أغنت الأرض شيئا ؛ أى ما أنبتت . و « الوَلِيّ » المطر بعد الوَسْمِيّ[3]؛ سُمّي وَلِيًّا لأنه يلي الوسميّ . ولم يقل : لا يألتا كم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى صدقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون فى السر

---

(١) آية ٢١ سورة الطور . (٢) البيت لعدى بن زيد .

(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات .

والعلانية وكذبوا ؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ الذى أنتم عليه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » فى موضع نصب على تقدير لأن أسلموا . ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أى بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب ، تقديره بأن . وقيل : لأن . وفى مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنين . وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر ، وفيه بُعْدٌ ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال : يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أن هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ؛ لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك منة الله عليكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر ، ردّا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقون بالتاء على الخطاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية كلها وهي خمس وأربعون آية

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة إلا آية ، وهي قوله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ» . وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا سنتين — أو سنةً و بعضَ سنةٍ — وما أخذت « ق والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » . وعن جابر بن سَمُرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكان صلاته بعدُ تخفيفا .

قوله تعالى : قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ قرأ العامة « قافْ » بالجزم . وقرأ الحسن وابن أبي إسحق ونصر بن عاصم « قافِ » بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم ، فلما سكن

آخره حركوه بحركة الخفض . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء حركه إلى أخف الحركات .
وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع « قافُ » بالضم ؛ لأنه فى غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ
وقطُّ وقبلُ وبعدُ . وٱختلف فى معنى « قٓ » ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو
جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ٱخضرت السماء منه ، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماءُ عليه
مَقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن
عبد الله بن عباس . قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى « قٓ » ؛ لأنه
ٱسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من ٱسمه ؛ كقول القائل :

* قلتُ لها قِفِى فقالتْ قافْ *

أى أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدم أول « البقرة »[1] . وقال وهب : أشرف
ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛
قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هى عروقى وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقى ،
فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرنى فحركت عرقى ذلك فتزلزلت تلك الأرض ؛ فقال له :
يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربنا لعظيمٌ ، وإن ورائى أرضا
مسيرة خمسمائة عام فى خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هى لاحترقتُ من
حر جهنم . (فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ، وأين هى من
الأرض)[2] . قال : زدنى؛ قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرْعَد فرائصُه ،
يخلق الله من كل رِعْدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو
رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » يعنى قول : لا إله
إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قٓ » أى قُضِى الأمر كما قيل فى « حمٓ » أى حُمَّ الأمرُ .
وقال ٱبن عباس : « قٓ » ٱسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه ٱسم من أسماء

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى .

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القرظى : آفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشعبى : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِف عند أمرنا ونهينا ولا تعدُهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكى : هو قرب الله من عباده، بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال آبن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . « وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » أى الرفيع القدر . وقيل : الكريم ؛ قاله الحسن . وقيل : الكثير ؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان فى النفوس ؛ ومنه قول العرب فى المثل السائر : فى كلّ شجرٍ نارٌ ، وآستمجد المَرْخُ والعَفَار . أى آستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر ؛ قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قد عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام؛ أى لقد علمنا . وقيل هو : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى » وهو آختيار الترمذى. محمد بن علىّ قال : « قٓ » قسم بآسم هو أعظم الأسماء التى خرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد ، ثم آقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « قٓ » أى بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما آقتصصت فى هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كَيْسان : جوابه « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » لَتُبْعَثُنَّ ؛ يدل عليه « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم، يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، والضمير للكفّار . وقيل : للمؤمنين والكفار جميعا . ثم ميز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر ، كما تقول : جاءنى فلان فأسمعنى المكروه، وقال لى الفاسق

أنت كذا وكذا . ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجاب بالضم ، والعُجّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نبعث ؛ ففيه إضمار . ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الرّد أى هو ردّ بعيد أى محال . يقال : رَجَعْته أَرْجِعه رَجْعًا ، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث وإن لم يجرها هنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شىء حتى تتعذر علينا الإعادة . وفى التنزيل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » . وفى الصحيح : "كُلُّ ابنِ آدمَ يأكلهُ الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنبِ منه خُلِق وفيه يُرَكَّبُ" وقد تقدّم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدّم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِن فكأن الأرضَ تَنقصُ من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شىء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبى : بالحق القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

أي مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد .
وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ؛
ومنه مَرِجت أماناتُ الناس أي فسدت ، ومَرِجَ الدينُ والأمرُ آختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ (١)

وقال آبن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبي عطاء : « مريج » مختلط .
وأنشد (٢) :

فَجَالَتْ فَالْتَمَسْتُ بِهِ حَشَاهَا * فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفي : في أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن .
وقيل : متغير . وأصل المَرَج الآضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِج أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدين
ومَرِج الخاتمُ في إصبعي إذا قَلِق من الهزال . وفي الحديث : " كيف بك يا عبد الله (٣) إذا كنت
في قوم قد مَرِجت عهودُهم وأماناتُهم وآختلفوا فكانوا هكذا وهكذا " وشَبَّكَ بين أصابعه .
أخرجه أبو داود وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا
لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١

(١) الحارك الكاهل . والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس .

(٢) البيت للداخل الهذلي ؛ ويروى فراغت بدل فجالت والضمير للبقرة . وبه أي بالسهم .

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما في مسند أبي داود .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر آعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَها مِنْ دُبُرْ *[(١)]

وقال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا آختلاف ولا فتوق . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدم فى « الرعد »[(٢)] بيانه . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى من كل نوع من النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أى حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدّم فى « الحج »[(٣)] بيانه . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أى جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر؛ يعنى جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع الى الله مفكر فى قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أى كثير البركة . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ التقدير؛ وحبّ النبت الحصيد وهو كل مايحصد. هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال : مسجدُ الجامع وربيعُ الأوّل وحقُّ اليقين وحبل الوريد ونحوها ؛ قاله الفرّاء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرّ والشعيرُ . وقيل : كل حبّ يُحصد ويُدّخر ويُقتات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال[(٤)] ردًّا على قوله : « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال . والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال عبد الله بن شدّاد : بُسُوقها آستقامتها فى الطول . وقال سعيد بن جبير:

---

(١) البيت فى وصف فرسه ، وصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هكذا فى الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : «والنخل» منصوب على العطف اى وأنبتنا النخل ، و «باسقات» حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء : مواقير حوامل ؛ يقال للشاة بَسقت إذا ولدت، قال الشاعر :

فَلمّا تَركْنا الدارَ ظَلّتْ مُنِيفةً * بِقُرّانَ فيه الباسقات المواقِرُ

والأوّل فى اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] : بَسقَ النخلُ بُسوقًا إذا طال . قال :

لنا خمرٌ وليست خمرَ كَرْمٍ * ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ فى السماء ذَهبْنَ طولًا * وفاتَ ثِمارُها أيدى الجُناةِ

ويقال : بَسقَ فلانٌ على أصحابه أى عَلاهم، وأبسقت الناقةُ إذا وقع فى ضَرْعها اللبن[1] قبل النِّتاج فهى مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « باصِقاتٍ » بالصاد؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذى فى صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قٓ والقُرْآنِ المجيد » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » قال فجعلت أردّدها ولا أدرى ما قال؛ إلا أنه يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعًا وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشقّ . « نَضِيدٌ » أى متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض . وفى البخارى : «النضيد» الكُفُرّى ما دام فى أكمامه، ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد . ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أى رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات فى معنى الرزق، أو على أنه مفعول له أى أنبتناها لرزقهم ، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به . وقد تقدّم القول فيه[2] . ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى من القبور أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف فى محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع[3] . وقال « ميتا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز .

---

(١) فى بعض النسخ اللبأ وهو وزان عنب أوّل اللبن عند الولادة. (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ
كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ
فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أى كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكرهم بناء على من كان قبلهم من المكذبين وخوفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم فى غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أى فحق عليهم وعيدى وعقابى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى أفعيينا به فنعيا بالبعث . وهذا توبيخ لمنكرى البعث وجواب قولهم : « ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَيِيت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى فى حيرة من البعث منهم مصدِّق ومنهم مكذِّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلبِسه لَبْسا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ
ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الناس ، وقيل آدم . ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أى ما يختلج فى سرّه وقلبه وضميره، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها . ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذى وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عامٌّ لولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفىّ . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلحَلْيِ وَسْوَاسًا إذا انْصَرَفَتْ * كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ (1)

وقد مضى فى « الأعراف » (2). ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف فى اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين.وهو عِرق معلّق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه؛ وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ؛ لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الربّ أقربُ إليه من علم القلب؛ روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عِرق يخالط القلب؛ وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شيء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ؛ أى نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر ، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة ، وتوكيدا للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : « المتلقيان » ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا متّ طُويت صحيفةُ عملك وقيل لك يوم القيامة : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليكَ حسيباً » عَدلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك . وقال مجاهد : وَكَّلَ اللهُ بالإنسان مع علمه بأحواله ملَكين بالليل وملَكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاما للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ؛ فذلك قوله تعالى : « عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قَعِيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

---

(1) عشرق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك ، وثمرته قشرة إذا هبت الريح طقت تلك القشرة فتخشخشت فسممت للوادى الذى تكون به زجلا وجلبة تفزع الإبل .

(2) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا تعجل لعله يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبي أمامة ؛ قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا و إذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " . وروى من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن مقعدَ مَلكيك على ثَنِيَّتيك[1] لسانُك قلمهما ورِيقُك مِدادُهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك فلا تستحى من الله ولا منهما " . وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفقته . و إنما قال : « قَعِيدٌ » ولم يقل قعيدان وهما آثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد لحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما * عندكَ راضٍ والرّأْيُ مُختلِفُ

وقال الفرزدق :

إنّي ضَمِنتُ لمن أتاني ما جَنَى * وأبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُورِ

ولم يقل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرّد : أن الذى فى التلاوة أوّل أُخِّر آتساعا ، وحذف الثاني لدلالة الأوّل عليه . ومذهب الأخفش والفراء : أن الذى فى التلاوة يؤدّى عن الأثنين والجمع ولا حذف فى الكلام . و « قَعِيدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهري : فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » وقال الشاعر فى الجمع ؛ أنشده الثعلبي :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو * لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ[3]

(١) فى رواية أخرى عن علي رضي الله عنه : « إن الملكين قاعدان على ناجذى العبد ... الخ » .

(٢) هو قيس بن الخطيم .

(٣) ألكني إليها : أرسلني إليها ؛ والأصل فى ألكني آلكني فنقلت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أى ما يتكلم بشىء إلا كتب عليه، مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور . الثانى أنه الحافظ ؛ قاله السدى . الثالث أنه الشاهد ؛ قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثانى أنه الحافظ المُعَدّ إما للحفظ وإما للشهادة . قال الجوهرى : العتيد الشىء الحاضر المهيأ وقد عَتَّده تعتيدا وأَعْتَده إعتادا أى أعدّه ليوم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً » وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدّ للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ؛ ومنه قول الشاعر :

لئن كُنتَ مِنّى فى العِيَان مُغَيَّبًا * فذكرك عندى فى الفؤاد عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شىء حتى الأنين فى مرضه . وقال عكرمة : لا يُكتب إلا ما يؤجَر به أو يؤزَر عليه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ؛ فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحا ، نحو انطلق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر ؛ والله أعلم . وروى عن أبى هريرة وأنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طَرَفى الصحيفة " . وقال على رضى الله عنه : "إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك " . وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جَدّى محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشىّ قال حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمَة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ العبدُ أو الأمةُ فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى « ما يَلفظ من قول

إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ » " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل".
وروى من حديث أنس أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتى مملوءة من ملائكتى يسبحونى فيقولان ربنا نقيم فى الأرض فيقول الله تعالى إن أرضى مملوءة من خلق يسبحونى فيقولان يارب فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدى فكبرانى وهللانى وسبحانى واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة " .

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أى غمرته وشدته ؛ فالإنسان ما دام حيا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحقُّ هو الموت سمى حقًّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحقّ بالموت ، وكذلك فى قراءة أبى بكر وابن مسعود رضى الله عنهما ؛ لأن السكرة هى الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أى جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوى . وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصدّيق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها أو الغلط من بعض من نقل الحديث . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل بن إسحق القاضى حدثنا على بن عبد الله حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن مسروق قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ (١) *

---

(١) صدر البيت : * لعمرك ما يغنى الثراء ولا الغنى *

فقال أبو بكر : هلّا قلت كما قال الله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . والسَّكْرة واحدة السَّكَرات . وفى الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رَكْوة — أو عُلْبة — فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بهما وجهه ويقول : " لا إله إلا الله إن للموت سكرات " ثم نصب يده فجعل يقول : " فى الرفيق الأعلى " حتى قُبض ومالت يده . خرجه البخارى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة " . وقال عيسى بن مريم : « يا معشر الحواريين آدعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة » يعنى سَكَرات الموت . وروى : " إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرض بالمقاريض " . ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أى يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه . يقال : حادَ عن الشيء يَحيد حُيودًا وحَيْدَة وحَيْدُودة مال عنه وعدل . وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق . وتقول فى الإخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحيد حَيْدا ومَحِيدا إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبْتَهُ * وَحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْض

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ الذى وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه . وقد مضى الكلام فى النفخ فى الصور مستوفى (1) والحمد لله .

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٩ وجـ ١٥ ص ٢٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ آختلف فى السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل؛ رواه العوفى عن آبن عباس . وقال أبو هريرة : السائق الملك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال آبن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها و إن لم يحثّها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وعن عثمان آبن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو على المنبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق ملك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن فى حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن آبن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك آكتب رزقه وأثره وأجله وآكتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت آرتفع ذلك(١) الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدخل حُفْرته ردّ الروح فى جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فآمتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة آنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا(٢) كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن قُدّامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن على عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعْفى وعنه المفضّل . ثم فى الآية قولان : أحدهما أنها عامة فى المسلم والكافر وهو قول الجمهور . الثانى أنها خاصة فى الكافر ؛ قاله الضحاك .

(١) كذا فى جميع الأصول والدر المنثور ، والظاهر أن يكون « ذانك » .
(٢) أنشط الكتاب : حل عقدته .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ابن زيد : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم . وقال ابن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو اختيار الطبري . وقيل : أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية . «فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ» أي عماك؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذا كان في بطن أمه فولد ؛ قاله السدي . الثاني إذا كان في القبر فنشر . وهذا معنى قول ابن عباس . الثالث وقت العرض في القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى . وقرئ « لَقَدْ كُنتِ » « عَنكِ » «فَبَصَرُكِ» بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني الملك الموكل به في قول الحسن وقتادة والضحاك . ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينه الذي قيض له من الشياطين . وقال ابن زيد في رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ؛ فيقول الله تعالى لقرينه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء : تقول للواحد قوما عنا ؛ وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه ؛ ومنه قولهم للواحد في الشعر : خليليّ ؛ ثم يقول : يا صاح . قال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلى أُمِّ جُنْدَبِ * نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضا :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر :

فإنْ تَزْجُرَانِي يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ * وإنْ [تَدَعَانِي][1] أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المازني : قوله « أَلْقِيَا » يدل على أَلْقِ أَلْقِ . وقال المبرد : هي تثنية على التوكيد المعنى ألق ألق فناب « أَلْقِيَا » مناب التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملكين . وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصل أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف . وقرأ الحسن « أَلْقِيَنْ » بالنون الخفيفة نحو قوله : « وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » وقوله : « لَنَسْفَعًا » . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(١) في الأصول : « تدعواني » وما أثبتناه هو ما عليه الرواية في تفسير الطبري والألوسي والفراء وغيرها . ولعل ما في الأصول رواية أخرى .

أى معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يَعنِد بالكسر عُنُودا أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رَغِيف ورُغُف . ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يعنى الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فى منطقه وسيرته وأمره ؛ ظالم . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاكّ فى التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أراب الرجلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنه كان يمنع بنى أخيه الإسلام . ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ تأكيد للأمر الأوّل . ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يعنى الشيطان الذى قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه . ﴿ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق وكان طاغيا باختياره وإنما دعوته فاستجاب لى . وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف . حكاه المهدوى . وحكى الثعلبى قال ابن عباس ومقاتل : قرينه الملَك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذى كان يكتب سيئاته : ربّ إنه أعجلنى ، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربّ إنه زاد علىّ فى الكتابة ، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما زدت عليه فى الكتابة . فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يعنى الكافرين وقرناءهم من الشياطين . قال القشيرى : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أى أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من اختصم . وقيل : هو الاثنين وجاء بلفظ الجمع . ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ قيل هو قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » وقيل هو قوله : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وقال الفراء : ما يكذب عندى أى ما يزاد فى القول ولا ينقص لعلمى بالغيب . ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أى ما أنا بمعذّب من لم يجرم؛ قاله ابن عباس . وقد مضى القول فى معناه فى «الحج» (1) وغيرها .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦ و جـ ١٥ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر « يوم يَقُولُ » بالياء آعتبارا بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ » . الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن آبن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وآنتصب « يوم » على معنى ما يبدّل القول لدىّ يوم . وقيل : بفعل مقدر معناه وأنذرهم « يومَ نَقولُ لجهنمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الآستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . و « تَقُولُ » جهنم « هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » أى ما بقى فىّ موضع للزيادة ؛ كقوله عليه السلام : "هل تَرَكَ لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل" أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد . ويحتمل أن يكون آستفهاما بمعنى الآستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الآستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثَمّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

آمتلأ الحوضُ وقال قَطْنِي * مَهْلًا رُوَيْدًا قد ملأْتَ بطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فىّ من مسلك قد آمتلأت . وقيل : يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان »(١) . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذىّ عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

" لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قدَمه فينْزَوِى[1] بعضُها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فَضلٌ حتى يُنْشِئَ الله لها خلقا فيسكنَهم فَضْلَ الجنة " لفظ مسلم . وفى رواية أخرى من حديث أبى هريرة : " وأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله عليها رِجلَه يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء ويَنْزَوِى بعضُها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا " . قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدَم هنا فهم قوم يُقدّمهم الله إلى النار، وقد سبق فى علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رِجلًا من الناس ورِجْلًا من جَراد، قال الشاعر :

فَمرّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى * إليهم من الحَىّ اليمانينَ أرْجُلُ

قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ * على ٱبْنَىْ نِزارٍ بالعَداوة أحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روى عن ٱبن مسعود أنه قال : ما فى النار بيتٌ ولا سلسلة ولا مِقمع ولا تابوت إلا وعليه ٱسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف ٱسمه وصفته ، فإذا ٱستوفى ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا ٱكتفينا ٱكتفينا، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله فى نفس الحديث : " ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة " وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه فى كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله . وقال النضر بن شُمَيل فى معنى قوله عليه السلام : " حتى يَضعَ الجبّار فيها قَدَمه " أى من سبق فى علمه أنه من أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى قربت منهم . قيل : هذا قبل الدخول فى الدنيا، أى قربت من قلوبهم حين قيل لهم ٱجتنبوا المعاصى . وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوى بعضها إلى بعض : أى تنقبض على من فيها ، وتشتمل بعذابهم، وتكف عن سؤال هل من مزيد . (هامش مسلم) .

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . «غَيْرَ بَعِيدٍ» أى منهم وهذا تأكيد . ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على ألسنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر ؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين . ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوّاب أى رجّاع إلى الله عن المعاصى، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضحاك وغيره . وقال ابن عباس وعطاء : الأوّاب المسبّح من قوله « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال الحكم بن عُيَيْنة : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبى ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول ابن مسعود . وقال عُبَيد بن عُمَير : هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذى إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إنى أستغفرك مما أصبت فى مجلسى هذا . وفى الحديث : " من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس " . وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا استحسان واتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الوراق : هو المتوكل على الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . «حَفِيظٍ» قال ابن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وأتمنه عليه . وعن ابن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول . وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على أربع ركعات من أول النهار كان أوّابا حفيظا " ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ « مَن » فى محل خفض على البدل من قوله : « لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ» أو فى موضع الصفة لـ « أوّاب » . ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر

« ٱدْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم « ٱدْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسدى : يعنى فى الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب . ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ مقبل على الطاعة . وقيل : مخلص . وقال أبو بكر الوراق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته ومواليا له ، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدّم[1] . والله أعلم . ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أى يقال لأهل هذه الصفات ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النعم . وقال : « ٱدْخُلُوهَا » وفى أوّل الكلام « مَنْ خَشِيَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ يعنى ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم . ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »[2] قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ٱبن المبارك ويحيى بن سلّام . قالا : أخبرنا المسعودىّ عن المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله ٱبن عتبة عن ٱبن مسعود . قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة فى كثيب من كافور أبيض فيكونون منه فى القرب . قال ٱبن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة فى الدنيا . وقال يحيى بن سلّام : لمسارعتهم إلى الجمع فى الدنيا وزاد " فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك " . قال يحيى : وسمعت غير المسعودى يزيد فيه ؛ قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : قوله "فى كثيب" يريد أهل الجنة، أى وهم على كثيب . كما فى مرسل الحسن؛ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة ينظرون ربهم فى كل يوم جمعة على كثيب من كافور" . الحديث . وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » وقيل : إن المزيد ما يُزَوَّجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشا وقوة . ﴿ فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ ﴾ أى ساروا فيها طلبا للهرَب . وقيل : أثّروا فى البلاد ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد: ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دَوّروا . وقال قتادة : طَوّفوا . وقال المؤرّج تباعدوا ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وقد نَقَّبْتُ فى الآفاق حتّى * رَضِيتُ من الغنيمة بالإياب

ثم قيل : طافوا فى أقاصى البلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ .
وقيل : طوّفوا فى البلاد يلتمسون محيصًا من الموت . قال الحرث بن حلّزة :

نَقَّبُوا فى البلادِ من حَذَرِ المو * تِ وجَالُوا فى الأرض كُلَّ مَجالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها . والنَّقْب هو الخرق والدخول فى الشيء . وقيل : النَّقْب الطريق فى الجبل، وكذلك الْمَنْقَب والمَنْقَبة عن ابن السكيت . ونَقَب الجدارَ نَقْبا ، واسم تلك النَّقبة نَقْب أيضا ، وجمع النَّقْب النُّقُوب ؛ أى خرقوا البلاد وساروا فى نقوبها . وقيل : أثّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب . وقرأ السُّلَمى ويحيى بن يَعْمَر «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد ؛ أى طَوِّفوا البلاد وسيروا

فيها فآنظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَحِيص ﴾ ومَهْرَب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشيري «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف أى أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم . الجوهرى : ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقّت أخفافُه ، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه ، ونَقِب الخفُّ الملبوس أى تخرق . والمحيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصا وحُيوصا ومَحِيصا ومَحاصا وحَيَصانا أى عَدَل وحادَ . يقال ما عنه مَحِيص أى مَحِيد ومَهْرَب . والأنحياص مثله ؛ يقال للأولياء : حاصوا عن العدو وللأعداء آنهزموا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أى فيما ذكرناه فى هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أى عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال آمرؤ القيس :

أَغَـرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِى * وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِى الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفى التنزيل : « لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا » . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتشِ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد آحتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أى آستمع القرآن . تقول العرب : ألق إلىّ سمعك أى آستمع . وقد مضى فى «طه» (١) كيفية الأستماع وثمرته . «وَهُوَ شَهِيدٌ» أى شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أى وقلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أى لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها فى اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد آبن كعب وأبو صالح : إنها فى أهل القرآن خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ تقدم فى « الأعراف » (٢) وغيرها . واللغوب التعب والإعياء ؛ تقول منه : لَغَب

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يَلْغُب بالضم لُغُوبا، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوبا لغة ضعيفة فيه . وألغبته أنا أى أنصبته . قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة، زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وٱستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون، أى هوِّن أمرهم عليك . ونزلت قبل الأمر بالقتال فهى منسوخة . وقيل : هو ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولها إن الله ٱستراح يوم السبت .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قيل : إنه أراد به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا ؛ قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : " أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيته فإن ٱستطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها — يعنى العصر والفجر ثم قرأ جرير — « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » " متفق عليه واللفظ لمسلم . وقال ٱبن عباس : « قَبْلَ الْغُرُوبِ » الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعنى صلاة العشاءين . وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانى وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء فى قوله : « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » قال ركعتى الفجر « وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » الركعتين قبل المغرب ؛ وقال ثُمامة بن

عبد الله بن أنس كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يُصلُّون الركعتين قبلَ المغرب . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذّن المؤذّنُ لصلاة المغرب ابتدروا السَّوارِىَ(١) فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُلِّيت من كثرة من يصلّيهما . وقال قتادة : ما أدركت أحدا يُصلّى الركعتين إلا أنسا وأبا بَرْزَة الأسلمى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى فى الليل ؛ قاله أبو الأحوص . الثانى — إنها صلاة الليل كله ؛ قاله مجاهد . الثالث — إنها ركعتا الفجر ؛ قاله ابن عباس . الرابع — إنها صلاة العشاء الآخرة ؛ قاله ابن زيد . قال ابن العربى : من قال إنه التسبيح فى الليل فيعضُده الصحيح " مَنْ تَعَارّ(٢) من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ". وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سبحة الضحى . وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قال عمر وعلىّ وأبو هريرة والحسن بن علىّ والحسن البصرىّ والنخعىّ والشعبىّ والأوزاعىّ والزهرىّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ؛ ورواه العوفى عن ابن عباس ، وقد رفعه ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " ذكره الثعلبى . ولفظ الماوردى : وروى عن ابن عباس قال : بِتُّ ليلةً عند النبى صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود " : وقال أنس قال النبى صلى الله

(١) ابتدروا السوارى : أى سارعوا إليها ، والسوارى جمع السارية وهى الأسطوانة ؛ أى يقف كل مصلّ خلف أسطوانة لئلا يقع المرور بين يديه فى صلاته منفردا .
(٢) تعار : استيقظ .

عليه وسلم " من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين ". قال أنس : فقرأ في الركعة الأولى « قُلْ يأيُّها الكافرون » وفي الثانية « قُلْ هو الله أحد » قال مقاتل : ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر . وعن ابن عباس أيضا : هو الوتر . قال ابن زيد هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار السجود . قال ابن العربي وهو الأقوى في النظر . وفي صحيح الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ[1]" وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات، نقل ذلك الجماعة .

الخامسة ـ قرأ نافع وابن كثير وحمزة « وإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدبارا إذا ولّى . الباقون بفتحها جمع دُبُر . وهي قراءة علي وابن عباس، ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال . وقد استعملوه ظرفا نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة . ولا خلاف في آخر «والطور» . «وإِدْبَارَ النُّجُومِ» أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشق من سواد الليل .

قوله تعالى : وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) "ولا ينفع ذا الجد منك الجد" أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة . (النهاية لابن الأثير) .

- قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِى مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أى استمع النداء والصوت أو الصيحة وهى صيحة القيامة، وهى النفخة الثانية ، والمنادى جبريل . وقيل : إسرافيل . الزمخشرى : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، فينادى بالحشر ويقول : هلموا إلى الحساب فالنداء على هذا فى المحشر . وقيل : واستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أى يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء . قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم . وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس . ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء بٱثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا؛ ذكر الأوّل القشيرى والزمخشرى، والثانى الماوردى . فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر أيتها العظام البالية ،والأوصال المتقطعة ، و ياعظاما نخرة ، ويا أكفانا فانية ، وياقلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة ، ويا عيونا سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصور . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى صيحة البعث . ومعنى «الخروج» الاجتماع إلى الحساب . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أى يوم الخروج من القبور . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيتُ ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى ؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس . ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أى هين سهل . وقرأ الكوفيون « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى . الباقون بإدغام التاء فى الشين . وأثبت ابن محيصن وابن كثير و يعقوب ياء « المنادى » فى الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو فى الوصل لا غير، وحذف الباقون فى الحالين .

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذى عن معاوية بن حَيْدة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : " من هاهنا إلى هاهنا تُحشَرون ركبانا ومشاة وتُجَرُّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه " فى رواية أخرى " فخذه وكفّه " وخرج على بن معبد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره،

ثم يقول ـ يعنى الله تعالى ـ لإسرافيل : " أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ثم تدخل فى الخياشيم فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية " وذكر الحديث ؛ وقد ذكرنا جميع هذا وغيره فى « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى من تكذيبك وشتمك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أى بمسلّط تجبرهم على الإسلام ، فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج، حكاه القشيرى . النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبِرهم ، وهو خطأ لأنه لا يكون فعّال من أفعل . وحكى الثعلبى : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفعِل وهى شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك ، وسرّاع بمعنى مُسرِع ، وبكّاء بمعنى مُبكٍ ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَّادِ » بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل هو الله . وكذلك قرئ «وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» يعنى ممسكين . وقال أبو حامد الخارزنجى[(١)] : تقول العرب سيف سقّاط بمعنى مُسقِط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما فى الغاشية « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » . وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أى قهره ، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبار من قولهم جبرته على الأمر أى أجبرته وهى لغة كنانية وهما لغتان . الجوهرى : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه ، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر][(٢)] . ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا يارسول الله لو خوفتنا فنزلت «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» أى ما أعددته لمن عصانى من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر :

---

(١) الخارزنجى : نسبة إلى خارزنج قرية بنواحى نيسابور . (٢) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

وإنّى وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ موعِدى

وكان قتادة يقول : اللهــم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجــو موعدك . وأثبت اليـاء « فى وعيدى » يعقوب فى الحالين، وأثبتها ورش فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « قـ » والحمد لله .

ســــــورة والذاريات

مكية فى قول الجميع وهى ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

قوله تعـالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا عبد الله بن ناجية ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا مكى بن إبراهيم، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة ، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضى الله عنه : إنى مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر : اللهم أمكنّى منه؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب ، وأبلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيبا فليقل : إن صَبِيغًا طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا فى قومه بعد أن كان سيدا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل عليا رضى الله عنه، فقال : يا أمــير المؤمنين ما « الذاريات ذروا » [قال] : ويلك سَلْ تفقها ولا تسأل تعنتـا « والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْـرًا » السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السـفن « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن علىّ رضى الله عنه « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا »

قال : الرياح « فَالْحَامِلاتِ وِقْـرًا » قال : السحاب تحمل المـاء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فالجَارِيَاتِ يُسْرًا » قال : السفن مُوقَـرة « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتى بأمر مختلف ؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمـة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتى بأمر مختلف من الخِصْب والجَدْب والمطر والموت والحوادث[1] . ويقال : ذَرَتِ الريحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْوًا وتَذْرِيه ذَرْيا . ثم قيل : « وَالذارِيَاتِ » وما بعده أقسام، وإذا أقسم الـربّ بشيء أثبت له شرفا . وقيـل : المعـنى ورَبِّ الذاريات ، والجـواب ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى الذى توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لا كذب فيه ؛ ومعنى ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لصدق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِـعٌ ﴾ يعنى الجزاء نازل بكم. ثم ابتدأ قسما آخر فقال: « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيل : إن الذاريات النسـاء الولودات لأن فى ذرايتهنّ ذرو الخلق ؛ لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهنّ لمـا فى ترائبهنّ من خيرة عبـاده الصالحين . وخص النسـاء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهنّ أوعيـة دون الرجال ، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر . الثانى ـــ أن الذّرو فيهنّ أطول زمانا، وهنّ بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمـل . والوِقر بكسر الواو ثقل الحمـل على ظهر أو فى بطن ؛ يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيرَه . وأ كثر مايستعمل الوِقر فى حمـل البغل والحمار ، والوَسْق فى حمـل البعير . وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها ؛ يقال : نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة ، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس ؛ لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على [قياس][2] قولك امرأة حامل؛ لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ؛ وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوَارِعُ فى خليج مُحَلِّم * حَمَلَتْ فمنهـا مُوقَـرٌ مَكْمُـومُ

---

(١) وفى نسخ من الأصل الخوارق . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع مواقر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنُه تَوْقِر وَقْرا أى صَمّت، وقياس مصـدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقـدّم فى « الأنعام »(١) القول فيـه .

« فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن تجرى بالرياح يسرًا إلى حيث سيرت . وقيل : السحاب؛ وفى جريها يسرًا على هذا القول وجهان : أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع . الثانى — هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَهـا مِنْ بيتِ جارتِها * مَشْيُ السَّحَابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى : وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ والسَّماءِ ذَاتِ الحُبُكِ ﴾ قيـل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التى تظل الأرض . وقيل : السماء المرفوعة . آبن عمر : هى السماء السابعة؛ ذكره المهدوى والثعلبى والمـاوردى وغيرهم . وفى « الحُبُك » أقوال سبعة : الأول — قال آبن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخـلق الحسن المستوى . وقاله عكرمة؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه يقـال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكا أى أجاد نسجه . قال آبن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد آحتبكته . والثانى — ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير ، وعن الحسن أيضـا ذات النجوم وهو الثـالث . الرابع — قال الضحاك : ذات الطرائق؛ يقال لمـا تراه فى المـاء والرمل إذا أصابتـه الريح حُبُك . ونحوه قول الفراء؛ قال : الحُبُك تَكَسُّر كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح السـاكنة ، والمـاء القائم

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك . وفى حديث الدجّال إنّ شعره حُبُك . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ * رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِي مائِهِ حُبُكُ [1]

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس ــ ذات الشدة ؛ قاله ابن زيد ، وقرأ « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » . والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره ؛ قال امرؤ القيس :

قد غَدَا يَحْمِلُنِى فى أَنْفِهِ * لَاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرّ

وقال آخر [2] :

مَرِجَ الدِّينُ فأَعددتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ

وفى الحديث : إن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع فى الصلاة ؛ أى تشد الإزار وتحكمه . السادس ــ ذات الصّفاقة ؛ قاله خَصِيف . ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بيّن الصفاقة . السابع ــ أن المراد بالطرق المَجَرّة التى فى السماء سميت بذلك ؛ لأنها كأثر المَجَرّ . و « الحُبُك » جمع حِباك ؛ قال الراجز :

كأنما جَلَّلَها الحُوّاكُ * طِنْفِسَةٌ فى وَشْيِها حِبَاكُ

والحِبَاك والحَبِيكة الطريقة فى الرمل ونحوه . وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك ، والحُبَكة مثل العبكة وهى الحبّة من السّويق ؛ عن الجوهرى . وروى عن الحسن فى قوله : «ذَاتِ الحُبُكِ» «الحُبْك» و«الحِبِك» و «الحِبْك» والحِبَك والحُبُك [وقرأ أيضا «الحُبُك»] كالجماعة . وروى عن عكرمة وأبى مِجْلَز «الحُبَك» . و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة ، «والحُبْك» مخفّف منه . و « الحِبَك » واحدتها حِبْكة . ومن قرأ « الحُبَك » فالواحدة حُبْكة كبُرْقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم . ومن قرأ «الحِبِك» فهو كإبِل وإِطِل [3] و «الحِبْك» مخففة منه .

---

(١) النجم : كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحى مائه : ماضحا للشمس من الماء أى برز . والبيت فى وصف غدير .

(٢) هو أبو دؤاد يصف فرسا .

(٣) الإطل الخاصرة كلها وقيل [illegible] ذلك .

ومن قرأ « الحِبُك » فهو شاذ إذ ليس في كلام العرب فِعُلٌ ،وهو محمول على تداخل اللغات؛ كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر « الحُبُك » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسَّماءِ » أى إنكم يأهل مكة « في قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » فى محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب . وقيل : نزلت فى المقتسمين . وقيل : آختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل آفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين . وقيل : آختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم و يعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يُصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرف ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : المعنى يُصرف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين . وقيل : المعنى يُصرف عن ذلك الآختلاف من عصمه الله . أَفَكه يأفِكه أَفْكاً أى قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى : «أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤْفَن عنه من أُفِن والأَفْن فساد العقل . الزمخشرى : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم ؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْبا . وقال قُطْرُب : يُخدَع عنه من خُدِع . وقال اليزيدى : يُدفَع عنه من دُفِع . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ فى التفسير : لُعِن الكذّابون . وقال آبن عباس : أى قُتِل المرتابون ؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قُتِل » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفرّاء : معنى «قُتِل» لُعِن؛ قال : و«الخَرَّاصُونَ» الكذّابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمدا مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال آبن الأنبارى : علمنا الدعاء عليهم؛ أى قولوا : «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ» وهو جمع خارص والخَرْص الكذب والخرّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أى كذَب ؛

يقال : خَرَص وآخترص، وخَلَق وآختلق، وبَشَك وآبتشك، وسَرَج وآسترج، ومان، بمعنى كذب ؛ حكاه النحاس . والخَرْص أيضا حَزْر ما على النخل من الرطب تمرا . وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذى يخرصها فهو مشترك . وأصل الخَرْص القطع على ما تقدّم بيانه فى «الأنعام»(١) ومنه الخَرِيص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء ، والخُرْص حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُرْص العود، لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته . والخَرِص الذى به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ؛ يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص، أى جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص . ويقال للبرد بلا جوع خَصَر . والخُرْص بالضم والكسر الحَلْقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرصان . ويدخل فى الخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعى الحَدْس والتخمين . وقال آبن عباس : هم المقتسمون الذين آقتسموا أعقاب مكة ، وآقتسموا القول فى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغَمرة ماستر الشيء وغطّاه . ومنه نهر غَمْر أى يغْمُر من دخله ، ومنه غَمَرات الموت . «سَاهُونَ» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أى متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك آستهزاءً وشكًّا فى القيامة . ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ نصب « يَوْمَ » على تقدير الجزاء أى هذا الجزاء « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يُحرَقون، وهو من قولهم : فتنت الذهب أى أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة الآختبار . وقيل : إنه مبنىّ بنى لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم، أو رفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » . وقال الزجاج : يقول يعجبنى يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو فى موضع رفع، فإنما آنتصب هذا وهو فى المعنى رفع . وقال آبن عباس : «يُفْتَنُونَ» يُعذَّبون . ومنه قول الشاعر :

كلُّ آمرئٍ من عبادِ اللهِ مُضطَهدٌ ... ببطنِ مكةَ مقهورٌ ومفتونُ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : حريقكم . ابن عباس : أى تكذيبكم يعنى جزاءه . الفرّاء : أى عذابكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فى الدنيا . وقال : « هذا » ولم يقل هذه ؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أى هم فى بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به . ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أى عاملين بالفرائض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أى قبل دخولهم الجنة فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض . وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين فى أعمالهم .

قوله تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى « يهجعون » ينامون والهجوع النوم ليلا ، والتَّهجاع النَّومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما * أَطْعَمُ نَوْماً غيرَ تَهْجاعِ

وقال عمرو بن مَعْدِى كَرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمّة أبو دُرَيد بن الصِّمّة :

أَمِنْ رَيْحانةَ الدّاعِى السَّمِيعُ * يُؤرِّقُنِى وأصحابى هُجُوعُ

يقال : هَجَع يَهْجَع هُجوعا وهَبَغ يَهْبَغ هُبوغا بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهرى . واختلف فى « ما » فقيل : صلة زائدة — قاله إبراهيم النخعى — والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون ؛ أى ينامون قليــلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لمـا أمروا بقيام الليــل . وكان أبو ذرّ يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصــة « قُمِ اللَّيْــلَ إِلَّا قَلِيلًا » الآية . وقيل : ليس « ما » صـلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلًا » ثم يبتدئ « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البتـة . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نشطوا فجدّوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمى أنه قال : آختلفوا فى تفسير هــذه الاية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلًا » معناه كان عددهم يسيرا ثم آبتدأ فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون ؛ قال آبن الأنبارى : وهذا فاسد ؛ لأن الآية إنمـا تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم ، وبعد فلو آبتدأنا « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن فى هــذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جحدا .

قلت : وعلى ما تأوله بعض الناس ــ وهو قول الضحاك ــ من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا . ثم آســتأنف فقال : « مِنَ اللَّيْــلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأوّل والثـانى يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ» خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ» وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ما » يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا ، ويجوز أن تكون رفعا على البــدل من آسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليــلا من الليل ، وآنتصاب قوله « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ» على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوعا قليــلا يهجعون ، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : «قَلِيــلًا » خبر كان ولم يجز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » ؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يهجعون » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة فى تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين ؛ المغرب والعشاء . أبو العاليــة : كانوا لا ينامون بين العشاءين . وقاله آبن وهب . وقال مجاهــد :

نزلت فى الأنصار كانوا يصلون العشاءين فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء . وقال محمد بن على بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العَتَمة . قال الحسن : كأنه عَدّ هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة . وقال آبن عباس ومُطرِّف : قلّ ليلة لا تأتى عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها .

الثانيــة — روى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ فى منامه فأنشده :

وكيف تنـامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تَدرِ فى أىّ المجالِس تـنزِلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليــل فنمت فى آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم آنتهيا إلى النيام فلم يكسواهم، فقلت لهما : آكسوانى من حُللكما هذه، فقالا لى : إنها ليست حُلّة لباس إنما هى رضوان الله يحـل على كل مصلّ . ويروى عن أبى خَلّاد أنه قال : حدّثنى صاحب لى قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لى القيامةُ ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهـم ، وعليهم الحلل من دون الخـلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والنـاس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه النـاس مغبرة ، فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة؟ فقال لى: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّبا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصحت فى منامى واهًا للعابدين، ما أشرف مقامهم . ثم آستيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أى يستغفرون من ذنوبهم؛ قاله الحسن . والسحر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى «آل عمران»(١) القولُ فيـه . وقال آبن عمر ومجاهد : أى يصلّون وقت السحر فسمّوا الصـلاة آستغفارا . وقال الحسن فى قوله تعالى : « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » مدّوا الصلاة من أوّل الليل

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلى السحر ثم استغفروا فى السحر . ٱبن وهب : هى فى الأنصار؛ يعنى أنهم كانوا يغدون من قُبَاء فيصلون فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ٱبن وهب عن ٱبن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحون لِناسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلا، ثم يصلّون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملى على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْنا بعيدا لا نبلغ أعمالهم « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعرضت عملى على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذّبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ مدح ثالث . قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِما، أو يَقرى به ضيفا، أو يحمل به كَلًّا، أو يغنى به محروما . وقاله ٱبن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ٱبن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى فى سورة سأل سائل : « وَٱلَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » . والحقّ المعلوم هو الزكاة التى بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامسة — قوله تعالى : « لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » السائل الذى يسأل الناس لفاقته؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما . « وَٱلْمَحْرُومِ » الذى حُرِم المالَ . وٱختلف فى تعيينه؛ فقال ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما : المحروم المُحارَف الذى ليس له فى الإسلام سهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : المحروم المُحارَف الذى لا يتيسر له مكسبه؛ يقال : رجل مُحارَف بفتح الراء أى محدود محروم وهو خلاف قولك مُبارَك . وقد حُورِف كسبُ فلان إذا شُدّد عليه فى معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه . وقال قتادة والزهرى : المحروم المتعفّف الذى لا يسأل الناس شيئا ولا يُعلِم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذى يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية « وفى أَمْوَالِهِمْ » . وقال

عِكرمة : المحروم الذى لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته . وقال القُرَظىّ : المحروم الذى أصابته الجائحة ثم قرأ «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» نظيره فى قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» وقال أبو قِلابة : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه هذا المحروم فاقسموا له . وقيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتُدبِر عنه . وهو يروى عن ابن عباس أيضا. وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل : إنه الكلب. روى أن عمر بن عبد العزيز كان فى طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاه فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوى الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته فى مال غيره . وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذى يُحرَم الرزق وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبى: لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبى. وأصله فى اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع . قال عَلْقَمة :

وَمُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنم مُطْعَمُهُ ... أَنَّى تَوَجَّـه والمحـرومُ محـرومُ

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضتَ لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتى وجلالى لأقربنّكم ولأبعدنّهم " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن فى الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد ان صار هشيما، ومنها أنه

قدر الأقوات فيها قِواما للحيوانات ، ومنها سيرهم فى البلدان التى يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة . والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسكم آيات للموقنين . وقال قتادة : المعنى من سار فى الأرض رأى آياتٍ وعبرا، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خلق ليعبد الله . ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب ابن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية فى النفس . وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . السدى : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ» أى فى حياتكم وموتكم، وفيما يدخل و يخرج من طعامكم . الحسن : وفى الهرَم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفى خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفى اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما فيها من العقول، وما خصّت به من أنواع المعانى والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خُلقت له ، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى ، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» . ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعنى بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه نُجح العاجز، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد فى الاعتبار . وقد قدمنا فى آية التوحيد من سورة « البقرة »[1] أن ما فى بدن الإنسان الذى هو العالم الصغير شيء إلا وله نظير فى العالم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفى و يغنى لمن تدبر .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٢ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم . وقال أهل المعانى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » معناه وفى المطر رزقكم سمى المطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر[1] :

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ * رعيناه وإنْ كانوا غِضابَا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى رب السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » . وقال سفيان الثورى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزق فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو فى الثالثة بدوخلة[2] رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ » بالألف وكذلك فى آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى من خير وشر . وقال غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة . الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث وما خلق فى السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحق ثم أكده بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وخص النطق من بين سائر الحواس ؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه ، كالذى

---

(١) هو معود الحكماء معاوية بن مالك ؛ وسمى معود الحكماء لقوله فى هذه القصيدة :

أعود مثلها الحكماء بعدى * إذا ما الحق فى الحدثان نابا

(٢) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفيفة من خوص ، يوضع فيها التمر والرطب .

يُرى فى المرآة ، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدوى والطنين فى الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغنى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » " . وقال الأصمعى : أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابى جِلف جاف على قعود له متقلدا سيفه وبيده قوسه ، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أَصْمَع ، قال : أنت الأصمعى ؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاتل على منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعى حسبك ، ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أَعِنّى على توزيعها ، ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقتُّ نفسى ولمتها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفر ، فسلّم علىّ وأخذ بيدى وقال : أتل علىّ كلام الرحمن ، وأجلسنى من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حتى وصلت إلى قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقال الأعرابى : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قال فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله من الذى أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدّقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نَفْسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شىء فقال : اللهم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به ، فشبع وروِى من غير طعام ولا شراب . وعن أبى سعيد الخدرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لو أن أحدكم

رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسنده الثعلبي . وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئا فأعنّاه عليه، فقال : " لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْر(1) ثم يرزقه الله " . وروى أن قوما من الأعراب زرعوا زرعا فأصابته جائحة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية فقالت : مالي أراكم قد نكستم رءوسكم ، وضاقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، رزقنا عليه يأتينا به من حيث شاء . ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرة في البحر راسية * صُمّا مُلَمْلَمةٍ مُلْسًا نَوَاحيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا اللهُ لانفلقتْ * حتى تؤدى إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طِباقِ السبعِ مَسْلَكُها * لَسهّلَ اللهُ في المَرقَى مَرَاقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خطَّ لها * إنْ لم تَنَلْه وإلا سوف يأتيها

قلت : وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فرجع ولم يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب . وقد ذكرناه في سورة « هود »(2) . وقال لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . وقد مضى في « لقمان »(3) وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله . وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ، رَزَقنا الله إياه، ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه .

قوله تعالى : « مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قراءة العامة « مِثْلَ » بالنصب أي كمثل « مَا أَنَّكُمْ » فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و « ما » زائدة ؛ قاله بعض الكوفيين . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ؛ أي لحقّ حقًّا مثلَ

(1) القشر هنا الثياب . (2) راجع جـ ٩ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .
(3) راجع جـ ١٤ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

نطقك، فكأنه نعت لمصدر محذوف. وقول سيبويه : إنه مبنى بنى حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد . المازنى : « مثلَ » مع « ما » بمنزلة شىء واحد فبنى على الفتح لذلك . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قال : ولأن من العرب من يجعل مثلا منصوبا أبدا ، فتقول : قال لى رجلٌ مثلَك ، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل] [1] . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش « مِثلُ » بالرفع على أنه صفة لحق ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التى يقع بعدها التماثل بين المتماثلين . و « مِثلَ » مضاف إلى « أنكم » و « ما » زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا . ويجوز أن تكون بدلا من « لحق » .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط . « هَلْ أَتَاكَ » أى ألم يأتك . وقيل : « هَلْ » بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » . وقد مضى الكلام فى ضيف إبراهيم فى « هود » [2] « والحجر » [3] . « الْمُكْرَمِينَ » أى عند الله ؛ دليله قوله تعالى : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » قال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل — زاد عثمان بن حصين — ورفائيل عليهم الصلاة والسلام . وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة . وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

قال ٱبن عبّاس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعوين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لى على بن عياض : عندى هريسة ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيى فيها ؛ قال : ٱمض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعنى إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل ، فقلت : إنا لله و إنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكْرَم ، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ ٱنظر إلى قوله تعالى: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ تقدّم فى « الحجر » . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمرى سلام أو ردّى لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سِلْمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى أنتم قوم منكرون ؛ أى غرباء لا نعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم؛ فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير ٱستئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر(١) :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذى نَكِرَتْ * مِنَ الحوادِثِ إلّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقد مضى فى « والصافّات »(٢) . ويقال : أراغ وٱرتاغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِيغ أى تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد ؛ فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتان بمعنى . ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى « هود » : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » . ويقال : إن إبراهيم ٱنطلق إلى منزله كالمستخفى من ضيفه ؛ لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

---

(١) هو الأعشى .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٤

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وآختاره لهم سمينا زيادة فى إكرامهم . وقيل : العِجْل فى بعض اللغات الشاة . ذكره القشيرى . وفى الصحاح : العِجْل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ؛ عن أبى الجراح ، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحسّ منهم فى نفسه خوفا . وقيل : أضمر لما لم يَتحرَّموا بطعامه . ومن أخلاق الناس أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو بن دينار : قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدّوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا آتخذك الله خليلا . وقد تقدّم هذا فى « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قربه إليهم . وروى عون بن أبى شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمّه وأم العجل فى الدار . ومعنى « عليم » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسمعيل وليس بشىء فإن الله تعالى يقول : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صيحة وضجة ؛ عن آبن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقتادة : إنها الرّنة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى . وقيل : أقبلت فى صَرّة أى فى جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة . قال

الجوهري : الصّرة الصّيحة والصيحة ، والصّرة الجماعة ، والصّرة الشدّة من كرب وغيره ؛ قال امرؤ القيس :

فَأَلحَقَهُ بالهَادِيَاتِ ودُونَهُ * جَوَاحِرُها فى صَرّةٍ لم تَزَيَّلِ[1]

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة . وصرة القيظ شدّة حرّه . فلما سمعت سارة البشارة صَكّت وجهها ؛ أى ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال ابن عباس : صَكّت وجهها لطمته . وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أى ضربه ؛ قال الراجز[2] :

* يا كَرَوَانًا صُكَّ فَاكْبَأَنّا *

قال الأموى : كَبَن الظّبيُ إذا لَطَأ بالأرض واكْبَأَنّ انقبض . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أى أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أى وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؛ كما قالت : «يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ» . ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾ أى كما قلنا لكِ وأخبرناكِ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تَشكّى فيه ، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة وقد مضى هذا . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

---

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقر الوحش ، وجواحرها متخلفاتها ، ولم تزيل أى لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن . وتمامه : * فشن بالسلح فلما شنا *

قوله تعـالى : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لمـا تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى شأنكم وقصتكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريد قوم لوط . ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أى لنرجمهم بها . ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أى مُعلَّمة . قيل : كانت مخطَّطة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحُمرة . وقيل : « مُسَوَّمَةً » أى معروفة بأنها حجارة العذاب . وقيل : على كل حجر اسم من يهلك به . وقيل : عليها أمثال الخواتيم . وقد مضى هذا كله فى « هود » . فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر . ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أى عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه . ثم قيـل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ؛ قاله ابن زيد ؛ وهو معـنى قوله تعالى : « حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » على ما تقدّم بيانه فى « هود » . وقيل : هى الحجارة التى نراها وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور . وإنما قال « مِنْ طِينٍ » ليعلم أنها ليست حجارة المـاء التى هى البَرَد . حكاه القشيرى .

قوله تعـالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لمـا أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ، وذلك قوله تعـالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » . ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعنى لوطا وبنتيه وفيه إضمار . أى فما وجدنا فيها غير أهـل بيت . وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل . وقوله : « فِيهَا » كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم . وأيضا فقوله تعالى : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية . وقيل : الضمير فيهـا للجماعة . والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » . وقيل : الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا . فسماهم فى الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى فى «البقرة»(١) وغيرها . وقوله: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

"قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا" يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام فى صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أى عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم . نظيره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التى رُجموا بها هى الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون(١) .

قوله تعالى : وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ أى وتركنا أيضا فى قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِي مُوسَىٰ » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بينة وهى العصا . وقيل : أى بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أى فرعون أعرض عن الإيمان « بِرُكْنِهِ » أى بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » يعنى المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فما أوهى مِراسُ الحَرْبِ رُكْني * ولَكِنْ ما تَقادَمَ مِن زَماني(٢)

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : « أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » وقاله المؤرّج . الجوهرى : وركن الشىء جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد أى عزة ومنعة . القشيرى : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة فى الإعراض عن الشىء .

---

(١) فى نسخة : المنتفعون .

(٢) فى رواية : ولا وصلت إلىّ يد الزمان .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ « أو » بمعنى الواو ؛ لأنهم قالوهما جميعا . قاله المؤرّج والفراء ؛ وأنشد بيت جرير :

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَوْ رِيَاحاً ‍ ٭ ‍ عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا[1]

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً » والواو بمعنى أو ؛ كقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدّم جميع هذا[2] . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أى طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعنى فرعون؛ لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وهى التى لا تُلْقِح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد . ثم قيل هى الجنوب . روى ابن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقيم الجَنُوب " وقال مقاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم " نُصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدَّبُور " . وقال ابن عباس : هى النكباء . وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أى كالشىء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت رميم وهشيم . قال ابن عباس : كالشىء الهالك البالى ؛ وقاله مجاهد . ومنه قول الشاعر[3] :

---

(١) طهية كسية حىّ من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو جرير يرثى ابنه .

تَرَكَتْنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي * وَإِذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة : إنه الذى ديس من يابس النبات . وقال أبو العالية والسدى : كالتراب المدقوق . قُطْرب : الرَّمِيم الرَّماد . وقال يمان : ما رَمَّته الماشيةُ من الكلأ بمرمّتها . ويقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر ، والمَرَمَّة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلى تقول منه : رَمَّ العظمُ يَرِمّ بالكسر رِمّة فهو رميم ، قال :

« ورأى عواقبَ خُلْفِ ذاكَ مَذَمَّةً * تَبْقَى عليه والعِظامُ رَمِيمُ »

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمَم ورِمام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم[1] .

قوله تعالى : وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أى وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما فى هود[2] : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل معنى « تَمَتَّعُوا » أى أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أى الموت . وقيل : هى كل عذاب مهلك ؛ قال الحسين بن واقد : كلّ صاعقة فى القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصن ومجاهد والكسائى « الصَّعْقة » يقال : صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقا أى غُشِى عليه . وصَعَقتهم السماء أى ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى فى « البقرة »[3] وغيرها . ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها نهارا . ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ قيل : معناه

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

من نهوض . وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أى لا أطيقه . وقال ابن عباس : أى ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ أى ممتنعين من العذاب حين أهلكوا؛ أى ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « وَقَوْمِ نُوحٍ » بالخفض أى وفى قوم نوح آية أيضا . الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفا على الهاء والميم فى « أَخَذَتْهُم » أو الهاء فى « أَخَذْنَاهُ » أى فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو « نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى آذكر .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ لما بين هذه الآيات قال : وفى السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أى بقوة وقدرة . عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال ابن عباس : لقادرون . وقيل : أى وإنا لذو سعة وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده . وقيل : أى وإنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن ابن عباس أيضا . الحسن : وإنا لمطيقون . وعنه أيضا : وإنا لموسعون الرزق بالمطر . وقال الضحاك : أغنيناهم؛ دليله : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ » . وقال القتبى : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة . الجوهرى : وأوسع الرجل أى صار ذا سعة وغنى؛ ومنه قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾

أى بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها . ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أى فنعم الماهدون نحن لهم . والمعنى فى الجمع التعظيم ؛ مَهَدت الفراش مَهْدا بَسَطته ووطّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها و إصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى صنفين ونوعين مختلفين . قال ابن زيد : أى ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعنى الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجنّ والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشيّ ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأراييح والأصوات . أى جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدّر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ؛ إذ هو عن وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم و إهلاكهم ؛ لذلك قال الله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ؛ أى قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى فرّوا من معاصيه إلى طاعته . وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم . وعنه فرّوا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : ففروا إلى الله اخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

ابن الفضل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه . وقال أبو بكر الورّاق : فِرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه . وقال ذو النّون المصرى : ففِرّوا من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الشكر . وقال عمرو بن عثمان : فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم . وقال أيضا : فِرّوا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . وقال سهل بن عبد الله : فِرّوا مما سوى الله إلى الله . « إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بى ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون ، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم . والكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمنى من الرسل الذين أنذروا قومهم ، أو رفعا على تقدير الأمرُ كذلك أى كالأول . والأول تخويف لمن عصاه من الموحّدين ، والثانى لمن أشرك به من الملحدين . والتمام على قوله : « كَذَٰلِكَ » عن يعقوب وغيره .

قوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أى أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب . وتواطئوا عليه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى لم يوص بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحدّ فى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم واصفح عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أدّيت ما عليك من تبليغ الرسالة ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : نسخ بآية السيف . والأوّل قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة . وقال مجاهد : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فأعرض عنهم « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أى ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك «وَذَكِّرْ» أى بالعظة فإن العظة «تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. المعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحّدون. قال القُشيرى: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ» ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا» وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفى قراءة عبد الله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» وقال علىّ رضى الله عنه: أى وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. واعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَاحِدًا». فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر فى العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أى إلا ليقرّوا لى بالعبادة طوعا أو كرها؛ رواه علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة. مجاهد: إلا ليعرفونى.

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عُرِفَ وجوده وتوحيده . ودليل هـذا التأويل قوله تعالى : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» وما أشبه هـذا من الآيات . وعن مجاهـد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من الشّقوة والسّعادة، فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده فى الشـدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدّة والبـلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » الآية . وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبـد بيّن العبودة والعبودية ، وأصـل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل ؛ يقال : طريق مُعَبَّد . قال[1] :

* وَظِيفًا وَظِيفًا فـوقَ مَوْرٍ مُعَبَّـدِ *

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخـذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتّعبـد التّنسك فمعنى « لِيَعْبُدُونِ » ليذلّوا ويخضعوا ويعبدوا . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ « مِنْ » صلة أى رزقا بل أنا الرزاق والمعطى . وقال ابن عبـاس وأبو الجوزاء : أى ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وغيره «الرَّازِقُ» . ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أى الشديد القوىّ . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والنّخعى « الْمَتِينِ » بالجـر على النعت للقـوّة . الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزّاق» ، أو « ذو» من قوله : « ذُو الْقُـوَّة » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إنّ على الموضع ، أو خبرا بعـد خبر . قال الفراء : كان

---

(١) هو طرفة بن العبد والبيت من معلقته وصدره :

* تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

الوظيف عظم السّاق . وقوله أتبعت وظيفا وظيفا أى أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حقه المتينة فذكره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل؛ يقال : حبل متين .
وأنشد الفراء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِسْتُ أَثْوُبَا * حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا
* مِنْ رِيطَةٍ وَٱلْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا *

فذكّر المعصّب ، لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أي وعظ «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أي الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ابن الأعرابي : يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي . وأصل الذَّنُوب في اللغة الدلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيبا من هذا، قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ * فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال علقمة :

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ * فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر[(١)] :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ * لِكُلِّ بَنِي أَبٍ مِنْهَا ذَنُوبُ

الجوهري : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنَب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدلو الملأى ماءً . وقال ابن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب ، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنَائب ، مثل قَلُوص وقلائص . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا يا محمد : « ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجل بهم انتقامه ، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم ، والخزي القائم ، الذي لا انقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

(١) قائله أبو ذؤيب .

سورة «والطور»

مكية كلها فى قول الجميع وهى ثمان وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبَير بن مُطْعِم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب . متفق عليه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ الطور آسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسمعيل بن إسحق قال : حدّثنا إسمعيل آبن أبى أويس ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة (١) " قيل : فما الأجبل ؟ قال : جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة " وذكر الحديث وقد آستوفيناه فى كتاب « التذكرة » . قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طُورسينا . وقاله السدّى . وقال مقاتل بن حيان : هما طُوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طُورزيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل بمدين وآسمه زَبير . قال الجوهرى : والزَّبير الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام .

---

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر .

قلت : ومدين بالأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام . وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت ومالا ينبت فليس بطُور؛ قاله بن عباس. وقد مضى فى « البقرة »(١) مستوفى.

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أى مكتوب ؛ يعنى القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ » . وقيل : يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ، وكان كل كتاب فى رق ينشره أهله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً » وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » وقيل : إنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى لملائكته فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيل : المراد ما كتب الله فى قلوب الأولياء من المؤمنين ؛ بيانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »

قلت : وفى هذا القول تجوُّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرّق . قال المبرّد : الرَّق مارُقِّق من الجلد ليكتب فيه والمنشور المبسوط . وكذا قال الجوهرى فى الصحاح ؛ قال : والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ والرَّق أيضا العظيم من السلاحف . قال أبو عبيدة : وجمعه رُقُوق . والمعنى المراد ماقاله الفراء ؛ والله أعلم.

وكل صحيفة فهى رَقٌّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأنما هى من تَقَادُمِ عَهْدِها ❊ رَقٌّ أُتيح كتابُها مَسطور(٢)

وأما الرِّق بالكسر فهو الملك . يقال : عبد مرقوق . وحكى الماوردىّ عن ابن عباس أن الرَّق بالفتح مابين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . قال

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) لم نعثر على هذا البيت فى ديوان المتلمس .

على رضى الله عنه : هو بيت فى السماء السادسة . وقيل : فى السماء الرابعة . روى أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُتِى بى إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرّ خَرّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه " ذكره الماوردى . وحكى القشيرى عن ابن عباس أنه فى السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنبارى : سأل ابن الكواء عليا رضى الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّرَاح . وكذا فى « الصحاح » : والضُّرَاح بالضم بيت فى السماء وهو البيت المعمور عن ابن عباس . وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدوى عنه : حذاء العرش . والذى فى صحيح مسلم عن مالك بن صَعْصَعة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء : " ثم رُفع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخِرُ[1] ما عليهم " وذكر الحديث . وفى حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيت بالبُرَاق " الحديث ؛ وفيه " ثم عرج بنا إلى السابعة فاستفتح جبريلُ عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد — صلى الله عليه وسلم — قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك لا يعودون إليه " . وعن ابن عباس أيضا قال : لله فى السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتا ، سبعة فى السموات وسبعة فى الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذى هو معمور من الناس ، يَعْمُره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة فى الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

---

(١) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ؛ والرفع أوجه . (هامش مسلم)

فى الأرض موضع الكعبة فى زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه فى السماء الدنيا، فيعمُره كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملك، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ فى الصور . قال : فبوّأ الله جلّ وعزّ لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » . ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعنى السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا » . وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال مجاهد : الموقَد، وقد جاء فى الخبر : " إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون نارا " . وقال قتادة : المملوء . وأنشد النحويون للنَّمِر بن تَوْلَب :

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً * تَرَى حولَها النَّبْعَ والسَّاسَمَا (١)

يريد وَعِلًا يطالع عينا مسجورة مملوءة . فيجوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقول المتقدّم . وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المُوقَد المحمىّ بمنزلة التَّنُّور المسجور . ومنه قيل : لِلمِسْعَر مِسْجَر؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى أوقدت؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجرا أى أحميته . وقال سعيد ابن المسيِّب قال على رضى الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال ما أُرَاك إلا صادقا ، وتلا « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ » مخففة . وقال عبد الله ابن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال كعب : يُسجَر البحر غدا فيزاد فى نار جهنم ؛ فهذا قول . وقال ابن عباس المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العالية . وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ، قال ابن أبى داود : ليس لذى الرُّمة حديث إلا هذا . وقيل : المسجور أى المفجور ؛ دليله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

---

(١) الساسم عبر مهمور شجر يتخذ منه القسىّ والسهام؛ والنبع مثله .

وقول ثالث قاله علي رضي الله عنه وعكرمة ؛ قال أبو مكين : سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال هو بحر دون العرش . وقال علي : تحت العرش فيه ماء غليظ . ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى « فُجِّرَتْ » في أحد التأويلين ؛ أي فُجِّر عذبها في مالحها ؛ والله أعلم . وسيأتي . وروى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم أي واقع بالمشركين . قال جُبير بن مُطْعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب « وَالطُّورِ » إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقال هشام بن حسان : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ « وَالطُّورِ » حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غُشي عليه . ولما وَلِي بَكَّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأول « وَالطُّورِ » إلى أن قال له قل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » إن كنت كاذبا ، فقالها فخرج فكسر من حينه .

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ العامل فى يوم قوله : « واقِعٌ » أى يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذى تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشىءُ يمورُ مَوْرًا ، أى تحرك وجاء وذهب كما تتكفأ النخلةُ العَيْدانةُ ، أى الطويلة ، والتَّمور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض . مجاهد : تدور دورا . أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كأنَّ مِشْيَتَها من بيتِ جارتِها * مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجرى جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دِماؤُها * بِدجلةَ حتّى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ[1]

وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم فى بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طَرَفة :

* ... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[2] *

والمَوْر الموج . وناقة مَوَّارة اليد أى سريعة . والبعير يمور عضداه إذا ترددا فى عرض جَنْبه ؛ قال الشاعر :

* على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ *

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدرى أغارَ أم مَارَ ؛ أى أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا الفلك ومورُه اضطراب نظمه واختلاف سيره ؛ قاله ابن بحر . ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم فى الدنيا ؛ بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » . وقد مضى هذا المعنى فى « الكهف »[3] . ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

---

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحمرة .

(٢) البيت من معلقته وتمامه : تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت : وظيفا وظيفا فوق مور معبد .
تبارى : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : السريعات . والوظيف عظم الساق . والمعبد : المذلل .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦ طبعة أولى أو ثانية .

« وَيْلٌ » كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى فى تردد فى الباطل ، وهو خوضهم فى أمر محمد بالتكذيب . وقيل : فى خوض فى أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حسابا ولا جزاء . وقد مضى فى « براءة »(١) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من يومئذ . و « يُدَعُّونَ » معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف ؛ يقال : دَعَعته أدُعُّه دعًّا أى دفعته ؛ ومنه قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ » . وفى التفسير : إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم فى النار دفعا على وجوههم ، وزخا فى أعناقهم حتى يَرِدوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردى وابن السَّمَيْقع « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أى يقال لهم « أَفَسِحْرٌ هَذَا » الذى ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كنتم لا تبصرون فى الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ أى تقول لهم الخزنة ذوقوا حرها بالدخول فيها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ « سواء » خبره محذوف ؛ أى سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شىء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا » . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضا ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي ذوى فاكهة كثيرة؛ يقال : رجل فاكه أي ذو فاكهة، كما يقال : لَابِنٌ وتامِرٌ ؛ أي ذو لبن وتمر؛ قال[1] :

وغَرَرْتَنِي وزَعمتَ أنـ * ـكَ لَابِنٌ بالصَّيْفِ تامِرْ

أي ذو لبن وتمر . وقرأ الحسن وغيره « فَكِهِينَ » بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين فى قول ابن عباس وغيره ؛ يقال : فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيب النفس مزاحا . والفكه أيضا الأشِر البطر . وقد مضى فى «الدخان»[2] القول فى هذا . ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾ أي أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ . ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم ذلك . ﴿هَنِيئًا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أي ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئًا» . وقيل : أي متعتم بنعيم الجنة إمتاعا هنيئا . وقيل : أي كلوا واشربوا هنئتم « هنيئا » فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هنيئا » أي حلالا . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة . وقيل : « هنيئا » أي لا تموتون؛ فإن مالا يبقى أولا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء .

قوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ سرر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين على نمارق سرر . ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن الأعرابي : أي موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا . وفى الأخبار أنها تصفّ فى السماء بطول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال ابن عباس : هى سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير ما بين مكة وأيلة . ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بهن . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أي قرناهم بهنّ من قول الله تعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أي وقرناءهم . وقال الفراء : تزوجت بامرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى القول فى معنى الحور العين[3] .

---

(١) هو الحطيئة . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٥٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ والذينَ آمنوا واتّبعتهم ذُرّيتهم ﴾ قرأ العامة «واتّبعتهم» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين و إسكان التاء . وقرأ أبو عمرو «وأتبعناهم» بقطع الألف و إسكان التاء والعين ونون ؛ آعتبارا بقوله : «ألحقنا بهم» ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : « ذُرِّيّاتُهم » الأولى فقرأها بالجمع آبن عامر وأبو عمرو و يعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم . وقرأ الباقون « ذُرّيتهم » على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وآبن عامر وأبو عمرو و يعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقون « ذُرّيتَهم » على التوحيد وفتح التاء . وآختلف في معناه فقيل عن آبن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة و إن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه ، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعا النحاس في «الناسخ والمنسوخ » له عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عزوجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة و إن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه " ثم قرأ « والذينَ آمَنُوا وأَتبعناهم ذُرِّيَّاتِهم بإيمانٍ » الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن آبن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله و بمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، و بمزاوجة الحور العين ، و بمؤانسة الإخوان المؤمنين ، و بآجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ابن عباس أيضا أنه قال : إن الله ليلحق بالمؤمن ذريته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوى . والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى : « بِإِيمَانٍ » فى موضع الحال من المفعولين ؛ وكان التقدير « بِإِيمَانٍ » من الآباء . وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثالث عن ابن عباس أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفى رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، و إن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون فى اسم الذرية ؛ كقوله تعالى : «وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» . وعن ابن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا رب إنى عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به" . وقالت خديجة رضى الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لى ماتا فى الجاهلية فقال لى : "هما فى النار" فلما رأى الكراهية فى وجهى قال : "لو رأيت مكانهما لأبغضتهما" قالت : يا رسول الله فولدى منك ؟ قال : "فى الجنة" ثم قال : "إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة والمشركين وأولادهم فى النار"(1) ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية .

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم ، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بإلحاق الذريات بهم . والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ابن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » ألحقنا بالذرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل ؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرية . وقرأ ابن كثير « وَمَا أَلِتْنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقون . وعن أبى هريرة « آلَتْنَاهُمْ » بالمد؛ قال ابن الأعرابى : أَلَتَه يَأْلِتُه أَلْتًا وآلَتَه يُؤْلِتُه إيلاتا ولاتَه يَلِيتُه لَيْتًا كلها إذا نقصه .

---

(1) هذا الحديث كان قبل قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت ربى فأعطانى أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » .

وفى الصحاح : ولَاتَه عن وجهه يَلُوته ويَلِيته أى حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألَاته عن وجهه فَعَل وأَفْعَل بمعنى، ويقال أيضا : ما ألَاته من عمله شيئا أى ما نَقَصه مثل ألَتَه وقد مضى بـ«الحجرات»[1]. ﴿ كُلُّ آمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار . قال آبن عباس : آرتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم؛ ولهذا قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » . وقيل : هو عام لكل إنسان مُرْتَهَن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله ، فأما الزيادة على ثواب العمل فهى تفضّل من الله . ويحتمل أن يكون هذا فى الذّرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرْتَهَنين بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله، أمدّهم بها غير الذى كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه فى الجنة . والكأس إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ، فإذا فرغ لم يسم كأسا . وشاهد التنازع والكأس فى اللغة قول الأخطل :

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأسِ نَادَمَنِي * لا بالحَصُور ولا فيها بِسَوَّارِ[2]

نَازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِى

وقال آمرؤ القيس :

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ * هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِى شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا فى « والصافات »[3] . ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى الكأس أى لا يجرى بينهم لغو

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ فما بعدها . (٢) مربح : يعز لضيفانه الربح وهى الفصلان؛ ويروى : مرنح وهو الذى كأسه ملأى بالخمر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الجيدة . والحصور الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار هو المعربد الوثاب ؛ ويروى بسئار وهو الذى إذا شرب ترك بقية من الشراب فى قعر الإناء . والدجاج هنا المراد به الديكة يريد وقت السحر ، يقال هذا دجاج فيريدون الديوك . وهذه دجاج فيريدون الأنثى . ووقعة السارى — ويروى وقفة السارى — من وقعت الإبل إذا بركت . والسارى هو السائر بالليل . وفى نسخ الأصل كلها فى الكأس بازعنى . والتصحيح كما أثبتناه فى صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ وما بعدها ففيها الكلام على الكأس .

« وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا ما فيه إثم . والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أى تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَغْوٌ فِيهَا » أى فى الجنة . قال ابن عطاء : أىّ لغو يكون فى مجلس محله جنة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! « وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا كذب؛ قاله ابن عباس . الضحاك : يعنى لا يكذب بعضهم بعضا . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو : « لا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين وقد مضى هذا فى «البقرة» عند قوله تعالى : (١) « لَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أى بالفواكه والتحف والطعام والشراب؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ »، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » . ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقر الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا فى الجنة . قال الكلبي : لا يكبرون أبدا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فى الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ فى الصَّدَف، والمكنون المصون. وقوله تعالى : «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ» . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس فى الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضى الله عنها : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال :" إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلّهم لبيك لبيك " . وعن عبد الله بن عمر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه " . وعن الحسن أنهم قالوا : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : " ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب " . قال الكسائى : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته فى نفسى أسررته . وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنى فى الكِنّ وفى النفس جميعا؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ ، وكننت الجارية وأكننتها فهى مكنونة ومُكَنّة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضا . وقيل : في الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي قال كل مسئول منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ قال الحسن : « السَّمُوم » اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل: نار عذاب السَّمُوم . والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنَا فهو مسموم والجمع سَمَائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم في لفح البرد [(١) وهو في لفح الحر] والشمس أكثر ؛ قال الراجز :

اليوم يومٌ باردٌ سَمُومُـهُ * مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا ألُومهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي في الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : «نَدْعُوهُ» أي نعبده . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ وقرأ نافع والكسائي «أَنَّهُ» بفتح الهمزة أي لأنه . الباقون بالكسر على الابتداء . و «البر» اللطيف ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : إنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فذكر يا محمد قومك بالقرآن. ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعنى برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بما فى غد من غير وحى . ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهذا ردّ لقولهم فى النبى صلى الله عليه وسلم؛ فعقبة بن أبى مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر، وغيرهما قال : كاهن، فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم . ثم قيل : إن معنى « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » القسم؛ أى وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون . وقيل : ليس قسما ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل؛ أى قد برأك الله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أى بل يقولون محمد شاعر. قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن «أم» فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال[1]:

* أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمْ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

* أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ *

فما جاء فى كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل. ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار تربصوا

(١) هو الأعشى .

بمحمد الموت يكفيكوه كما كفى شاعر بنى فلان. قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر، أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابا فربما يمـوت كما مات أبوه . وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون لحذف حرف الجر، كما تقول : قصدت زيدا وقصـدت إلى زيد . والمنون المـوت فى قول ابن عبـاس . قال أبو الغول الطُّهوى :

هُمْ مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبٍ ٭ يُؤَلِّف بين أَشْتَاتِ الْمَنُونِ[1]

أى المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرقى الأمكنة لو أتتهم مناياهم فى أماكنهم لأتتهم متفرّقة، فاجتمعوا فى موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة . وقال السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس : « ريب » فى القرآن شـك إلا مكانا واحدا فى الطور « ريب المنونِ » يعنى حوادث الأمور؛ وقال الشاعر[2] :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها ٭ تُطَلَّقُ يوماً أو يَموتُ حَليلُها

وقال مجاهد : « رَيْبَ الْمَنُونِ » حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ المنونِ ورَيْبِـه تَتَوَجَّـعُ ٭ والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى :

أَأَنْ رَأَتْ رجلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ ٭ رَيْبُ المنونِ ودَهرٌ مُتبِلٌ خَبِلُ[3]

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال . وعنه : أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أى قوّته وكذلك المنيّة . أبو عبيدة : قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف من قولهم حَبْلٌ مَنِين أى ضعيف، والمنين الغبار الضعيف . قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحدا وجمعا . الأصمعى : المنون واحد لاجماعة له .

---

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوشن . والوقبى كجمزى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ابن عباس وليس بشىء ، وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

الأخفش : هو جماعة لاواحد له ، والمنون يذكر و يؤنث فمن ذكره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد تربصوا أى آنتظروا . ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أى من المنتظرين بكم العذاب؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ أى عقولهم ﴿ بِهَٰذَا ﴾ أى بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى أم طغوا بغير عقول . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل أى بل كفروا طغيانا وإن ظهر لهم الحق . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال : تلك عقول كادها الله؛ أى لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أى أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يُعطَى الكافر الذهن فصار عليه حجة . والذهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ما أعقل فلانا النصرانى! فقال : " مَهْ إن الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ » " . وفى حديث ابن عمر : فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله " ذكره الترمذى الحكيم أبو عبد الله بإسناده . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى آختلقه وآفتراه ، يعنى القرآن . والتقوّل تكلّف القول ، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر . ويقال قوّلتنى ما لم أقل وأقوَلتنى ما لم أقل أى آدّعيته علىّ . وتقوّل عليه أى كذب عليه . وآقتال عليه تحكم قال[1] :

ومَنْزِلَةٌ فى دارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ * ومَا آقْتالَ مِن حُكْمٍ علىَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أى ليس كما يقولون . ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جحدا وآستكبارا . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمدا آفتراه . وقرأ الجحدرى « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء فى « مثله » للنبي صلى الله

(١) هو كعب بن سعد الغنوى .

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذى يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ « أم » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء . قال ابن عباس : من غير ربّ خلقهم وقدرهم . وقيل : من غير أم ولا أب فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة ؛ ليسوا كذلك ، أليس قد خُلقوا من نطفة وعلقة ومُضغة ، قاله ابن عطاء . وقال ابن كيسان : أم خُلقوا عبثا وتُركوا سُدًى « مِنْ غيرِ شيءٍ » أى لغير شيء « فمِن » بمعنى اللام . ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى أيقولون إنهم خلقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، و إذا أقروا أن ثَمّ خالقا غيرهم فما الذى يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام ، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث . ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله و يعرضوا عن أمره . وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أى أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت

يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر، ومقدورات الربّ كالخزائن التى فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها . ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ قال آبن عباس : المسلّطون الجبّارون . وعنه أيضا : المبطلون . وقاله الضحاك . وعن آبن عباس أيضا : أم هم المتولّون . عطاء : أم هم أرباب قاهرون . قال عطاء : يقال تسيطرت علىّ أى آتخذتنى خَوَلا لك . وقاله أبو عبيدة . وفى الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلّط على الشىء ليُشرِف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتبَ عمله ، وأصله من السَّطر ؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذى يفعله مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِر . يقال سَيْطرتَ علينا . آبن بحر : «أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ» أى هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذى يحفظ ما كتب فيه ، فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله فى اللوح المحفوظ . وفيه ثلاث لغات : الصاد وبها قرأت العامة ، والسين وهى قراءة آبن مُحَيصن وحميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبى حَيْوة ، وبإشمام الصاد الزاى وهى قراءة حمزة كما تقدّم فى « الصّراط » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ أى أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدا وسببا ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أى عليه الأخبارَ ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى . ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بينة أن هذا الذى هم عليه حقّ . والسّلم واحد السلالم التى يرتقى عليها . وربما سمى الغرز بذلك ؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته :

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها * بِسُلَّمِ غَرْزٍ فى مُنَاخٍ يُعاجِلُهْ

وقال زُهير :

ومَنْ هابَ أسبابَ المنيّةِ يَلْقَها(1) * ولو رَامَ أسبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر :

تجنّيتِ لى ذنباً وما إنْ جَنَيْتُه * لتتّخِذى عُذْراً إلى الهجرِ سُلَّما

---

(1) ويروى :

* ومن هاب أسباب المنايا ينله *

وهى الرواية المشهورة .

وقال ٱبن مُقْبل فى الجمع :

لا تُحْـرِزُ المـرءَ أَحْجاءُ البِـلَادِ وَلَا * يُبْنَى له فى السَّمواتِ السَّلالِيـمُ

الأحجاء النواحى مثل الأرجاء واحدها حَجًا و رَجًا مقصور . ويروى : أَعْناء البلاد ، والأعْناء أيضا الجوانب والنواحى واحدها عِنْو بالكسر . وقال ٱبن الأعرابى : واحدها عَنًا مقصور وجاءنا أعناء من النـاس واحدهم عِنْو بالكسروهم قوم من قبائل شتى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى عليه؛ كقوله تعالى : « فِى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى عليها؛ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : أى ألهم بجبريل الذى يأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحى .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ سـفَّه أحلامهم تو بيخا لهم وتقـريعا . أى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يسـتبعد منه إنكار البعث . ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أى على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أى فهم من المغرم الذى تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لمـا كلفتهم به . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أى أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل . وقال قتادة : لمـا قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى : « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ » حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليـه أمره . وقال ٱبن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبى : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَـةَ » أى حكم، وقوله عليه الصلاة والسلام : "والذى نفسى بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله " أى بحكم الله .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْـدًا ﴾ أى مكرا بك فى دار النَّـدْوة . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أى الممكور بهم «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» وذلك أنهم قتلوا ببدر . ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويمنع . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزه نفسه أن يكون له شريك . قال الخليـل : كل ما فى سـورة « والطور » من ذِكر « أَمْ » فكلمة ٱستفهام وليس بعطف .

قوله تعالى : وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ قال ذلك جوابا لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أى بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء ، وهـذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد ، وكان فى المشركين القسمان . والكِسْف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشيء ، يقال : أعطنى كِسْفة من ثوبك ، ويقال فى جمعها أيضا : كِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحدا ومن قرأ « كِسَفا » جعله جمعا . وقد تقدم القول فى هذا فى « سبحان »(١) وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة ، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان صَعِق وصُعِق مثـل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيـل : يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيـه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : « يُصْعَقُون » بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى ما كادوا به النبي صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ من الله . و « يومَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » .

قوله تعالى : وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية و جـ ١٣ ص ١٢٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . آبن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . آبن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البراء بن عازب وعليّ رضي الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذابا أخف من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ـ « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته . وقيل : لبلائه فيما آبتلاك به من قومك ؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانية ـ قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أي بمرأى منظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » (1) أي بحفظي وحراستي وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

فيه مسئلتان

الأولى ـ قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » آختلف في تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وآبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه ؛ فيقول سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ؛ فإن كان المجلس خيرا آزددت ثناء حسنا ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ؛ ودليل هذا التأويل ما خرجه الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك " قال حديث

---

(1) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسن صحيح غريب. وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : " رب اغفرلي وتب علي إنك أنت التواب الغفور " قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . قال الكيا الطبري : وهذا فيه بعد ؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله . وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر . وفي هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تعارّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفرلي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته " خرّجه البخاري . تَعارَّ الرجلُ من الليل إذا هَبّ من نومه مع صوت ؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارا وهو صوته ؛ وبعضهم يقول : عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارا كما قالوا زَمَرَ النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارا . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفرلي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك" متفق عليه . وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران » .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال ٱبن العربى : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح فى الصلاة إذا قام إليها . المـاوردى : وفى هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربى العظيم فى الركوع وسبحان ربى الأعلى فى السجود . الثانى إنه التوجه فى الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك ٱسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . قال ٱبن العربى : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار فى ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : " وجهت وجهى " الحديث . وقد ذكرناه وغيره فى آخر سورة « الأنعام »[1] . وفى البخارى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال قلت : يا رسول الله علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ؛ فقال : " قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وٱرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم " .

الثانيـــة — قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » تقدّم فى « ق »[2] مستوفى عند قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ » . وأما « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » فقال على وٱبن عباس وجابر وأنس : يعنى ركعتى الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وٱبن زيد : أن قوله : « وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » يريد به صلاة الصبح وهو ٱختيار الطبرى . وعن ٱبن عباس : أنه التسبيح فى آخر الصلوات . وبكسر الهمزة فى « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه فى « قٓ » . وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَأَدْبَارَ » بالفتح ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب . وهو جمع دُبْر ودُبُر ، ودُبْر الأمر ودُبُره آخره . وروى الترمذى من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدين بن كريب عن أبيه عن ٱبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب "

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هـذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رِشْدِين بن كريب . وسألت محمـد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل ورِشدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندى أرجح . قال : وسألت عبـد الله بن عبـد الرحمن عن هـذا فقال : ما أقربهما ، ورِشْدِين بن كريب أرجحهما عندى . قال الترمذى : والقول ما قال أبو محمد ورِشْدين بن كريب عندى أرجح من محمد وأقدم وقد أدرك رِشْدِين آبن عباس ورآه . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم على شيء من النوافل أشـد معاهدة منـه على ركعتين قبل الصبح . وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيهـا " . تم تفسـير سورة « والطور » والحمد لله .

سـورة والنجـم

مكية وهى إحدى وستون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آية منها وهي قوله : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : آثنتان وستون آية . وقيـل : إن السـورة كلها مدنية . والصحيح أنهـا مكية لمـا روى آبن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفى « البخارى » عن آبن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم ، وسجد معـه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وعن عبـد الله أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم قرأ سـورة النجم فسجد لهـا ، فمـا بقى أحد من القوم إلا سجـد ؛ فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعـه إلى وجهه وقال : يكفينى هـذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعـدُ قُتِل كافرا . متفق عليـه . الرجل يقال له أمية بن خلف . وفى الصحيحين عن زيد بن ثابت أنه قرأ على النبى صـلى الله عليه وسلم سورة « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلم يسجد . وقد مضى فى آخر «الأعراف»[1] القول فى هذا والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد : معنى « وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَى » والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمى الثُّريا نجما وإن كانت فى العدد نجوما ؛ يقال إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفىّ يمتحن الناسُ به أبصارهم . وفى « الشِّفا » للقاضى عياض : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآنِ إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجوما . وقاله الفرّاء . وعنه أيضا : يعنى نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع ؛ كقول الراعى :

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرةٍ * سَرِيعٍ بأيدى الآكلين جُمُودُها

وقال عمر بن أبى رَبيعة

أَحْسَنُ النَّجْمِ فى السماءِ الثُّرَيَّا * والثُّرَيَّا فى الأرض زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدى : إن النجم هنا الزهرة لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التى ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا كثر ٱنقضاض الكواكب قبل مولده ، فذعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : ٱنظروا البروج الٱثنى عشر فإن ٱنقضّ

منها شيء فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: «والنَّجْمِ إذا هَوَى» أي ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوّة التي حدثت. وقيل: النجم هنا النبت الذي ليس له ساق، وهَوَى أي سقط على الأرض. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: «والنَّجْمِ» يعني محمدا صلى الله عليه وسلم «إذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وعن عُرْوة بن الزبير رضي الله عنهما أن عُتْبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتينّ محمدا فلأوذينه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى. ثم تَفَل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردّ عليه ابنته وطَلّقها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم سَلِّط عليه كلبا من كلابك" وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها وقال: ما كان أغناك يابن أخي عن هذه الدعوة. فرجع عُتْبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلا، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مَسْبَعة. فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يامعشر قريش هذه الليلة! فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يَتشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله. وقال حسّان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ * فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ (1)

وأصل النَّجْم الطلوع؛ يقال: نَجَم السِّنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أي خرج على السلطان. والهُوِيّ النزول والسقوط؛ يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّا مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّا؛ قال زُهَير:

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وهي تَهْوِي (2) * هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

(1) في نسخة: من يرجع الآن.

(2) شج: علا. والبيت في وصف عير وأتنه؛ أي لما وجد العير أن صنيعات قد انقطع ماؤها انتقل عنها إلى غيرها بجعل يعلو بالأتن الأماعز وهي حزون الأرض الكثيرة الحصى.

وقال آخـــر[1] :

بَيْنَمَا نحنُ بالبَـلَاكِثِ فالقَـا * عِ سِـرَاعاً والعِيسُ تَهْـوِى هُـوِيًّا

خَطَرتْ خَطْرةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ * ـرَاكِ وَهْنًا فما ٱستطعتُ مُضِيًّا

الأصمعي : هَوَى بالفتح يَهوِى هُوِيًّا أى سقط إلى أسفل . قال : وكذلك ٱنهوى فى السير إذا مضى فيه، وهَوَى وٱنْهَوى فيه لغتان بمعنى ، وقد جمعهما الشاعر فى قوله[2] :

وكَمْ مَنْزِلٍ لولاىَ طِحتَ كما هَوَى * بأَجرامِـهِ مِنْ قُـلَّةِ النِّيقِ مُنْهَـوِى

ويقال فى الحبّ : هَوِىَ بالكسر يَهْوَى هَوًى أى أحبّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أى ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه . ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ الغَىّ ضـد الرشد أى ما صار غاويا . وقيـل : أى ما تكلم بالباطل . وقيل : أى ما خاب مما طلب والغىّ الخيبة ؛ قال الشاعر[3] :

فمن يَلْقَ خيرًا يَحْمَـدِ النـاسُ أَمْرَهُ * ومن يَغْوِ لا يَعْـدَمْ على الغَىِّ لائِمَـا

أى من خاب فى طلبه لامه الناس . ثم يجوز أن يكون هـذا إخبارا عما بعد الوحى . ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم ؛ أى كان أبدا موحدا لله . وهو الصحيح على ما بيناه فى « الشورى »[4] عند قوله : « مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَـانُ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ .

فيـــه مسئلتانــــ :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » إليه . وقيل : « عَنِ الْهَوَى » أى بالهوى ؛ قاله أبو عبيدة؛

---

(١) قائله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكث ــ بالمثلثة ــ تذكر زوجته وكان شغوفا بها فكر راجعا فقال الأبيات ؛ و بعد البيتين :

قلت لبيـــك إذ دعانى لك الشـو * ق وللحاديــن حثا المـــطيا

(٢) قائله يزيد بن الحكم الثقفى . (٣) قائله المرقش . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ وما بعـدها طبعة أولى أو ثانية .

كقوله تعـالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً » أى فاسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى وتكون « عن » على بابها، أى ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحى من الله عز وجل؛ لأن بعده: « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » .

الثانيـــة — قد يحتج بهذه الآية من لا يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضا دلالة على أن السنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدم فى مقدمة الكتاب حديث المقدام بن معـدى كرب فى ذلك(١) والحمـد لله . قال السجستانى : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » من « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنبارى: وهذا غلط؛ لأن « إن » الخفيفة لا تكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ما قمت إن أنا لقاعد .

قوله تعـالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين سوى الحسن، فإنه قال: هو الله عز وجل ويكون قوله تعالى : ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمـام الكلام ، ومعناه ذو قوة والقوة من صفات الله تعالى؛ وأصله من شـدة فتل الحبل، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى الله عز وجل؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفراء: ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقلما يقولون استوى وفلان؛ وأنشد الفراء :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُـودُهُ * ولا يَسْتوِى والخِرْوَعُ المتقصِّفُ(٢)

أى لا يستوى هو والخروع؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا » والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية؛ استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) النبع شجر فى الجبال تؤخذ منه القسى . والخروع معروف . والمتقصف المتكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا فى ضرورة الشعر . وقيل المعنى فآستوى جبريل بالأفق الأعلى وهو أجود . وإذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذُو مِرَّة» فى وصفه ذو منطق حسن ؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . وقيل : معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغنىّ ولا لِذِى مِرَّةٍ سوِىّ (١) " . وقال آمرؤ القيس :

كنتُ فيهم أبدًا ذا حِيلةٍ * مُحْكَمَ المِـرَّةِ مأمونَ العُقَـدْ

وقد قيل : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوّة . قال الكلبى : وكان من شدّة جبريل عليه السلام أنه آقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السُّفلى (٢) ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها . وكان من شدّته أيضا أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل فى الهند . وكان من شدّته صيحته بثمود فى عددهم ، وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين وكان من شدّته هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها فى أسرع من الطرف . وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جزل الرأى حصيف العقل ذُو مِرّةٍ . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لِقاكُمُ ذا مِرّةٍ * عنـدى لِكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله آئتمنه على وحيه إلى جميع رسله . قال الجوهرى : والمِرة إحدى الطبائع الأربع ، والمِرة القوّة وشدّة العقل أيضا . ورجل مرير أى قوى ذو مِرةٍ . قال (٣) :

تَرَى الرجلَ النحيفَ فتزدريهِ * وَحَشْوُ ثيابِهِ أسدٌ مَرِيرُ

وقال لَقِيط :

حتى آستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُه * مُرُّ العَزِيمةِ لا [قَحْمًا (٤)] ولا ضَرَعا

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) فى بعض النسخ : من الماء الأسود .

(٣) قائله العباس بن مرداس . وفى التاج : وفى أثوابه رجل مزير . بالزاى ويروى : أسد مزير . والمزير كأمير الشديد القلب القوى النافذ فى الأمور . (٤) فى الأصول « لارتا » ولم يتبين لنا وجه المعنى فيها فأثبتنا بدلها « قحما » عن ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطلب . والقحم الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع اللين الذليل .

وقال مجاهد وقتادة : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إنّى آمرؤٌ ذو مِرّةٍ فاسـتبقِنِى * فيما يَنُوبُ من الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صـفة الله عز وجل ومن صفة المخـلوق . « فٱستوى » يعـنى جبريل على ما بينا أى آرتفع وعلا إلى مكان فى السماء بعد أن علّم محمدا صلى الله عليه وسلم . قاله سـعيد آبن المسيِّب وآبن جبير . وقيل : « فاسْتَوَى » أى قام فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتى إلى النبى صـلى الله عليـه وسـلم فى صورة الآدميين كما كان يأتى إلى الأنبياء ، فسأله النبى صـلى الله عليه وسـلم أن يريه نفسـه التى جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء فأما فى الأرض ففى الأفق الأعلى ، وكان النبى صـلى الله عليـه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فنزل إليه فى صورة الآدميين وضمـه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ، فلما أفاق النبى صلى الله عليه وسـلم قال : " يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحدا على مثل هـذه الصورة " . فقال : يا محمد إنمـا نشرت جناحين من أجنحتى و إن لى ستمائة جناح سـعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : " إن هذا لعظيم " فقال : وما أنا فى جنب ما خلقه الله إلا يسـيرا ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتى ، و إنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعـالى حتى يكون بقدر الوصْع . يعنى العصفور الصغير ؛ دليله قوله تعـالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ الْمُبِينِ » وأما فى السماء فعند سِدْرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فَٱسْتَوَى » أى آستوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فى صدر جبريل حين نزل به عليه . الثانى فى صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى «فَٱسْتَوَى» فاعتدل يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فآعتدل فى قوته . الثانى فى رسالته . ذكرهما المـاوردى .

قلت : وعلى الأول يكون تمـام الكلام « ذُو مِرّةٍ » وعلى الثانى « شَـدِيدُ القُوَى » . وقول خامس أن معناه فآرتفع . وفيه على هـذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السـلام

أرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثانى أنه النبي صلى الله عليه وسلم آرتفع بالمعراج ١٠ وقول سادس « فَٱسْتَوَى » يعنى الله عز وجل أى آستوى على العرش على قول الحسن . وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ جملة فى موضع الحال والمعنى فآستوى عاليا ؛ أى آستوى جبريل عاليا على صورته ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذى تأتى منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس . ونحوه عن مجاهد . ويقال : أُفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر . وقد مضى فى « حم السجدة »(٢) . وفرس أُفُق بالضم أى رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر

أَرَجِّلُ لِمَّتِي وأَجُرُّ ذَيْـلِي * وتَحمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ(٣)

وقيل : « وَهُــوَ » أى النبي صلى الله عليــه وسلم « بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ » يعنى ليلة الإسراء وهــذا ضعيف ؛ لأنه يقال : آستوى هــو وفلان ولا يقال آستوى وفلان إلا فى ضرورة الشــعر . والصحيح آستوى جبريل عليــه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صــورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسـلم إذا نزل بالوحى فى صــورة رجل، فأحبّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فآستوى فى أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعــالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ أى دنا جبريل بعد آستوائه بالأفق الأعلى من الأرض « فَتَدَلَّىٰ » فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى . المعنى أنه لمــا رأى النبي صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمىّ حين قرب من النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ » يعنى أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » قاله آبن عبــاس والحسن وقتادة والربيــع وغيرهم . وعن

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ فما بعد وجـ ١ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤ فما بعد

(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادى . والشكّة السلاح . وفى اللسان : وتحمل بزتى . والكميت من الخيل ما خلط حمرته سواد غير خالص .

ٱبن عباس أيضا فى قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دنا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القَرب؛ قال لَبِيد[1] :

تَـدَلَّيْت عَلَيْـه قافِـلًا * وعلى الأرض غيَابَاتُ الطَّفَل[1]

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء فى « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليـه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمني فأساء وأساء فشتمني ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى: « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » المعنى والله أعلم ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة . وقال الجرجانى : فى الكلام تقديم وتأخير أى تدلّى فدنا ؛ لأن التـدلّى سبب الدنوّ . وقال ٱبن الأنبارى : ثم تدلّى جبريل أى نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال ٱبن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليـه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . وسيأتى . ومن قال : المعنى فٱسـتوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أى هَوَى للسجود . وهـذا قول الضحاك . قال القشيرى : وقيل على هذا تدلّى أى تَدلَّلَ ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ، وهـذا بعيد؛ لأن الدلال غير مرضيّ فى صفة العبودية .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أى « كان » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر قوسين عربيتين . قاله ٱبن عباس وعطاء والفرّاء . الزمخشرى : فإن قلت كيف تقدير قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على فى قوله[2] :

* وَقَدْ جعلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبَعَا *

---

(١) البيت فى وصف فرس . أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب .

(٢) قائله أعشى نهشل وصدره : * فأدرك إبقاء العرادة ظلعها *

أى ذا مقـدار مسافة إصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم كقوله تعـالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » . وفى الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادُ قَوْس وقِيدُ قَوْس ؛ أى قَدْر قوس . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قِيدَ » و « قَدْرَ » . ذكره الزمخشرى . والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة . ولكل قوس قابان. وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ » أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : " ولَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِـدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها " والقِـدّ السّوط . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " ولَقابُ قوسِ أحدِكم فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " . و إنما ضرب المثـل بالقوس، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عياض : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَـدًى ، و إنما دنوّ النبى صلى الله عليه وسـلم من ربه وقُرْبه منه إبانةُ عظيمِ منزلته ، وتشريف رتبته، و إشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبـه وقدرته ، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط و إكرام . ويتأوّل فى قوله عليه السلام : " ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " على أحد الوجوه نزول إجمـال وقبول و إحسان . قال القاضى . وقوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فمن جعـل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحـل ، و إيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، و إظهار التحفِّى ، و إنافة المنزلة والقـرب من الله ويتأوّل فيـه ما يتأوّل فى قوله عليه السلام : "من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة" قرب بالإجابة والقبول ، و إتيان بالإحسان وتعجيل المأمول . وقد قيل : « ثم دَنَا » جبريل من ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدل عليـه ما روى فى الحـديث : " إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام " . وقيل : « أو » بمعنى الواو أى قاب قوسين وأدنى . وقيـل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيِّب : القاب صـدر القوس العربية حيث يشدّ عليـه السير الذى يتنكبه صاحبـه ، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسـلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبـير وعطاء

وأبو إسحق الهمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر ذراعين والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ، وهي لغة بعض الحجازيين . وقيل : هي لغة أزد شنوءة أيضا . وقال الكسائي : قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوسا واحدا ؛ كقول الشاعر :

ومَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * قَطَعْتُهُ بِالسَّمْتِ لا بِالسَّمْتَيْنِ (١)

أراد مهمها واحدا . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قُوَيْسة ومن ذكر قال قُوَيْس ؛ وفي المثل هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْمًا . والجمع قِسِي وقُسِيّ وأقْواس وقِيَاس وأنشد أبو عبيدة :

* ووَتَّرَ الأساوِرُ القِيَاسَا (٢) *

والقَوْس أيضا بقية التمر في الجُلَّة أى الوعاء . والقَوْس برج في السماء ، فأما القُوس بالضم فصومعة الراهب ؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لاستَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ في القُوسِ (٣) *

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحي الذى أوحى إليه . وتقدم معنى الوحي وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء الوَحَاء (٤) . والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَى » . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحي هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به

---

(١) السمت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(٢) قائله القلاخ بن حزن . تمامه : * صغدية تنتزع الأنفاسا *

والأساور : جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس . والصغد : جيل من العجم و يقال إنه اسم بلد .

(٣) قائله جرير وصدره : * لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت *

(٤) يمد ويقصر فالمقصور الوحى كالوعى ومعناه البدار البدار . راجع جـ ٤ ص ٨٥ وجـ ١٠ ص ١٣٣ في معنا الوحى والقول فيه .

على الجملة، أو هو معلوم مفسّر؟ قولان . وبالثاني قال سعيد بن جبير؛ قال : أوحى الله إلى محمد ؛ ألم أجدك يتيما فآويتك ! ألم أجدك ضالا فهديتك ! ألم أجدك عائلا فأغنيتك «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأول مروي عن ابن عباس . وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة . والثاني قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بني هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول في هذا في « الأنعام »[(١)] عند قوله : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال : "رأيته بفؤادي مرتين" ثم قرأ « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » . وقول ثالث أنه رأى جلاله وعظمته . قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : "رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وراء الحجاب نورا لم أر غير ذلك . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : "نور أنّى أراه" المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته ، ودل على هذا الرواية الأخرى "رأيت نورا" . وقال ابن مسعود : رأى جبريلَ على صورته مرتين . وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أي ما كذَّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه . فـ « ما » مفعوله بغير حرف مقدّر؛ لأنه يتعدّى مشدّدًا بغير حرف . ويجوز أن تكون « ما » بمعنى الذي والعائد محذوف . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا . الباقون مخففا؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضي الله عنه :

لو كنتِ صادقة الذي حدّثتِنِي * لنجوتِ مَنْجًا الحرثِ بنِ هشامِ

أي في الذي حدّثتِنِي . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا . ويجوز أن يكون بمعنى الذي؛ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي رأى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ قرأ حمزة والكسائي « أَفَتَمْرُونَهُ » بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه . يقال : مراه حقه أي جحده ومريته أنا؛ قال الشاعر :

لئن هجرتَ(1) أخا صدقٍ ومَكْرُمَةٍ * لقد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمْرِيكَا

أي جحدته . وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه . قال : ومثل على بمعنى عن قول بني كعب بن ربيعة رضي الله عليك؛ أي رضي عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفَتُمْرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمريت أي تريبونه وتشككونه . الباقون « أَفَتُمَارُونَهُ » بألف أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؛ والمعنيان متداخلان؛ لأن مجادلتهم جحود . وقيل : إن الجحود كان دائما منهم وهذا جدال جديد . قالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا التي في طريق الشام . على ما تقدّم(2) .

---

(1) ويروى : هجوت . (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ « نزلة » مصدر فى موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلا نزلة أخرى . قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبى العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين ؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان له صعود ونزول مرارا بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجة نَزْلة . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أى ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفى بعض تلك النزلات . وقال ابن مسعود وأبو هريرة فى تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » أنه جبريل . ثبت هذا أيضا فى صحيح مسلم . وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم : "رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت" ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ « عِنْدَ » من صلة « رآه » على ما بينا . والسِّدْر شجر النَّبِق وهى فى السماء السادسة ، وجاء فى السماء السابعة . والحديث بهذا فى صحيح مسلم ؛ الأول ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش[1] من ذهب ، قال : فأُعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغُفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحماتُ[2] . الحديث الثانى رواه قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لما رُفعتُ إلى سِدْرة المنتهى فى السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ الدارقطنى . والنَّبِق بكسر الباء ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة . ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون

---

(١) ويروى : « جراد من ذهب » . والفراش دويبة ذات جناحين تتهافت فى ضوء السراج واحدتها فراشة .

(٢) المقحمات الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار أى تلقيهم فيها .

الباء ذكرهما يعقوب فى الإصلاح وهى لغة المصريين، والأولى أفصح وهى التى ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذي عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذُكر له سِدْرة المنتهى — قال : "يسير الراكب فى ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شكّ يحيى — فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القلال" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس "ثم ذُهب بى إلى سِدْرة المنتَهى و إذا ورقها كآذان الفيلة و إذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" . وآختلف لم سُمّيت سِدْرة المنتَهى على أقوال تسعة : الأول — ما تقدّم عن آبن مسعود أنه ينتهى إليها كلما يهبط من فوقها و يصعد من تحتها . الثانى — أنه ينتهى علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها . قاله آبن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهى إليها وتقبض منها . قاله الضحاك . الرابع — لآنتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها . قاله كعب . الخامس — سُمّيت سِدْرة المنتَهى لأنه ينتهى إليها أرواح الشهداء . قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهى إليها أرواح المؤمنين قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهى إليها كل من كان على سنّة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه . قاله على رضى الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هى شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق . قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن آرتفاعها وأعالى أغصانها قد جاوزت رءوس حملة العرش ، ودليله ما تقدّم من أن أصلها فى السماء السادسة وأعلاها فى السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سُمّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد آنتهى فى الكرامة . وعن أبى هريرة لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم آنتهى به إلى سِدْرة المنتَهى فقيل له هذه سِدْرة المنتَهى ينتهى إليها كل أحد خَلَا من أمتك على سنّتك فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار

من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطّي الأمة كلّها . ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى . وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبْرَة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد « عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى » يعني جَنَّه المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبي صلى الله عليه وسلم. وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أي ستره وأدركه . وقراءة العامة «جَنَّةُ الْمَأْوَى» قال الحسن ، هي التي يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء قاله ابن عباس . وهي عن يمين العرش . وقيل : هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة[1] . وقيل : إن أرواح المؤمنين كلهم في جنّة المأوى . وإنما قيل لها جنّة المأوى : لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فَرَاشٌ من ذهب . ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم في صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت . قال القشيري : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها ؟ قال : " فَرَاش من ذهب " . وفي خبر آخر " غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها " وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السّدرة يغشاها فَرَاش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » " ذكره

---

(١) في نسخ : «الرابعة» وكذا في حاشية الجمل عن القرطبي .

المهدوى والثعلبي(١) . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعا . وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضر . وعنه عليه السلام : " يغشاها رَفْرَف من طير خضر " . وعن ابن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أى أمره كما فى صحيح مسلم مرفوعا : "فلما غشيها من أمر الله ما غشى". وقيل : هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » «وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى» ومثله «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ». وقال الماوردى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السِّدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذى يجمع قولا وعملا ونيّة ، فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكونه ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود فى سننه قال : حدّثنا نصر بن على قال حدّثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حبشى، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قطع سِدْرة صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار " وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قال ابن عباس: أى ما عدل يمينا ولا شمالا، ولا تجاوز الحدّ الذى رأى . وقيل : ما جاوز ما أُمر به . وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

---

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبي فى تفسيره ما يأتى : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ذهب بى جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر " قال : " فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قدر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة " وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية .

من الآيات . وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام ؛ إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا سدّ الأفق . وذكر البيهقي عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا أخضر سدّ أفق السماء . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال البيهقي : قوله في الحديث " رأى رَفْرَفا " يريد جبريل عليه السلام في صورته على رفرف ، والرفرف البساط . ويقال : فِراش . ويقال : بل هو ثوب كان لباسا له . فقد روى أنه رآه في حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذي عن عبد الله قال « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » قال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام في حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير ؛ أي تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . قال : " فارقني جبريل وانقطعت عنّي الأصوات وسمعت كلام ربّي " فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره . وهو بالمعنى الأوّل جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريل عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السموات ؛ وكذا في صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح . ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلّة رفرف وعلى رفرف . والله أعلم . وقال الضحاك : رأى سِدْرة المنتهى . وعن ابن مسعود : رأى ما غشى السِّدرة من فَرَاش الذهب . حكاه الماوردي . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه ؛ وهو أحسن ؛ دليله « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » « ومِنْ » يجوز أن تكون للتبعيض ، وتكون « الكبرى » مفعولة لـ « رأى » وهي في الأصل صفة الآيات ووحدت لرءوس

الآيات . وأيضا يجوز نعت الجماعة نعت الأنثى؛ كقوله تعالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » .
وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الآية الكبرى . ويجوز أن تكون « مِن » زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر ، حاج المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئا كما أوحي إلى محمد . وكانت اللاتُ لثقيف ، والعُزَّى لقريش وبني كنانة ، ومناةُ لبني هلال[1] . وقال هشام : فكانت مناة لهُذَيل وخُزَاعة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم آتخذوا اللاّت بالطائف ، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُرَبَّعة ، وكان سَدَنتها من ثقيف ، وكانوا قد سَوَّوا عليها بناء ، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمي زيد اللاّت وتيم اللاّت . وكانت في موضع [منارة][2] مسجد الطائف اليسرى ، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار . ثم آتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللاّت ، آتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عِرْق ، فبنوا عليها بيتا وكانوا يسمعون منها[3] الصوت . قال هشام : وحدثني أبي عن أبي صالح عن آبن عباس قال : كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نخلة ، فلما آفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال :

---

(١) اتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبني هلال ولم نره لغير المؤلف .
(٢) الزيادة من كتاب الأصنام لابن الكلبي .
(٣) في كتاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

" ايت بطنَ نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فاْعضد الأولى " فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال : " هل رأيت شيئا " قال : لا . قال : " فاْعضد الثانية " فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " هل رأيت شيئا " قال : لا . قال : " فاْعضد الثالثة " فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّف بأنيابها ، وخلفها دُبَيَّة(1) السُّلمي وكان سادنها فقال :

يا عُزَّ كُفرانك لا سُبحانك * إني رأيتُ اللهَ قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حُمَمَة ، ثم عضد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : " تلك العُزَّى [ولن تُعبدَ أبدا] " وقال ابن جُبير : العُزَّى حجر أبيض كانوا يعبدونه . قتادة : نبت كان ببطن نخلة «ومَنَاة» صنم لخزاعة . وقيل : إن اللات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله، والعُزَّى من العزيز، ومَنَاة من مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره . وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح « اللاتّ » بتشديد التاء وقالوا : كان رجلا يَلُتّ السَّويق للحاجّ ـ ذكره البخاري عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . ابن عباس : كان يبيع السَّويق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاما لصاحب السَّويق . أبو صالح : إنما كان رجلا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّويق فلما مات عبدوه . مجاهد : كان رجل في رأس جبل له غُنَيمة يَسلِي(2) منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلها، ثم يتخذ منها حَيْسا فيطعم الحاجّ ، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللاتّ . وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف يقال له صِرمة بن غنم . وقيل إنه عامر بن ظَرِب العَدْواني . قال الشاعر(3) :

لا تنصروا اللاتَ إنّ اللهَ مُهلِكُها * وكيف ينصركُمُ مَنْ ليس يَنتصِرُ

(1) دبية بالدال المهملة بن حرمى ويروى ابن حرمى ثم السلمى .

(2) يسلى : يجمع . والأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به . والرسل اللبن .

(3) هو شداد بن عارض الجشمى قاله فى أبيات حين هدمت اللات وحرقت ، ينهى ثقيفا عن العود إليها ، والغضب لها .

والقراءة الصحيحة «اللاتَ» بالتخفيف آسم صنم والوقف عليها بالتاء وهو آختيار الفرّاء،

قال الفرّاء : وقد رأيتُ الكسائيّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَدِيّ[(1)] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ « أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهْ » . وكذا قرأ الدُّورِيّ عن الكسائيّ والبَزّي عن آبن كثير « اللاَّه » بالهاء في الوقف ومن قال : إن « اللاّت » من الله وقف بالهاء أيضا . وقيل : أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] . وهي من لاَهَت أي آختفت ؛ قال الشاعر :

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ * ياليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي الصحاح : اللاّت آسم صنم كان لثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللاّتِ والعُزّى ، ويقول هي اللاّتْ فيجعلها تاء في السكوت وهي اللاّت فاعْلَمْ أنه جُرّ في موضع الرفع ؛ فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه ؛ لأن الألف واللام اللتان في اللاّت لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللاّتِ والعُزّى في السكوت عليها فاللاّهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثلُ كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها ؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللاّتِ ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الآسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ قرأ آبن كثير وآبن مُحَيْصن وحُمَيد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر « وَمَنَاءَةَ » بالمدّ والهمز . والباقون بترك الهمز لغتان . وقيل : سمي بذلك ؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت مِنًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء . وكان الكسائي وآبن كثير وآبن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل .

---

(1) الذي ذكره النحاس في إعراب قوله تعالى : « ولات حين مناص » أن الفرّاء قال عن الكسائي أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على «ولات» فوقف عليها بالهاء . وعبارة الفرّاء في هذه السورة من تفسيره : وكان الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء . ا هـ . ولم يذكر أبا فقعس .

الباقون بالتاء اتباعا لخط المصحف . وفي الصحاح : ومَنَاة اسم صنم كان [لهُذيل وخُزاعة][1] بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة ، والنسبة إليها مَنَوِيّ ، وعبد مَناة بن أُدّ بن طابخة وزيد مناة بن تميم بن مُرّ يُمدّ ويقصر؛ قال هَوْبَر الحارثي :

أَلَا هلْ أَتَى التَّيمَ بنَ عبدِ مَنَاءةٍ * على الشَّنْءِ فيما بيننا ابنُ تَميمِ

قوله تعالى : ﴿الْأُخْرَى﴾ العرب [لا][2] تقول للثالثة أخرى، وإنما الأخرى نعت للثانية واختلفوا في وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رءوس الآي ؛ كقوله : « مَآرِبُ أُخْرَى » ولم يقل أخر . وقال الحسين بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللّات والعُزّى الأخرى ومَنَاة الثالثة . وقيل : إنما قال « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللّات والعُزّى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا عن هشام : أن مَنَاة كانت أولا في التقديم ، فلذلك كانت مقدمة عندهم في التعظيم ؛ والله أعلم . وفي الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أي أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ ردّا عليهم قولهم الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا ﴾ يعني هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي جائرة عن العدل ، خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق . يقال : ضَازَ في الحكم أي جار ، وضَازَه حقّه يَضيزه ضَيْزا ـــ عن الأخفش ـــ أي نقصه وبخسه . قال : وقد يهمز فيقال ضأزه يَضْأَزه ضَأْزا وأنشد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ [تُقِمْ][3] * فقِسْمُكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائي : يقال ضَازَ يَضِيز ضَيْزا وضَازَ يَضُوز ضَوْزا ، وضَأَزَ يَضْأَز ضَأْزا إذا ظلم وتعدّى وبخس وانتقص ؛ قال[4] :

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بحُكمِهِمُ * إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) الزيادة من اللسان وفي الأصل و إن تغب . وروى لحظك بدل فقسمك . (٤) قائله امرؤ القيس .

وقوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائرة وهى فُعْلى مثل طُوبَى وحُبْلى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء ؛ لأنه ليس فى الكلام فِعْلى صفة ، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى . قال الفرّاء : وبعض العرب تقول ضُؤْزَى وضِئْزَى بالهمز . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد: أنه سمع العرب تهمز «ضِيزَى». قال غيره : وبها قرأ ابن كثير ؛ جعله مصدرا مثل ذِكْرى وليس بصفة ؛ إذ ليس فى الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى ؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب ، وهى من قولهم ضأزته أى ظلمته . فالمعنى قسمة ذات ظلم . وقد قيل هما لغتان بمعنى. وحكى فيها أيضا سواهما ضَيْزَى وضَأْزَى وضُوزَى وضُؤْزَى . وقال المؤرّج: كرهوا ضم الضاد فى ضِيزَى وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو ؛ فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ مثل حُمْر وصُفْر وخُضْر . فأما من قال : ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى .

قوله تعالى : إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى ما هى يعنى هذه الأوثان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » يعنى نحتموها وسميتموها آلهة . ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أى قلدتموهم فى ذلك . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هؤلاء إلى الظن . ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى تميل إليه . وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وآبن السَّمَيْقع

« تَتَّبِعُونَ » بالتاء على الخطاب . وهى قراءة ٱبن مسعود وٱبن عباس . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمِ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى ٱشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين. أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوة أن تكون فيه دون غيره . وقيل: « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام . نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : المَلَك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » . وقيل : إنما ذكر ملكا واحدا ، لأن كَمْ تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى إنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يروه فى كتاب . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليد . ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم . قال الفرّاء : صغّرهم وازدرى بهم . أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى حاد عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ فيجازى كلا بأعمالهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذى دل عليه « ولله ما فى السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء و يضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقيل : « لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » معترض فى الكلام والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبة ، أي ولله ما في السموات وما في الأرض ؛ أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن : فللمسيء السوءى وهي جهنم وللمحسن الحسنى وهي الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للمحسنين ؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي « كَبِيرَ » على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » الزنى . وقال مقاتل : « كَبَائِرَ الْإِثْمِ » كل ذنب ختم بالنار « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيه الحد . وقد مضى في « النساء »[1] القول في هذا . ثم استثنى استثناء منقطعا وهي :

المسئلة الثانية ـ فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه . وقد اختلف في معناها ؛ فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي : « اللَّمَمَ » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيه تمرا ؛ فجاءته امرأة تشتري منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعل زوجها غاز" فنزلت هذه الآية . وقد مضى في آخر « هود »[2] وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشي ، وإنما يصدق ذلك أو يكذبه الفرج ؛ فإن تقدم كان زنى وإن تأخر كان لمما . وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله كتب

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٩ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية ، ففيه بيان الإجمال في هذا الحديث برواية أخرى .

على آبن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه " . والمعنى إن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيره له حظّ من الإثم . والله أعلم . وفى رواية أبى صالح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كُتِب على آبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدّق ذلك الفَرج ويكذّبه " . خرجه مسلم . وقد ذكر الثعلبى حديث طاوس عن آبن عباس فذكر فيه الأذن واليد والرجل ، وزاد فيه بعد العينين واللسان : وزنى الشفتين القبلة . فهذا قول . وقال آبن عباس أيضا : هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب . قال : ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول :

إنْ تَغفِرِ اللهمّ تغفر جَمّا * وأىُّ عَبْدٍ لكَ لا ألمّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن آبن عباس(1) . قال النحاس : هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادا . وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن آبن عباس فى قول الله عز وجل « إلّا اللَّمَمَ » قال : هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده ؛ قال الشاعر :

إن تغفرِ اللهمّ تَغفِر جَمّا * وأىُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمّا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده . ونحوه عن الزهرى . قال : اللم أن يزنى ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » الآية . ثم قال : « أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » فضمن لهم المغفرة ؛ كما قال عقيب اللم : « إنّ

---

(1) روى هذا الحديث الترمذى بهذا الإسناد وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . والبيت لأمية بن الصلت قاله عند احتضاره .

رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فعلى هذا التأويل يكون « إِلَّا اللَّمَمَ » آستثناء متصل. قال عبدالله بن عمرو آبن العاص : اللمم مادون الشرك . وقيل : اللمم الذنب بين الحدّين وهو مالم يأت عليه حدّ فى الدنيا ، ولا تُوعِّد عليه بعذاب فى الآخرة تكفّره الصلوات الخمس . قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة . ورواه العوفى والحكم بن عيينة عن آبن عباس . وقال الكلبى : اللّمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا فى الدنيا ولا عذابا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفّره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه . وعن آبن عباس أيضا وأبى هريرة وزيد بن ثابت : هو ما سلف فى الجاهلية فلا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للسلمين : إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت . وقاله زيد بن أسلم و [آبنه][1] وهو كقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وقيل : اللّمم هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة ، قاله نفطويه . قال : والعرب تقول : ما يأتينا إلّا لِمَامًا . أى فى الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله . وفى الصحاح : وألمّ الرجل من اللّمم وهو صغائر الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة . وأنشد غير الجوهرى :

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ * وَقُلْ إِنْ تَمَلِّينَا فَمَا مَلَّكِ القَلْبُ

أى آقرب . وقال عطاء بن أبى رباح : اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين . وقال سعيد آبن المسيّب : هو ما ألمّ على القلب . أى خطر . وقال محمد بن الحنفية : كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم . ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " إن للشيطان لَمّة وللملك لَمّة " الحديث . وقد مضى فى « البقرة »[2] عند قوله تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » . وقال أبو إسحق الزجاج : أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

(١) فى الأصل : وأبوه . وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقيم عليه ؛ يقال : ألممت به إذا زرته وآنصرفت عنه، ويقال : مافعلته إلا لمّا وإلماما أى الحين بعد الحين وإنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال ؛ قال الأعشى :

أَلَمَّ خَيالٌ مِن قُتَيلَةَ بَعدَ ما * وَهِي حَبلُها مِن حَبلِنا فَتَصَرَّما

وقيل : إلا بمعنى الواو وأنكر هذا الفرّاء . وقال : المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل : اللّمم النظرة التي تكون فجأة .

قلت : هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه آبتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد وآختيار وقد مضى فى « النور »(١) بيانه . واللَّمَمُ أيضا طرف من الجنون ورجل ملموم أى به لَمَمٌ . ويقال أيضا : أصابت فلانا لَمّةٌ من الجنّ وهى المسّ والشيء القليل؛ قال الشاعر(٢) :

فإذا وذلك يا كُبَيشَةُ لَم يَكُن * إِلّا كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيالِ

الثالثة — قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » لمن تاب من ذنبه وآستغفر؛ قاله آبن عباس . وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب آبن مسعود : رأيت فى المنام كأنى أُدخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذى الكَلاع وحَوْشَب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة . فقال أبو خالد : بلغنى أن ذا الكَلاع أعتق آثنى عشر ألف بنت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعنى أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع . قال الترمذىّ أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التى رفعت من الأرض، وكنا جميعا فى تلك التربة وفى تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على آختلاف هيئتها، ثم آستخرجها من صُلبها على آختلاف الهيئات، منهم كالدرّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدّ سوادا من بعض؛ فكان الإنشاء واقعا علينا وعليه . حدّثنا عيسى

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) هو آبن مقبل . والواو فى وذلك زائدة كقول أبى كبير الهذلى :
فإذا وذلك ليس إلا حينه * وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

ابن حماد العسقلانى قال : حدثنا بشر بن بكر ، قال حدثنا الأوزاعى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرِض علىّ الأولون والآخرون بين يدى حجرتى هذه الليلة " فقال قائل : يارسول الله ! ومن مضى من الخلق ؟ قال : " نعم عُرِض علىّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِق أحد " (١) قالوا : ومَن فى أصلاب الرجال وبطون الأمهات ؟ قال : " نعم مثلوا فى الطين فعرفتهم كما علم آدم الاسماء كلها " .

قلت : وقد تقدم فى أول « الأنعام » (٢) أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التى يدفن فيها . ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام فى البطن ، سمى جنينا لاجتنانه واستتاره . قال عمرو بن كلثوم :

* هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا (٣) *

وقال مكحول : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا رُضّعا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفَعَة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ثم صرنا شبابا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى، ثم صرنا شيوخا — لا أبالك — فما بعد هذا ننتظر؟! . وروى ابن لَهِيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصارى قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبىّ صغير هو صِدِّيق ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد " فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » إلى آخرها . ونحوه عن عائشة : "كان اليهود" . بمثله . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أى أخلص العمل واتقى عقوبة الله . عن الحسن وغيره . قال الحسن : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة . وقد مضى فى « النساء » الكلام فى معنى هذه الآية عند قوله

(١) فى نسخة : « فهل كان قبله أحد » . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) وصدره : * ذراعى حرة أدماء بكر * وهى رواية أبى عبيدة . أى لم تضم فى رحمها ولدا قط

تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ »(١) فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزكيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ لما بين جهل المشركين فى عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضلّلتهم وزعمتَ أنهم فى النار ؟ ! قال : إنى خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن [له](٢) ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أى من الخير بلسانه « وَأَكْدَى » أى قطع ذلك وأمسك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسُّدى والكلبى والمسيّب بن شريك : نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يتصدّق وينفق فى الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سَرْح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك ألا يبقى لك شىء . فقال عثمان : إن لى ذنوبا وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة](٣) فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدى والثعلبى . وقال السُّدى أيضا : نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمى ، وذلك أنه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من أسباب النزول للواحدى .
(٣) الزيادة من أسباب النزول للواحدى .

كان ربما يوافق النبى صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القُرَظى : نزلت فى أبى جهل ابن هشام، قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق . فذلك قوله تعالى : « وأعطى قليلا وأكدى » . وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه . وأصل « أكدى » من الكدية يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمم ، ولمن طلب شيئا ولم يبلغ آخره . وقال الحُطَيئة :

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه * ومن يبذل المعروف فى الناس يُحمد

قال الكسائى وغيره : أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ فى حفره كُدْية أو جبلا فلا يمكنه أن يحفر . وحفر فأكدى إذا بلغ إلى الصُّلب . ويقال : كديت أصابعه إذا كلّت من الحفر . وكديت يده إذا كلّت فلم تعمل شيئا . وأكدى النبتُ إذا قلّ ريعه، وكدت الأرض تكدو كدوا فهى كادية إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبى زيد . وأكديتُ الرجلَ عن الشىء رددته عنه . وأكدى الرجلُ إذا قلّ خيره . وقوله : « وأعطى قليلا وأكدى » أى قطع القليل .

قوله تعالى : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أى أعند هذا المكدى علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب . « فهو يرى » أى يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره ، وكفى بهذا جهلا وحمقا . وهذه الرؤية هى المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾ كما فى سورة « الأعلى » « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى لا تؤخذ نفس بدلا عن أخرى، كما قال : ﴿ أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . «وأن» هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرّ بدلا من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتادة « وَفَى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله ، وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة «وَفَّى» بالتشديد أى قام بجميع مافرض عليه فلم يَخرِم منه شيئا . وقد مضى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ »(١) والتوفية الإتمام . وقال أبو بكر الورّاق : قام بشرط ما ٱدّعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده وافيا بذلك؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » أى ٱدّعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار . رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وروى سهل بن سعد الساعدى عن أبيه " ألا أخبركم لم سمّى الله تعالى خليله إبراهيم الذى وفّى لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » " الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَفَّى » أى وَفَّى ما أرسل به، وهو قوله : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال ٱبن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولىّ بالولىّ فى القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيه وٱبنه وأخيه وعمه وخاله وٱبن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلّغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فى قوله تعالى : « وَفَّى » عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه . وهذا أحسن؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وَفَّى » بما فرض عليه . وقال أبو مالك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٧ فما بعدها طبعة ثانية .

النفارى قوله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى » فى صحف إبراهيم وموسى؛ وقد مضى فى آخر « الأنعام »(١) القول فى « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » فيحصل الولد الطفل يوم القيامة فى ميزان أبيه، ويشفع الله تعالى الآباء فى الأبناء والأبناء فى الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا » وقال أكثر أهل التأويل : إنها محكمة ولا ينفع أحدا عملُ أحد ، وأجمعوا أنه لا يصلى أحدٌ عن أحد . ولم يجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه . وأجاز الشافعى وغيره الحج التطوع عن الميت . وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه . وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أمى توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : " نعم " قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : " سقى الماء " . وقد مضى جميع هذا مستوفى فى « البقرة »(٢) و « آل عمران »(٣) و « الأعراف »(٤) . وقيل : إن الله عز وجل إنما قال « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ولام الخفض معناها فى العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شىء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل . وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدم كثير منها لمن تأملها ، وليس فى الصدقة اختلاف . كما فى صدر

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨ ٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٤ ص ١٤١ فما بعدها . (٤) كذا فى الأصل ولم نعثر على هذا المعنى فى السورة المذكورة .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفى الصحيح : " إذا مات الإنسان ٱنقطع عمله إلا من ثلاث " وفيــه " أو ولد صالح يدعو له " وهــذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة ؛ كما قيل لأبى هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حســنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة" فهذا تفضل وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى » خاص فى السيئة؛ بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله عزّ وجلّ إذا همّ عبدى بحسنــة ولم يعملها كتبتها له حسنــةً فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة" . وقال أبو بكر الورّاق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " يُبعَث الناسُ يوم القيامة على نياتهم " .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أى يريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أى يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما؛ قال الشاعر :

إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سَعْدٍ سَعْيَهُ * لم أَجْـزِهِ ببَلاءِ يَـوْمٍ واحِـدِ

بجمع بين اللغتين .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أى المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل : منه ٱبتداء المِنّة وإليه ٱنتهاء الأمان . وعن أُبىّ بن كعب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : " لا فكرة فى الربّ ". وعن أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا ذكر الله تعالى فانتهوا ".

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتي الشيطانُ أحدكم فيقولُ مَنْ خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّك فإذا بلغ ذلك فليستعذْ بالله ولْيَنْتَه " وقد تقدّم في آخر « الأعراف »[(١)] . ولقد أحسن من قال .

ولا تُفْكِرَنْ في ذي العُلا عَزَّ وجهُهُ * فإنَّك تُرْدَى إنْ فعلتَ وتُخْذَلُ[(٢)]
ودونَك مَصْنوعاتِه فاعتَبِرْ بها * وقُلْ مِثلَ ما قال الخليلُ المبجَّلُ

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو ؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا والله ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميِّت يعذَّب ببكاء أحدٍ ولكنّه قال : " إنّ الكافرَ يزيدُه الله ببكاء أهله عذابا وإنّ اللهَ لَهُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى وما تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى " . وعنها قالت : مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون ، فقال :"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» . فرجع إليهم فقال : " ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال ائت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول «هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» أي قضى أسباب الضحك والبكاء . وقال عطاء بن أبي مسلم : يعني أفرح وأحزن ؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء . وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي . وقد تقدّم هذا المعنى في « النمل »[(٣)] و « براءة »[(٤)] . قال الحسن:

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) من أفكر لغة في فكر بالتضعيف .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٧٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أضحك الله أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهـل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سرّه وأبكى من شاء بأن غمّه . الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيـل : أضحك الأشجار بالنّوّار، وأبكى السّحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبـد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمـة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد آبن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيـا . وقال بسام بن عبـد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ * وإنمـا ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ

يا رُبَّ باكٍ بِعينٍ لا دموعَ لهـا * ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَـقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان وليس فى سائر الحيوان من يضـحك ويبكى غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكى ، وأن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة؟ فقال : ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منـذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » قاله آبن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان . قال الله تعـالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » الآية . وقال : « إِنَّمَـا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » على ما تقـدّم (١) ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيـا النسمة . وقيـل : أمات الآباء وأحيا الأبنـاء . وقيل : يريد بالحيـاة الخصب وبالموت الجدب . وقيـل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفَة .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٨ طبعة أولى أو ثانية .

والنّطفة الماء القليل مشتقّ من نطف الماءُ إذا قطر . ﴿ تُمْنَى ﴾ تصبّ فى الرحم وتراق؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبى رباح . يقال : مَنَى الرجل وأمْنَى من المَنِيّ وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أى يُراق . وقيل : « تُمْنَى » تُقدَّر؛ قاله أبو عبيدة . يقال : مَنَيتُ الشيءَ إذا قدّرته ومُنِي له أى قُدِّر له؛ قال الشاعر[1] :

* حتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لكَ المَانِي *

أى ما يقدر لك القادر .

قوله تعالى : وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أى إعادة الأرواح فى الأشباح للبعث . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « النَّشَاءَةَ » بفتح الشين والمدّ؛ أى وعد ذلك ووعده صدق . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ قال ابن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ »[2] وقرأ « يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ »[3] واختاره الطبرى . وعن ابن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن : « أَغْنَى » مَوّل « وَأَقْنَى » أَخْدم . وقيل : « أَقْنَى » جعل

---

(١) قائله أبو قلابة الهذلى . وصدره : * ولا تقولن لشىء سوف أفعله * وقيل هو لسويد بن عامر المصطلق . وقبله :

لا تأمن الموت فى حل وفى حرم * إن المنايا توافى كل إنسان

واسلك طريقك فيها غير محتشم * حتى الخ ... ...

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٣) سورة البقرة آية ٢٤٥

لكم قِنْيــة تقتنونها وهو معنى أخدم أيضا . وقيــل : معناه أرضى بمــا أعطى أى أغنــاه ثم رضّاه بما أعطاه . قاله آبن عباس . وقال الجوهرى : قَنِيَ الرجل يقْنَى قِنًى مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه الله أى أعطاه الله ما يُقْتَنَى من القِنْية والنَّشَب . وأقناه [الله] أيضا أى رضّاه . والقِنَى الرِّضا، عن أبى زيد؛ قال وتقول العرب : من أُعطِى مائةً من المعز فقد أُعطِى القِنَى، ومن أُعطِى مائةً من الضأن فقد أُعطِى الغِنَى ، ومن أُعطِى مائة من الإبل فقد أُعطِى المُنَى . ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه ما يَسكن إليه . وقيل : « أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمى . وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقــنى بالرِّضا . وقال الأخفش : أقنى أفقر . قال آبن كيسان : أولد . وهذا راجع لمــا تقدّم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ « الشِّعْرى » الكوكب المضيء الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شــدّة الحرّ ، وهما الشعريان العَبُور التى فى الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التى فى الذِّراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيْل . و إنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى و إن كان ربًّا لغــيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ؛ فأعلمهم الله جل وعزّ أن الشِّعرى مربوب وليس بربّ . وآختلف فيمن كان يعبده ؛ فقال الســدى : كانت تعبده حِمْــير وخُزَاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وســلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يُسمون النبي صلى الله عليه وســلم آبن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهــم ؛ وقالوا : ما لقينــا من آبن أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقــد وقف فى بعض المضايق وعسا كر رسول الله صلى الله عليه وســلم تمرّ عليه : لقد أَمِرَ أَمْرُ آبنِ أبى كبشة . وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها و يعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مَضَى أَيْلُولُ وآرتفــعَ الحَــرُورُ * وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُــورُ

وقيــل إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهَيْلا والشِّعرى كانا زوجين ، فآنحــدر سُهَيْل فصار يمانيــا ، فآتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرّة فسميت العَبُــور ، وأقامت الغُمَيْصَاءُ فبكت

لفقد مُهَيل حتى غَمِصت عيناها فسمِّيت غُمَيْصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود . وقيل : إن ثمود من قبل عاد . وقال ٱبن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أوّل أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام . وقال ٱبن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصَّرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة وقيل: عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى والمعنى متقارب . وقيل : إن عادا الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَاداً الأُولَى » ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وٱبن مُحيصن وأبو عمرو « عَادًا الُّاولَى» بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أن قالون والمسيّبي(١) يظهران الهمزة الساكنة . وقلبها الباقون واوا على أصلها ،والعرب تقلب هذا القلب فتقول قُمِ الَّان عنّا وضُمّ لِثْنين أى قم الآن وضمّ الآثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . وقرئ « ثَمُوداً » «وثَمُودَ» وقد تقدم(٢) . وٱنتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم ، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ٱبنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : ٱحذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لى مثل ما قلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل: إن الكناية ترجع إلى كلّ من ذكر من عاد وثمود وقوم نوح ؛ أى كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى . فيكون فيه تسلية وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه يقول له : فٱصبر أنت أيضا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ٱئتفكت بهم ، أى ٱنقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أَفَكْته أى قلبته وصرفته . « أَهْوَى » أى خسف بهم بعد رفعها إلى السماء؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرّد : جعلها تَهْوِى . ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِى هويا أى سقط

(١) في بعض نسخ الأصل « السوسى » .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

و« أَهْوَى » أى أسقط . ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجـارة ؛ قال الله تعـالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » . وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أى غَشَّاها من العذاب ما غشّاهم ، وأبهم لأن كلا منهم أُهلك بضرب غير ما أُهلك به الآخر . وقيل : هـذا تعظيم الأمر . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أى فبأى نِعَم ربّك تشـكّ . والمخاطبـة للإنسان المكذب . والآلاء النعـم واحدها أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ . وقرأ يعقوب « تَمَّارَى » بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى والتشديد .

قوله تعـالى : هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمـد بن كعب : يريد أن محمدا صلى الله عليه وسـلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبـله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلا حلّ بكم ما حلّ بمكذّبى الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن وأنه نـذير بما أنذرت به الكتب الأولى. وقيل : أى هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم المـاضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أى مثل النذر ؛ والنذر فى قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أى هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو فى صحف إبراهيم وموسى . وقال السـدى أخبرنى أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » كل هذه فى صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيـدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا » . وقيل : سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدوا لها؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أَنَّ رِكَابَنَا * لمَّا تَزَلْ بِرحالنا وكأنْ قَـدِ

وفى الصحاح : أَزِفَ الترحل يَأْزَف أَزَفا أى دنا وأَفِد ؛ ومنه قوله تعالى : « أَزِفَتِ الآزِفَةُ » يعنى القيامة ، وأزف الرجل أى عَجِـل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتدانى . قال أبو زيد : قلت لأعرابى ما المُحْبَنْطِئُ ؟ قال : المتكأكِئُ؟ قلت : ما المتكأكِئ ؟ قال : المتآزف . قلت : ما المتآزف؟ قال : أنت أحمق وتركنى ومرّ . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدمها . وقيل : كاشفة أى انكشاف أى لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء فى العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أى من بقاء . وقيل : أى لا أحد يرد ذلك ؛ أى إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى . وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردها كشفا ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف؛ أى نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن كاشفة بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن . وهذا استفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيبا به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ انزجارا وخوفا من الوعيد . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ما رؤى بعد نزول هـذه الآية ضاحكا إلا تبسما . وقال أبو هريرة : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة « إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يلج النار من بكى من

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم " . وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يبكي ، فقال له : من هذا ؟ قال : هذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي لاهون معرضون . عن ابن عباس ؛ رواه الوالبي والعوفي عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حمير ؛ يقال : سمِّد لنا أي غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا . وقال الضحاك : سامدون شامخون متكبرون . وفي الصحاح : سَمَد سُمُودا رفع رأسه تكبرا وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال(1) :

* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ *

يقول : ليس في بطونها علف . وقال ابن الأعرابي : سَمَدت سُمُودا علوت . وسَمَدَت الإبلُ في سيرها جدّت . والسُّمُود اللهو ، والسّامد اللاهي ؛ يقال للقَيْنة : أَسْمِدينا ؛ أي ألهينا بالغناء . وتسميد الأرض أن يجعل فيها السِّماد وهو سِرْجين ورَماد . وتسميد الرأس استئصال شعره لغة في التَّسبيد . واسْمَأَدَّ الرجلُ بالهمز اسْمِئْدادا أي وَرِم غضبا . وروى عن علي رضي الله عنه أن معنى « سَامِدُونَ » أن يجلسوا غير مصلّين ولا منتظرين الصلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام ؛ ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياما فقال : " مالي أراكم سامدين " حكاه الماوردي . وذكره المهدوي عن علي ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياما [ينتظرونه] فقال : " مالكم سامدون " قاله المهدوي . والمعروف في اللغة سَمَد يَسْمُد سُمُودا إذا لَهَا وأعرض . وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ * بِمَقْدُورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا

(1) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا .

وقال صالح أبو الخليل : لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » لم ير ضاحكا إلا مبتسما حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن . وهو قول ابن مسعود . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين فى أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » وأنه قال : تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن تُرتجى . كذا فى رواية سعيد بن جبير تُرتجى . وفى رواية أبى العالية وشفاعتهن تُرتضى ، ومثلهن لا يُنسى . ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ما تقدم بيانه فى « الحج »[1] . فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنا منهم أن أهل مكة آمنوا ، فكان أهل مكة أشد عليهم وأخذوا فى تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم . وقيل : المراد سجود الفرد فى الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود . وبه قال مالك . وروى أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه : كان آخر فعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك السجود فى المفصل . والأول أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »[2] مبينا والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « النجم » .

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعه الملاحدة للدخول به إلى الطعن فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو فى الوحى أو فى القرآن وهو الذى لا ينطق عن الهوى . وراجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث فى جـ ١٢ ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سورة القمر

مكية كلها فى قول الجمهور . وقال مقاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِر » إلى قوله : « وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ » ولا يصح على ما يأتى . وهى خمس وخمسون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ « ٱقْتَرَبَتْ » أى قربت مثل « أَزِفَتِ الآزِفَةُ » على ما بيناه فهى بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقى من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا ستة آلاف سنة . قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعالى : « وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » أى وقد انشق القمر . وكذا قرأ حذيفة « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدْ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ » بزيادة «قد» وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك فى الصحيح

البخارى وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجُبَير بن مُطْعِم وابن عباس رضى الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهلُ مكة النبيَّ صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » إلى قوله « سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » يقول ذاهب . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخارى عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ؛ أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . وكذا قال القشيرى . وذكر الماوردى : أن هذا قول الجمهور، وقال : لأنه إذا انشق ما بقى أحد إلا رآه، لأنه آية والناس فى الآيات سواء . وقال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية . وقيل : « وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » أى وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وَضَح ؛ قال :

أقيمُوا بَنِى أمىَّ صُدُورَ مَطِيِّكُمْ * فإنِّى إلى حَىٍّ سواكم لَأَمْيَلُ

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ * وشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطَايا وأَرْحُلُ

وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها، كما يسمى الصبح فلقا؛ لانفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلما أَدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِىٌّ * دعانا عِندَ شَقِّ الصُّبْحِ داعِ

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبىّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التَّحدّى . فروى أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبا من سبّ أبى جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا فى إيمانه . وقد تقدّم فى الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما فى حديث ابن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل . هو على

التقديم والتأخير، وتقديره : ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة ؛ قاله ٱبن كيسان . وقد مرّ عن الفرّاء أن الفعلين إذا كانا متقاربى المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا ٱنشقاق القمر . قال ٱبن عباس : ٱجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا : إن كنت صادقا فٱشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبى قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فعلتُ تؤمنون " قالوا : نعم! وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا فٱنشق القمر فرقتين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى المشركين : " يافلان يافلان ٱشهدوا " . وفى حديث ٱبن مسعود : ٱنشق القمر على عهد رسول الله صلى عليه وسلم، فقالت قريش : هذا من سحر ٱبن أبى كبشة ؛ سحركم فٱسئلوا السُّفّار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر ٱنشق فنزلت : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا » أى إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضوا عن الإيمان ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أى ذاهب ؛ من قولهم : مَرَّ الشيءُ وٱستمر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفرّاء والكسائى وأبو عبيدة، وٱختاره النحاس . وقال أبو العالية والضحاك : محكم قوىّ شديد، وهو من المِرّة وهى القوة؛ كما قال لَقِيط :

حتّى ٱستمرّت على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العَزِيمة لا [رَتًّا] ولاضَرَعًا (١)

وقال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله . وقيل : معناه مُرٌّ من المرارة . يقال : أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ وأَمَرَّه غيره ومَرَّه . وقال الربيع : مستمر نافذ . يمان : ماض . أبو عبيدة : باطل . وقيل : دائم . قال : (٢)

* وليس على شيءٍ قَوِيمٍ بِمُسْتَمِرّ *

---

(١) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء فى شرح البيت .

(٢) البيت لأمرئ القيس وصدره : ألا إنما الدنيا ليال وأعصر .

أي بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضا ؛ أي قد آستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات . وقيل : معناه قد مرّ من الأرض إلى السماء . ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ نبيّنا ﴿ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي ضلالاتهم وآختياراتهم . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله في الجنة ، والشر مستقر بأهله في النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَرٌّ » بفتح القاف أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقد روى عن أبي جعفر بن القَعْقاع « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ » بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و « كُلّ » على هذا يجوز أن يرتفع بالآبتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر في أم الكتاب كائن . ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة ؛ المعنى : آقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر ؛ أي آقترب آستقرار الأمور يوم القيامة . ومن رفعه جعله خبرا عن « كلّ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أي من بعض الأنباء ؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنما آقتصّ علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه . وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالا ؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور ، فأبدل من التاء دالا توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر . و « مُزْدَجَر » من الزّجر وهو الآنتهاء ، يقال : زجره وآزدجره فآنزجر وآزدجر ، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكفّ ، كما قال :

فأصبح ما يطلبُ الغانيا * ت مُزْدَجَرا عن هواه آزدجارا

وقرئ « مُزَّجَر » بقلب تاء الآفتعال زايا وإدغام الزاي فيها . حكاه الزمخشري .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن وهو بدل من « ما » من قوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَر » . ويجوز أن يكون خبر آبتداء محذوف أي هو حكمة . ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُر ﴾

إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » فـ « ما » نفي أي ليست تغني عنهم النذر . ويجوز أن يكون ٱستفهاما بمعنى التوبيخ؛ أي فأيّ شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها . و « النُّذُرُ » يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم . قيل : هـذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ العامل في « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أو « خُشَّعًا » أو فعل مضمر تقديره وٱذكر يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتول عنهم فإن لهـم يوم يدعو الداعي . وقيل : تَولَّ عنهم يا محمد فقـد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي . وقيل : أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيل : أي وكلّ أمر مسـتقرّ يوم يدعو الداعي . وقرأ ٱبن كثير « نُكْرٍ » بإسـكان الكاف، وضمهـا الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة . والداعي هو إسرافيل عليه السلام . وقد روى عن مجاهد وقتادة أنهما قرآ « إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذل يتبين في ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ » وقال تعالى : « خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » . ويقال : خَشَع وٱختَشَع إذا ذلّ . وخَشَع ببصره أي غضّه . وقرأ حمزة والكسائيّ وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدّمت على الجماعة التوحيد، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » والتأنيث نحو : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » ويجوز الجمع نحو : « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ » قال[(١)] :

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُـمْ * مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَـدّ

(١) هو الحرث بن دوس الإيادي ؛ وتروى لأبي دؤاد الإيادي .

و « خُشَّعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم فى « عنهم » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عنهم » . ويجوز أن يكون حالا من المضمر فى « يَخْرُجونَ » فيوقف على « عَنْهم » . وقرئ « خُشَّعٌ أبْصَارُهُمْ » على الابتداء والخبر ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله :

* [وجدته][1] حَاضِرَاه الجودُ والكَرَمُ *

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور واحدها جَدث . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ . وقال فى موضع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » فهما صفتان فى وقتين مختلفين؛ أحدهما ــ عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم فى بعض، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها [الثانى][2] ــ فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها . و « مُهْطِعِينَ » معناه مسرعين؛ قاله أبو عبيدة . ومنه قول الشاعر :

بِدِجْلَةَ دارُهمْ ولقد أراهم * بدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَع الرجلُ يَهْطَع هُطُوعا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه، وأهطع إذا مدّ عنقه وصَوَّب رأسه . قال الشاعر[3] :

تَعَبَّدَنِى نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أرَى * ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِى مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

و بعير مُهْطِع فى عنقه تصويبٌ خِلْقَة . وأهطع فى عَدْوه أى أسرع . ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعنى يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدة .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

(٢) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره .

(٣) قائله تبع .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً
لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أى قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعنى نوحا . الزمخشريّ : فإن قلت ما معنى قوله « فَكَذَّبُوا » بعد قوله « كَذَّبَتْ » قلت : معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا ؛ أى كذّبوه تكذيبا على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أى لما كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذّبوا نوحا لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى هو مجنون ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أى زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَٱزْدُجِرَ » بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أى دعا عليهم حينئذ نوح وقال : ربّ ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾ أى غلبونى بتمردهم ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ أى فانتصر لى . وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عزّ وجلّ لهم فيه . ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ أى كثير ؛ قاله السدّيّ . قال الشاعر :

أعينيّ جُودَا بالدُّموعِ المَوَاصرِ * على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول آمرئ القيس يصف غيثا :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم انْتَحَى * فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ (١)

والهَمْر الصبّ ؛ وقد همر الماءَ والدمعَ يَهْمِرُ هَمْرا . وهَمَر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع . وهَمَر له من ماله أى أعطاه . قال ٱبن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما . وقرأ ٱبن عامر ويعقوب : « فَفَتَّحْنَا » مشدّدة على التكثير . الباقون « فَفَتَحْنَا » مخففا . ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها . وقيل : إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر ؛ قاله علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ قال عُبَيد بن عُمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون ، وإن عينا تأخرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرًّا أجاجا إلى يوم القيامة . ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ٱبن قتيبة . أى كان ماء السماء والأرض سواء . وقيل : « قُدِرَ » بمعنى قضي عليهم . قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا . وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء ؛ وتلا هذه الآية . وقال : « الْتَقَى الْمَاءُ » والٱلتقاء إنما يكون فى ٱثنين فصاعدا ؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا . وقيل : لأنهما لما ٱجتمعا صارا ماء واحدا . وقرأ الجحدرى : « فَالْتَقَى الْمَاءَانِ » . وقرأ الحسن : « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهما خلاف المرسوم . القشيرى : وفى بعض المصاحف « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » وهى لغة طيء . وقيل : كان ماء السماء باردا مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم . ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أى على سفينة ذات ألواح . ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسِرت بها السفينةُ أى شُدّت ؛ وقاله القرظي وٱبن زيد وٱبن جبير ورواه الوالبي عن ٱبن عباس . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج سميت بذلك لأنها تدسر الماء أى تدفعه ، والدَّسْر الدفع والمخر ؛ ورواه العوفى عن ٱبن عباس قال : الدُّسْر كَلْكَلُ السفينة .

---

(١) راح : أى عاد فى الرواح ؛ كأن المطر كان فى أول النهار ثم عاد فى آخره . وتمريه : تستدره ؛ وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدر . وخص الصبا لأنهم يمطرون بها .

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة. وفي الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال هي المسامير، وقال تعالى: « عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ». ودُسْر أيضا مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر الدفع، قال ابن عباس في العنبر: إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْرا أي يدفعه. ودَسَره بالرمح. ورجل مِدْسر. ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (١) أي بمرأى منا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منا وكِلَاءة. وقد مضى في « هود ». ومنه قول الناس للمودَّع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكِلَاءته. وقيل: بوحينا. وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في « لِمَنْ » لام المفعول له. وقيل: « كُفِرَ » أي جحد فـ« مَن » كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقابا لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد « جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ » بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عُوج بن عُنُق (٢)؛ كان الماء إلى حُجْزته. وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونجّاه من الغرق. ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ يريد هذه الفعلة عبرة. وقيل أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا. ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ خائف وأصله مُذْتكِر مُفْتَعِل من الذِّكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالا لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي إنذاري؛

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لا عنق.

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نُذُر » جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه فيعانَ عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى ، ولقد هيأناه للذكر من يسّر ناقته للسَّفَر إذا رَحَلها ، ويسّر فرسَه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْـتُ إليـهِ باللِّجامِ مُيَسِّرًا * هُنالكَ يَجْزِيني الذى كنتُ أصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبنى إسرائيل، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرا ، غير موسى وهرون و يوشع ابن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة « براءة »(1) فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا ما فيه أى يفتعلوا الذكر ، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ قارئ يقرؤه . وقال أبو بكر الورّاق وابن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعالى اقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر للستمع أن لو ادّكر ، و إنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » لأن « هَلْ » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هَلْ » للاستعراض والهاء للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) ﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ١١٧ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هم قوم هود . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت « نُذُر » في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير ، وحذف الباقون . ولا خلاف في حذف الياء من قوله : « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما الياء من « الدّاع » الأول فأثبتها في الحالين ابن محيصن ويعقوب وحميد والبزي ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل ، وحذف الباقون . وأما « الدّاعِ » الثانية فأثبتها يعقوب وابن محيصن وابن كثير في الحالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل ، وحذفها الباقون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت . وقد مضى في «حمٓ السّجدة»(1) . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي في يوم كان مشئوما عليهم . وقال ابن عباس : أي في يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل في يوم أربعاء . ابن عباس : كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحِسٍ » بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة « فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » . و « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أي دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : استمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المرارة؛ يقال : مَرّ الشيءُ وأمَرّ أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس . وقد قال : «فَذُوقُوا» والذي يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوة . أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه ؛ فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم استجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى في «البقرة»(2) حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر "

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) راجع جـ ٢ ص ٣١٢ طبعة ثانية .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين كما كانت الأيام النحسات المذكورة فى القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة آستجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحسا على الظالم؛ ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار، وقول جابر فى حديثه لم ينزل بى أمر غليظ إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ فى موضع الصفة للريح أى تقلعهم من مواضعهم . قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم آقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض، فترمى بهم على رءوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رءوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آنتزعت الريح الناس من قبورهم" . وقيل : حفروا حفرا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة . ويروى أن سبعة منهم حفروا حفرا وقاموا فيها ليردوا الريح . قال آبن إسحق : لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلى والحرث بن شداد والهِلْقام وآبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال فى شِعْب بين جبلين، ثم آصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن فى الشِّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعَفُهم(1) رجلًا رجلًا، فقالت آمرأة عاد :

ذَهَبَ الدهرُ بعمرِو بـ * ـن حـلىٍّ والهنيّات

ثم بالحـرث والهِلْـ * ـقامِ طَلَّاعِ الثنيّات

والذى سَدَّ مهبَّ الر * يحِ أيـامَ البـليّات

---

(1) جعفه : صرعه، ضرب به الأرض .

الطبري : في الكلام حذف ، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب للمحذوف . الزجاج : الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبّهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيل إنه للحفر التي كانوا فيها . والأعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشيء ، وكانت عاد موصوفين بطول القامة ، فشُبّهوا بالنخل آنكبت لوجوهها . وقال : «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » للفظ النخل وهو من الجمع الذى يذكر ويؤنث . والمنقعر المنقطع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعرا قلعتها من أصلها فآنقعرت . الكسائى : قعرت البئر أى نزلت حتى آنتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى آنتهيت إلى قعره . وأقعرت البئر جعلت لها قعرا . وقال أبو بكر بن الأنبارى : سئل المبرّد بحضرة إسمعيل القاضي عن ألف مسئلة هذه من جملتها، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» و «جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » وقوله : « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا . وقيل : إن النخل والنخيل بمعنى يذكر ويؤنث كما ذكرنا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ هم قوم صالح كذّبوا الرسل ونبيهم، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ ونبدع جماعة . وقرأ أبو الأشهب وآبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمّال العدوى « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتداء والخبر « نَتَّبِعُهُ » . الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشرا منا واحدا نتبعه . وقرأ أبو السَّمّال[1] :

(١) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في « روح المعاني » وغيره .

« أَبَشَرٌ » بالرفع « مِنَّا وَاحِدًا » بالنصب رفع « أَبَشَرٌ » بإضمار فعل يدل عليه « أَؤُلْقِيَ » كأنه قال : أينبأ بشر منا ، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمر في « مِنَّا » والناصب له الظرف ، والتقدير أينبأ بشر كائن منا منفردا ؛ ويجوز أن يكون حالا من الضمير في « نَتَّبِعُهُ » منفردا لا ناصر له . ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ ﴾ أى ذهاب عن الصواب « وَسُعُرٍ » أى جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ذكره ابن عباس قال الشاعر يصف ناقته :

تَخَالُ بها سُعْرًا إذا السَّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ(١) وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

وقال ابن عباس أيضا : السُّعر العذاب ، وقاله الفراء . مجاهد : بعد عن الحق . السدى : فى احتراق . قال(٢) :

أَصَحَوْتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ * ومِنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِر

أى متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهب النار . والبعير(٣) المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة . ومعنى الآية : إنا إذًا لفى شقاء وعناء مما يلزمنا .

قوله تعالى : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار . ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أى ليس كما يدّعيه ، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق . والأَشَر المَرَح والتجبّر والنّشاط . يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحا نشيطا ؛ قال امرؤ القيس يصف كلبا :

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ * سَمِيعٌ بَصِيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ(٤)

أَلَصُّ الضُّرُوسِ(٥) حَنِيُّ الضُّلُوعِ * تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ

---

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل . (٢) هو طرفة . (٣) فى بعض النسخ : السعير .

(٤) الفغم : المولع بالصيد الحريص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أى منكر عالم . وقيل نكر أى كريه الصورة .

(٥) الألص الذى التصقت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل : « أَشِرٌ » بَطِر . والأَشَر البَطَر ؛ قال الشاعر :

أَشِــرْتُمْ بِلُبْس الخَزّ لمّا لَبِسْتُمُ * ومِن قبلُ ما تَدرون مَنْ فَتحَ القُرَى

وقــد أشر بالكسر يأشر أشرا فهو أَشِر وأَشْران ، وقوم أُشَارى مثــل سَكْران وسُكَارى ؛ قال الشـاعر[1] :

وخَلّتْ وُعُــولاً أُشَارَى بهــا * وقـــد أَزْهَفَ الطّعْنُ أبطالهَــا

وقيــل : إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها ؛ والمعنى واحد . وقال ٱبن زيد وعبــد الرحمن ٱبن حماد : الأَشِر الذى لا يبــالى ما قال . وقرأ أبو جعفــر وأبو قِلابة « أَشَرّ » بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أشرنا وأخبثنا . ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أى سيرون العذاب يوم القيامة ، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا . وقرأ ٱبن عامر وحمــزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب . الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم . وقوله : « غدًا » على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب : إن مع اليوم غدا ؛ قال :

للمـــوتِ فيهــا سِهامٌ غــير مُخْطِئَـــةٍ * مَنْ لم يكن مَيّتًــا فى اليومِ ماتَ غَــدَا

وقال الطِّرِمّاح :

أَلَا عَلِّلَانِى قَبْــلَ نَــوْحِ النّــوَائِحِ * وقَبْلَ ٱضطرَابِ النَّفْسِ بين الجَوَانِحِ

وقبْــلَ غَــدٍ يا لَهْفَ نفسِى على غَــدٍ * إذا رَاحَ أصحَــابى ولســـتُ بــرائِحِ

إنمــا أراد وقت المــوت ولم يرد غدا بعينــه . ﴿ مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ وقــرأ أبو قِــلابة « الأَشَرّ » بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصــل . قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا فى ضرورة الشعر ، كقول رؤبة :

* بِلَالُ خَيْرُ النَّاسِ وٱبْنُ الأَخْيَرِ *

---

(1) هى مية بنت ضرار الضبى ترثى أخاها . وأزهف الطعن أبطالها أى صرعها . وقبــل البيت :

تراه عــلى الخيـــل ذا قدمــة * إذا ســـربل الدم أكفالهــا

وإنما يقولون هو خير قومه وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» وقال: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا». وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى «الأُشُر» ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ أي مخرجوها من الهَضْبة التي سألوها، فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء][(1)]. ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له. ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ أي أخبرهم ﴿ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: «لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا. وإنما قال: «بَيْنَهُمْ» لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، قال: "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(1) في الأصول جرداء، وفي قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير وبراء فلذا أثبتناه.

إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غِبّها " وهو معنى قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » . ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرب بالكسر الحظّ من الماء ؛ وفى المثل : (آخرها أقلّها شِرْبا) وأصله فى سقى الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزف الحوضُ . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضُره من هوله ؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها ، وتغيب عنهم يوم وِردهم ؛ قاله مقاتل . وقال مجاهد : إن ثمود يَحضُرون الماء يوم غِبّها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحضّ على عقرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ها . ومعنى تعاطى تناول الفعل ، من قولهم عَطَوتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسّان :

كِلتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فَعَاطِنِي * بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحق : فكمِن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورغت رغاءة واحدة تحذّر سَقْبها من بطنها ثم نحرها ، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال : قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله . وقد مضى فى « الأعراف »[1] بيان هذا المعنى . قال ابن عباس : وكان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أفقى . ويقال فى اسمه قُدَار بن سالف . وقال الأفوه الأَوْدىّ :

أو قَبْلَه[2] كَقُدَارٍ حين تَابَعَهُ * على الغَوَايَةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمى الجزّار قُدَارًا تشبيها بقُدار بن سالف مشئوم آل ثمود ؛ قال مهلهل :

إنّا لَنضرِبُ بالسُّيوفِ رءوسَهمْ * ضَرْبَ القُدَارِ نقيعةَ القُدَّامِ[3]

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الذى فى شعراء النصرانية : (أو بعده) .

(٣) القدار : الجزار . والنقيعة : ما ينحر للضيافة . والقدام : القادمون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام الملك . ويروى : * إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُم * كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ[(١)]

يريد الحرب فكنى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى فى « هود »[(٢)] . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المحتظَر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفى الصحاح : والمحتظِر الذى يعمل الحظيرة وقرئ « كَهَشِيمِ المحتظَر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به ، ويقال للرجل القليل الخير « إنه لَنَكِدُ الحَظِيرة » . قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوى : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظَر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظِر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أَثَرْنَ عَجاجةً كدُخانِ نارٍ * تَشُبُّ بِغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمى كل شىء كان رطبا فيبس هشيما . والحظر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أى جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِيِّ بجانبيه * كأنَّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

---

(١) تنتج لكم يعنى الحرب ، غلمان أشأم فى معنى غلمان شؤم أو كلهم فى الشؤم كأحمر عاد . «ثم ترضع فتفطم» يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمت .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وعن ابن عباس أنهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هذا الذى يتخذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فتات السنبلة والتبن . « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ » أخبر عن قوم لوط أيضا لما كذبوا لوطا . « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحصبة ؛ قال لَبيد :

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلِها * أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أى اشتدت فهى ريح عاصف وعَصُوف . وقال الفَرَزْدق :

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبُنا * بحاصبٍ كنَدِيفِ القُطْنِ منثورِ

« إِلَّا آلَ لُوطٍ » يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه « نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ولو أراد سحر يوم بعينه لما أجراه ، ونظيره : « اهْبِطُوا مِصْرًا » لما نكره فلما عرفه فى قوله : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » لم يُجْرِه ، وكذا قال الزجاج : « سحر » إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف ، تقول أتيته سحرًا ، فإذا أردت سحر يومك

لم تصرفه تقول : أتيته سَحَرًا يا هذا وأتيته بسحر . والسحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب آختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار . ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاما منا على لوط وآبنتيه فهو نصب لأنه مفعول به . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي من آمن بالله وأطاعه . ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ يعني لوطا خوفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شكّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه ، وهو تفاعل من المرية . ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلبا للفاحشة على ما تقدّم . يقال : راودته على كذا مُراوَدةً ورِوادا أي أردتُه . وراد الكلأ يروده رَوْدا ورِيادا ، وآرتاده آرتيادا بمعنًى أي طلبه ؛ وفي الحديث : " إذا بال أحدكم فليرتَدْ لبوله " أي يطلب مكانا لينا أو منحدرا . ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب . وقيل : لا بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط . ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي دائم عام آستقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العذاب قلب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير . ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعنى القبط و « النُّذُر » موسى وهرون . وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهى العصا ، واليد ، والسنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النذر » الرسل فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيل : « النُّذُر » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أى غالب فى انتقام ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أى قادر على ما أراد .

قوله تعالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ خاطب العرب . وقيل أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : استفهام وهو استفهام إنكار ومعناه النفى ؛ أى ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى فى الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ابن عباس : أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ولم يقل منتصرين اتباعا لرءوس الآى ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أى جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رُوَيْس عن يعقوب « سَنَهْزِمُ » بالنون وكسر الزاى « الْجَمْعَ » نصبا . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وابن إسحق ورويس عن يعقوب « وَتُوَلُّونَ » بالتاء على الخطاب . و « الدُّبُرَ » اسم جنس كالدرهم

والدينار فوحد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدم من الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فأنزل الله تعالى : «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» . وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبى وقاص: لما نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ويقول : اللهم إن قريشا جاءتك تحادك وتحاد رسولك بفخرها و[خُيَلائها](١) فأخنهم الغداةَ — ثم قال — «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أخنى عليه الدهر أى أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عليه الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

وأخنيت عليه أفسدت . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هذا مكية . وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : "أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك اللهم إن شئت لم تُعبَد بعدَ اليوم أبدًا" فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو فى الدرع فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أى أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر . و « أَدْهَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهوا ودهيا . وقال ابن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لها .

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أى فى حَيْدة عن الحق و « سعر » أى احتراق . وقيل : جنون على ما تقدّم فى هذه السورة . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القَدَر فنزلت « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » خرجه الترمذى أيضا وقال حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقَدَر . قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ شيء بقَدر حتى العَجْز والكَيْس — أو — الكَيْس والعَجْز " وهذا إبطال لمذهب القَدَرية . « ذُوقُوا » أى يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها . و « سَقَر » اسم من أسماء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه اسم مؤنث معرفة وكذا لظى وجهنم . وقال عطاء : « سَقَر » الطبق السادس من جهنم . وقال قُطْرب : « سَقَر » من سقرته الشمسُ وصقرته لَوّحته . ويوم مُسْمَقِرٌّ ومُصْمَقِرٌّ شديدُ الحر .

الثانية — قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ » قراءة العامة « كُلَّ » بالنصب . وقرأ أبو السَّمَّال « كُلُّ » بالرفع على الابتداء . ومن نصب فبإضمار فعل وهو اختيار الكوفيين ؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهى به أولى ، والنصب أدل على العموم فى المخلوقات لله تعالى ؛ لأنك لو حذفت « خَلَقْنَاهُ » المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كل شيء بقدر . ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء ؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله ؛

الثالثـة — الذي عليه أهـل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء ؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبـل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث حدث في العالم العلوىّ والسفلىّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخـلق ليس لهم فيها إلا نوع ٱكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه لا إله إلا هو ولا خالق غيره، كما نص عليه القرآن والسنة لا كما قالت القدَرِيّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذَرّ رضي الله عنه : قدم وفد نجران على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيـد غيرنا ، فنزلت هـذه الآيات إلى قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَـدَرٍ » فقالوا : يا محمـد يكتب علينا الذنب ويعـذبنا ؟ فقال : "أنتم خصماء الله يوم القيامة" .

الرابعـة — روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنـه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم " . خرجه ٱبن ماجه في سننه . وخرج أيضا عن ٱبن عباس وجابر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقدَر " . وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبي قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " القدَرِيّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّي " وفي صحيح مسـلم أن ٱبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منـه حتى يؤمن بالقدَر . وهذا مثل قوله تعـالى في المنافقين : «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » وهذا واضح . وقال أبو هـريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقدَر يذهب الهمّ والحزن " .

قوله تعالى : وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى إلا مرة واحدة . ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أى قضائى فى خلق أسرع من لمح البصر . واللمح النظر بالعجلة ؛ يقال : لمح البرق ببصره . وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة ، ولمح البرقُ والنجمُ لمحا أى لمع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل : أتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أى من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم . وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فِي الزُّبُرِ » أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة . وقيل فى أم الكتاب . ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سطرا كَتَبَ واستطر مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضا . « وَنَهَرٍ » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ؛ قاله ابن جريج . ووحد لأنه رأس الآية ، ثم الواحد قد ينبئ عن الجميع . وقيل : فى « نهر » فى ضياء وسعة ومنه النهار لضيائه ، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر (1) :

مَلكتُ بها كَفِّى فأنهرتُ فَتقَها * يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

---

(1) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة . وملكت أى شددت وقويت .

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة « وَنُهُرٍ » بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم كسحاب وسُحُب ؛ قال الفراء أنشدني بعض العرب :

إنْ تَكُ ليليًّا فإنّى نَهِرُ * مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أى صاحب النهار . وقال آخر :

لَولا الثَّرِيدانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ ليلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أى يقدر على ما يشاء . و«عند» هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البَتّى «فِى مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع والمقاعد مواضع قعود الناس فى الأسواق وغيرها ؛ قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى ، وقد جلس كل إنسانٍ مجلسه الذى هو مجلسه ، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضّة بقدر أعمالهم ، فلا تقرّ أعينهم بشىء قط كما تَقَرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئا أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففى الخبر : إن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفّها الملائكة إلى الجنة والناس فى الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة . فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » . والله أعلم .

تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن

مكيـة كلها فى قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر . وقال ٱبن عباس :
إلا آية منها هى قوله تعالى : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقال ٱبن مسعود
ومقاتل : هى مدنيـة كلها . والقول الأوّل أصح لمـا روى عُرْوة بن الزبير قال : أوّل من
جهر بالقرآن بمكة بعد النبى صـلى الله عليه وسـلم ٱبن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا :
ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ٱبن مسعود : أنا ؛
فقالوا : إنا نخشى عليك ، و إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال :
« بسم الله الرحمن الرحيم . الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها ،
فتأملوا وقالوا : ما يقول ٱبن أُمِّ عَبْد ؟ قالوا : هو يقول الذى يزعم محمـد أنه أنزل عليه ،
ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه . وصح أن النبى صلى الله عليه وسـلم قام يصلى الصبح بنخلة ،
فقرأ سـورة « الرحمن » ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به . وفى الترمذى عن جابر قال : خرج
رسـول الله صلى الله عليه وسـلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها
فسكتوا ؛ فقال: " لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مَرْدُودا منكم كنت كلمـا
أتيت على قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قالوا لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد"
قال : هذا حديث غريب . وفى هذا دليل على أنهـا مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن
عاصم المِنْقرى قال للنبى صلى الله عليه وسـلم : آتل علىّ ممـا أنزل عليك ، فقرأ عليه سـورة
« الرحمٰن » فقال : أعدها، فأعادها ثلاثا ؛ فقال : والله إنّ له لطَلَاوة ، وإن عليه لحَلَاوة ،
وأسفله مغدِق ، وأعلاه مثمـر ، وما يقول هـذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك
رسول الله . وروى عن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل
شىء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمٰن " .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشّعبي: « الرحمن » فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن آسما من أسماء الله تعالى « الر » و « حم » و « ن » فيكون مجموع هذه « الرحمن » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علّمه نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وما الرحمن ؟ وقيل : نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمن اليمامة ؛ يعنون مسيلمة الكذّاب ، فأنزل الله تعالى «الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ» . وقال الزجاج : معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أى سهّله لأن يذكر ويقرأ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » . وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال آبن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شيء . وقيل: علمه اللغات كلها . وعن آبن عباس أيضا وآبن كيسان : الإنسان ها هنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال . وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدّين . وقال الضحاك : « البيان » الخير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة . وقيل : « الإنسان » يراد به جميع الناس فهو آسم للجنس و « البيان » على هذا الكلامُ والفهمُ ، وهو مما فضّل به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحْسُب شيئا لو كان الدهر كلّه ليلا أو نهارا . وقال السدي : « بِحُسْبَانٍ » تقدير آجالها أي تجري بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « بِحُسْبَانٍ » كحسبان الرَّحَى يعني قطبها يدوران في مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أَحْسُبُه بالضم حَسْبا وحُسْبانا مثل الغُفران والكُفران والرُّجحان وحِسابة أيضا أي عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحِساب مثل شِهاب وشُهبان . والحُسبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى في « الكهف » [(١)] الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدْته ؛ قال [(٢)] :

* ... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّب *

أي غير موسَّد يعني غير مكَرَّم ولا مكَفَّن ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم مالا ساق له والشجر ماله ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التيمي :

لَقد أَنْجَمَ القَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَهُ * وتَمَّ بِهِ حَيَّا تَمِيمٍ ووائِلِ

وقال زهير بن أبي سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه * رِيحُ الجَنُوبِ لِضَاحِي مائِه حُبُكُ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو نهيك الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف * مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الأست يقول : لوطعنتك لوليتني دبرك واتقيت طعنتي بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم .

واشتقاق النجم من نَجَم الشىءُ يَنْجُم بالضم نجوما ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالهما قاله الضحاك . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفىء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : « يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ » . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله وهو آختيار الطبرى ؛ حكاه المهدوى . وقيل : سجود النجم أفوله وسجود الشجر إمكان الآجتناء لثمارها ؛ حكاه المـاوردى . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ؛ فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنىّ به آثار الحدوث ؛ حكاه القشيرى . النحاس : أصل السجود فى اللغة الآستسلام والآنقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها آستسلامها لأمر الله عز وجل وآنقيادها له ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ؛ وأنشد محمد بن يزيد فى النجم بمعنى النجوم قال[1] :

فباتت تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرة * سَريعٍ بأَيْدى الآكلينَ جُمُودُها

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السَّمال « والسماءُ » بالرفع على الآبتداء وآختار ذلك لمـا عطف على الجمـلة التى هى « وَالنَّجْـمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » فجعـل المعطوف مركبا من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه . الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . ﴿ وَوَضَعَ الْمِـيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ عن مجاهد وقتادة والسدى ؛ أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ؛ يقال : وضع الله الشريعة . ووضع فلان كذا أى ألقاه . وقيل : على هذا الميزان القرآن ؛ لأن فيـه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة – أيضا – والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العـدل . وقيل : هو الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . وأصل ميزان موزان وقد مضى فى « الأعراف[2] » القول فيه . ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصبا

---

(١) قائله الراعى . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » . ويجوز ألا يكون « لأن » موضع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تطغوا » على هذا التقدير مجزوما؛ كقوله تعالى : « وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا » . والطغيان مجاوزة الحد فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ابن عباس : أى لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالى ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحكم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيه إضمار ؛ أى وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه . ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أى افعلوه مستقيما بالعدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل . وقال ابن عيينة[1] : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل هو كقولك : أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل . ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾ أى لا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ » . وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يعدل لك ، وأوف كما تحب أن يوفى لك ، فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال رءوس الآى . وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بردة وأبان بن عثمان « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين وهما لغتان ؛ يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته وقيل : « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ الأنام الناس ؛ عن ابن عباس . الحسن : الجن والإنس . الضحاك كل ما دب على وجه الأرض ؛ وهذا عام . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى كل

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « أبو عبيدة » بدل ابن عيينة .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الأكمام جمع كِمٍّ بالكسر . قال الجوهرى : والكِمّة بالكسر والكِمَامة وعاء الطلع وغطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأَكِمّة وأكمام والأكاميم أيضا . وكُمّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فسُتِر حتى يقوى؛ قال العجّاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَّاسَ إِذْ تُكُمُّوا * بِغُمَّـةٍ لَـوْ لَمْ تُفَـرَّجْ غُمُّـوا

وتُكُمُّوا أى أُغمى عليهم وغُطُّوا . وأَكَمّت [النخلة](١) وكَمّمت أى أخرجت أكمامها . والكِمَام بالكسر والكِمَامة أيضا ما يُكَمّ به فم البعير لئلا يعض؛ تقول منه بعير مَكْموم أى محجوم . وكَمّمت الشىء غطّيته . والكِمّ ما ستر شيئا وغطّاه ومنه كُمّ القميص بالضم والجمع أَكْمام وكِمَمة مثل حُبّ وحِبَبة . والكُمّة القَلَنسوة المدوّرة؛ لأنها تُغطّى الرأس . قال :

فقلتُ لهم كِيلُوا بكُمّةِ بعضِكُمْ * دراهِمَكُمْ إنّى كذلكَ أَكْيَلُ

قال الحسن : «ذَاتُ الْأَكْمَامِ» أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمامها ليفها الذى فى أعناقها . ٱبن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال . ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما والعصف التِّبن . عن الحسن وغيره . مجاهد : ورق الشجر والزرع . ٱبن عباس : تِبْن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح . سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أى أوّل ما ينبت منه . وقاله الفرّاء . والعرب تقول : خرجنا نَعصِف الزرعَ إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفْتُ الزرعَ أى جززته قبل أن يُدرِك . وعن ٱبن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه ويبس؛ نظيره : «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» . الجوهرى : وقد أَعصفَ الزرعُ ومكان مُعْصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأَسْلَت الأنصارىّ :

إذا جُمَادَى مَنَعتْ قَطْـرَهَا * زَانَ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

والعَصْف أيضا الكسب؛ ومنه قول الراجز (١) :

* بغيرِ ما عَصْفٍ ولا اَصْطِرَافِ *

وكذلك الاعتصاف ، والعَصيفة الورق المجتمع الذى يكون فيه السُّنْبل . وقال الهروى : والعصف والعَصيفة ورق السُّنْبل . وحكى الثعلبي : وقال ابن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصيفة والجِلّ بكسر الجيم . قال عَلْقَمة بن عَبَدة :

تَسقِى مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُورُها من أَتِيِّ المـاءِ مَطْمُومُ

وفى الصحاح : والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد . والريحان الرزق؛ عن ابن عباس ومجاهد . الضحاك : هى لغة حِمْير . وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذى يشم . وقاله ابن زيد . وعن ابن عباس أيضا : أنه خضرة الزرع . وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل . وقال الكلبي : إن العصف الورق الذى لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول . وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا ؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة . أى يشم فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة ؛ وأصل الياء فى الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الرَّوحانى وهو كل شىء له رُوح . قال ابن الأعرابي : يقال شىء رُوحانى ورُيحانى أى له رُوح . ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن ، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألف والنون ، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة . وفى الصحاح : والرَّيْحان نبت معروف ؛ والرَّيْحان الرزق ؛ تقول : خرجت أبتغى رَيْحانَ الله ؛ قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

سَلامُ الإلهِ ورَيْحانُه * ورَحْمَتُه وسَمَاءٌ دِرَرْ

---

(١) قائله العجاج . وصدر البيت :

* قد يكسب المال الهدان الجافى *

والهدان الأحمق .

وفى الحديث : " الولد من ريحان الله " . وقولهم : سبحانَ الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له وآسترزاقا . وأما قوله : « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » فالعصف ساق الزرع والريحان ورقه ؛ عن الفــراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيهــا كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها آبن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفا على الأرض . وقيل : بإضمار فعل أى وخلق الحبَّ ذا العصف والريحان ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الأَكْمَامِ » . وجرّ حمزة والكسائى « الريحان » عطفا على العصف أى فيهــا الحبّ ذو العصفِ والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعــل الريحان الرزق ، فيكون كأنه قال : والحبّ ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقا ؛ لأن العصف رزق للبهائم والريحان رزق للناس ، ولا شبهة فيه فى قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعــالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ لأن الأنام واقع عليهما . وهــذا قول الجمهور يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه " لَلْجنُّ أحسنُ منكم ردًّا "(١) . وقيل : لمــا قال « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » دل ذلك على أنما تقدّم وما تأخر لهما . وأيضا قال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال فى هذه السورة : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » . وقال الجرجانى : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » . وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب فى الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقــدّم من القول فى « أَلْقِيَــا فِي جَهَنَّمَ » . وكذلك قوله :

* قِفَــا نَبْكِ ...(٢) *

و * خَلِيــلَيَّ مُرَّا بِي ...(٣) *

---

(١) رواية الترمذى المتقدّمة تخالف هذه الرواية فى اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) البيت مطلع معلقة آمرىء القيس وتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣) البيت مطلع قصيدة لآمرئ القيس أيضا والبيت بتمامه :

خليلى مرا بى على أم جندب * نقضِّ لبانات الفؤاد المعذب

فأما مابعد « خَلَقَ الإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ، الصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : « والأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ » والآلاء النعم وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إِلَى وأَلَى مثل مِعًى وعَصًا ، وإِلْىٌ وأَلْىٌ أربع لغات . حكاها النحاس قال : وفى واحد « آناء الليل » ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى فى « الأعراف »(1) و « النجم » . وقال ابن زيد : إنها القدرة وتقدير الكلام فبأى قدرة ربكما تكذبان ؛ وقاله الكلبي واختاره الترمذى محمد بن على ، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَما لأنها سورة صفة الملك والقدرة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ » فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ الإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التى رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التى خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له فى هذه الأشياء التى خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بأى قدرة ربكما تكذبان ؛ فإن له فى كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة فالتكرير فى هذه الآيات للتأكيد والمبالغة فى التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلقٍ . وقال القتبى : إن الله تعالى عدّد فى هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية . وص ١٢١ من هذا الجزء .

كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها ؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صَرُورة فحججت بك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا ؟ ! والتكرير حسن في مثل هذا . قال :

* كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال :

لا تَقتلي مُسْلِمًا إنْ كنتِ مُسْلِمَةً * إيّاكِ مِنْ دَمِهِ إيّاكِ إيّاكِ

وقال آخر :

لا تقطعنّ الصديقَ ما طَرَفتْ * عيناكَ من قولِ كاشحٍ أشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ * وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طردا للغفلة، وتأكيدا للحجة .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعني آدم . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، شبهه بالفخّار الذي طبخ . وقيل: هو طين خلط برمل . وقيل: هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ إذا أنتن ؛ وقد مضى في «الحجر» (١) . وقال هنا : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » وقال هناك : « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . وقال : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لازب» . وقال : «كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ» وذلك متفق المعنى، وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار . ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ قال الحسن : الجان إبليس وهو أبو الجن . وقيل : الجان واحد الجن والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجان من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت . وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس أنه اللهب الذى يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر؛ ونحوه عن مجاهد؛ وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التى لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهى نار السموم فخلق منها إبليس . قال القُشَيرى : والمارج فى اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول؛ كقوله : « ماء دافق » و « عيشة راضية » والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهرى فى الصحاح : و « مارج من نار » نار لا دخان لها خلق منها الجان . ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أى هو ربّ المشرقين . وفى الصافات «وَرَبُّ الْمَشَارِقِ» (١) وقد مضى الكلام فى ذلك هنالك .

قوله تعالى : مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٣ فا بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ « مَرَجَ » أى خلّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطانُ الناسَ إذا أهملهم . وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابةُ فى المرعى . ويقال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش : ويقول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج ، فَعَل وأَفْعَل بمعنى . « الْبَحْرَيْنِ » قال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . «يَلْتَقِيَانِ» فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال ابن جريج : إنه البحر المالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقى طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز فعلى القول الأول ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك . وعلى القول الثانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدّم فى « الفرقان »(١) . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كلم الناحية الغربية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أُغرقهم يا ربّ . قال : إنى أحملهم على يدى ، وأجعل بأسك فى نواحيك . ثم كلّم الناحية الشرقية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويُهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أُسبّحكَ معهم إذا سبّحوكَ ، وأُكبّرك معهم إذا كبّروك ، وأُهلّلكَ معهم إذا هلّلوكَ ، وأُمجّدك معهم إذا مجّدوك ؛ فأثابها الله الحِلْيَة وجعل بينهما بَرْزخا ، وتحوّل أحدهما مِلحا أُجاجا ، وبقى الآخر على حالته عذبا فُرَاتا ؛ ذكر هذا الخبر الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمرىّ عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة . « لَا يَبْغِيَانِ » قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما وبين الناس يَبَسا . وعنه أيضا ومجاهد : لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه . ابن زيد : المعنى « لَا يَبْغِيَانِ » أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أى بينهما

(١) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

مدة قدرها الله وهي مدة الدنيا فهما لا يبغيان ؛ فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئا واحدا، وهو كقوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » . وقال سهل بن عبدالله : البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان . وقرأ نافع وأبو عمرو « يُخْرَجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول . الباقون « يَخْرُجُ » بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل . وقال : « منهما » وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ؛ كقوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ » وإنما الرسل من الإنس دون الجن ؛ قاله الكلبي وغيره . وقال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ؛ وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما في إحداهن فيهن . وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف ؛ أي من أحدهما ؛ كقوله : «عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» أي من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب . وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان . ابن عباس : هما بحرا السماء والأرض . فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما ؛ وقاله الطبري . قال الثعلبي : ولقد ذكر لي أن نواة كانت في جوف صدفة ، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة . وقيل : إن العذب والملح قد يلتقيان ، فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى . لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح . وقيل : المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله علي وابن عباس رضي الله عنهما . واللؤلؤ صغاره . وعنهما أيضا بالعكس : إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ؛ وقاله الضحاك وقتادة . وقال ابن مسعود وأبو مالك : المرجان الخرز الأحمر .

قوله تعالى : وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعنى السفن . ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ قراءة العامة « الْمُنْشَآتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفع قِلْعها ؛ قال : وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَآت . وقال الأخفش : إنها المجرَيات . وفى الحديث : إن عليا رضى الله عنه رأى سفنا مُقْلَعة ، فقال : ورب هذه الجوارِى المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه « الْمُنْشِئَاتُ » بكسر الشين أى المنشئات السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع . وقيل : الرافعات الشُّرُع أى القُلُع . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرُع . ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى كالجبال والعلَم الجبل الطويل ، قال[1] :

* إذا قطعْنَ علَماً بدا علَمْ *

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر وقد مضى فى « الشورى »[2] بيانه . وقرأ يعقوب « الجَوَارِى » بياء فى الوقف وحذف الباقون .

قوله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم مَن عليها ،

---

(١) قائله جرير ؛ وتمام البيت :

* حتى تناهين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المتهم * فى ضئضئ المجد وبؤبؤ الكرم

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣ طبعة أولى أو ثانية .

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فأيقنت الملائكة بالهلاك؛ وقاله مقاتل . ووجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام . وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أى ويبقى الله فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خلقه المنايا * فكلُّ شيءٍ سواه فانِى

وهذا الذى ارتضاه المحققون من علمائنا؛ ابن فورك وأبو المعالى وغيرهم . وقال ابن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالى : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود البارى تعالى ، وهو الذى ارتضاه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود البارى تعالى . وقد مضى فى « البقرة »(1) القول فى هذا عند قوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيرى : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لاتكيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أى يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التى يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ؛ يقال : جلّ الشيءُ أى عَظُم وأجللته أى عظّمته ، والجلال اسم من جلّ . ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الاسمين لغة ومعنى فى الكتاب الأسنى مستوفى . وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام " . وروى أنه من قول ابن مسعود ومعناه : الزموا ذلك فى الدعاء . قال أبو عبيد :

(1) راجع جـ ٢ ص ٨٣ فما بعدها طبعة ثانية .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه . ويقال الإلظاظ الإلحاح . وعن سعيد المقبري أن رجلا ألحّ يجعل يقول : اللهم ياذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودي : إني قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : يَسْئَلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل : المعنى يسأله من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض الرزق . وقال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعا . وقال ابن جريج : وتسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض . وفي الحديث : " إن من الملائكة ملكا له أربعة أوجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله الرزق للطير ". وقال ابن عطاء: إنهم سألوه القوة على العبادة . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ . وانتصب « كُلَّ يَوْمٍ » ظرفا ، لقوله : « فِي شَأْنٍ » أو ظرفا للسؤال؛ ثم يبتدئ « هُوَ فِي شَأْنٍ » . وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : "من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين". وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : "يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا" . وقيل : من شأنه أن يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويرزق ويمنع . وقيل : أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة . قال ابن بحر : الدهر كله يومان، أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ،

والثواب والعقاب . وقيـل : المراد بذلك الإخبار عن شـأنه فى كل يوم من أيام الدنيـا وهو الظاهر . والشأن فى اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » . وقال الكلبى : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو آبن ميمون فى قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حيًّا، ويقرّ فى الأرحام ماشاء، ويعزّ ذليلا، ويذلّ عزيزا . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها، وآستمهله إلى الغد فانصرف كئيبا إلى منزله فقال له غلام له أسود : ماشأنك؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإنى أفسرها له، فدعاه فقال : أيها الأمير! شأنه أن يولج الليـل فى النهار، ويولج النهار فى الليـل، ويخرج الحى من الميت، ويخـرج الميت من الحى، ويشفى سقيما، ويسقم سليما، ويبتلى معافى، ويعافى مبتلًى، ويعز ذليلا، ويذل عزيزا، ويفقر غنيا، ويغنى فقيرا؛ فقال له : فرّجت عنى فرّج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام؛ فقال : يامولاى ! هـذا من شأن الله تعالى . وعن عبـد الله آبن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى؛ قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة فى تلك الأمة، ويكون توبة فى هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . وأما قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فمعناه ليس له إلا ماسعى عدلا ولى أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلا؛ فقام عبد الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه .

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ يقال : فَرَغت من الشغل أفرُغ فُروغا وفَراغا وتفرغت لكذا وآستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذًا أتفرغ لك أي أقصدك . وفرغ بمعنى قصد ؛ وأنشد آبن الأنباري في مثل هذا لجرير :

الآنَ وقد فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ * فهذا حينَ كُنتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت . وقال أيضا[1] وأنشده النحاس :

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقيَّد في الحِجْلِ *

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : يا أهل الجُبَاجِب[2] ! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلَة على حربكم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هذا إِزْبُ[3] العقبة أمَا والله ياعدوّ الله لأتفرغنّ لك" أي أقصد إلى إبطال أمرك . وهذا آختيار القتبي والكسائي وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كلًّا إلى ما وعدناه، أي أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وآبن زيد . وقرأ عبد الله وأبيّ « سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ » وقرأ الأعمش و إبراهيم

---

(١) أي جرير . (٢) الجباجب : منازل منى . (٣) الإزب : ضبطه الحلبي في سيرته بكسر الهمزة و إسكان الزاي ، وهو هنا آسم شيطان .

« سَيُفْرَغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن شهاب والأعرج « سَنَفْرَغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغ يفرَغ ، وحكي أيضا فَرَغ يفرَغ ورواهما هبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجُعْفي عن أبي عمرو « سَيَفْرَغُ » بفتح الياء والراء ، ورويت عن ابن هُرْمُز . وروى عن عيسى الثقفي « سِنِفْرَغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء وقرأ حمزة والكسائي « سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بالياء . الباقون بالنون وهي لغة تهامة ، والثَّقَلان الجنّ والإنس ؛ سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا ؛ قال الله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه . وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن يتافس فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بجمع ، ثم قال : « أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ » ولم يقل إن استطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ » و « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ » (١) ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال : إن استطعتما لجاز . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقون بفتحها وقد تقدم (٢) .

مسئلة — هذه السورة و « الأحقاف » و « قل أوحي » دليل على أن الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ذكر ابن المبارك وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها

---

(١) أي في القرآن . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٨ فما بعدها وجـ ١٦ ص ٩٧ فما بعدها .

كذلك فينزلون فيكونون صفًا من خلف ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ، فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطان العذر . الضحاك أيضا : بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت : فعلى هذا يكون في الدنيا ، وعلى ما ذكر ابن المبارك يكون في الآخرة . وعن الضحاك أيضا : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقال ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى . وعنه أيضا أن معنى « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم . قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان نباء بمعنى إلى ، كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي » أي إليّ . قال الشاعر[1] :

أَسِيئِي بِنا أو أحسِنِي لا ملولةً * لدينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ

وقوله : « فَانْفُذُوا » أمر تعجيز .

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل : ليس هذا متعلقا بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذابا بالنار . وقيل : أي بآلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » فذلك النار ، قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ »

---

(١) هو كثير عزة .

والشواظ فى قول ابن عباس وغيره اللهب الذى لا دخان له . والنحاس : الدخان الذى لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبى الصّلت يهجو حسان بن ثابت رضى الله عنه كذا وقع فى تفسير الثعلبيّ والماورديّ بن أبى الصّلت ، وفى « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنبارى أمية بن خلف قال :

أَلاَ مَنْ مُبلِغٌ حَسّانَ عَنِّى * مُغَلْغَلَةً تدبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْنًا * لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلًا فى الحِفَاظِ

يَمَانِيًا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا * ويَنْفُخُ دائبًا لَهَبَ الشُّواظِ

فأجابه حسان رضى الله عنه فقال :

هَجَوْتكَ فاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ * بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّواظِ (١)

وقال رؤبة :

إنّ لهم مِن وَقْعِنَا أَقْيَاظَا * ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعا . قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ابن كثير «شِواظ» بكسر الشين الباقون بالضم وهما لغتان؛ مثل صُوَار وصِوَار لقطيع البقر . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة « وَنُحَاسٌ » بالرفع عطف على « شُوَاظ » . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو « ونُحَاسٍ » بالخفض عطفا على النار . قال المهدوى : من قال إن الشّواظ النار والدخان جميعا فالجر فى « نحاس » على هذا بين، فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذى لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

---

(١) وفى التاج بدل هذا البيت :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ

والفسل من الرجال الرذل الذى لا مروءة له ولا جلد والمفسول مثله .

شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ » وشيء من نحاس فشيء معطوف على شواظ ، ومن نحاس جملة هى صفة لشيء ، وحذف شيء وحذفت من لتقدم ذكرها فى « مِن نار » كما حذفت على من قولهم : على من تنزل أنزل [أى] (١) عليه . فيكون « نُحاس » على هـذا مجرورا بمن المحذوفـة . وعن مجاهـد وحميد وعكرمة وأبى العـالية « ونِحاسٍ » بكسر النون لغتـان كالشِّواظ والشُّواظ . والنِّحاس بالكسر أيضا الطبيعة والأصل ؛ يقال : فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضا بالضم أى كريم النِّجار . وعن مسلم بن جُندَب « ونَحْسٌ » بالرفع . وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصارى « ونَحْسٍ » بالجـر عطف على نار . ويجـوز أن يكون « ونِحاسٍ » بالكسر جمع نَحْس كصَعْب وصِعاب « ونَحْسٌ » بالرفع عطف على « شـواظ » وعن الحسن « ونُحُسٍ » بالضم [فيهما] (٢) جمع نَحْس . ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » (٣) . وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة « وَنَحُسُّ » بفتح النون وضم الحاء وتشـديد السين من حسّ يحُسّ حسًّا إذا آستأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » والمعنى ونقتل بالعذاب . وعلى القراءة الأولى «وَنُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رءوسهم . قاله مجاهد وقتـادة وروى عن آبن عبـاس . وعن آبن عبـاس أيضا وسعيد آبن جبير أن النحاس الدخان الذى لا لهب فيـه ؛ وهو معنى قول الخليل ؛ وهو معروف فى كلام العرب بهذا المعنى ؛ قال نابغة بنى جَعْدة :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ✻ ـطِ لم يجعلِ اللهُ فيه نُحَـاسَا

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول السَّليط دهن السِّمسم بالشام ولا دخان فيه . وقال مقاتل : هى خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب ، تجرى من تحت العرش على رءوس أهل النار ؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار . وقال آبن مسعود : النُّحاس المهـل . وقال الضحاك : هو دُرْدِيّ الزَّيت المغلى . وقال الكسائى : هو النار التى لهـا ريح شديدة . ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ أى لا ينصر بعضكم بعضا يعنى الجن والإنس .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) الذى فى الأصول : « بالضم فيهن » وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أى بضمتين وكسر السين .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أى انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ الدِّهان الدهن؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن . وقال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء . وقيل : المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن؛ أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدُّهْن لرقتها وذوبانها . وقيل : الدّهان الجلد الأحمر الصّرف . ذكره أبو عبيد والفراء . أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار . ابن عباس : المعنى فكانت كالفرس الوَرْد ، يقال للكُمَيْت وَرْدٌ إذا كان يتلون بألوان مختلفة . قال ابن عباس : الفرس الوَرْدُ ؛ فى الربيع كُمَيت أصفر، وفى أول الشتاء كُمَيت أحمر، فإذ اشتد الشتاء كان كُمَيْتا أغبر . وقال الفراء : أراد الفرس الوَرْديّة، تكون فى الربيع وَرْدة إلى الصُّفْرة، فإذا اشتد البرد كانت وَرْدة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدة إلى الغبرة ؛ فشبه تلون السماء بتلون الوَرْد من الخيل . وقال الحسن : « كَالدِّهَانِ » أى كصبّ الدُّهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا . وقال زيد ابن أسلم : المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت، وقيل : المعنى أنها تمر وتجيء . قال الزجاج : أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر . حكاه الثعلبي . وقال الماوردي : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحُمْرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن؛ وهى حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض ، وهذا قول عكرمة . وقيل : المعنى لا يسئلون إذا آستقروا في النار . وقال الحسن وقتادة : لا يسئلون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم ، وكتبتها عليهم الملائكة . رواه العوفي عن آبن عباس . وعن الحسن ومجاهد أيضا : المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله مابعده . وقاله مجاهد عن آبن عباس . وعنه أيضا في قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » وقوله : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقال : لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ . وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقال قتادة : كانت المسئلة قبل ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم . وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه قال : " فَيلْقَى العبدَ فيقول أي فُلْ[1] ألم أُكْرِمْك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وأُسخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع فيقول بلى فيقول أفظننت أنك مُلَاقِيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدّقت ويثني بخير ما آستطاع فيقول هاهنا إذًا ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من هذا الذي يشهد علي فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه " وقد مضى هذا الحديث في « حم السجدة » وغيرها[2] .

---

(١) أي فل : معناه يا فلان وليس ترخيما له ، وإنما هي صيغة آرتجلت في النداء ، ولا تقال إلا بسكون اللام ، وقال قوم إنه ترخيم فلان .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٤٨ فا بعدها وص ٣٥٠ منه أيضا طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُعرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين ؛ قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال تعالى : « يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وُجُوهٌ » . ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار . والنواصى جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويهه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ ﴾ أى يقال لهم هذه النار التى أخبرتم بها فكذبتم . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار والحميم الشراب . وفى قوله : « آنٍ » ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذى انتهى حرّه وحميمه . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى ؛ ومنه قول النابغة الذُّبيانى .

وَتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانَتْ * بِأحمرَ مِن نَجِيعِ الجوفِ آنِ (١)

قال قتادة : « آنٍ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آن » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

(١) نجيع الجوف : يعنى الدم الخالص . وقيل البيت :

فإن يقدر عليك أبو قبيس * تمط بك المعيشة فى هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيــه حتى تخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا فيلقون فى النار، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وعن كعب: أيضا أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذى قــد آن شربه وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما فى ذلك من الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات . وروى عن النبى صــلى الله عليه وســلم أنه أتى على شاب فى الليل يقرأ « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحِى من يوم تنشق فيه السماء وَيْحِى ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "وَيْحَكَ يافتى مثلها فــو الذى نفسى بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك" .

قوله تــعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَــامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ لمــا ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار . والمعنى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية . فـ « مقام » مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه وآطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَــا كَسَبَتْ » . وقال مجاهد وإبراهيم النخعى : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانيــــة ــ هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان همّ بالمعصــية وتركها خــوفا من الله وحيــاء منه . وقال به ســفيان الثورى وأفتى به . وقال محمــد بن علىّ الترمذىّ : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته . وقال ابن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع . أى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب كما تقــدّم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهــو كالأجل فى قــوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ » وقــوله فى موضــع آخر :

« إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ » . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أى لمن خاف جنتان على حدة ، فلكل خائف جنتان . وقيــل : جنتان لجميع الخائفين ؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الجنتان بستانان فى عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام فى وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نعمة وخضرة قرارها ثابت وشجرها ثابت" ذكره المهدوى والثعلبي أيضا من حديث أبى هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنمـا هى جنة واحدة فثنى لرءوس الآى . وأنكر القتبي هـذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنمـا قال تسـعة عشر لمراعاة رءوس الآى . وأيضا قال : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » . وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فتثنى فى الشعر ؛ وهـذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل ، يقول الله عز وجل : « جَنَّتَانِ » ويصفهما بقوله « فِيهِمَا » فيـدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشِّعر . وقيل : إنمـا كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنه خاصـة حين ذكر ذات يوم الجنـة حين أُزْلِفَت والنـار حين بُرِّزَت . قاله عطاء وابن شَوْذَب ؛ وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبنا على ظمإ فأعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسـلم ينظر إليه ؛ فقال : "رحمك الله لقد أنزلت فيك آية" وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعـالى : ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ . وقال مجاهد : الأفنان الأغصان واحدها فنن؛ قال النابغة :

بكاءَ حَمامةٍ تدعو هَديلًا * مُفَجَّعةٍ على فَنَنٍ تُغَنِّى[1]

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بانٍ فى ذُرَى فَنَنٍ * يُرَدِّدانِ لُحونًا ذاتَ ألوانِ

أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَديلِ حمامةٍ * تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَمامًا

تدعو أبا فَرْخَيْن صادفَ ضارِيًا * ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين؛ وقال يصف رَحًى :

* لها زِمامٌ مِن أفانينِ الشَّجَرْ *

وشجرة فَنَّاء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : "إن أهل الجنة مُرْدٌ مُكَحَّلون أولو أفانين" يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فَنَنٍ [وهو الخُصْلة[2]] من الشعر شبه بالغصن . ذكره الهروى . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سعة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتادة . وعن مجاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ابن عباس : تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ابن عباس أيضا والحسن : تجريان بالماء الزلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل . وعنه أيضا :

---

(١) قبل هذا البيت :

أسائلها وقد سفحت دموعى * كأن مفيضهن غروب شنّ

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضعافا مضاعفة ، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الورّاق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفان وكلاهما حلو يستلذ به قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطّيب . وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكر ها هنا عينين جاريتين وذكر ثَمَّ عينين تنضخان بالماء والنّضخ دون الجري؛ فكأنه قال : في تينك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال والفرش جمع فراش . وقرأ أبو حَيْوة «فُرْش» بإسكان الراء . ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة . والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة . قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ظواهرها نور يتلألأ" . وعن الحسن : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضا : البطائن هي الظواهر .

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة . والعرب تقول للظهر بطنا، فيقولون : هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذى تراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين إذا ولى كل واحد منهما قوما، كالحائط بينك وبين قوم؛ وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر؛ يقال : أتانا بجَنَاة طيبة لكل ما يجتنى . وثمر جنيّ على فَعيل حين جُنِي؛ وقال[1] :

هــذا جَنَــاىَ وخِيَــاره فِيــهْ * إذْ كُلُّ جانٍ يَــدُهُ إلى فِيــهْ

وقرئ « جِنَى » بكسر الجيم . « دانٍ » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىّ الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا لا يرد يده بُعْدٌ ولا شوك .

قوله تعالى : فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قيل : فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال : « فِيهِنَّ » ولم يقل فيهما ؛ لأنه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على الفرش التى بطائنها من إستبرق؛ أى فى هذه الفرش « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم . وقد مضى فى « والصافات »[2] ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه فى معنى المصدر؛ من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفا، ثم سميت العين بذلك فأدى عن الواحد والجمع؛ كقولهم : قوم عَدْل وصَوْم .

(١) هو عمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـة — قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » اى لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد . الفراء : والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية طَمَثها يَطمِثها و يَطمُثها طَمْثا إذا افتضها . ومنه قيل : امرأة طامث أى حائض . وغير الفراء يخالفه فى هذا و يقول : طَمَثها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمُثْهُنَّ » بضم الميم يقال : طَمَثت المرأةُ تَطمُث بالضم حاضت وطَمِثت بالكسر لغة فهى طامث؛ وقال الفرزدق :

وَقَعْنَ الىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي * وهنّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعامِ

وقيل : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك فى كل شىء يمسّ . و يقال للمرتع : ما طمث ذلك المرتع قبلنا أحدٌ ، وما طمث هذه الناقة حبْل أى ما مسها عِقال . وقال المبرِّد : أى لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان والطمث التذليل . وقرأ الحسن « جَأْن » بالهمز .

الثالثـة — فى هذه الآية دليل على أن الجنّ تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات . قال ضمرة : للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين فالإنسيات للإنس والجنيات للجنّ . وقيل: أى لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجنّ فى الجنة من الحور العين من الجنيات جنّ ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس فى الجنّة من الحور العين من الإنسيات إنس ؛ وذلك لأن الجنّ لاتطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قد مضى فى « النمل »[1] القول فى هذا وفى « سبحان »[2] أيضا ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزهن ، والطمث الجماع . ذكره بكماله الترمذى الحكيم ، وذكره المهدوى أيضا والثعلبى وغيرهما والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢١١ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩

قوله تعالى : كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم آستصفيته لأُرِيته [من ورائه](1) ويروى موقوفا. وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء . وقال الحسن : هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ «هَلْ» في الكلام على أربعة أوجه؛ تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وبمعنى الآستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » وبمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ » و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » قال عكرمة : أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . آبن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة؛ قاله آبن زيد. وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . وروى آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ

---

(1) الزيادة من صحيح الترمذي .

هذه الآية فقال : " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتى وحظيرة قُدسى برحمتى" وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد . وقال محمد بن الحنفية والحسن : هى مُسْجَلة للبر والفاجر ؛ أى مرسلة على الفاجر فى الدنيا والبر فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أى وله من دون الجنتين الأولين جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما فى الدَّرج . ابن زيد : ومن دونهما فى الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ، فيكون فى الأولين النخل والشجر ، وفى الأخريين الزرع والنبات وما انبسط . الماوردى : ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلّدين ؛ ليتميز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هى أربع : جنتان منها للسابقين المقربين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وجنتان لأصحاب اليمين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأولين من ذهب للمقربين والأخريين من ورِق لأصحاب اليمين . قلت : إلى هذا ذهب الحَلِيمى أبو عبد الله الحسن بن الحسين فى كتاب منهاج الدين له ، واحتج بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » إلى قوله « مُدْهَامَّتَانِ » قال : تانك للمقربين وهاتان لأصحاب اليمين . وعن أبى موسى الأشعرى نحوه . ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال فى الأولين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وفى الأخريين « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجرى . وقال فى الأولين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فعم ولم يخص وفى الأخريين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

فى الأولين : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج وفى الأخريين « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » والعبقرى الوشى ولا شك أن الديباج أعلى من الوشى ، والرفرف كسر الخباء ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء . وقال فى الأولين فى صفة الحور : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » وفى الأخريين « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان . وقال فى الأولين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفى الأخريين « مُدْهَامَّتَانِ » أى خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأولين بكثرة الأغصان ، والأخريين بالخضرة وحدها ، وفى هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ولعل مالم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين ؟ قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة فى الخوف من الله تعالى ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضة ، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين ، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى ومن أمامهما ومن قبلهما . وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول فقال : ومعنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى دون هذا إلى العرش ، أى أقرب وأدنى إلى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأوليين بما سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أى خضراوان من الرى ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسودتان . والدهمة فى اللغة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه ، فإن زاد على ذلك حتى اشتد السواد فهو جون . وادهمّ الفرس ادهماماً أى صار أدهم وادهامّ الشىء ادهيماماً أى اسوادّ ؛ قال الله

تعالى : « مُدْهَامَّتَانِ » أى سوداوان من شدة الخضرة من الرِّيّ ، والعرب تقول لكل أخضر أسود . وقال لَبِيد يرثى قتلى هوَازِن :

وجاءوا بِـه[1] فى هَـوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ * كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُـوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع . وسميت قُرَى العراق سـوادا لكثرة خضرتها . ويقال لليل المظلم أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعـالى : فِيهِمَا عَيْنَـانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أى فوارتان بالمـاء؛ عن ابن عباس . والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء . وعنه أن المعنى نَضَّاختان بالخير والبركة؛ وقاله الحسن ومجاهد. ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس : تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما يَنضَخ رش المطر . وقال سعيد بن جبير : بأنواع الفواكه والمـاء . الترمذى : قالوا بأنواع الفواكِهِ والنِّعِم والجوارِ المزيَّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوَّنات . قال الترمذىّ : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشىء لا يعطف على نفسه إنمـا يعطف على غيره . وهـذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنمـا أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعـالى :

---

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » وقد تقدّم[1] . وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن النخل عامة قوتهم ، والرمان كالثمرات[2]، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها ، فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما فى الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها . وقيل : أفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه ؛ ومنه قال أبو حنيفه رحمه الله، وهى المسئلة :

الثانيــــة ــ إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رُطَبا لم يحنث . وخالفه صاحباه والناس . قال ابن عباس : الرمانة فى الجنة مثل البعير المُقَتَّب . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم . قال : وحدثنا المسعودى عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القِلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإن ماءها ليجرى فى غير أخدود ، والعنقود اثنا عشر ذراعا .

قوله تعالى : فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » يعنى النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيْرَات » بمعنى خَيِّرات نخفف كهين ولين . ابن المبارك : حدثنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية وجـ ٣ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : والرمان كالشراب الخ .

الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من « خيرات حسان » اطلعت من السماء لأضاءت لها ، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنصيفٌ[1] تُكْساه خَيْرة خير من الدنيا وما فيها . « حِسَانٌ » أي حسان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : « حِسَانٌ » فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهريّ وقتادة : « خَيْرَاتٌ » الأخلاق « حِسَانٌ » الوجوه . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أمّ سلمة . وقال أبو صالح : لأنهنّ عذارى أبكار .

وقرأ قتادة وابن السَّمَيْقع وأبو رجاء العطارديّ وبكر بن حبيب السَّهْميّ « خَيِّرَاتٌ » بالتشديد على الأصل . وقد قيل : إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَيْر . وقيل : مختارات . قال الترمذيّ : فالخيرات ما اختارهنّ الله فأبدع خلقهنّ باختياره ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . ثم قال : « حِسَانٌ » فوصفهنّ بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئا بالحسن فانظر ما هناك . وفي الأوليين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » و « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فانظركم بين الخيرة وهي مختارة الله ، وبين قاصرات الطرف . وفي الحديث : "إن الحور يأخذ بعضهنّ بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ونحن المقيمات فلا نَظْعن أبدًا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن خَيْرات حسان حبيبات لأزواج كرام" . خرجه الترمذي بمعناه من حديث عليّ رضي الله عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصلِّيات وما صلَّيتنّ ، ونحن الصائمات وما صُمْتنّ ، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ . فقالت عائشة رضي الله عنها : فغلبنهنّ والله .

الثانية — واختلف أيهما أكثر حسنا وأبهر جمالا الحور أو الآدميات؟ فقيل : الحور لما ذكر من وصفهنّ في القرآن والسنّة ؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت

---

(١) هو الخمار وقيل المعجر . النهاية .

فى الجنازة : "وأبدله زوجًا خيرا من زوجه" وقيل : الادميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف . وروى مرفوعا . وذكر آبن المبارك : وأخبرنا رِشْدِين عن آبن أَنْعُم (١) عن حبان آبن أبى جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بمـا عملن فى الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات فى القرآن هنّ المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخلقن فى الآخرة على أحسن صـورة ؛ قاله الحسن البصرى . والمشهور أن الحـور العين لسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات فى الجنة؛ لأن الله تعالى قال : «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسـلم قال : "إن أقلّ ساكنى الجنة النّساء" فلا يصيب كل واحد منهم آمرأة، ووعدا لحور العين لجماعتهم، فثبت أنهنّ من غير نساء الدنيا .

قوله تعـالى : حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ﴾ « حُورٌ » جمع حوراء وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدّم (٢). «مَقْصُورَاتٌ» محبوسات مستورات «فِى الْخِيَامِ» فى الحجال لسن بالطوّافات فى الطرق؛ قاله آبن عباس . وقال عمر رضى الله عنه : الخيمة دُرّة مجوّفة . وقاله آبن عباس . وقال : هى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله فى قوله تعـالى : « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ » بلغنا فى الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لهـا باب ، حتى إذا دخل ولىّ الله الجنة

---

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوّله وسكون النون وضم المهملة) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

آنصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولىّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال فى الأولين : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مَقْصُورَاتٌ » قد قُصِرن على أزاجهنّ فلا يُرِدن بدلا منهم . وفى الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصرا حبسته ، ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وآمرأة قَصِيرة وقَصُورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج ؛ قال كُثَيِّر :

وأنتِ التى حَبَّبْتِ كلَّ قَصِـيرَةٍ * إلىَّ وما تَـدْرِى بـذاكَ القَصَـائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ * قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ البَحَاتِرُ (١)

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره آبن السكيت . وروى أنس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أُسرى بى فى الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يارسول الله فقلت ياجبريل من هؤلاء قال هـؤلاء جوارٍ من الحور العين آستأذن ربهنّ فى أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن الراضيات فلا نسخَط أبدا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الخِيَامِ » أى محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد (٢) الأشهلية أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم ، فهل نشارككم فى الأجر؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "نعم إذا أحسنتن تَبَعُّل (٣) أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم" .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أى لم يمسسهن على ما تقدم قبل . وقراءة العامة «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامى وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازى عن الكسائى

(١) البحاتر : جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق .
(٢) فى نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب . (٣) مصاحبتهم فى الزوجية والعشرة .

بضم الميم فى الحرفين . وكان الكسائى يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر فى ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانيـة . وهى قراءة أبى إسحق السّبيعى . قال أبو إسحق : كنت أصلى خلف أصحاب علىّ فيرفعون الميم ، وكنت أُصَلِّ خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فاستعمل الكسائى الأثرين . وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعْرُشُون ويَعْكُفُون؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنما أعاد قوله : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » ليبين أن صفة الحور المقصورات فى الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف. يقول : إذا [قصرن][1] كانت لهن الخيام فى تلك الحال .

قوله تعالى : مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف المحابس[2]. وقال ابن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها . وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظى : هى البسط . وقال ابن عيينـة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان : هى المرافق . وقاله الحسن أيضا . وقال أبو عبيـدة : هى حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط . وقيـل : الفرش المرتفعة . وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف . قال ابن مقبل :

وإنّا لَـتَزَّالونَ تَغْشَى نِعَالُنَا * سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرفِ

وهـذه أقوال متقاربة . وفى الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخـذ منها المحابس الواحدة رَفْرَفة . وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنـة واشتقاق الرفرف

---

(١) فى الأصول كلها : إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز فى الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن .

(٢) المحابس جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفى نسخ : المجالس وكلا المعنيين صحيح كما فى اللغـة .

من رَفَّ يَرِف إذا آرتفع : ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيــه فى الهواء وربما سمــوا الظَّلِيم رَفْرافا بذلك؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعــدو، ورفرف الطائر أيضا إذا حرك جناحيــه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف أيضا كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها؛ الواحدة رَفْرفة . وفى الخبر فى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه وَرَقة . أى رفع طرف الفسطاط . وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيرا ، حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النِّعمة والغَضَاضــة حتى كاد يهتز رَفَّ يَرِف رفيفًا . حكاه الهروى . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا آستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته . قاله الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول وقد ذكرناه فى « التذكرة » . قال الترمذى : فالرفرف أعظــم خطرا من الفرش فذكر فى الأولين « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ » فالرفرف هو شيء إذا آســتوى عليه الوليّ رفرف به ؛ أى طار به هــكذا وهــكذا حيث مايريد كالمِرْجاح ؛ وأصــله من رفرف بين يدى الله عز وجل ، روى لنــا فى حديث المعراج أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم لمــا بلغ سِــدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش ، فذكر أنه قال : " طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى " ثم لمــا حان الآنصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوى به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكى ويرفع صوته بالتحميد؛ فالرفرف خادم من الخــدم بين يدى الله تعالى له خواص الأمور فى محل الدنو والقــرب ، كما أن البُراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصــة بذلك فى أرضه ، فهذا الرفرف الذى سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهمــا وفرشهما ، يرفرف بالولى على حافات تلك الأنهــار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخــيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبْقَــرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقرى ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتــلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضى الله عنه والجحدرى والحسن وغيرهم « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ » بالجمع غير مصروف وكذلك

« وَعَبَاقِرِيُّ حِسَانٍ » جمع رَفْرَف وعَبْقَرِيّ . و « رَفْرَف » اسم للجمع و « عَبْقَرِيّ » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر . وقد قيل : إن واحد رفرف وعبقري رَفْرَفة وعَبْقَرِيَة والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع . والعبقريّ الطَّنَافِس الثِّخان منها ؛ قاله الفراء . وقيل : الزَّرَابِيّ ، عن ابن عباس وغيره . الحسن : هي البُسُط . مجاهد : الدِّيباج . القتبيّ : كل ثوب وشي عند العرب عبقريّ . قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وَشْي حُبِك . قال ذو الرُّمَّة :

حتى كأنّ رِياضَ القُفِّ أَلْبَسَها * مِن وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة . وقال ابن الأنباري : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل . وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريّ . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه : "فلم أر عبقريًّا من الناس يَفْرِي فَرِيَّه" وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم "فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه" فقال : رئيس قوم وجليلهم . وقال زُهَير :

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ * جَدِيرون يومًا أَنْ يَنالُوا فَيَسْتَعْلُوا

وقال الجوهري : العبقريّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .

قال لَبِيد :

* كُهُولٌ وشُبَّانٌ بِجِنَّةِ عبقرِ * (1)

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا : عَبْقريّ وهو واحد وجمع . وفي الحديث : "إنه كان يسجد على عبقريّ" وهو هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْم عبقريّ وهذا عبقريُّ قومٍ للرجل القويّ . وفي الحديث : "فلم أر عبقريا يَفْرِي فَرِيَّه" ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وعبقريٍّ حِسانٍ » وقرأ بعضهم

(1) صدر البيت : * ومن فاد من إخوانهم وبنيهم *

« عَبَاقِـرِيّ » وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِيّ وكَرَاسِيّ وبُخْتِيّ وبَخَاتِيّ . وروى أبو بكر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَّكِئِينَ على رَفَارِفَ خُضُرٍ وعَبَاقِرَ حِسَانٍ » ذكره الثعلبي . وضمّ الضاد من «خضر» قليـل .

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ « تبارك » تفاعل من البركة وقد تقدّم[1] . «ذِى الْجَلَالِ» أي العظمة . وقد تقدّم «والإِكْرَامِ»[2] . وقرأ عامر «ذُو الْجَلَالِ» بالواو وجعله وصفا للاسم ، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون « ذِى الْجَلَالِ » جعلوا « ذى » صفة لـ «ربك» . وكأنه يريد به الاسم الذى افتتح به السـورة ؛ فقال : « الرحمن » فافتتح بهـذا الاسم فوصف خلق الإنسان والجنّ ، وخلق السموات والأرض وصنعه ، وأنه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ » ووصف تدبيره فيهم ، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : « تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ، فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال : « ذِى الْجَـلَالِ وَالْإِكْرَامِ » جليل فى ذاته كريم فى أفعـاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلقى المؤمنون عنـدما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١ فما بعدها .

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

سورة الواقعة

مكية وهى سبع وتسعون آية

مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وقال الكلبى : مكية إلا أربع آيات ؛ منها آيتان « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » نزلتا فى سفره إلى مكة ، وقوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » نزلتا فى سفره إلى المدينة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر فى « التمهيد » و « التعليق » والثعلبى أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده فى مرضه الذى مات فيه فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى . قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى . قال : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى . قال : أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لى فيه ، حبسته عنى فى حياتى ، وتدفعه لى عند مماتى ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتى الفاقة من بعدى ؟ إنى أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)

قوله تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار أى اذكروا

إذا وقعت الواقعة . وقال الجرجاني : « إذا » صلة ؛ أي وقعت الواقعة ؛ كقوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » و « وَأَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وهو كما يقال : قد جاء الصوم أي دنا وٱقترب . وعلى الأوّل «إذا» للوقت، والجواب قوله : «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ؛ كقوله تعالى : «لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ»(١) أي لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة : عائذًا بالله أي مَعاذ الله ، وقم قائمًا أي قم قياما . ولبعض نساء العرب تُرَقِّص ٱبنها :

قُمْ قائمًا قُمْ قائمَا * أصبت عبدًا نائمَا

وقيل : الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أي ليس لوقعتها حال كاذبة ؛ أو نفس كاذبة ؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق . وقال الزجاج : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أي لا يردها شيء . ونحوه قول الحسن وقتادة . وقال الثوريّ : ليس لوقعتها أحد يكذب بها . وقال الكسائيّ أيضا : ليس لها تكذيب . أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد . وقيل : إن قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه .

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدّي : خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى ؛ يعني أسمعت القريب والبعيد . وقال السُّدّي : خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين . وقال قتادة : خفضت أقواما في عذاب الله ، ورفعت أقواما إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خفضت أعداء الله في النار ، ورفعت أولياء الله في الجنة . وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا في الدنيا مخفوضين . وقال ٱبن عطاء : خفضت أقواما بالعدل ، ورفعت آخرين بالفضل . والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعز والمهانة . ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) هذه قراءة نافع .

توسعا ومجازا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : ليل نائم ونهار صائم . وفى التنزيل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ، فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه فى أسفل الدركات . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ، ومن نصب فعلى الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وقعت « خَافِضَةً رَافِعَةً » . والقيامة لا شك فى وقوعها ، وأنها ترفع أقواما وتضع آخرين على ما بيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أى زلزلت وحركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رجه يرجه رجا أى حركه وزلزله . وناقة رجاء أى عظيمة السنام . وفى الحديث : "من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له" يعنى إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبي : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فرقا من الله تعالى . قال المفسرون : ترتج كما يرتج الصبيّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرَّجة الحركة الشديدة يسمع لها صوت . وموضع « إذا » نصب على البدل من « إِذَا وَقَعَت » . ويجوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض و بسّ الجبال ؛ لأن عند ذلك يخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أى وقعت الواقعة إذا رجت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجانى . وقيل : أى اذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ » . « رَجًّا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أى فتتت ؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يبس الدقيق أى يلت . والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الراجز :

لا تخبزا خبزا وبسّا بسّا * ولا تطيلا بمناخ حبسا

وذكر أبو عبيدة أنه لصّ من غَطَفان أراد أن يخبز نخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجينا . والمعنى أنها خُلطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء . أى تصير الجبال ترابا فيختلط البعض بالبعض . وقال الحسن : وبُسّت قلعت من أصلها فذهبت؛ نظيره: « يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » . وقال عطية : بسطت كالرمل والتراب . وقيل : البسّ السّوق أى سيقت الجبال؛ قال أبو زيد : البسّ السّوق وقد بسست الإبل أَبُسّها بالضم بَسًّا . وقال أبو عبيد : بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بِسْ بِسْ . وفى الحديث : " يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " ومنه الحديث الآخر : " جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عيالهم[1] " والعرب تقول : جئ به من حَسّك وبَسّك . ورواهما أبو زيد بالكسر فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته وبِسّك من حيث بلغه مسيرك . وقال مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدّت هدّا . محمد بن كعب : سُيّرت سيرا ؛ ومنه قول الأغلب العِجْلى[2] :

وقال الحسن : قطعت قطعا . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ قال على رضى الله عنه : الهباء المنبث الرَّهَج[3] الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك . وقال مجاهد : الهباء هو الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئا . وقاله عطية . وقد مضى فى « الفرقان » عند قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا[4] » وقراءة العامة « مُنْبَثًّا » بالثاء المثلثة أى متفرقا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » أى فرّق ونشر . وقرأ مسروق والنَّخَعى وأبو حيوة «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة أى منقطعا من قولهم: بتّه الله أى قطعه ؛ ومنه البتات .

---

(١) أى يسوقون عيالهم . (٢) بياض بالأصل فى موضع الشاهد من قول الأغلب العجلى الراجز ولم نعثر عليه . (٣) الرهج بالفتح وبالإسكان الغبار . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ما هو منه ، كما يشا كل الزوج الزوجة ، ثم بين من هم فقال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و «السَّابِقُونَ» فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار . قاله السُّدى . والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة . يقال : قعد فلان شأمة ، ويقال : يا فلان شائم بأصحابك . أى خذ بهم شأمة أى ذات الشمال . والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن ، ولما جاء عن الشمال الشؤم . وقال ابن عباس والسُّدى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة — قال — فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح — قال — قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة التى عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار " وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة

أصحاب التأخر ؛ والعرب تقول : آجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك . أي آجعلني من المتقدّمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير في «ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » و « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » كما يقال : زيد ما زيد ! وفي حديث أمّ زَرْع(١) رضي الله عنها : مَالِكٌ وما مَالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : « أَصْحَابُ » رفع بالأبتداء والخبر « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » كأنه قال : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » ماهم ؛ المعنى أيّ شيء هم . وقيل : يجوز أن تكون « ما » تأكيدا والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلوّ المنزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "السابقون الذين إذا أُعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم" ذكره المهدوي . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » . وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد وأوّل الناس رواحا إلى الصلاة . وقال عليّ رضي الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ثم أثنى عليهم فقال : « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . وقيل : إنهم أربعة . منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . قاله ٱبن عباس ؛ حكاه الماوردي . وقال شُمَيْط بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل ٱبتكر للخير في حداثة سنه ثم

(١) حديث أم زرع رواه مسلم في فضائل الصحابة عن عائشة رضي الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة ٱمرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجي مالك وما مالك ! مالك خير من ذلك ... ... الخ . الحديث .

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طوّل الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال . وقيل : هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح . ثم قيل : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثانى توكيد له والخبر ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقال الزجاج : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتداء والثانى خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من صفتهم . وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله فى الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعالى : ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى جماعة من الأمم الماضية . ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال الحسن : ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك . وسموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا . وقيل : لما نزل هذا شق على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت « ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى " رواه أبو هريرة ، ذكره الماوردى وغيره . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر ؛ ولأن ذلك فى جماعتين مختلفتين . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ وقال فى أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: « ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ » ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو

أن تكون أمتى شطر أهل الجنة" ثم تلا قوله تعالى : «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال مجاهد : كلٌّ من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : "الثُّلَّتان جميعا من أمتى" يعنى « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . قال أبو بكر رضى الله عنه : كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من هو فى أوّل أمته ، ومنهم من هو فى آخرها . وهو مثل قوله تعالى : «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ » . وقيل : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أى من أوّل هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع فى الطاعات حتى يلحق درجة الأوّلين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : "خيركم قرنى" ثم سوّى فى أصحاب اليمين بين الأوّلين والآخرين . والثلة من ثللت الشيء أى قطعته ، فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أى السابقون فى الجنة « عَلَى سُرُرٍ » ؛ أى مجالسهم على سرر جمع سرير . «مَوْضُونَةٍ» قال ٱبن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالدّر والياقوت . وعن ٱبن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال فى موضع آخر : «عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمولة (1) بالذهب . وفى التفاسير : «مَوْضُونَةٍ» أى منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد . والوضن النسج المضاعف والنضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أى محكمة فى النسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

ومِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةً * تُسَاقُ مع الحىِّ عِيرًا فَعِيرَا

وقال أيضا :

وبَيْضَاءَ كالنِّهْىِ مَوْضُونَةً * لها قَوْنَسٌ فوق جَيْبِ البَدَنْ

(1) مرمولة منسوجة .

والسرير الموضون الذى سطحه بمنزلة المنسوج؛ ومنه الوَضين بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض ؛ ومنه قوله :

* إليكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِينُهَا (١) *

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قَفَا بعض ، بل تدور بهم الأسِرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ؛ أى يتكئون متقابلين . قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبى : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها آرتفعت .

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ أى غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد . الحسن والكلبى : لا يهرمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وهَـلْ يَنْعَمَنْ إلاّ سَعِيدٌ مُخَـلَّدٌ * قَلِيـلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بأَوْجَالِ

وقال سعيد بن جبير: مُخلّدون مُقرّطون يقال للقُرْط الخلَدَة و لجماعة الحُلِيّ الخِلَدَة . وقيل: مسوّرون ونحوه عن الفراء؛ قال الشاعر :

ومخلَّداتٌ بالُّلجَـيْنِ كأنَّمَـا * أَعْجازُهُنَّ أَقاوِزُ (٢) الْكُثْبَانِ

(١) الضمير يعود على الناقة ؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها .

(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير شبه به أرداف النساء ؛ فالإضافة للبيان .

وقيل : مقرطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : «مُخَلَّدُونَ» منعّمون . وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنـة يطوفون عليهـم كما شاء من غير ولادة . وقال على آبن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسيّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا فى هذا الموضع . والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم بآحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى فى « الزخرف »(١) وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سمى بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ مضى فى «والصافات»(٢) القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو خمر غير أن المراد فى هـذا الموضع الخمـر الجارية من العيون . وقيل : الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولا من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المعن وهو الكثرة . وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَـا ﴾ أى لا تتصدع رءوسهم من شربها ؛ أى إنها لذة بلا أذى بخلاف شراب الدنيا . ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ تقدم فى « والصافات »(٣) أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : «لا يَصَّدَّعُونَ » بمعنى لا يتصدّعون أى لا يتفرقون كقوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ» . وقرأ أهل الكوفة « يُنْزِفُونَ » بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

لَعَمْرِى لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ * لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَـرَا

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٢ فما بعدها .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ فما بعدها .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هو الحطيئة وقد تقدم البيت فى جـ ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال ؛ السُّكر والصُّداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمرَ الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أى يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار . ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر؟ قال: "ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعنى فى الجنة — أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر" قال عمر : إن هذه لناعمةٌ ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتُها أحسنُ منها"(١) قال : حديث حسن . وخرجه الثعلبى من حديث أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة طيرا مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد ولىّ الله فيقول أحدها ياولىّ الله رَعيتُ فى مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التّسنيم فكُلْ منّى فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى فى الجنة حيث شاء " فقال عمر : يا نبىّ الله إنها لناعمة . فقال : " آكلُها أَنْعمُ منها " . وروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة لطيرا فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير "

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر ؛ فمن جر وهو حمزة والكسائى وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على « بِأَكْوَابٍ » وهو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور . قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفا على « جَنَّاتِ » أى هم فى « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفى حور على تقدير حذف المضاف كأنه قال : وفى معاشرة

(١) فى نسخ الأصل : أكلها أنعم منها . وما أثبتناه هو ما فى صحيح الترمذى .

حور . الفراء : الجر على الإتباع فى اللفظ و إن آختلفا فى المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ قال الشاعر :

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً * وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونَا

والعين لا تُزَجَّج وإنما تكحل . وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى * مُتقلِّداً سَيفاً ورُمحا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم فى ذلك لذة . ومن نصب وهو الأشهب العقيلى والنّخعى وعيسى بن عمر الثقفىّ وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوّجون حُورا عينا . والحمل فى النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم — فعلى معنى وعندهم حور عين ؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائى : ومن قال « وحُورٌ عِينٌ » بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك فى فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثُلَّةٌ » و « ثُلَّةٌ » آبتداء وخبره « عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ » وكذلك « وَحُورٌ عِينٌ » وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة . ﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أى مثل أمثال ﴿ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألأ ؛ أى هنّ فى تشاكل أجسادهنّ فى الحسن من جميع جوانبهنّ كما قال الشاعر :

كأنّما خُلِقَتْ فى قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ * فَكُلُّ أَكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ثوابا ونصبه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » يجازون . وقد مضى الكلام فى الحور العين فى « والطُّور »[(1)] وغيرها . وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الحور العين

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . وراجع ج ١٦ ص ١٥٢ .

من الزعفران" وقال خالد بن الوليد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة " فقال له رجل : يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة ؟ قال : نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرُج ولا ينقص ، والله على ما يشاء قدير . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر ، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب ، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حُلّة مثل شقائق النعمان ، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا ، و إذا أدبرت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها ، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر ، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادى هذا ثواب الأولياء « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ قال ابن عباس : باطلا ولا كذبا . واللغو ما يلغى من الكلام ، والتأثيم مصدر أثّمته أى قلت له أثمت . محمد بن كعب : « وَلَا تَأْثِيمًا » أى لا يؤثّم بعضهم بعضا . مجاهد : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا » شتما ولا مأثما . ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ « قِيلًا » منصوب بـ« يَسْمَعُونَ » أو استثناء منقطع أى لكن يقولون قيلا أو يسمعون و « سَلَامًا سلاما » منصوبان بالقول أى إلا أنهم يقولون الخير . أو على المصدر أى إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاما . أو يكون وصفا لقيل ، والسلام الثاني بدل من الأول ، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو . ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم . قال ابن عباس : أى يحيى بعضهم بعضا . وقيل : تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدّم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذى هم فيه . ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ أى فى نبق قد خضد شوكه أى قطع ؛ قاله ابن عباس وغيره . وذكر ابن المبارك ، حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوما ؛ فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما هى " قال : السّدر فإن له شوكا مؤذيا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " أو ليس يقول « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر " . وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (١) وهو وادٍ بالطائف مخصب فأعجبهم سدره ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصّلت يصف الجنة :

إنّ الحدائقَ فى الجنانِ ظليلةٌ * فيها الكواعبُ سِدْرُها مَخْضُودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملا . وهو قريب مما ذكرنا فى الخبر . سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القلال . وقد مضى هذا فى سورة

(١) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف وقيل هى الطائف .

« النجم » عند قوله تعالى : « عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى »(١) وأن ثمرها مثل قلال هجر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطّلح شجر الموز واحده طلحة . قاله أكثر المفسرين علىّ وآبن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك؛ قال بعض الحُداة(٢) وهو الجعدىّ :

بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وقَالَا * غَدًا تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالَا(٣)

فالطّلح كلّ شجر عظيم كثير الشّوك . الزّجاج : يجوز أن يكون فى الجنة وقد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له](٤) نَوْر طيّب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . وقال السدىّ : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » وهو خلاف المصحف . فى رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقيل له : أفلا نحوّلها ؟ فقال : لا ينبغى أن يهاج القرآن ولا يحوّل . فقد آختار هذه القراءة ولم ير إثباتها فى المصحف لمخالفة ما رسْمه مجمع عليه . قاله القشيرى . وأسنده أبو بكر الأنبارىّ قال : حدثنى أبى قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عند علىّ أو قُرِئت عند علىّ — شكّ مجالد — « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال على رضى الله عنه : ما بال الطلح ؟ أما تقرأ « وَطَلْعٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف؟

(١) راجع ص ٩٤ فما بعدها من هذا الجزء .

(٢) فى الأصول « الحداة » بالحاء المهملة وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير الطبرى .

(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم : ثمر السلم والبال والسمر أو ثمر العضاه عامة .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

فقال : لا يهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هـذا أنه رجع إلى ما فى المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذى كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذى نُضد أوله وآخره بالحمل ، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْد هو الرّص والمنضَّد المرصوص ؛ قال النابغة :

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كانَ يَحْبِسُهُ * ورَفَّعَتْهُ إِلى السِّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كله ، كلما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » وذلك بالغداة وهى ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدم بيانه هناك (١) . والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذى لا ينقطع ممدود ؛ وقال لبيد :

غَلَبَ العَزاءُ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ * دَهرٌ طَوِيلٌ دائِمٌ مَمْدودُ

وفى صحيح الترمذى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : " وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » . ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ أى جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ ؛ يقال : سكبه سَكْبًا والسُّكوب انصبابه ؛ يقال : سَكَبَ سُكُوبا وانْسَكَبَ انسكابا ؛ أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا فى الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدنيا ، وهى الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطرادها .

---

(١) راجع حـ ٣ ص ٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ أى فى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشتاء ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى لا يحظر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا يمنع من أرادها بشوك ولا بعد حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » قال : " ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة " قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد . وقال بعض أهل العلم فى تفسير هذا الحديث : الفرش فى الدرجات وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض . وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ولم يتقدم لهن ذكر ، ولكن قوله عز وجل « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » دالّ ؛ لأنها محل النساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار فى حسنهن وكمالهن ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أى خلقناهن خلقا وأبدعناهن إبداعا . والعرب تسمى المرأة فراشا ولباسا وإزارا ؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ثم قيل : على هذا هن الحور العين ؛ أى خلقناهن من غير ولادة . وقيل : المراد نساء بنى آدم أى خلقناهن خلقا جديدا وهو الإعادة ؛ أى أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال . والمعنى أنشأنا العجوز والصبية إنشاء واحدا وأضمرن ولم يتقدم ذكرهن ؛ لأنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : " منهن البكر والثيب " . وقالت أم سلمة رضى الله تعالى عنها : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : " يا أم سلمة هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء " أسنده النحاس عن أنس قال : حدثنا أحمد بن عمرو قال حدثنا عمرو بن علىّ ، قال حدثنا أبو عاصم عن

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رفعه «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ العجائز العُمْش الرُّمص كُنّ في الدنيا عُمْشا رُمصا" . وقال المسيّب بن شريك : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقا جديدا كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا" فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاه ! فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك وجع" . ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب . قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ . وعن ٱبن عباس أيضا : أن العروب الملقة . عكرمة : الغَنِجة . ٱبن زيد : بلغة أهل المدينة . ومنه قول لبيد :

وفي الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحشةٍ * رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهي الشَّكِلة بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أسلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة أيضا وقتادة : العرب المتحببات إلى أزواجهنّ وٱشتقاقه من أعرب إذا بين، فالعروب تبين محبتها لزوجها بشكل وغنج وحسن كلام . وقيل : إنها الحسنة التبعل لتكون ألذ ٱستمتاعا . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عُرُبًا» قال : "كلامهنّ عربيّ" . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «عُرْبًا» بإسكان الراء . وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول . «أَتْرَابًا» على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة . يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبا من النساء وٱنحطت عن الكبر . وقيل : «أَتْرَابًا» أمثالا وأشكالا ؛ قاله مجاهد . السدي : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد . ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قيل : الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أي هم «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» وقد مضى الكلام في معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك :

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعنى من سابق هــذه الأمة « وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها ؛ يدل عليه ماروى عن ابن عباس فى هذه الآية « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " هم جميعا من أمتى " . وقال الواحدىّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم المـاضية ونصف من هــذه الأمة . وهــذا يردّه ما رواه ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ثمـانون منها من هــذه الأمة وأربعون من سائر الأمم " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثُـلَّةٌ » رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصـفة، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلتان ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء . والأوّلون الأمم المـاضية والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعـالى : وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيـمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِـلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُـمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّـومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَـالِـُٔونَ مِنْهَـا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُـمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ثم عظم ذكرهم فى البلاء والعذاب فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ ﴾ والسموم الريح الحارة التى تدخل فى مسام البدن . والمراد هنا حرّ النار ولفحها . ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد آنتهى حره إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذى يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميا حارا فى نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى فى « القتال »(١) « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ أى يفزعون من السّموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاّ من يحموم؛ أى من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن آبن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليحموم فى اللغة الشديد السواد وهو يفعول من الحمّ وهو الشّحم المسودّ بآحتراق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل مافيها أسود . وعن آبن عباس أيضا : النار سوداء . وقال آبن زيد : اليحموم جبل فى جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . ﴿ لَا بَارِدٍ ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم . ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ عذب؛ عن الضحاك . وقال سعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أى من النار يعذّبون بها ؛ كقوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى إنما آستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا فى الدنيا متنعمين بالحرام والمترف المنعّم؛ عن آبن عباس وغيره . وقال السّدىّ : « مُتْرَفِينَ » أى مشركين . ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ أى يقيمون على على الشرك؛ عن الحسن والضحاك وآبن زيد . وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه . الشّعبى : هو اليمين الغَمُوس وهى من الكبائر؛ يقال : حَنِث فى يمينه أى لم يَبَرّها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لابعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » . وفى الخبر :

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

كان يتحنث فى حراء ؛ أى يفعل ما يسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له ؛ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الأَوَّلِينَ ﴾ من آبائكم ﴿ وَالآخِرِينَ ﴾ منكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ومعنى الكلام القسم ودخول اللام فى قوله تعالى : « لَمَجْمُوعُونَ » هو دليل القسم فى المعنى ؛ أى إنكم لمجموعون قسما حقا خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر كريه الطعم وهى التى ذكرت فى سورة « والصافات »(١) . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أى من الشجرة ؛ لأن المقصود من الشجر شجرة . ويجوز أن تكون « من » الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا كأنه قال : « لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » طعاما . وقوله : « مِنْ زَقُّومٍ » صفة لشجر ، والصفة إذا قدرت الجار زائدا نصبت على المعنى ، أوجررت على اللفظ ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا فى موضع جر .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أى على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر ؛ لأنه يذكر ويؤنث . ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ وهو الماء المغلى الذى قد اشتد غليانه وهو صديد أهل النار . أى يورثهم حر ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميا مغلًّى .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة « شُرْبَ » بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان ؛ تقول العرب : شربت شُرْبا وشَرْبا وشِرْبا وشُرُبا بضمتين . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها والفتح هو المصدر الصحيح ؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة ؛ فتقول : فَعْلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم . وقيل : إن المفتوح والاسم مصدران فالشَّرْب كالأكل والشُّرْب كالذُّكْر . والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون . والهيم الإبل العطاش التى

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية

لا تَرْوَى لداء يصيبها . عن ابن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّدىّ وغيرهم . وقال عِكرمة أيضا : هي الإبل المِراض . الضحاك : الهيم الإبل يصيبها داء تَعطَش منه عطشا شديدا واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء . ويقال لذلك الداء الهُيَام ؛ قال قيس بن الملوّح :

يقال به داء الهُيَامِ أصابه * وقد علِمت نفسي مكانَ شِفائها

وقوم هِيم أيضا أي عِطاش وقد هاموا هُيَاما . ومن العرب من يقول في الإبل هائم وهائمة والجمع هِيم ؛ قال لَبِيد :

أَجَزْتُ إلى معارِفها بِشُعْثٍ * وأَطْلَاحٍ مِن العِيدِيِّ هِيمِ (١)

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل . وروى أيضا عن ابن عباس : فيشربون شرب الرمال التي لا تَرْوَى بالماء . المهدوي : ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء . وفي الصحاح : والهُيَام بالضم أشد العطش والهُيَام كالجنون من العشق . والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى . يقال : ناقة هَيْماء . والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها . والهَيَام بالفتح الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد للينه والجمع هِيم (٢) مثل قَذَال وقُذُل . والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي رزقهم الذي يعدّ لهم ، كالنزل الذي يعدّ للأضياف تكرمة لهم ، وفيه تهكم ؛ كما في قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » وكقول أبي السّعد الضَّبيّ :

وكنا إذا الجَبَّارُ بالجيش ضَافَنَا * جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزُلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو « هَذَا نُزْلُهُمْ » بإسكان الزاي ؛ وقد مضى في آخر « آل عمران » (٣) القول فيه . « يَوْمَ الدِّينِ » يوم الجزاء يعني في جهنم .

---

(١) شعث : رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر . وأطلاح : إبل مهازيل والواحد طليح . والعيدى إبل منسوبة إلى فحل . (٢) أي خففت وكسرت الهاء لأجل الياء . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلا تصدّقون بالبعث ؟ لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبّونه من المنىّ فى أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقدّرون المصوّرون . وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث . وقرأ أبو السّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلى : « تَمْنُونَ » بفتح التاء وهما لغتان أمنى ومنى وأمذى ومذى، يُمنى ويَمنى ويُمذى ويَمذى . الماوردى : ويحتمل أن يختلف معناهما عندى فيكون أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام . وفى تسمية المنىّ منيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته . الثانى لتقديره ومنه المنا الذى يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنىّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ احتجاج أيضا أى الذى يقدر على الإماتة يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحميد وابن مُحَيْصِن وابن كثير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد ، قال الضحاك : أى سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ؛ والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » معناه بمغلوبين . وقال الطبرىّ : المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم آخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين

فى آجالكم ؛ أى لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم . ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجمّل المؤمنُ ببياض وجهه ، ويُقبّح الكافرُ بسواد وجهه . سعيد بن جبير : قوله تعالى « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون ببرهُوت كأنها الخطاطيف ، وبَرهُوت واد فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أى إذ خلقتم من نُطْفة ثم من علَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئا ، عن مجاهد وغيره . قَتَادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار . وقراءة العامة « النَّشْأَة » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وآبن كثير وأبو عمرو : « النَّشَاءَة » بالمدّ ، وقد مضى فى « العنكبوت »[1] بيانه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أى أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويجرى على آختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

وينبت على اختياره لا على اختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولن أحدكم زرعتُ وليقل حرثتُ فإن الزارع هو الله" قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى « أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » . والمستحب لكل من يلق البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة « أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ » الآية ثم يقول : بل الله الزارع والمنبت والمبلغ ، اللهم صل على محمد ، وارزقنا ثمره ، وجنّبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يارب العالمين . ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات ، الدود والجراد وغير ذلك . سمعناه من ثقة وجُرِّب فوجد كذلك . ومعنى « أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أي تجعلونه [زرعا](1) . وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حراث ؛ أي يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعا يعجب الزراع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوزا .

قلت : فهو نهي إرشاد لا نهي حظر وإيجاب ؛ ومنه قوله عليه السلام : "لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي"(2) وقد مضى في « يوسف » القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت ، بل يقل : أعانني الله فحرثت ، وأعطاني بفضله ما أصبت . قال الماوردي : وتتضمن هذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثاني — البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره ، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر ، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر ؛ وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة . ثم قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أي متكسرا يعني الزرع . والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضا على أمرين : أحدهما — ماأولاهم به من النعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاما ليشكروه . الثاني — ليعتبروا بذلك في أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

---

(1) زيادة لازمة   (2) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

الزرع حطاما إذا شاء ، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا . ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أى تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما . وفى الصحاح : وتفكه أى تعجب ويقال تندّم ، قال الله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تندّمون وتفكهت بالشيء تمتعت به . وقال يمان : تندمون على نفقاتكم ؛ دليله : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» . وقال عِكْرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التى أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم فى زرعكم . ٱبن كيسان : تحزنون ؛ والمعنى متقارب . وفيه لغتان : تَفَكَّهون وتَفَكَّنُون : قال الفراء : والنون لغة عُكْل . وفى الصحاح : التفكن التندّم على مافات . وقيل : التفكه التكلم فيما لا يعنيك ، ومنه قيل للمزاح فُكَاهة بالضم ؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مزّاحا . وقراءة العامة « فَظَلْتُمْ » بفتح الظاء . وقرأ عبد الله « فَظِلْتُمْ » بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبى بكر . فمن فتح فعلى الأصل والأصل ظَلِلْتُم حذف اللام الأولى تخفيفا ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها . ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضّل « أَئِنَّا » بهمزتين على الاستفهام ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيْش . الباقون بهمزة واحدة على الخبر ؛ أى يقولون « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » أى معذَّبون ؛ عن ٱبن عباس وقَتَادة قالا والغرام العذاب ؛ ومنه قول ٱبن المحلِّم :

وثقت بأن الحفظ منّى سجيـة * وأن فؤادى مُتْبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب :

سَـلَا عن تذكُّره تُكْتَمَا (١) * وكان رَهيناً بها مُغْرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم . وقال مجاهد أيضا : لملقون شرا . وقال مقاتل بن حيان : مهلكون . النحاس : « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مأخوذ من الغرام وهو الهلاك ؛ كما قال (٢) :

يومُ النِّسَـارِ ويومُ الجِفَـا * رِكَانَا عَـذَاباً وكانَا غَرَامَا

(١) تكتم : اسم من يشبب بها . (٢) قائله بشر بن أبى خازم . النسار موضع وقيل هو ماء لبنى عامر . والجفار موضع وقيل هو ماء لبنى تميم . و يوم النسار و يوم الجفار يومان من أيام العرب مشهوران .

الضحاك وابن كيسان : هــو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غرِمنا الحبّ الذى بذرناه . وقال مُرَّة الهَمْدانى : محاسبون . ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى حرمنا ما طلبنا من الرّيع . والمحروم الممنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو المحارف فى قول قتادة . وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأرض الأنصار فقال : " مايمنعكم من الحرث " قالوا : الجدوبة ؛ فقال : " لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح و إن شئت زرعت بالبذر " ثم تلا « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعا للطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدما فى الآية قبلُ ، ألا ترى أنك تسقى ضيفك بعد أن تطعمه . الزمخشرى : ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سُقيتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً ∗ سَقَوْا أضيافَهمْ شَبِماً زُلالا

وسُقِى بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة . ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ أى السّحاب الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ مافى نِصَابِنا ∗ كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

وهذا قول آبن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السّحاب . وعن آبن عباس أيضا والثوريّ : المُزْن السّماء والسحاب . وفى الصّحاح : أبو زيد، المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزَن، والمُزْنة المَطْرة ؛ قال :

ألم تَـرَ أنّ الله أنْزَلَ مُزْنةً * وعُفْرُ الظِّباءِ فى الكِنَاسِ تَقَمَّعُ (١)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ أى فإذا عرفتم بأنى أنزلته فلم لا تشكرونى بإخلاص العبادة لى ؟ ولم تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى ملحا شديد الملوحة ؛ قاله آبن عباس . الحسن : مرًّا قُعاعًا (٢) لا تنتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى فهلّا تشكرون الذى صنع ذلك بكم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ يعنى التى تكون منها الزِّناد وهى المَرْخُ والعَفَار . ومنه قولهم : فى كلّ شجرٍ نارٌ وآستمجدَ المَرْخُ والعَفَارْ ؛ أى آستكثرا منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما . ويقال : لأنهما يُسرعان الوَرْىَ . يقال : أوريت النار إذا قدحتها . ووَرَى الزَّندُ يَرِى إذا آنقدح منه النار . وفيه لغة أخرى : ووَرِى الزَّند يَرِى بالكسر فيهما . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى المخترعون الخالقون ؛ أى فإذا عرفتم قدرتى فآشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعنى نار الدنيا موعظة للنار الكبرى ؛ قاله قتادة . ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم " فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية ؛ قال : "فإنها فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءا كلّهنّ مثل حَرِّها" . ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ؛ سموا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر . الفراء : إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر : وتقمع تحرك رءوسها لتطرد القمعة وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب .

(٢) فى نسخة : زعاقا ومعناهما واحد، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة .

للسافرين مُقْوين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمـدّ والقصر ، ومنزل قَوَاء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضا أي خَلَت من سكانها ؛ قال النابغة :

يادارَ مَيَّـةَ بالعَلْـــياءِ فالسَّـنَدِ * أَقْوَتْ وطالَ عليها سـالِفُ الأمدِ

وقال عَنْتَرة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادمَ عهدُهُ * أَقْوَى وأَقْفَـرَ بعدَ أمِّ الهَيْـثَمِ

ويقال : أَقْوَى أي قَوِي وقَوِي أصحابه ، وأَقوى إذا سافر أي نزل القَوَاء والقِيّ . وقال مجاهد : للقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها . وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم . يقال : أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئا ، وبات فلان القَوَاء وبات القفرَ إذا بات جائعا على غير طُعْم قال الشاعر(١) :

وإنّي لأختارُ القَوَى طَاوِيَ الحَشَى * مُحَافَظَـةً من أَنْ يقالَ لَئِـيمُ

وقال الربيع والسدي : المقوين المنزلين لازناد معهم يعني نارا يوقدون فيختبزون بها ؟ ورواه العوفي عن ابن عباس . وقال قطرب : المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغني ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . المهدوي : والآية تصلح للجميع لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير . وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأول . القشيري : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ، لأن أهل البادية لا بدّ لهم من النار يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع ، وفي كثير من حوائجهم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي فنزه الله عما أضافه إليـه المشركون من الأنداد والعجز عن البعث .

(١) قائله : حاتم طيّ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة فى قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم، بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هى نفى والمعنى ليس الأمر كما تقولون، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفى اليمين بل يريد به نفى كلام تقدّم . أى ليس الأمر كما ذكرت بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى ألَا للتنبيه كما قال(١) :

* أَلَا عِمْ صَبَاحاً أيها الطَّلَلُ البَالِى *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الآستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذى يراد به الآستقبال وهو شاذ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها فى قول قتادة وغيره . عطاء بن أبى رباح : منازلها . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا . الماوردى : ويكون قوله تعالى « فَلَا أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقته من نفى القسم . القشيرى : هو قسم ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

(١) قائله آمرؤ القيس ؛ وتمامه :

* وهل يعمن من كان فى العصر الخالى *

قلت : يدل على هـذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال ابن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه الماوردى عن ابن عباس والسدى . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل ابن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَوْقِعِ » على التوحيد وهى قراءة عبد الله ابن مسعود والنَّخَعى والأعمش وابن محيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقون على الجمع ؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدّى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن أى إن القرآن لقسم عظيم ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترًى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لما فيه من كريم الأخلاق ومعالى الأمور . وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ويُعظِّم قارئه .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعالى . وقيل : مكنون محفوظ عن الباطل . والكتاب هنا كتاب فى السماء ؛ قاله ابن عباس . وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السدى : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ اختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف فى « الْمُطَهَّرُونَ » من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وابن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون . الكلبى : هم السَّفرة الكرام البررة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى « عبس وتولى » : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ » يريد أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة « عبس » . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكل بذلك؛ حكاه القشيرى . ابن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل؛ وهو اختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبى إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحرث بن عبد كُلَال ونُعَيم بن عبد كُلَال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه ألا يمس القرآن إلا طاهر . وقال ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر " . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

إلا المُطَهَّرونَ » فقام وٱغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »(1) . وعلى هذا المعنى قال قَتَادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا المُطَهَّرُونَ » إلا الموحِّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبيدة . قال عِكْرمة : كان ٱبن عباس ينهى أن يُمَكَّن أحدٌ من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمَه ونفعَه وبركتَه إلا المطهَّرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . ٱبن العربي : وهو ٱختيار البخاريّ ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا" . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهَّرون شرعا، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا ٱختيار القاضي أبي بكر بن العربي . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » . المهدويّ : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة ــ وٱختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب عليّ وٱبن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ٱبن زيد وعطاء والزهري والنَّخَعيّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي . وٱختلفت الرواية عن أبي حنيفة؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدث ، وقد روى هذا عن جماعة من السّلف منهم ٱبن عباس والشّعبي وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر . ٱبن العربي : وهذا إن سلّمه مما يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو

(1) راجع جـ ١١ ص ١٦٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ٱبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعِلاقة ولا على وِسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حمْله بعِلاقة أو مسّه بحائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسّه للسلم والكافر طاهرا أو محدثا إلا أن داود قال : لا يجوز للشرك حمله . وٱحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . وفى مسّ الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع ٱعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلّمه حال الصغر؛ ولأن الصبيّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثا .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل؛ كقولهم : ضَرْب الأميرِ ونَسْج اليمن . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذّبون ؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقَتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » . وقال المؤرِّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يُلين جانبه ليُخْفِى كفره ،

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللّين وأن يُسِرّ خلاف ما يظهر ؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ مِن ا لإِدهان والفَهَّــةِ والهَاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْت . وقال الضحاك : «مدهنون» معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ابن كيسان : المدهن الذى لا يعقل ما حقّ الله عليه ويدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم فى قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان ؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضى الزيادة فيه فيكون الشكر رزقا على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفرون ويُصفِّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أو صبرٍ إن كان مكروها تعبدا له وتذللا . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء وهو قول العرب مُطرنا بنَوْء كذا . رواه علىّ بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكرٌ ومنهم كافرٌ قالوا

(١) الفهة العى . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف .

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نوءُ كذا وكذا" قال فنزلت هذه الآية : « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » حتى بلغ « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بنَوْء كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطروا ؛ فمرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقينا بنَوْء كذا ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سقينا بنَوْء كذا ؛ كقولك : جعلتَ إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، وجعلتَ إنعامى لديك أن اتخذتنى عدوًّا . وفى الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ أنه قال : صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحُدَيْبية على إِثْر(١) سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقْبَل على الناس وقال : "أتدرون ماذا قال ربكم" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى " . قال الشافعى رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطرنا بنَوْء كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطرنا وقت كذا كما تقول مُطرنا شهر كذا ، ومن قال ، مُطرنا بنَوْء كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتُب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر " فمعناه عندى على وجهين ؛ أما أحدهما فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه وقتله [إن أبى](٢) لنبذه الإسلام وردّه القرآن ؛ والوجه الآخر أن

(١) فى إثر سماء : أى بعد مطر . وفى « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء ، وفتحهما .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النَّوْء يُنزل الله به الماءَ ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق في علمه ؛ وهذا وإن كان وجها مباحا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلا بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنَوْء كذا ، ومرة بنَوْء كذا ، وكثيرا ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطر : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يتلو : «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا» قال أبو عمر : وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مُطرنا بفضل الله ورحمته". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسقى به : ياعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نَوْء الثريا ؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ، فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكان عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّرَيا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا فى بعض أسفاره يقول : مطرنا ببعض عَثَانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبتَ بل هو سُقْيا الله عز وجل" قال سفيان : عَثَانين الأسد الذّراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبون » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطرنا بنَوْء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنِّياحة والأَنْواء" ولفظ مسلم فى هذا " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والآستسقاء بالنجوم والنياحة " .

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلْقوم . ولم يتقدم لها ذكر ، لأن المعنى معروف ، قال حاتم :

أَمَاوِىَّ ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

وفى حديث : " إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق و يجمعون الروح شيئا فشيئا حتى ينتهى بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها ملك الموت " . ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شىء . وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو رد عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحُلْقوم . وقيل : المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه . وهذا رد لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع ؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه « أقرب إليه منكم » ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »[1] أى مجزيّون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دنته ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ[2] أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى * تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله واستعبده ؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »[3] القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و « تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) و يروى : سوست ؛ يخاطب أمه .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٣ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أجيبا بجواب واحد . قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير مجازها : فلولا وهلّا إن كنتم غير مدينين ترجعونها ؛ تردون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم فقال : «فَأَمَّا إِنْ كَانَ» هذا المتوفى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون. ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوح الرحمة . الضحاك : الرَّوح الاستراحة . القتبي : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرَّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه ، وجنة نعيم هو ألا يحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدري ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « فرُوح » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

فى الجنة وهذا هو الرحمة . « وَرَيْحَانٌ » قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير؛ يقال خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال النمِر بن تَوْلَب :

سَلَامُ الإلهِ ورَيْحانُه * ورحمتُــه وسَماءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم . قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خيثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث . أبو الجوزاء: هذا عند قبض روحه يتلقى بضَبَائر الرَّيْحان . أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين (١) من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما وأصل ريحان وآشتقاقه تقدم فى أول سورة « الرحمن » (٢) فتأمله . وقد سرد الثعلبى فى الرَّوْح والرَّيْحان أقوالا كثيرة سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى « إن كان » هذا المتوفى « من أصحاب اليمين » ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الآغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلّم . وقيل : المعنى إنهم يسلّمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين فحذف إنك . وقيل : إنه يُحيَّا بالسلام إكراما ؛ فعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقاويل : أحدها عند قبض روحه فى الدنيا يسلّم عليه ملَك الموت ؛ قاله الضحاك . وقال آبن مسعود : إذا جاء ملَك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام . وقد مضى هذا فى سورة « النحل » (٣) عند قوله تعالى : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » الثانى عند مساءلته فى القبر يسلّم عليه منكر ونكير . الثالث عند بعثه فى القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

---

(١) فى رواية أخرى « بغصن » . (٢) راجع ص ١٥٧ فا بعدها من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٠١ فا بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراما بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إنْ » عند المبرّد محذوف والتقدير مهما يكن من شيء « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليـه ، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت؛ لدلالة ما تقدّم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أَمَّا » و « إِنْ » ومعنى ذلك أن الفاء جواب « أمّا » وقد سدّت مسدّ جواب « إنْ » على التقدير المتقدم ، والفاء جواب لها على هذا الحد . ومعنى « أمَّا » عند الزجاج الخروج من شيء إلى شيء؛ أي دع ما كنا فيه وخذ في غيره .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ عن الهدى وطريق الحق ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي فلهم رزق من حميم ، كما قال : « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ » وكما قال : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ » ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال في النار . وقيل : إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها؛ يقال: أصلاه النار وصلاه؛ أي جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول؛ كما يقال: لفلان إعطاء مال؛ أي يُعطَى المـال . وقرئ « وَتَصْلِيَةِ » بكسر التاء أي ونزل من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجيم وهو بعيد . ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه . وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختـلاف لفظهما . قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين . وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين . وقيل : هو توكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتا للحق فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » وقال قتادة في هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي نزّه الله تعـالى عن السوء . والباء زائدة أي سبح اسم ربك والاسم المسمى . وقيـل :

« فَسَبِّحْ » أى فصلّ بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذكر آسم ربك العظيم وسبحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » قال النبي صلى الله عليه وسلم "آجعلوها فى ركوعكم" ولما نزلت « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آجعلوها فى سجودكم" خرجه أبو داود . والله أعلم .

سورة الحديد

مدنية فى قول الجميع وهى تسع وعشرون آية

عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : "إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية" يعنى بالمسبّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصف » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى مجد الله ونزهه عن السوء . وقال آبن عباس : صلى لله « مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ » ممن خلق من الملائكة « وَٱلْأَرْضِ » من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلِمَ قال : « وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وإنما هو تسبيح مقال . وآستدل بقوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ » فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ !

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه فى «سبحان»(١) عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى انفرد بذلك . والمُلْك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر . وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يميت الأحياء فى الدنيا ويحيي الأموات للبعث . وقيل : يحيي النطف وهى موات ويميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيي ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى « لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » محييا ومميتا على الحال من المجرور فى « له » والجار عاملا فيها . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى الله لا يعجزه شيء .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ اختلف فى معانى هذه الأسماء وقد بيناها فى الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحا يغنى عن قول كل قائل ؛ فقال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر " عنى بالظاهر الغالب ، وبالباطن العالم ؛ والله أعلم . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »[1] مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر وملَك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعنى بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شىء منها . وقد جمع فى هذه الآية بين « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » وبين « وَهُوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالى : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان فى بطن الحوت . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا التكرير للتأكيد أى هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى أمور الخلائق فى الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائى وخلف « تَرجِع » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدّم فى « آل عمران »[2] . ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى صدقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ تصدّقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقّ قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعملوا الصالحات ﴿ مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ استفهام يراد به التوبيخ . أى أىّ عذر لكم فى ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟! ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ بين بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمى الفاعل ، أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأوّل الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إذ كنتم . وقيل : أى

إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوما من الأيام فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فارتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد القرآن . وقيل : المعجزات ؛ أى لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآن أكبرها وأعظمها . ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ وهو الإيمان . ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ج لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ج أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا ج وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ج وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمَالَكُمْ أَنْ لَا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ أى أىّ شيء يمنعكم من الإنفاق فى سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة إلى الله تعالى . فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشّعبىّ والزّهرىّ : فتح الحُدَيْبِية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك . وفي الكلام حذف؛ أي «لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل . فحذف لدلالة الكلام عليه . وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النَّصَب . والله أعلم .

الثالثة — روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى : «لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أول من أسلم . وعن ابن مسعود : أول من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر؛ ولأنه أول من أنفق على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال : يا نبيّ الله ! مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلال فقال : " قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح " قال : فإن الله يقول لك اقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط " فقال أبو بكر : أأسخط على ربي ؟ إني عن ربي لراضٍ، إني عن ربي لراضٍ، إني عن ربي لراضٍ، قال : " فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راضٍ " فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام : والذي بعثك يا محمد بالحق، لقد تخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تخلّل صاحبك هذا بالعباءة ؛ ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، وأقروا له بالتقدم والسبق . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سبق النبي صلى الله عليه وسلم وصلَّى أبو بكر وثلَّث عمرُ، فلا أوتى برجل فضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة . فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

الرابعــة — التقدّم والتأخر قد يكون فى أحكام الدنيا، فأما فى أحكام الدين فقد قالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبــة الصلاة . وقد قال صلى الله عليــه وسلم فى مرضــه : " مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس " الحديث . وقال : " يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمكما أكبركما " من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدم . وفهم منه البخارى وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال صلى الله عليــه وسلم : " الولاء لِلكُبْر " ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقًا . وراعاه الشافعى وأبو حنيفة وهــو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ فى خيِّرين قُدِّم العــلم، وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدين، فمن قُدِّم فى الدين قُدِّم فى الدنيا . وفى الآثار : " ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا و يرحم صغيرنا و يعــرف لعالمنا حقّه" . ومن الحديث الثابت فى الأفراد: "ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيّض الله له عند سنّه من يكرمه " وأنشدوا (١) :

يا عائبــاً للشيوخ من أَشَر * دَاخَلَهُ فى الصِّبا ومن بَذَخ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرَهُمْ * جدَّكَ واذكر أباك يا ابن أخ
واعلم بأن الشبابَ منسلِخٌ * عنــك وما وِزْرُه بمنسلِخ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ * يوماً به سِــنّه إلى الشَّيَــخ

الخامسة — قوله تعالى : « وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » أى المتقدمون المتناهون السـابقون والمتأخرون اللاحقون وعدهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ ابن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع وكذلك هــو بالرفع فى مصاحف أهــل الشام . الباقون « وَكُلًّا » بالنصب عــلى ما فى مصاحفهم ؛ فمن نصب فعــلى إيقاع الفعل عليــه أى وعد الله كلًّا الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وعده .

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقسطى كما فى « أحكام القرآن » لابن العربى .

قوله تعالى : مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله . وقد مضى فى « البقرة »[١] القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض؛ كما قال[٢] :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ * إِنَّمَا يَجْزِى الفتى ليس الجَمَلْ

وسمى قرضا ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل . أى من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبى : « قرضا » أى صدقة « حسنا » أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . رواه سفيان عن أبى حيان[٣] . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صدق وقرض سوء . القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغى به وجه الله دون الرياء والسمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردىء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ »

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ فما بعدها .

(٢) قائله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافئ عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبى حيان والظاهر أن صوابه : ابن حيان .

وأن يتصدق فى حال يأمل الحياة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراق قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفى صدقته ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » وألا يمن ؛ لقوله تعالى : « لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وأن يستحقر كثير ما يعطى ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحبّ أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وأن يكون كثيرا ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها" . « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَعِّفُهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعِفُهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء . ورفع الباقون عطفا على « يُقْرِضُ » . وبالنصب جوابا على الاستفهام . وقد مضى فى « البقرة »(1) القول فى هذا مستوفى . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل فى « يوم » « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » وفى الكلام حذف أى « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » فى « يوم ترى » فيه ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ ﴾ أى يمضى على الصراط فى قول الحسن . وهو الضياء الذى يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى قدامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى فى أى فى أيمانهم أو بمعنى عن أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : «نُورُهُمْ» هداهم «وبِأَيْمَانِهِم» كتبهم ؛ واختاره الطبرى . أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى فى . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدى وأبو حيوة «وبِإِيمَانِهِم» بكسر الألف أراد الإيمان الذى هو ضد الكفر . وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

يسعى كائنا « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائنا « بِإِيمَانِهِمْ » وليس قوله « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » متعلقا بنفس « يَسْعَى » . وقيل : أراد بالنور القرآن . وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة و يوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه " قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم . وقال مقاتل : ليكون دليلا لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقدير يقال لهم «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جناتٍ ولا بد من تقدير حذف المضاف؛ لأن البشرى حدث والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلا بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى، كأنه قال : تبشرون خالدين . ويجوز أن يكون الظرف الذى هو « الْيَوْمَ » خبرا عن « بُشْرَاكُمْ » و « جَنَّاتٌ » بدلا من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقدم . وأجاز الفراء نصب « جنَّات » على الحال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبرا عن «بُشْرَاكُمْ» وهو بعيد؛ إذ ليس فى « جنَّات » معنى الفعل . وأجاز أن يكون «بشراكم» نصبا على معنى يبشرونهم بشرى وينصب « جنات » بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول .

قوله تعالى : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل في « يوم » «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر الانتظار أى انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أى أمهلونا وأخرونا ؛ أنظرته أخرته واستنظرته أى استمهلته . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرنى انتظرنى ؛ وأنشد لعمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا * وأنظرنا نخبرك اليقينا

أى انتظرنا . ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أى نستضىء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال الماوردى : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطى الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . وقيل : إنما يعطون النور؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضىء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور، فبينما هم يمشون

إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » يقوله المـؤمنون ؛ خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقى المنافقون فى الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للؤمنين : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ أى قالت لهم الملائكة « ٱرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذى أخذنا منـه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورا فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا فى طلب النور ﴿ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ﴾ . وقيل : أى هـلا طلبتم النور من الدنيـا بأن تؤمنوا . « بِسُورٍ » أى سُـورٌ ؛ والباء صلة . قاله الكسائى . والسور حاجز بين الجنـة والنار . وروى أن ذلك السور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادى جهنم . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعنى ما يلى منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعنى ما يلى المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذى ببيت المقـدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . ونحوه عن ابن عباس . وقال زياد بن أبى سوادة : قام عبادة ابن الصامت على سور بيت المقدس الشرقى فبكى، وقال : من هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنـة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى الجنـة « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَـذَابُ » يعنى جهنم . وقال مجاهـد : إنه حجاب كما فى « الأعراف » وقد مضى القول فيه [(1)] . وقد قيل : إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فى الدنيا يعنى نصلى مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى يقول المؤمنون « بَلَى » قد كنتم معنا فى الظاهر ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى ٱستعملتموها فى الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصى؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات

(1) راجع جـ ٧ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

رواه أبو نمير الهمْدانى . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أى «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبي صلى الله عليه وسلم الموت وبالمؤمنين الدوائر. وقيل : « تَرَبَّصْتُمْ » بالتوبة « وَٱرْتَبْتُمْ » أى شككتم فى التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ أى الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة : الأمانى هنا خدع الشيطان. وقيل : الدنيا، قاله عبد الله بن عباس (١) . وقال أبو سنان : هو قولهم سيغفر لنا. وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غِرة . ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعنى المـوت . وقيل : نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : إلقاؤهم فى النار . ﴿ وَغَرَّكُم ﴾ أى خدعكم ﴿ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أى الشيطان . قاله عكرمة ؛ وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقى بالمـاضى معتبرا، وللآخر بالأول مزدجرا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع ومن ذكر المنيـة نسى الأمنيّة ، ومن أطال الأمـل نسى العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء « ٱلْغَرُورُ » على لفظ المبـالغة للكثرة . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَـاك بن حرب «ٱلْغُرُورُ» بضم الغين يعنى الأباطيل وهو مصدر . وعن ٱبن عباس : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خط لنـا خطوطا ، وخطّ منها خطّا ناحية فقال : " أتدرون ما هذا هذا مثل ٱبن آدم ومثل التمنى وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " . وعن ٱبن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّا مربعا ، وخطّ فى وسطه خطّا وجعله خارجا منه ، وخط عن يمينـه ويساره خطوطا صغارا فقال : " هذا ٱبن آدم وهذا أجله محيـط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا " .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أياسهم من النجاة . وقراءة العامة « يؤخذ » باليـاء ؛ لأن التأنيث غير حقيقى ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل . وقرأ ٱبن عامر ويعقوب «تُؤْخَذُ» بالتاء وٱختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية. والأول

(١) فى بعض الأصول : عبد الله بن عياش .

اختيار أبي عبيد؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي أولى بكم والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازما للشيء . وقيل : أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظا على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي ساءت مرجعا ومصيرا .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقرب ويحين، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلَا * وأن يُحْدِثَ الشَّيْبُ المبينُ لنا عَقْلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يَأْنِي . ويقال : آن لك ـ بالمد ـ أن تفعل كذا يَئِين أَيْنا أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه . وأنشد ابن السكيت :

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي * وأُقْصِرَ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين . وقرأ الحسن « أَلَمَّا يَأْنِ » وأصلها « ألم » زيدت « ما » فهي نفي لقول القائل : قد كان كذا، و « لم » نفي لقوله : كان كذا . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

روى أن المزاح والضحك كثر فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يستبطئكم بالخشوع " فقالوا عند ذلك : خشعنا . وقال آبن عباس : إن الله آستبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقيل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » الآية ؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا فى العلانية باللسان. قال السدي وغيره : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بالظاهر وأسروا الكفر « أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » . وقيل : نزلت فى المؤمنين . قال سعد : قيل يارسول الله لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا بعد مدة لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول : ما أحدثنا ؟ قال الحسن : آستبطأهم وهم أحب خلقه إليه . وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ » أى ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمى قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا ﴾ أى وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على « أَنْ تَخْشَعَ » . وقيل . مجزوم على النهى ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب « وَلَا تَكُونُوا » بالتاء ، وهى قراءة عيسى وآبن إسحـق . يقول : لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى، أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم . قال آبن مسعود: إن بنى إسرائيل

لمـا طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فاخترعوا كتابا من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في [قرن وعلقه في][1] عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهـذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعني المعلق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة؛ وخير مللهم أصحاب ذي القرن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان[2]: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطئوا بعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانيـة أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعـالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعث النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسّقهم الله. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الرّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعـالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيـد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب النـاس كأنكم أرباب وانظروا فيها — أو قال في ذنوبكم — كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. وهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله

(١) الزيادة من تفسير الطبري. (٢) في بعض التفاسير مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعالى . ذكر أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القلانسي قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق ، قال حدثنا على بن يعقوب الزيات ، قال حدثنا إبراهيم بن هشام ، قال حدثنا زكريا ابن أبى أبان ، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدثنا الحسن بن داهر ، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخوانى فى بستان لنا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا ، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور ، فقمت فى بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر[1] ، وأراد سنان يغنى ، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة ، والعود بيدى لا يجيبنى إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود ، وصرفت من كان عندى ، فكان هذا أول زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد ابن المبارك أن يضرب به فى العود :

أَلَمْ يَأْنِ لِى منك أن تَرْحَمَا * وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّما
وتَرْثِى لصَبٍّ بكم مُغْرَمٍ * أقام على هجرِكم مأتَما
يَبِيتُ إذا جَنَّهُ لَيْلُهُ * يُراعِى الكواكِبَ والأَنْجُمَا
وماذا على الظَّبْيِ لَوْ أَنَّهُ * أَحَلَّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلا ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قد آن ، فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أواه ! أرانى بالليل أسعى فى معاصى الله وقوم من المسلمين يخافوننى ! اللهم إنى قد تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

(١) هكذا فى الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ آعلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الْأَرْضَ » الجدبة « بعد موتها » بالمطر . وقال صالح المرى : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر آبن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، ويميز بين الخاشع قلبه وبين القاسى قلبه . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله وأنه لمحيي الموتى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى المصدّقين بما أنزل الله تعالى . الباقون بالتشديد أى المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء فى الصاد . وكذلك فى مصحف أبىّ وهو حثٌّ على الصدقات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبا صادقا . وإنما عطف بالفعل على الأسم ؛ لأن ذلك الأسم فى تقدير الفعل ؛ أى إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش «يُضَاعِفُهُ» بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ آبن كثير وآبن عامر ويعقوب « يُضَعَّفُ » بفتح العين وتشديدها . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ اختلف فى « الشُّهَدَاء » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد آبن أسلم : إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل ؛ وروى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله « الصِّدِّيقُون » وهذا قول آبن مسعود فى تأويل الآية . قال القشيرى قال الله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية فى جملة من صدّق بالرسل أعنى « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ » و يكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صدّيق فوق صدّيق فى الدرجات ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذى فى أفق السماء و إن أبا بكر وعمر منهم وأَنْعَمَا "(١) وروى عن آبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : « الصدّيقون » حسن . والمعنى « وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أى لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان . أحدهما — أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبي ؛ ودليله قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » . الثانى — أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ؛ وفيما يشهدون به قولان : أحدهما — أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثانى — يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبي . وقال مقاتل قولا ثالثا : إنهم القتلى فى سبيل الله تعالى . ونحوه عن آبن عباس أيضا قال : أراد شهداء المؤمنين . والواو واو الآبتداء . والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

---

(١) " أنعما " أى زادا وفضلا . وقيل معناه صارا إلى النعيم ودخلا فيه .

وقد اختلف فى تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر ؛ أبو بكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة . وتاسعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نيته صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبى بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل ، وخوفا من لزوم الموت فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : اعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب ولهو أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من اسمه ؛ قال مجاهد : كل لعب لهو . وقد مضى هذا المعنى

فى « الأنعام »[1] وقيـل : اللعب ما رغّب فى الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة ؛ أى شغل عنها . وقيـل : اللعب الاقتناء واللهـو النساء . ﴿ وَزِينَـةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة ، وكذلك من تزين فى غير طاعة الله . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَـكُمْ ﴾ أى يفخر بعضكم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل : بالأنساب على عادة العـرب فى المفاخرة بالآباء . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أوحى إلىّ أن تواضـعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" وصح عنه عليـه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية الفخر فى الأحساب " الحديث . وقد تقدم جميع هـذا . ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهليـة أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنـين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لعب » كلعب الصبيان « ولهو » كلهو الفتيان « وزينة » كزينـة النسوان « وتفاخر » كتفاخر الأقران « وتكاثر » كتكاثر الدهقان . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء فى الزوال والفناء . وعن علىّ رضى الله عنه قال لعمّار : لاتحـزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشـياء ، مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكـوح ، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها المـاء ويستوى فيـه جميع الحيـوان ، وأفضل ملبوسها الديبـاج وهو نسج دودة ، وأفضـل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضـل المركوب الفرس وعليها يقتـل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهـو مبال فى مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع فى غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أى مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا الزرّاع لأنهم يغطّون البذر . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هـذا المثل فى « يونس »[2] و « الكهف »[3] . وقيـل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٧ فما بعدها « « «
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢ فما بعدها « « «

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين . وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفى الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة . وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى يجف بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى متغيرا عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى فتاتا وتبنا فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى للكافرين . والوقف عليه حسن ، ويبتدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أى للمؤمنين . وقال الفراء : « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ » تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على «شديد» . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق؛ أى تغر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيدا فى العمل للدنيا ، وترغيبا فى العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل: سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدى إلى المغفرة؛ قاله الكلبي . وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول . وقيل : الصفّ الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعنى جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها . وقيل : يريد لرجل واحد أى لكل واحد جنة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنّة واحدة من الجنّات . والعرض أقل من الطول ؛ ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله . قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ * على الخَائِفِ المطلوبِ كِفَّةُ حَابِلِ

وقد مضى هذا كله فى « آل عمران »[1] . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضى الله عنه أرأيت قول الله عز وجل « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٤ فما بعدها .

فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت بما في التوراة مثله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير وفيه تقوية الرجاء . وقد قيل : شرط الإيمان هنا وزاد عليه في « آل عمران » فقال « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي إن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله . وقد مضى هذا في « الأعراف »(١) وغيرها . ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار . وقيل : الجوائح في الزرع . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة . وقيل : إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان . وقيل : ضيق المعاش . وهذا معنى رواه ابن جريج ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ الضمير في « نبرأها » عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع . وقال ابن عباس : من قبل أن يخلق المصيبة . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن يخلق الأرض والنفس . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي خلق ذلك وحفظ جميعه « عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » هين . قال الربيع بن صالح : لما أخذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بكيت؛ فقال : ما يبكيك؟ قلت : أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه . قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

فلا تبك فإنه كان فى علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية . وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء فى أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه ، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتل وجرح ، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ابن مسعود أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا؛ قاله ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عكرمة عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا . والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى متكبر بما أوتى من الدنيا، فخور به على الناس . وقراءة العامة « آتاكم » بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « أَتَاكُمْ » بقصر الألف واختاره أبو عبيد . أى جاءكم ، وهو معادل لـ«فاتكم» ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت . وقيل لبزرجمهر : أيها الحكيم ! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالعبرة ، والآتى لا يستدام بالحبرة .

وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : الدنيا مُبيد ومُفيد، فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار وكلاهما شرك خفىّ . والفخور بمنزلة المُصَرّاة تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشترى أنّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذى يرى من نفسه حالا وزينة وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أى لا يحب المختالين « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » فـ « الَّذِين » فى موضع خفض نعتا للمختال . وقيل : رفع بالابتداء أى الذين يبخلون فالله غنى عنهم . قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب ما كلتهم[1] . قاله السدى والكلبى . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » يعنى بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى بألا يعلموا الناس شيئا . زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعرىّ . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرّق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما أن البخيل الذى يلتذ بالإمساك . والسخىّ الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — إن البخيل الذى يعطى عند السؤال، والسخىّ الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنى عنه . ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنىّ عنهم . وقراءة العامة « بالبخلِ » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى « بِالْبَخَلِ » بفتحتين وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع « بِالْبَخْلِ » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم[2] « الْبُخُلِ » بضمتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدّم الفرق بين البخل والشح فى آخر « آل عمران » .

---

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ نافع وابن عامر «فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير «هو» . والباقون «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلا . ويجوز أن يكون مبتدأ و «الْغَنِيُّ» خبره والجملة خبر إن . ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا ؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أي بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة . وقيل : الإخلاص لله تعالى في العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ بذلك دعت الرسل ؛ نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أي الكتب ؛ أي أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم «وَالْمِيزَانَ» قال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أي بالعدل في معاملاتهم . وقوله : «بِالْقِسْطِ» يدل على أنه أراد الميزان المعروف . وقال قوم : أراد به العدل . قال القشيري : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب :

* عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً *

ويدل على هذا قوله تعالى : «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ» ثم قال : «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» وقد مضى القول فيه[1] . «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» روى عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد

---

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء .

والنار والماء والملح " . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام، الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء السَّنْدان والكَلْبَتَان والمِيقَعة وهي المطرقة . ذكره الماوردي . وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين؛ السَّنْدان، والكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة . وحكاه القشيري قال : والمِيقَعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدة أقعها أي أحددتها . وفي الصحاح : والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القَصّار التي يَدقّ عليها والمِطْرقة والمِسَنّ الطويل . وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء . « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » أي لإهراق الدماء . ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء ؛ لأنه يوم جرى فيه الدم . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم". وقيل : «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى : «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» وهذا قول الحسن . فيكون من الأرض غير منزل من السماء . وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه . « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » يعني السلاح والكُرَاع والجُنة . وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شديد . ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قال مجاهد : يعني جُنّة . وقيل : يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه . ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره . وقيل : هو عطف على قوله تعالى : « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب ، وهذه الأشياء ؛ ليتعامل الناس بالحق ، « وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وليرى الله من ينصر دينه ﴿ وَ ﴾ ينصر ﴿ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم ، ويؤمنون بهم « بِالْغَيْبِ » أي وهم لا يرونهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ « قوي » في أخذه « عزيز » أي منيع غالب . وقد تقدّم . وقيل : « بالغيب » بالإخلاص .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ فصل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب ، وأخبر أنه أرسل نوحا و إبراهيم وجعل النبوّة فى نسلهما. ﴿وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أى جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء ، و بعضهم أممـا يتلون الكتب المنزلة من السماء ؛ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من آتتم بإبراهيم ونوح ﴿ مُهْتَدٍ ﴾ . وقيل : « فمنهم مهتد » أى من ذريتهما مهتدون . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٢٧)

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾ أى على آثار الذرية . وقيـل : على آثار نوح و إبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى و إليـاس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهـة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدّم اشتقاقه فى أوّل سورة « آل عمران »(١) .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعنى الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَـةً ﴾ أى مودّة فكان يواد بعضهم بعضا . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا فى الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهـم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضـعه . والرأفة اللين، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

تخفيف الْكَلّ والرحمة تحمل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قِبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو علي : وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها . وقال الزجاج : أى ٱبتدعوها رهبانية كما تقول رأيت زيدا وعمرا كلمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وٱبتدعوا فيها . قال الماوردى : وفيها قراءتان؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب ، الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضوانية من الرُّضوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الآمتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيروا وبدّلوا وبقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكا بعد عيسى عليه السلام آرتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فٱعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع . وقال قتادة . الرهبانية التى ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع . وفى خبر مرفوع : "هى لحوقهم بالبرارى والجبال" . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله ٱبن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضى الله ؛ قاله ٱبن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة . ويكون « ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ » بدلا من الهاء والألف فى « كَتَبْنَاهَا » والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله . وقيل : « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ » الآستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص ؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم ؛ كما قال تعالى : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ » وهذا فى قوم أدّاهم الترهب إلى طلب الرياسة فى آخر الأمر . وروى سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل و يدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم لو قتلت هـذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : ابنوا لنا أسطوانة ارفعونا فيها ، وأعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم فى الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش فى البرية ، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا ، وطائفة قالت : ابنوا لنا دُورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قـد غير الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبد كما تعبد أولئـك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان من تقدم من الذين اقتدوا بهم . فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » الآية . يقول : ابتـدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا » المتأخرون « حق رعايتها » ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعنى الذين ابتدعوها أوّلا ورعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعنى المتأخرين ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليـل جاءوا ، من الكهوف والصَّوَامع والغيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثــة ــ وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغى لمن ابتدع خيرا أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل فى الآية . وعن أبى أمامة الباهلى ــ واسمه صُدَىّ بن عجلان ــ قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنمـا كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناسا من بنى إسرائيل ابتدعوا بدعا لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعــة ــ وفى الآية دليل على العزلة عن الناس فى الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا فى سورة « الكهف »(١) مستوفى والحمد لله . وفى مسند أحمد بن حنبل من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية من سراياه فقال : مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال : يا نبي الله ! إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل، فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لغَدْوة أو رَوْحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصفّ الأوّل خير من صلاته ستين سنة" . وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرى أيّ الناس أعلم " قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصرا فى العمل وإن كان يزحف على استه هل تدرى من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبقَ منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعوا إليه فتعالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمى الذى وعدنا عيسى — يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم — فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر—وتلا « وَرَهْبَانِيَّةً » الآية — أتدرى ما رهبانية أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف من كان من قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليه السلام — حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهى التى قال الله تعالى فيهم « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا » — الآية — فمن

آمن بى وآتبعنى وصدّقنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون " يعنى الذين تهوّدوا وتنصروا . وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى إن الأولين أصروا على الكفر أيضا فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى آمنوا بموسى وعيسى ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهذا مثل قوله تعالى : « أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » (١) (٢). وقد تقدم القول فيه . والكفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء » وهو فى الأصل كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله ابن جريج . ونحوه قال الأزهرى ؛ قال : اشتقاقه من الكساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى كما يحفظ الكفل الراكب . وقال أبو موسى الأشعرى : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن ابن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيا والآخرة . وقيل : لما نزلت « أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » افتخر مؤمنو أهل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية. وقد آستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مثل واحد ؛ فقال : الحسنة آسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، وينطلق على عمومه ، فإذا آنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد . وإن آنطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين ؛ بدليل هذه الآية فإنه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكفل النصيب كالمثل، فجعل لمن آتقى الله وآمن برسوله نصيبين ؛ نصيبا لتقوى الله ونصيبا لإيمانه برسوله . فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع ؛ لقوله تعالى : «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» الآية بكمالها . فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مثل . وهذا تأويل فاسد ؛ لخروجه عن عموم الظاهر ؛ في قوله تعالى : «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» بما لا يحتمله تخصيص العموم ؛ لأن ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها . وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه . وقد تقدم ذكرها[1] . ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق . ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً﴾ أي بيانا وهدى ؛ عن مجاهد . وقال آبن عباس : هو القرآن . وقيل : ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ في الآخرة على الصراط ، وفي القيامة إلى الجنة . وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها . وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السلام . وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية في الدين . ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي ليعلم و « أن لا » صلة زائدة مؤكدة ؛ قاله الأخفش . وقال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة في كل كلام دخل عليه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ وجزء ١٢ ص ٢٤٤ .

بجد . قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أي لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ » أي ليعلم أهل الكتاب « أَنْ لَا يَقْدِرُونَ » أي أنهم لا يقدرون ؛ كقوله تعالى : « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا » . وعن الحسن : « لَيْلَا[1] يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » وروى ذلك عن ابن مجاهد . وروى قطرب بكسر اللام و إسكان[2] الياء . وفتح لام الجرلغة معروفة . ووجه إسكان الياء أن همزة « أَنْ » حذفت فصارت « لَنْ » فأدغمت النون في اللام فصار « لِلَّا » فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا : في أَمَّا أَيْمَا . وكذلك القول في قراءة من قرأ « لِيْلَا » بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة . وعن ابن مسعود «لِكَيْلَا يَعْلَمَ» وعن حِطّان بن عبد الله «لِأَنْ يَعْلَمَ» وعن عِكرمة « لِيَعْلَمَ» وهو خلاف المرسوم . « مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » قيل : الإسلام . وقيل : الثواب . وقال الكلبي : من رزق الله . وقيل : نعم الله التي لا تحصى . « وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ » ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون . وقيل : « وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ » أي هو له ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . وفي البخاري : حدثنا الحكم بن نافع ، قال حدثنا شعيب عن الزهري ، قال أخبرني سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : " إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل

(١) مثل ليلى اسم المرأة ورفع الفعل بعدها .

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضا كما في السمين وغيره، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسكان الياء فيهما .

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء" في رواية :"فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا" الحديث . ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . تم تفسير سورة « الحديد » والحمد لله .

تفسير سورة المجادلة

وهي آثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنيّ وباقيها مكيّ . وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » نزلت بمكة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ التي آشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل بنت حكيم . وقيل آسمها جميلة . وخَوْلة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبادة بن الصّامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فآستوقفته طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُمَيرا ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فآتق الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب . وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خَوْلة

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ وقالت عائشة رضي الله عنها : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقول : يا رسول الله ! أكَلَ شبابي ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وآنقطع ولدي ظاهر مني ؛ اللهم إني أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ » خرجه آبن ماجه في السنن . والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردي : هي خَوْلة بنت ثعلبة ، وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف ؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصّامت . وقال الثعلبي قال آبن عباس : هي خولة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ، فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما آنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها ـ قال عُرْوة[1] : وكان آمرءا به لَمَم[2] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها : أنت علىّ كظهر أمي . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : " حرمتِ عليه " فقالت : والله ما ذكر طلاقا ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وآبن عمي وقد نفضت له بطني؛ فقال : " حرمتِ عليه " فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أوحى إلىّ في هذا شيء " فقالت يا رسول الله : أوحى إليك في كل شيء وطُوِي عنك هذا ؟ ! فقال : " هو ما قلت لك " فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

(١) عروة هو راوي حديث عائشة المتقدم .

(٢) اللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان أي يعتريه .

وزوجها أوس بن الصامت ، وآختلفوا فى نسبها ، قال بعضهم : هى أنصارية وهى بنت ثعلبة ، وقال بعضهم : هى بنت دليج ، وقيل : هى بنت خُوَيلد ، وقال بعضهم : هى بنت الصامت ، وقال بعضهم : هى أمة كانت لعبد الله بن أبى ، وهى التى أنزل الله فيها «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » لأنه كان يكرهها على الزنى . وقيل : هى بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمتناقض يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها ، ومرة إلى أمها ، ومرة إلى جدّها ، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبى فقيل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان فى عداد الأنصار و إن كان من المنافقين .

الثانيــــة — قرئ « قد سّمِعَ اللهُ » بالأدغام و « قَدْ سَمِعَ اللهُ » بالإظهار . والأصل فى السماع إدراك المسموعات ، وهو آختيار الشيخ أبى الحسن . وقال آبن فورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله فى معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التى يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لاتخفى عليه ، و إن كان غير موصوف بالحسّ المركّب فى الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلا لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفا بهما . وشكى وآشتكى بمعنى واحد . وقرئ «تُحَاوِرُكَ» أى تراجعك الكلام و « تُجَادِلُكَ » أى تسائلك .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾

فأنزل الله : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ » الآية . وروى الدارقطني من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال : إن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبرت سني ورق عظمي . فأنزل الله تعالى آية الظهار ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : " أعتق رقبة " قال : مالي بذلك يدان . قال : " فصم شهرين متتابعين " قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكلّ بصري . قال : " فأطعم ستين مسكينا " قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له . ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكينا . وفي الترمذي وسنن ابن ماجه : أن سلمة ابن صخر البياضي ظاهر من امرأته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " أعتق رقبة " قال : فضربت صفحة عنقي بيدي . فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : " فصم شهرين " فقلت : يا رسول الله ! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام . قال : " فأطعم ستين مسكينا " الحديث . وذكر ابن العربي في أحكامه : روى أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قد حرمت عليه " فقالت : أشكو إلى الله حاجتي . [ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حرمت عليه " فقالت : إلى الله أشكو حاجتي إليه] (١) وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : اسكتي فإنه قد نزل الوحي . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : " أعتق رقبة " قال : لا أجد . قال : " صم شهرين متتابعين " قال : إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري . قال : " فأطعم ستين مسكينا . قال : فأعني . فأعانه بشيء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خَوْلة

---

(١) الزيادة من الأحكام لابن العربي .

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ ﴾ [١] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف « يَظَّاهَرُونَ » بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظَّهَّرُونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ ابن حُبيش « يُظَاهِرُونَ » بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقد تقدّم هذا في « الأحزاب » [٢] . وفي قراءة أُبَيّ « يَتَظَاهَرُونَ » وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة . وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنى عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره ، فكنى بالظهر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت عليّ كظهر أمي أي أنت عليّ محرّمة لا يحل لي ركوبك .

الثانيــة — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلّل بظهرٍ محرّم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأول قول الحسن والنخعيّ والزهريّ والأوزاعيّ والثوريّ .

الثـالثــة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وسترا . فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقا البتة عند مالك ،

---

(١) نسخ الأصل على « يظهرون » وهي قراءة نافع التي سيذكرها المؤلف .

(٢) آية الظهار في جـ ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئا بل أحال الكلام على هذه السورة .

وإن لم تكن له نيــة فى طلاق ولا ظهار كان مظاهرا . ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار ، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البتّ .

الرابعـــة ــ ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت على كظهر أمى ، وأنتِ عنـدى وأنتِ منى وأنتِ معى كظهر أمى . وكذلك أنت على كبطن أمى أو كرأسها أو فرجها أو نحـوه ، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك على كظهر أمى فهو مظاهر ؛ مثل قـوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليـه . وقال الشافعى فى أحد قوليه : لا يكون ظهارا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصـة حقيقة خلافا لأبى حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التى لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعنـد الإمام الشافعى رضى الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا . والكناية أن يقول : أنت على كأمى أو مثل أمى فإنه يعتـبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهارا ، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا عند الشافعى وأبى حنيفة . وقد تقـدّم مذهب مالك رضى الله عنه فى ذلك ؛ والدليـل عليه أنه أطلق تشبيه آمرأته بأمّـه فكان ظهارا . أصله إذا ذكر الظهر وهـذا قوى؛ فإن معنى اللفظ فيه موجود ــ واللفظ بمعناه ــ ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما ألزمه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله آبن العربى .

الخـامســـة ــ إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضـاء أمه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : إنه إن شبهها بعضو يحل له النظر إليه لم يكن مظاهرا . وهذا لا يصح؛ لأن النظر إليه على طريق الآستمتاع لا يحـل له ، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر ؛ وقـد قال الإمام الشافعى فى قول : إنه لا يكون ظهارا إلا فى الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محـرّم ، فكان التشبيه به ظهارا كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنمـا يقصد تشبيه المحلل بالمحرّم فلزم على المعنى .

السادسة — إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملا على الأول ، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهارا . ومنهم من قال : يكون طلاقا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يكون شيئا . قال ابن العربي : وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيدا بحكمه كالظهر ، والأسماء بمعانيها عندنا ، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوى عند مالك . وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن . ومنهم من لا يجعله شيئا . ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقا . وهو عند مالك إذا قال : كظهر أبي أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه . وقد روى عنه أيضا: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي . وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت علي كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها . والله أعلم .

السابعة — إذا قال : أنت علي حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا ؛ لأن قوله : أنت حرام علي يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة : ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضى به فيه .

الثامنة — الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من كل زوج يجوز طلاقه . وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم . قال القاضي أبو بكر ابن العربي : وهي مسئلة عسيرة جدا علينا ؛ لأن مالكا يقول : إذا قال لأمته أنت علي حرام لا يلزم . فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته . ولكن تدخل الأمة في عموم قوله : «مِنْ نِسَائِهِمْ» لأنه أراد من محللاتهم . والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة — ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التى ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعى وأبى حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسئلة فى سورة «براءة» عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ » الآية.(1)

العاشرة — الذمى لا يلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعى : يصح ظهار الذمى ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعنى من المسلمين . وهذا يقتضى خروج الذمى من الخطاب . فإن قيل : هذا استدلال بدليل الخطاب . قلنا : هو استدلال بالاشتقاق والمعنى ؛ فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ ، فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار ؛ وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهى فاسدة ولا ظهار فى النكاح الفاسد بحال .

الحادية عشرة — قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يقتضى صحة ظهار العبد خلافا لمن منعه . وحكاه الثعلبى عن مالك ؛ لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح فى حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام .

الثانية عشرة — وقال مالك رضى الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، وإنما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللائى يظهرن منكن من أزواجهن ، إنما الظهار على الرجال . قال ابن العربى : هكذا روى عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبى الزناد . وهو صحيح معنى ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم](2) فى النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شىء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار فى قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد : هى مظاهرة . وقال الثورى وأبو حنيفة ومحمد : ليس ظهار المرأة من الرجل بشىء قبل النكاح كان أو بعده . وقال الشافعى : لا ظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعى : إذا قالت المرأة لزوجها ؛ أنت على كظهر أمى

(1) راجع جـ ٨ ص ٢١٠ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) الزيادة من ابن العربى .

فلانة فهي يمين تكفرها . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون آمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفّر كفّارة الظهار ولا يحول قولها هذا بينها و بين زوجها أن يصيبها . رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبي يوسف . وقال محمد بن الحسن : لا شيء عليها .

الثالثة عشرة — من به لَمَمٌ وآنتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لما روى في الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من آمرأته .

الرابعة عشرة — من غضب وظاهر من آمرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفي بعض طرق هذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتني خَوْلة آمرأة أوس بن الصامت ، قالت : كان بيني و بينه شيء ، فقال : أنت علي كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه . فقولها : كان بيني و بينه شيء . دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها . والغضب لغو لا يرفع حكما ولا يغير شرعا وكذلك السكران . وهي :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقل قوله ونظم كلامه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » على ما تقدم في « النساء »[1] بيانه . والله أعلم .

السادسة عشرة — ولا يقرب المظاهر آمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر خلافا للشافعي في أحد قوليه ؛ لأن قوله : أنت علي كظهر أمي يقتضي تحريم كل آستمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفر ، وهي :

السابعة عشرة — آستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان . روى سعيد عن قتادة ، ومطرف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة آبن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم آبن ماجه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

والنسائى عن ابن عباس : أن رجلا ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ماحملك على ذلك" فقال : يارسول الله ! رأيت بياض خلخالها فى ضوء القمر فلم أملك نفسى أن وقعت عليها . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفر . وروى ابن ماجه والدار قطنى عن سليمان بن يسار عن سلمة ابن صخر أنه ظاهر فى زمان النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيرا واحدا .

الثامنة عشرة ــ إذا ظاهر من أربع نسوة فى كلمة واحدة، كقوله : أنتن على كظهر أمى كان مظاهرا من كل واحدة منهن ، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة . وقال الشافعى : تلزمه أربع كفارات . وليس فى الآية دليل على شىء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع فى عامة المؤمنين والمعول على المعنى . وقد روى الدار قطنى عن ابن عباس قال كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه فى كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة ــ فإن قال لأربع نسوة إن تزوجتكن فأنتن على كظهر أمى فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر، ثم قد سقط عنه اليمين فى سائرهن . وقد قيل : لا يطأ البواقى منهن حتى يكفر . والأول هو المذهب .

الموفية عشرين ــ وإن قال لامرأته : أنت على كظهر أمى وأنت طالق البتة[1]، لزمه الطلاق والظهار معا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت على كظهر أمى لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

---

(١) يريد بالبتة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما فى ابن العربى حيث قال : إذا طلقها ثلاثا بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها . وقال المزني : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسا ونظرا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتِهِمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى: « مَا هَذَا بَشَرًا » . وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما « أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع على لغة تميم . قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون « مَا هَـذَا بَشَرٌ » ، و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفي المثل: ولدك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْك . وقد تقدم القول في اللائي في « الأحزاب »(١) .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أي فظيعا من القول لا يعرف في الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

---

(١) ليس في الأحزاب كلام على اللائي ويبدو أن سقطا وقع في نسخ الأصل التي بأيدينا .

فيه اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ هذا ابتداء والخبر « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أى فعليهم تحرير رقبة . وقيل : أى فكفارتهم عتق رقبة والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى . وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله : « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا » فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته . فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار ؛ لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود ، وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة : الأول — إنه العزم على الوطء وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه . وروى عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عودا ، وإن لم يعزم لم يكن عودا . الثانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك . الثالث — العزم عليهما . وهو قول مالك فى موطئه؛ قال مالك فى قوله الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » قال سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها . فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة ، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه . قال مالك : وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفر كفارة التظاهر . القول الرابع — إنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا . قاله الحسن ومالك أيضا . الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه . وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة . السادس — إن الظهار يوجب تحريما لا يرفعه إلا الكفارة ومعنى العود عند القائلين بهذا أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد . السابع — هو تكرير الظهار بلفظه . وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس ، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود ، وإن لم يكرر فليس بعود . يسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبى العالية وأبى حنيفة أيضا وهو قول الفراء . وقال أبو العالية : وظاهر الآية يشهد له ، لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أى إلى قول ما قالوا . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « والَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت على كظهر أمى . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار . قال ابن العربى : فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعا لا يصح عن بكير، و إنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس فى ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم وأيضا فإن المعنى ينقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل ؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفار لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء فى صوم أو غيره .

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعى : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات، الأول — أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضى التراخى . الثانى — أن قوله تعالى : « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضى وجود فعل من جهته ومرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث — أن الطلاق الرجعى لا ينافى البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفر وعاد إلى أهله . وتحقيق هذا القول أن العزم قولٌ نفسىٌّ ، وهذا رجل قال قولا اقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله فى نفسه من الظهار الذى أخبر عنه بقوله أنت على كظهر أمى ، وإذا كان ذلك كفر وعاد إلى أهله لقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [فى فنه] (١) .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

الثانيــة ــ قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى «وَالَّذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليـه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا ؛ أى فعليهم تحرير رقبــة من أجل ما قالوا ؛ فالجار فى قوله «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذى هو خبر الابتداء وهــو عليهم . قاله الأخفش . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . وقيــل : المعنى الذين كانوا يظّهّرون من نسائهم فى الجاهليــة ، ثم يعودون لما كانوا قالوه فى الجاهلية فى الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة . الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عن ما قالوا ويريدون الوطء . وقال الأخفش : لما قالوا وإلى ما قالوا واحد ، واللام وإلى يتعاقبان ؛ قال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» وقال : «فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» وقال: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» وقال : «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ» .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى فعليه إعتاق رقبة ، يقال : حررته أى جعلته حرا . ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب ، ومن كمالها إسلامها عنـد مالك والشافعى ؛ كالرقبة فى كفارة القتل . وعنـد أبى حنيفة وأصحابه تجزى الكافرة ومن فيها شائبة رِقّ[1] كالمكاتبة وغيرها .

الرابعــة ــ فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبى حنيفة . وقال الشافعى : يجزئ ؛ لأن نصف العبدين فى معنى العبـد الواحد ؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المـال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزى كالإطعام ؛ ودليلنا قوله تعالى : «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهـذا الاسم عبارة عن شخص واحد ، وبعض الرقبة ليس برقبة ، وليس ذلك مما يدخله التلفيق ؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبـة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها ؛ أصله إذا اشـترك رجلان فى أضحيتين ؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنـه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك فى مسئلتنا وبهذا يبطل دليلهم . والإطعام وغيره لا يتجزى فى الكفارة عندنا .

(١) فى بعض الأصول : شعبة رق ؛ والمعنى واحد .

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أي يجامعها فلا يجوز للظاهر الوطء قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة ، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها . وفي حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة[1] . وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام . وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء . وقاله الحسن وسفيان وهو الصحيح من مذهب الشافعي . وقيل: وكل ذلك محرم وكل معاني المسيس . وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي . وقد تقدم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه ، فله أن يصوم عند الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجا إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهي :

الثامنة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فقيل : يبني؛ قاله ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي . وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

---

(١) لم يتقدم العود في حديث أوس ، وإنما هو في مظاهر آخر وهو القائل : رأيت خلخالها في ضوء القمر .

إنه إذا مرض فى صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه يبتدئ . وهو أحد قولى الشافعى .

التاسعة — إذا آبتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى ؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبى حنيفة وأصحابه ؛ قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل آنقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعا من العلماء . وإذا آبتدأ سفرا فى صيامه فأفطر ، آبتدأ الصيام عند مالك والشافعى وأبى حنيفة ؛ لقوله : « مُتَتَابِعَيْنِ » . ويبنى فى قول الحسن البصرى ؛ لأنه عُذر وقياسا على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحل صومه فى الكفارة كالعيدين وشهر رمضان آنقطع .

العاشرة — إذا وطئ المتظاهر فى خلال الشهرين نهارا ، بطل التتابع فى قول الشافعى ، وليلا فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلا للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه آبتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين ، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل آنقضائهما فليس هو الصيام المأمور به . فلزمه آستئنافه ؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيدا . فكلم زيدا فى الصلاة ، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيدا فأبصره فى الصلاة لزمه آستئنافها ؛ لأن هذه الصلاة ليست هى الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه وآشتدت حاجته إلى وطء آمرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة — ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفر صام . وإنما يُنظَر إلى حاله يوم يكفّر . ولو جامعها فى عدمه

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو ٱبتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم فى الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر فى رمضان وأشرك بينهما فى كل واحدة منهما لم يجزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين . وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يجزيه . ولو ظاهر من آمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدة منهما حتى يكفر كفارة أخرى . ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهن ثلاث رقاب ، وصام شهرين ، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما ، فإن كفر عنهن بالإطعام جاز أن يطعم عنهن مائتى مسكين ، وإن لم يقدر فرق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مُدّان بمُد النبي صلى الله عليه وسلم . وإن أطعم مدّا بمد هشام، وهو مدّان إلا ثلثا، أو أطعم مدّا ونصفا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم أجزأه . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل لم يقل فى كفارة الظهار «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ» فواجب قصد الشبع . قال ٱبن العربى : وقال مالك فى رواية ٱبن القاسم وٱبن عبد الحكم مدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال فى رواية أشهب : مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلى . وكذلك قال عنه ٱبن القاسم أيضا .

قلت : وهي رواية ابن وهب ومطرّف عن مالك : أنه يعطي مدّين لكل مسكين بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم . وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعي وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المد ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعالى : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » وإطلاق الإطعام يتناول الشبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشبع عندنا مدّ بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسي إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام في كفّارة الظهار تغليظا على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورا . قال ابن العربي : وقع الكلام ها هنا في مدّ هشام كما ترون ، وودت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التي نزل الوحي بها واستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع في الأخبار كثيرا ، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام ؛ فرأى أن مدّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه فسوّل له أن يتخذ مدّا يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا ابتل عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغير السنة وأذهب محل البركة . قال النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجري بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم في مدّه ، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له في ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام ، ويجعلوه تفسيرا لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسرا عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ؛ ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدّين بمد النبي صلى الله عليه وسلم في كفارة الظهار أحبّ إلينا م

الرواية بأنها بمدّ هشام . ألا ترى كيف نبه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم، والشبع عندكم أكثر لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة وبهذا أقول فإن العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان، وأبرك في يد الآخذ ، وأطيب في شدقه، وأقل آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه . والله أعلم .

الثانيـــة — ولا يجزئ عنـد مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكينا ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الثالثـــة — قال أبو بكر بن العربي : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . واحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشيد والسفيه ؛ وهذا فقـه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامّة ، وقـد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشيا والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهى عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضى على العام .

الرابعـــة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقا؛ وقد روى معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى ذلك الذى وصفنا من التغليظ فى الكفارة « لِتُؤْمِنُوا » أى لتصدّقوا أن الله أمر به . وقد آستدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : « ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » أى ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عنـد حدوده لا تتعدّوها ، فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » أى لئلا تعودوا للظهار الذى هو منكر من القول وزور .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفِّروا . إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ؛ لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيــق .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أى بين معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادّة المعاداة والمخالفة فى الحدود ؛ وهو مثل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُشَاقُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ » . وقيل : « يُحَادُّونَ اللهَ » أى أولياء الله كما فى الخبر : " من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة " . وقال الزجاج : المحادّة أن تكون فى حدّ يخالف حدّ صاحبك . وأصلها الممانعة ومنه الحديد ومنه الحدّاد للبوّاب . ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدى : لعنــوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيــل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وقيــل : « كُبِتُوا »

أى سيكبتون وهو بشارة من الله تعالى للؤمنين بالنصر ، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقريبا للخبر عنه . وقيل: هى بلغة مذحج . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حاد الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ « عَذَابٌ مُهِينٌ » أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيما لليوم . ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أى يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم فى صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع وناظر لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا علانية . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعل . والنجوى السِّرار . وهو مصدر والمصدر قد يوصف به . يقال : قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » . وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفراء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فآنخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها . ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة آبن أبى عبلة « ثَلَاثَةً » و « خَمْسَةً » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشرى . ويجوز رفع « ثلاثة » على البدل من موضع « نجوى » . ثم قيل : كل سرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

خلوة ثلاثة يسرون شيئا ويتناجون به ، والسِّرار ما كان بين آثنين . ﴿ إِلَّا هو رابعهم ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه آفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النجوة وهي ما آرتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عمـا يتصل به ، والمعنى أن سمع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها . ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِن » لأن تقديره ما يكون نجوى ، و « ثلاثة » يجوز أن يكون مرفوعا على محل « لا » مع « أدنى » كقولك : لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الآبتداء كقولك لا حولٌ ولا قوة إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة »(1) بيان هذا مستوفى . وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء . والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفراء فى قوله « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود ؛ لأنه تعالى إنمـا قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعـلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك آكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا آنتقال . ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسيء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قيل : إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه . وقيل : في المسلمين . قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانية — روى أبو سعيد الخدري قال : كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى " فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ؛ إنا كنا في ذكر المسيخ — يعني الدجال — فرقا منه . فقال : " ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه " قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : " الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل " ذكره الماوردي . وقرأ حمزة وخلف ورويس عن يعقوب «وَيَنْتَجُونَ» في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه . وقرأ الباقون «وَيَتَنَاجَوْنَ» في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . لقوله تعالى : « إِذَا تَنَاجَيْتُمْ »و « تَنَاجَوْا » . النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا ، وتقاتلوا واقتتلوا فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و «يَنْتَجُون» واحد . ومعنى ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي الكذب والظلم . ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أي مخالفته . وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد « وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ » بالجمع .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لاخلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود ؛ كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم " فى رواية وفى رواية أخرى " وعليكم " . قال ابن العربى : وهى مشـكلة . وكانوا يقولون : لو كان محمد نبيا لمـا أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به ، وجهلوا أن البارى تعـالى حليم لا يعاجل من سبّه ، فكيف من سبّ نبيه . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال : " لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهـم و يرزقهم" فأنزل الله تعـالى هذا كشفا لسرائرهم ، وفضحا لبواطنهـم ، ومعزة لرسوله صـلى الله عليه وسلم . وقـد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديا أتى على رسول الله صـلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال : السام عليكم . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " أتدرون ما قال هذا " قالوا : الله ورسوله أعلم. قال: " قال كذا ردوه علىّ " فردوه، قال : " قلت السام عليكم " قال : نعـم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى : «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ» .

قلت : خرجه الترمذى وقال هـذا حديث حسن صحيح . وثبت عن عائشة أنها قالت : جاء أناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم وفعل . فقال عليه السلام : " مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش ولا التفحش " فقلت : يارسـول الله ألست ترى مايقولون ؟! فقال : " ألستِ ترين أرد عليهم مايقولون أقول وعليكم " فنزلت هذه الآية « بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أى إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليـك ، والسام الموت . خرجه البخارى ومسلم بمعناه . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " كذا الرواية " وعليكم " بالواو وتكلم عليهـا العلماء ؛ لأن الواو العاطفـة تقتضى التشريك فيلزم منـه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت ، أو من

سآمة دينا وهو الملال . يقال : سئم يسأم سآمة وسآما . فقال بعضهم : الواو زائدة كما زيدت فى قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحَيِّ وانْتَحَى *

أى لما أجزنا آنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هى للاستئناف، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هى على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك ؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سلم ناس من يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ فقال : " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : " بلى قد سمعت فرددت عليهم و إنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا " خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنى ، و إثباتها أصح رواية وأشهر .

وقد آختلف فى رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ، و إليه ذهب آبن عباس والشعبي وقتادة ؛ للأمر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وآبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك . وقد آختار آبن طاوس أن يقول فى الرد عليهم : علاك السلام أى آرتفع عنك . وآختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعني الحجارة . وما قاله مالك أولى آتباعا للسنة ؛ والله أعلم . وروى مسروق عن عائشة قالت : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ناسٌ من اليهود، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم؛ قال : " وعليكم " قالت عائشة : قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لا تكونى فاحشة " فقالت : ما سمعت ما قالوا ! فقال: " أو ليس قد رددتُ عليهم الذى قالوا قلتُ وعليكم " . فى رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبتهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش " وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : « و إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفى المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا) أى عيبا، ويهمز ولا يهمز ؛

يقال : ذَأَمَه يَذْأَمُه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذءوم مهموزا، ومنه « مَذْءُومًا مَدْحُورًا » ويقال : ذامَه يَذُومُه مخففا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبيا لعذّبنا الله بما نقول فهلا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يرد علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافيهم جهنم عقابا غدا ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » أى تساررتم . ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فَلَا تَنْتَجُوا » من الانتجاء . ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للمنافقين؛ أى يأيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يأيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا فى السرايا، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكايدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾ أى التناجى ﴿شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بمشيئته . وقيل : بعلمه . وعن ابن عباس : بأمره . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ، فهو الذى سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانا ولو شاء لصرفه عنه .

الثانيـــة — فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد" وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه" فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعا ، فقال له وللأول : تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة . خرجه الموطأ . وفيه أيضا التنبيه على التعليل بقوله : "من أجل أن يحزنه" أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أمن ذلك ؛ وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا ؛ لوجود ذلك المعنى فى حقه ؛ بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر فى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما فى الحضر وبين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجْلِسِ[(١)] ﴾ لما بين أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب فى مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون فى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . قال الحسن ويزيد بن أبى حبيب : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ، رغبة فى القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : « مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » . وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم فى الصُّفَّة ، وكان فى المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبي صلى الله عليه

(١) الأصول على قراءة نافع «فى المجلس» بالأفراد .

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهـل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس وقـد سُبقوا فى المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسـلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من [غير](١) أهل بدر : "قم يافلان وأنت يافلان" بعدد القائمين من أهل بدر، فشقّ ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أُنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسَـبقوا إلى المكان . فأنزل الله عز وجل هـذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وفَسَحَ فلان لأخيه فى مجلسه يَفْسَح فَسْحا أى وَسَّع له ؛ ومنه قولهم بلد فَسِيح ولك فى كذا فُسْحة ، وفَسَح يَفْسَح مثل مَنَع يَمْنَع ، أى وسّـع فى المجلس، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحة مثل كَرُم يكرُم أى صار واسـعا؛ ومنه مكان فسيح .

الثانيـــة — قرأ السُّلَمِيّ و زرّ بن حُبَيش وعاصم « فِى المجَالِسِ » وقرأ قتادة وداود ابن أبى هند والحسن باختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا فِى المَجْلِسِ » فمن جمع فلأن قوله : « تَفَسَّحُوا فِى المَجَـالِسِ » ينبئ أن لكل واحد مجلسا . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسـلم وجمع لأن لكل جالس مجلسا . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سـبق إليه [قال صلى الله عليه وسـلم : "من سَبق إلى ما لم يُسبَق إليـه فهو أحقّ به"](٢) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسـلم عن ابن عمر عن

(١) الزيادة من أسباب النزول وبعض التفاسير .

(٢) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه" . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم انه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخارى .

الثالثــة ـــ إذا قعـد واحد من الناس فى موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعـد مكانه؛ لمـا روى مسـلم عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صـلى الله عليه وسـلم قال : "لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعـة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيـه ولكن يقـول افسحوا" .

فــرع ـــ القاعد فى المكان إذا قام حـتى يقعد غيره موضعه نُظر؛ فإن كان الموضع الذى قام إليه مثـل الأول فى سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظه .

الرابعــة ـــ إذا أمر إنسان إنسانا أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكانا يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع ؛ لمـا روى : أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له فى يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه .

فــرع ـــ وعلى هذا من أرسـل بساطا أو سجادة فتبسط له فى موضع من المسجد .

الخامســة ـــ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا قام أحدكم ـــ وفى حديث أبى عوانة من قام من مجلسه ـــ ثم رجع إليـه فهو أحق به" قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى . وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير متملك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهـذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منـه ، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من أن يزاحمه عليه . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم . وقيل : يوسع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما . وكسر الباقون وهما لغتان مثل « يَعْكُفُونَ » و « يَعْرِشُونَ » والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك : إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالا تثاقلوا عن الصلاة فنزلت . وقال الحسن ومجاهد أيضا : أى انهضوا إلى الحروب . وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم « فَانْشُزُوا » فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم . والنشز الارتفاع مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال : نَشَزَ يَنْشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه ؛ أى ارتفع منه . وامرأة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى . ذكره النحاس .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم . وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أمروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: "يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناك إليه أو فقره إليك" وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس . وقيل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى عن مالك : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

قلت : والعموم أوقع فى المسئلة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولا ثم بعلمه ثانيا . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أَجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفى البخارى عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَينة ابن حِصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا . الحديث . وقد مضى فى آخر « الأعراف » (١) . وفى صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملته على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى . فقال : ومن ابن أبزى؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ! قال : إنه قارئ لكتاب الله و إنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين" وقد مضى أول الكتاب (٢) . ومضى القول فى فضل العلم والعلماء فى غير موضع من هذا الكتاب (٣) . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حُضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة". وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : خُيِّر سليمانُ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٦ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٤٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفّف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس . ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين انهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا مناجاته . فكان ذلك يشقّ على المسلمين ، لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانيــة — قال ابن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد مايدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر،

وهـذا رد على المعتزلة عظيم فى التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد ابنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر فى قوله تعالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » نص متواتر فى الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثة — روى الترمذى عن علىّ بن علقمة الأنمارى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما نزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : "ماترى دينارا" قلت لا يطيقونه . قال : "فنصف دينار" قلت : لا يطيقونه . قال : "فكم" قلت : شعيرة . قال : "إنك لزهيد" قال فنزلت « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » الآية . قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شعيرة من ذهب . قال ابن العربى : وهـذا يدل على مسئلتين حسنتين أصوليتين ؛ الأولى — نسخ العبادة قبل فعلها . والثانية — النظر فى المقدّرات بالقياس ؛ خلافا لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أوّل من تصدّق فى ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وناجى النبى صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدّق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : "فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى، وهى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » كان لى دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ، فنسخت بالآية الأخرى « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » . وكذلك قال ابن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال ابن عمر : لقد كانت لعلىّ رضى الله عنه ثلاث لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىّ من حمر النّعم، تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى من إمساكها ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم من المعاصى . ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ يعنى الفقراء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ آستفهام معناه التقرير . قال آبن عباس : « أَأَشْفَقْتُمْ » أى أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بينَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال آبن عباس : مابقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد مايتصدق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روى عن على رضى الله عنه ضعيف؛ لأن الله تعالى قال : « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشىء . والله أعلم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ ﴾ فى فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سننه ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين ؛ كان أحدهما يجالس النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود،فبينا النبى صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجراته إذ قال : "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان" فدخل عبد الله بن نبتل ــ وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية ــ فقال عليه الصلاة والسلام :"علام تشتمنى أنت وأصحابك" فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "فعلت" فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه ؛ فنزلت هذه الآية . وقال معناه ابن عباس . روى عكرمة عنه ؛ قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال : "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان" فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق ، فدعا به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "علام تشتمنى أنت وأصحابك" قال : دعنى أجئك بهم . فمر فجاء بهم فحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شىء،فأنزل الله عز وجل « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون فى القرآن بـ « غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجنون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية « إِيمَانَهُمْ » بكسر الهمزة هنا وفى «المنافقين» . أى إقرارهم اتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار . والصدّ المنع « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن الإسلام . وقيل : فى قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق . وقيل : أى بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

قوله تعالى : لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ أى من عذابه شيئا . وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه يُنصر يوم القيامة ؛ لقد شقينا إذًا ! فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فنزلت : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ أى لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدا ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ابن عباس : هو قولهم «وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ بإنكارهم وحلفهم . قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم فى الآخرة . وقيل : « يَحْسَبُونَ » فى الدنيا « أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ » لأنهم فى الآخرة يعلمون الحق باضطرار . والأوّل أظهر . وعن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ينادى منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا وثنا ولا اتخذنا من دونك إلها " قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هم والله القَدَرية . ثلاثا .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى غلب واستعلى أى بوسوسته فى الدنيا . وقيل : قوى عليهم . وقال المفضّل : أحاط بهم . ويحتمل رابعا أى جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشيء أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم . ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ﴾ أى أوامره فى العمل بطاعته . وقيل : زواجره فى النهى عن معصيته .

والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، ويكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ طائفته ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، وباعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدم أول السورة . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ أي قضى الله ذلك . وقيل : كتب في اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد ﴿ وَرُسُلِي ﴾ من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ، ومن بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أبي بن سلول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عددا ، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك . فنزلت : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

قوله تعالى : لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقـدّم (١) ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السـدى : نزلت فى [عبـد الله بن (٢)] عبـد الله بن أبىّ ، جلس إلى النبى صـلى الله عليه وسـلم فشرب النبى صـلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يا رسـول الله ما أبقيتَ من شرابك فضلةً أسقيها أبى ؛ لعل الله يطهر بهـا قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هى فضلة من شراب النبى صلى الله عليه وسـلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بهـا . فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ! أما أذنت لى فى قتل أبى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "بل ترفق به وتحسن إليـه" . وقال ٱبن جريج : حُدِّثت أن أبا قحافة سبّ النبى صـلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر ٱبنـه صكة فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : "أو فعلته لا تعد إليـه" فقال : والذى بعثك بالحـق نبيا لو كان السيـف منى قريبا لقتلته . وقال ٱبن مسعود : نزلت فى أبى عبيـدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل يوم بدر . وكان الجراح يتصدّى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . قال الواقدى : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالا من بنى الحـرث بن فهر فقالوا : توفى أبوه من قبل الإسـلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى ٱبنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "متّعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعـلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر". ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان أبوه عبد الله رأس المنافقين .

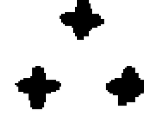
قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعليا وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح . على ما يأتي بيانه أول سورة « الممتحنة » إن شاء الله تعالى . بين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب .

الثانيــة ـ استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم . قال أشهب عن مالك : لا تجالس القدرية وعادهم في الله ؛ لقوله تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ـ إلى قوله ـ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » " أي خلق في قلوبهم التصديق يعني من لم يوال من حاد الله . وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل ؛ كقوله تعالى : « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أي اجعلنا . وقوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » . وقيل : « كَتَبَ » أي جمع ، ومنه الكتيبة ؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض . وقراءة العامة بفتح الكاف من « كتب » ونصب النون من « الإيمان » بمعنى كتب الله وهو الأجود ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزر بن حبيش والمفضل عن عاصم « كُتِبَ » على ما لم يسم فاعله « الْإِيمَانُ » برفع النون . وقرأ زر بن حبيش « وَعَشِيرَاتِهِمْ » بألف وكسر التاء على الجمع . ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم . وقيل : « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ » أي على قلوبهم ، كما في قوله : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان . « وَأَيَّدَهُمْ » قواهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : بنصر منه . وقال

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال ابن جريج : بنور و إيمان و برهان وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبى سعيد الجرجانى عن بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلهى ! من حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه : « يا داود الغاضة أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكفهم ؛ أولئك حزبى وحول عرشى » .

ختمت والحمد لله " سورة المجادلة "



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

مَدَنِيَّةٌ في قول الجميع . وهي أربع وعشرون آية

روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر لم يبق شيء من الجنة والنار والعرش والكرسي والسموات والأرض والهوام والريح والسحاب والطير والدواب والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلَّوا عليه واستغفروا له . فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا " . خَرَّجه الثعلبي . وخرّج الثعالبي عن يزيد الرَّقاشيّ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ آخر سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » - الى آخرها - فمات من ليلته مات شهيدا " . وروى الترمذي عن مَعْقِل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يُصبح ثلاثَ مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكَّل الله به سبعين ألف مَلَك يُصَلُّون عليه حتى يُمسي وإن مات في يومه مات شهيدًا ومن قرأها حين يُمسي فكذلك " . قال : حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾

تقدّم[1] .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

(١) راجع أول سورة الحديد جـ ١٧ ص ٢٣٥ .

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قال سعيد بن جُبير : قلت لابن عباس : سورة الحشر؟ قال قل سورة النَّضير؛ وهم رهط من اليهود من ذُرِّيّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة فى فِتَن بنى إسرائيل انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمرهم ما نَصّ الله عليه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الحَشْر الجمعُ؛ وهو على أربعة أوجه : حشران فى الدنيا وحشران فى الآخرة ؛ أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » قال الزُّهْرِىّ : كانوا من سِبْط(١) لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء ؛ فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا . وكان أوّل حشر حُشِروا فى الدنيا الى الشام . قال ابن عباس وعكرمة : من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : "اخرجوا" قالوا الى أين ؟ قال : "الى أرض المحشر" . قال قتادة : هذا أوّل المحشر . قال ابن عباس : هم أوّل من حُشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره . وقيل : إنهم أخرجوا الى خَيْبَر ، وأن معنى « لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » إخراجهم من حصونهم الى خَيْبَر، وآخره إخراج عمر رضى الله عنه إياهم من خَيْبَر الى نَجْد وأَذْرِعات . وقيل تَيْماء وأريحاء ، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم . وأما الحشر الثانى ؛

---

(١) السبط : ولد الولد . والسبط من اليهود : كالقبيلة من العرب .

لحشرهم قرب القيامة . قال قتادة : تأتى نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلف . وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) . ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال : قلت لمالك هو جلاؤهم من ديارهم ؟ فقال لى : الحشر يوم القيامة حشر اليهود . قال : وأجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى خيبر حين سئلوا عن المال فكتموه؛ فاستحلهم بذلك . قال ابن العربي : للحشر أول ووسط وآخر؛ فالأول إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء خيبر، والآخر حشر يوم القيامة . وعن الحسن : هم بنو قريظة . وخالفه بقية المفسرين وقالوا : بنو قريظة ماحُشروا ولكنهم قُتلوا . حكاه الثعلبي .

الثالثة ــ قال الكيا الطبري : ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن ، وإنما كان ذلك في أول الإسلام ثم نسخ . والآن فلا بد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم .

قوله تعالى : ﴿ مَاظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ يريد لعظم أمر اليهود ومَنَعتهم وقوتهم في صدور المسلمين ، واجتماع كلمتهم . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ قيل : هي الوَطيح والنَّطاة والسُّلالم والكَتيبة . ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أى من أمره . وكانوا أهل حَلْقة ــ أى سلاح كثير ــ وحصون منيعة ؛ فلم يمنعهم شيء منها . ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ ﴾ أى أمره وعذابه . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى لم يظنوا . وقيل : من حيث لم يعلموا . وقيل : « من حيث لم يحتسبوا » بقتل كَعْب بن الأشرف ؛ قاله ابن جُريج والسُّدّى وأبو صالح .

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ؛ وكان الذى قتله هو محمد بن مَسْلمة ، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش ــ وكان أخا كعب ابن الأشرف من الرضاعة ــ وعبّاد بن بِشر بن وَقْش ، والحارث بن أَوْس بن معاذ ، وأبو عبْس بن جبر . وخبره مشهور في السيرة . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نُصرت بالرعب بين يدى مَسيرة شهر " فكيف لاينتصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بني النضير . وهذه خصيصَى لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب ؛ أى يهدمون .
وقرأ السُّلَمِى والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو « يُخَرِّبُونَ » بالتشديد من التخريب . قال أبو عمرو : إنما اخترت التشديد لأن الإخراب تركُ الشئ خرابا بغير ساكن ، و بنو النضير لم يتركوها خرابا و إنما خَرّبوها بالهدم ؛ يؤيده قوله تعالى : « بِأَيْدِيهِم وأَيْدِى المؤمنين » . وقال آخرون : التخريب والإخراب بمعنى واحد ، والتشديد بمعنى التكثير . وحكى سيبويه : أن معنى فَعّلت وأفعلت يتعاقبان ؛ نحو أخربته وخَرّبته وأفرحته وفرّحته .
واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأولى . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يُخَرِّبون من داخل ليبنُوا به ماخُرِّب من حصنهم . فروى أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ؛ فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبيّ الذى نُعت فى التوراة ، فلا تردّ له راية . فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة، فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاريّ فقتل كعبا غيلةً ثم صَبّحهم بالكتائب ؛ فقال لهم : اخرجوا من المدينة . فقالوا : الموت أحب إلينا من ذلك؛ فتنادَوْا بالحرب . وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم عبد الله ابن أُبَيّ المنافقُ وأصحابُه لاتخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم . فدرَّبُوا على الأزقّة وحصّنوها إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأيِسُوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ؛ فأبى عليهم إلا الجلاء؛ على ما يأتى بيانه . وقال الزهرى وابن زيد وعُرْوة بن الزبير : لما صالحهم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لهم ماأقلّت الإبل، كانوا يستحسنون الخشَبة والعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويُخَرِّب المؤمنون باقيها . وعن ابن زيد أيضا : كانوا يخربونها لئلا يسكنها المسلمون بعدهم . وقال ابن عباس : كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دُورهم هدموها ليتسع موضع القتال ، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التى بعدها ليتحصنوا فيها، ويرموا

بالتى أخرجوا منها المسلمين . وقيل : ليسدّوا بها أزقّتهم . وقال عكرمة « بأيديهم » فى إخراب دواخلها ومافيها لئلا يأخذه المسلمون . و بـ « أيدى المؤمنين » فى إخراب ظاهرها ليصلوا بذلك إليهم . قال عكرمة : كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل وخربها المسلمون من خارج . وقيل : « يخربون بيوتهم » بنقض المواعدة « وأيدى المؤمنين » بالمقاتلة ؛ قاله الزهرى أيضا . وقال أبو عمرو بن العلاء « بأيديهم » فى تركهم لها . وبـ « أيدى المؤمنين » فى إجلائهم عنها . قال ابن العربى : التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقة ، و إذا كان بنقض العهد كان مجازاً ؛ إلا أن قول الزهرى فى المجاز أمثل من قول أبى عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ ﴾ أى اتعظوا يا أصحاب العقول والألباب . وقيل : يا من عاين ذلك ببصره . فهو جمع للبصر . ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها . ومن وجوهه : أنه سلّط عليهم من كان ينصرهم . ومن وجوهه أيضا : أنهم هدموا أموالهم بأيديهم . ومن لم يعتبر بغيره اعتبر فى نفسه . وفى الأمثال الصحيحة : « السّعيد من وُعظ بغيره » .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ أى لولا أنه قضى أنه سيُجليهم عن دارهم ، وأنهم يبقون مدة فيؤمن بعضهم و يولد لهم من يؤمن . ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ أى بالقتل والسّبى كما فعل ببنى قُرَيظة . والجلاء مفارقة الوطن؛ يقال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء . والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا من وجهين : أحدهما — أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء

الأهل والولد . الثانى — أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة؛ قاله المـاوَرْدِىّ .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الجلاء. ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ أى عادَوْه وخالفوا أمره. ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ ﴾ قرأ طَلْحة بن مُصَرِّف ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ » بإظهار التضعيف كالتى فى « الأنفال »(١) ، وأدغم الباقون .

قوله تعالى : مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ « ما » فى محل نصب بـ « قطعتم » ؛ كأنه قال : أىّ شىء قطعتم . وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بنى النَّضِير — وهى البُوَيْرَة — حين نقضوا العهد بمَعُونة قريش عليه يوم أُحُد ، أمر بقطع نخيلهم و إحراقها . واختلفوا فى عدد ذلك ؛ فقال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة . وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره؛ إمّا لإضعافهم بها و إما لسَعَة المكان بقطعها. فشقّ ذلك عليهم فقالوا — وهم يهود أهل الكتاب — : يا محمد ، ألست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ! ؟ فشق ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ووجد المؤمنون فى أنفسهم حتى اختلفوا ؛ فقال بعضهم : لا تقطعوا مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : اقطعوا لنغيظهم بذلك . فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله . وقال شاعرهم سَمّاك اليهودىّ فى ذلك :

---

(١) آية ١٣

ألسْنَا ورثنا الكتاب الحكيم * على عهد موسى ولم نَصْدِف
وأنتم رِعاءٌ لشاءٍ عِجافٍ * بسَهْلِ تِهامةَ والأخْيَف
تَرَوْن الرعايةَ مجدًا لكم * لدى كلِّ دهرٍ لكم مُجحِف
فيأيها الشاهدون آنتهُوا * عن الظلم والمنطق المُؤْنِف
لعل الليالى وصَرْفَ الدُّهور * يُدِلْن من العادل المنصف
بقتل النَّضير وإجلائها[1] * وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَف

فأجابه حسان بن ثابت :

تفاقد مَعْشَرٌ[2] نصرُوا قريشًا * وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُو أوتوا الكتاب فضيَّعوه * وهم عُمْىٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرآن وقد أبيتم[3] * بتصديق الذى قال النذير
وهان على سَرَاة بنى لُؤَىّ * حريقٌ بالبُوَيرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

أدام الله ذلك من صنيع * وحرّق فى نواحيها[4] السَّعيرُ
ستعلم أيُّنا منها بنُزْهٍ * وتعلم أىُّ أرْضَيْنا تَضير
فلو كان النخيل بها رِكابًا * لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا

الثانيــة ــ كان خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم فى ربيع الأوّل أوّل السنة الرابعة من الهجرة ، وتحصّنوا منه فى الحصون ، وأمر بقطع النخل وإحراقها ، وحينئذ نزل تحريم الخمر . ودَسّ عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بنى النَّضير : إنّا معكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ؛ فآغترّوا بذلك . فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن

---

(١) فى سيرة ابن هشام : « وأجلائها » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « تفاهد » .
(٣) فى السيرة : « أتيتم » . (٤) فى السيرة : « فى طرائقها » .

دمائهم وبِحُليِّهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم؛ كحُيَيّ بن أَخْطب، وسَلّام بن أبى الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع. فدانت لهم خَيْبر.

الثالثة — ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع نخل بنى النَّضير وحرّق. ولها يقول حسان:

وهان على سَراة بنى لُؤَىّ * حريقٌ بالبُوَيْرة مستطير

وفى ذلك نزلت « ما قطعتُم من لِينَةٍ » الآية.

واختلف الناس فى تخريب دار العدو وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأول — أن ذلك جائز؛ قاله فى المدونة. الثانى — إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا، وإن يئسوا فعلوا؛ قاله مالك فى الواضحة. وعليه يناظر أصحاب الشافعى. ابن العربى: والصحيح الأول. وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخل بنى النَّضير له؛ ولكنه قطع وحرّق ليكون ذلك نكاية لهم ووَهْنًا فيهم حتى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحةٌ جائزة شرعا، مقصودٌ عقلا.

الرابعة — قال الماوردىّ: إن فى هذه الآية دليلًا على أن كلّ مجتهد مصيب. وقاله الكِيَا الطبرىّ قال: وإن كان الاجتهاد يبعد فى مثله مع وجود النبىّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت؛ فتلقَّوا الحكم من تقريره فقط. وقال ابن العربىّ: وهذا باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم؛ ولا اجتهاد مع حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يدل على اجتهاد النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه؛ أخذًا بعموم الإذاية للكفار، ودخولا فى الاذن للكل بما يقضى عليهم بالاجتياح والبَوار؛ وذلك قوله تعالى: « وليُخْزِىَ الفاسِقين ».

الخامسة — اختلف فى اللِّينة ما هى؛ على أقوال عشرة: الأول — النخل كله إلا العَجْوة؛ قاله الزهرىّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل. وعن ابن عباس ومجاهد

والحسن : أنها النخل كله ، ولم يستثنوا عَجْوة ولا غيرها . وعن ابن عباس أيضا : أنها لون من النخل . وعن الثَّوْرىّ : أنها كرام النخل . وعن أبى عبيدة : أنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْنِىّ[1] . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصّةً . وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام فى السفينة . والعتيق : الفحل . وكانت العَجْوة أصل الإناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها ؛ حكاه الماوردىّ . وقيل : هى ضرب من النخل يقال لتمره : اللّون ، تمره أجود التمر ، وهو شديد الصفرة ، يُرَى نواه من خارجه ويغيب فيه الضِّرس ؛ النخلة منها أحبّ إليهم من وَصِيف . وقيل : هى النخلة القريبة من الأرض . وأنشد الأخفش :

قد شجانى الحمام حين تَغَنَّى * بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ

وقيل : إن اللِّينة الفَسِيلة ؛ لأنها ألين من النخلة . ومنه قول الشاعر :

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين * ثم حَفُّوا النخيل بالآجام

وقيل : إن اللِّينة الأشجارُ كلّها للينها بالحياة ؛ قال ذو الرُّمّة :

طِراقُ الخَوَافِى واقعٌ فوق لِينة * نَدَى لَيْلِه فى ريشه يترقرق

والقول العاشر — أنها الدَّقَل ؛ قاله الأصمعى . قال : وأهل المدينة يقولون لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان ؛ يعنون الدَّقَل . قال ابن العربىّ : والصحيح ما قاله الزهرىّ ومالك لوجهين : أحدهما — أنهما أعرف ببلدهما وأشجارهما . الثانى — أن الاشتقاق يَعْضُده وأهل اللغة يصححونه ؛ فإن اللِّينة وزنها لُونة ، واعتلّت على أصولهم فآلت إلى لِينة فهى لَون ، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها ؛ كبَرْك الصدر (بفتح الباء) وبِرْكه (بكسرها) لأجل الهاء . وقيل لِينة أصلها لِوْنة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وجمع اللينة لِين . وقيل لِيان ؛ قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه :

وسالفة كسَحُوقِ اللِّيا * نِ أضْرَمَ فيها الغَوِىُّ السُّعُرْ

---

(1) (البرنى بفتح فسكون) : ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء ، عذب الحلاوة .

وقال الأخفش : إنما سميت لينة اشتقاقا من اللّون لا من اللين . المهدوىّ : واختلف في اشتقاقها ؛ فقيل : هي من اللون وأصلها لُونة . وقيل : أصلها لِينة من لان يلين . وقرأ عبد الله « ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قوماء على أصولها » أى قائمة على سوقها . وقرأ الأعمش « ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولها » المعنى لم تقطعوها . وقرئ « قُوْماء على أُصُلِها » . وفيه وجهان : أحدهما — أنه جمع أصلٍ ؛ كرَهْن ورُهُن . والثانى — اكتُفِي فيه بالضمة عن الواو . وقرئ « قائما على أصوله » ذهابا إلى لفظ « ما » . ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بأمره ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى ليذلّ اليهود الكفار به وبنبيّه وكتبه .

قوله تعالى : وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ يعنى ما ردّه الله تعالى ﴿ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من أموال بنى النَّضير . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أوضعتم عليه . والإيجاف : الإيضاع في السير وهو الإسراع ؛ يقال : وَجَف الفرسُ إذا أسرع ، وأوجفته أنا أى حركته وأتعبته ؛ ومنه قول تميم بن مقبل :

مَذاويد بالبيض الحديث صِقالُها * عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

والركاب الإبل ، واحدها راحلة . يقول : لم تقطعوا إليها شُقّة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ؛ وإنما كانت من المدينة على مِيلَيْن . قال الفرّاء : فمشَوا إليها مَشْيًا ولم يركبوا خيلا

ولا إبلا ؛ إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف ، فافتتحها صلحا وأجلاهم وأخذ أموالهم . فسأل المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقسم لهم، فنزلت « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهم فما أوْجَفْتُمْ عَلَيه » الآية . فجعل أموال بنى النّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً يضعها حيث شاء؛ فقسمها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين. قال الواقديّ ورواه ابن وهب عن مالك : ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين ؛ منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة ، وسهل بن حُنيف ، والحارث بن الصِّمّة . وقيل : إنما أعطى رجلين، سهلًا وأبا دُجَانة . ويقال : أعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفا له ذِكْرٌ عندهم . ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : سفيان ابن عمير، وسعد بن وهب ؛ أسلما على أموالهما فأحرزاها . وفى صحيح مسلم عن عمر قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنة، وما بقى يجعله فى الكُرَاع والسلاح عُدّة فى سبيل الله تعالى. وقال العباس لعمر ــ رضى الله عنهما ــ : اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ــ يعنى عليًّا رضى الله عنه ــ فيما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير. فقال عمر: أتعلمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا نُورَثُ ما تركناه صدقة" قالا نعم . قال عمر : ان الله عز وجل كان خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم بخاصة لم يُخَصِّص بها أحدًا غيره . قال : « ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ مِن أهْلِ القُرَى فَلِلّهِ ولِلرّسُولِ » (ما أدرى هل قرأ الآيةَ التى قبلها أم لا) فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم أموال بنى النّضير ، فوالله مااستأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقى هذا المال . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى أُسْوَةَ المال ... الحديث بطوله ، خرّجه مسلم. وقيل : لما ترك بنو النّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم؛ فبيّن الله تعالى أنها فَيْءٌ، وكان قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حُوصِرُوا أيامًا وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق . بل جرى مبادئ القتال و جرى الحصار،

وخص الله تلك الأموال برسوله صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد: أعلمهم الله تعالى وذكّرهم أنه إنما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم ونصرهم بغير كُراع ولا عُدّة . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ أى من أعدائه . وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصّةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هى قُرَيظة والنَّضير، وهما بالمدينة وفَدَك ، وهى على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبر. وقُرى عُرَينة ويَنْبُع جعلها الله لرسوله . وبيّن أن فى ذلك المال الذى خصه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول نظراً منه لعباده . وقد تكلم العلماء فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التى فى الأنفال؛ فقال قوم من العلماء : إن قوله تعالى: « ما أفاء الله على رسوله من أهل القُرَى» منسوخ بما فى سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمّىَ له ، والأخماس الأربعة لمن قاتل . وكان فى أوّل الإسلام تُقسم الغَنيمة على هذه الأصناف ولا يكون لمن قاتل عليها شىء . وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما . ونحوه عن مالك . وقال قوم : إنما غنم بصلح من غير إيجاف خَيْل ولا رِكاب؛ فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فَيْئاً والأولى للنبىّ صلى الله عليه وسلم خاصّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقى فى مصالح المسلمين . وقال معمر : الأولى للنبىّ صلى الله عليه وسلم . والثانية هى الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه . والثالثة الغنيمة فى سورة الأنفال للغانمين . وقال قوم منهم الشافعىّ : إن معنى الآيتين واحد؛ أى ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وكان الخمس الباقى على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ، وسهم لذوى القربى — وهم بنو هاشم و بنو المطلب — لأنهم مُنِعوا الصدقة فجعل لهم حق فى الفىء . وسهم لليتامى . وسهم للساكين . وسهم لابن السبيل . وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذى كان من الفىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعىّ فى قول إلى المجاهدين المترصدين للقتال فى الثغور؛ لأنهم القائمون

مقام الرسول عليه الصلاة والسلام . وفي قول آخر له : يصرف إلى مصالح المسلمين من سدّ الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يُقدّم الأهم فالأهم؛ وهذا في أربعة أخماس الفيء فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : " ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " . وقد مضى القول فيه في سورة « الأنفال »(١) . وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يُصرف عنه إلى مصالح المسلمين؛ كما قال عليه السلام : " إنا لا نورث ما تركناه صدقة " . وقيل : كان مال الفيء لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسولِه » فأضافه إليه؛ غير أنه كان لا يتأثّل(٢) مالاً، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عياله ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا إشكال أنها ثلاثة معانٍ في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِم لِأَوَّلِ الحَشْرِ » ثم قال تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ » يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يريد كما بيّنا؛ فلاحق لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنها كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يعني بني النضير وما كان مثلها . فهذه آية واحدة ومعنًى متحد . الآية الثانية ــ قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ » وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الاول . وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة، ولا شك في أنه معنًى آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر، بَيْدَ أن الآية الأولى والثانية، اشتركا في أن كل واحدة منهما تضمّنت شيئًا أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثالثة وهي قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى » عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من هاهنا، فمن طائفة قالت : هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كله ونحوه .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) المتأثل : الجامع .

ومن طائفة قالت : هى ملحقة بالثانية وهى آية الأنفال . والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ؛ هل هى منسوخة — كما تقدّم — أو محكمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالأولى أولى ؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى . ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلا عن الآية على فائدة متجدّدة أولى من حمله على فائدة معادة» . وروى ابن وهب عن مالك فى قوله تعالى : « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » بنى النضير . لم يكن فيها خمس ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب . كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار؛ حسب ما تقدّم . وقوله : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » هى قُرَيظة، وكانت قريظة والخندق فى يوم واحد . قال ابن العربى : قول مالك إن الآية الثانية فى بنى قُريظة ، إشارةٌ إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ . وهذا أقوى من القول بالإحكام . ونحن لا نختار إلا ما قسمنا و بينا أن الآية الثانية لها معنى مجدّد حسب ما دلّلنا عليه . والله أعلم .

قلت — ما اختاره حَسَن . وقد قيل : إن سورة « الحشر » نزلت بعد الأنفال ، فمن المحال أن ينسخ المتقدّمُ المتأخر . وقال ابن أبى نجيح : المال ثلاثة : مَغْنم ، أو فَىْءٌ ، أو صَدَقة؛ وليس منه درهم إلا وقد بيّن الله موضعه . وهذا أشبه .

الثالثة — الأموال التى للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ ثلاثةُ أَضْرُب : ما أُخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم ؛ كالصدقات والزكوات . والثانى — الغنائم ؛ وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلَبة . والثالث — الفَىْء ؛ وهو ما رجع للسلمين من أموال الكفار عفوًا صفوًا من غير قتال ولا إيجاف ؛ كالصلح والجزْية والخراج والعُشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون و يتركوا أموالهم ، أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام لا وارث له . فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها ؛ حسب ما ذكره الله تعالى ، وقد مضى فى « براءة »[1] . وأما الغنائم فكانت

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

فى صدر الإسلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء؛ كما قال فى سورة « الأنفال » : « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ، ثم نسخ بقوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » الآية. وقد مضى فى الأنفال بيانه [1] . فأما الفَيْء فقسمته وقسمة الخمس سواء . والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل ، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قَسَمه كلَّه بين الناس، وسوّى فيه بين عَرَبيهم ومَوْلاهم . ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا ، ويعطوا ذَوُو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفيء سهمهم على مايراه الإمام، وليس له حدّ معلوم . واختلف فى إعطاء الغنيّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حقٌّ لهم . وقال مالك : لا يعطى منه غير فقرائهم ؛ لأنه جُعل لهم عوضًا من الصدقة . وقال الشافعى : أيما حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهما : عشرون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ما يشاء . والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغَنيمة . قال أبو جعفر أحمد ابن نصر الدّاوُدىّ : وهذا قولٌ ما سبقه به أحد علمناه ، بل كان ذلك خالصا له ؛ كما ثبت فى الصحيح عن عمر مبيِّنا للآية . ولو كان هذا لكان قوله : « خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » [2] يدل على أنه يجوز الموهوبة لغيره، وأن قوله : « خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [3] يجوز أن يشركهم فيها غيرهم . وقد مضى قول الشافعىّ مستوعَبًا فى ذلك والحمد لله . ومذهب الشافعىّ رضى الله عنه : أن سبيل خمس الفَيء سبيل خمس الغَنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهى بعده لمصالح المسلمين . وله قول آخر : أنها بعده للرصدين أنفسَهم للقتال بعده خاصة ؛ كما تقدم .

الرابعة — قال علماؤنا : ويقسم كل مال فى البلد الذى جُبِيَ فيه ، ولا ينقل عن ذلك البلد الذى جُبِيَ فيه حتى يَغْنَوْا ، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم ؛ إلا أن ينزل بغير البلد الذى جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة ، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا ؛ كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أعوام الرَّمادة ، وكانت خمسة أعوام أو ستة . وقد قيل عامين . وقيل :

(١) راجع جـ ٨ ص ٩ (٢) آية ٥٠ سورة الأحزاب . (٣) آية ٣٢ سورة الأعراف .

عام فيه اشتدّ الطاعون مع الجوع . وإن لم يكن ما وصفنا ورأى الإمام إيقاف الفَىْء أوقفه لنوائب المسلمين ؛ ويعطى منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير . والفىء حلال للأغنياء . ويسوّى بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة . والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة . ويعطى منه الغرماء ما يؤدّون به ديونهم . ويعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلا ؛ ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للسلمين . وأوْلاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للسلمين نفعًا . ومن أخذ من الفىء شيئا فى الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزى .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾ قراءة العامة « يكون » بالياء . « دُولَةً » بالنصب ؛ أى كى لا يكون الفَىْء دُولةً . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام — عن ابن عامر — وأبو حَيْوَة « تكون » بتاء « دُولةٌ » بالرفع ؛ أى كى لا تقع دُولة . فكان تامة . و « دُولَةٌ » رفع على أسم كان ولا خبر له . ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها « بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » . وإذا كانت تامة فقوله : « بين الأغنياء منكم » متعلق بـ « دُولة » على معنى تداول بين الأغنياء منكم . ويجوز أن يكون « بين الأغنياء منكم » وصفا لـ « دولة » . وقراءة العامة « دُولة » بضم الدال . وقرأها السُّلَمِىّ وأبو حَيْوَة بالنصب . قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى : هما لغتان بمعنًى واحد . وقال أبو عمرو بن العَلَاء : الدَّوْلَة (بالفتح) الظَّفَر فى الحرب وغيره ؛ وهى المصدر . وبالضم آسم الشىء الذى يُتداول من الأموال . وكذا قال أبو عبيدة : الدُّولة آسم الشىء الذى يتداول . والدَّوْلة الفعل . ومعنى الآية : فعلنا ذلك فى هذا الفَىْء ؛ كى لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه ؛ وهو المِرْباع . ثم يصطفى منها أيضا بعد المِرْباع ما شاء . وفيها قال شاعرهم :

* لك المِــرْباع منهـا والصَّفايا (١) *

---

(١) البيت بتمامه .

لك المرباع منهـا والصـفايا * وحكمك والنشيطـة والفضول

وهو لعبد الله بن عنمة الضبى يخاطب بسطام بن قيس . والنشيطة ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما .

يقول: كي لا يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية . فجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس ، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعا

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أي ما أعطاكم من مال الغَنيمة فخذوه ، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول فانتهوا ؛ قاله الحسن وغيره . السُّدّي : ما أعطاكم من مال الفَيْء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه . وقال ابن جُريج : ما آتاكم من طاعتي فافعلوه ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه . الماوَرْدي : وقيل إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه ؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد .

قلت : هذا هو معنى القول الذي قبله . فهي ثلاثة أقوال .

السابعة ــ قال المهدوي : قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ من الله تعالى . والآية وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها . وقال الحَكَم بن عُمير ــ وكانت له صحبة ــ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن صَعْبٌ مُسْتَصْعَب عسير على من تركه يسير على من اتبعه وطلبه . وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن . ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة . وأمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » " .

الثامنة ــ قال عبد الرحمن بن زيد : لقي ابن مسعود رجلاً مُحرِماً وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا . فقال الرجل أتقرأ عليّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى ؟ قال : نعم ، « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابي : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ قال فقلت له : ما تقول ــ أصلحك الله ــ في المُحْرِم يقتل الزُّنْبور ؟ قال فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وحدثنا سُفيان بن عُيَيْنة عن عبدالملك بن عُمير عن رِبْعِيّ بن حِراش عن حُذيفة بن اليَمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر " . حدثنا سفيان ابن عُيينة عن مِسْعَر بن كِدَام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أنه أمر بقتل الزُّنبور . قال علماؤنا : وهذا جواب في نهاية الحسن؛ أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيّن أنه يقتدي فيه بعمر، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به ، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبيّ صلى الله عليه وسلم . فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة . وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات الأولاد فقال : هن أحرار في سورة « النساء » عند قوله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »[1] . وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الواشماتِ والمُستوشِماتِ والمُتنمِّصاتِ[2] والمُتفلِّجاتِ للحُسْن المُغيِّرات خلقَ الله " فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت : بلغني أنك لعنتَ كَيْتَ وكَيْتَ ! فقال . ومالِيَ لا ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله ! فقالت : لقد قرأت ما بين اللَّوْحين فما وجدت فيه ما تقول . فقال : لئن كنتِ قرأتِيه لقد وجدتِيه ! أما قرأت « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ! قالت : بلى . قال : فإنه قد نَهى عنه . الحديث[3] . وقد مضى القول فيه في « النساء » مستوفًى .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة فإن معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقابله بالنهي ، ولا يقابل النهي إلا بالأمر؛ والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبلُ مع قوله عليه الصلاة والسلام : " إذا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) المتنمصات : (جمع متنمصة) وهي التي تنتف الشعر من وجهها . والمتفلجات : (جمع متفلجة) وهي التي تتكلف أن تفرق بين سنها من الثنايا والرباعيات .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٢

أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " . وقال الكلبي : إنها نزلت فى رؤساء المسلمين ، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من أموال المشركين : يا رسول الله ، خذ صَفِيّك والرُّبع ، ودعْنا والباقى ؛ فهكذا كنا نفعل فى الجاهلية . وأنشدوه :

لك المِرْباع منها والصَّفايا * وحُكْمُك والنَّشيطة والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العاشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى عذاب الله . إنه شديد لمن عصاه . وقيل : اتقوا الله فى أوامره ونواهيه فلا تضيعوها . ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به .

قوله تعالى : لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

أى الفَيْء والغنائم « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » . وقيل : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ » ولكن يكون « للفقراء » . وقيل : هو بيـان لقوله : « وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » فلما ذُكروا بأصنافهم قيل المـال لهؤلاء ، لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أخرجوا من ديارهم ؛ فهم أحق الناس به . وقيل : « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ » للفقراء المهاجرين لكيلا يكون المـال دولة للأغنياء من بنى الدنيـا . وقيل : والله شديد العـقاب للمهاجرين ؛ أى شديد العـقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم . ودخل فى هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم فى قوله تعـالى : « وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » . وقيل : هو عطف على مامضى ، ولم يأت بواو العطف كقولك : هذا المـال لزيد لبكر لفلان لفلان . والمهاجرون هنا من هاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم حُبًّا فيه ونُصْرَةً له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله ولرسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يَعْصب الحجر على بطنه ليقيم به صُلْبَه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحَفِيرة فى الشتاء

ماله دِثار غيرها . وقال عبد الرحمن بن أبزَى وسعيد بن جبير : كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجّ عليها و يغزو ، فنسبهم الله إلى الفقر وجعل لهم سهمًا فى الزكاة . ومعنى « أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم » أى أخرجهم كفار مكة؛ أى أحوجوهم إلى الخروج ؛ وكانوا مائة رجل . ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون . ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى غنيمة فى الدنيا ﴿ وَرِضْوانًا ﴾ فى الآخرة ؛ أى مرضاة ربهم . ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد فى سبيل الله . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى فعلهم ذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجابية (1) فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبَيّ بن كعب . ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت . ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ؛ فإن الله تعالى جعلنى له خازنا وقاسما . ألا وإنى بادٍ بأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ؛ أنا وأصحابى أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ لا خلاف أن الذين تبوءوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها . « والإيمانَ » نصب بفعل غير تبوأ؛ لأن التبوء إنما يكون فى الأماكن . و﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ « من » صلة تبوأ والمعنى : والذين تبوءوا الدار من قبل المهاجرين واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ؛ لأن الإيمان

(1) بلدة بدمشق .

ليس بمكان يتبوأ . كقوله تعالى : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ »(1) أى وادعوا شركاءكم ؛ ذكره أبو علىّ والزمخشرىّ وغيرهما . ويكون من باب قوله : عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . ويجوز حمله على حذف المضاف كأنه قال : تبوءوا الدار ومواضع الإيمان . ويجوز حمله على ما دل عليه تبوأ ؛ كأنه قال : لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما . ويجوز أن يكون تبوأ الإيمان على طريق المَثَل ؛ كما تقول : تبوأ من بنى فلان الصميم . والتبوُّء : التمكن والاستقرار . وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم .

الثانيــة — واختلف أيضا هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها أو معطوفة ؛ فتأول قوم أنها معطوفة على قوله : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » وأن الآيات التى فى الحشر كلها معطوفة بعضها على بعض . ولو تأملوا ذلك وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه ؛ لأن الله تعالى يقول : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيارِهِم لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا — إلى قوله — الفاسقين » فأخبر عن بنى النَّضير وبنى قَيْنُقاع . ثم قال : « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنهم فما أوْجَفْتُمْ عليهِ مِنْ خَيْلٍ ولا رِكابٍ ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على من يشاء » فأخبر أن ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يُوجف عليه حين خلّوه . وماتقدم فيهم من القتال وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر . ثم قال : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » وهذا كلام غير معطوف على الأوّل . وكذا « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ » ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ؛ فإنهم سلّموا ذلك الفىء للمهاجرين ؛ وكأنه قال : الفىء للفقراء المهاجرين ؛ والأنصار يحبون لهم لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الفىء . وكذا « والذين جاءوا من بعدهم » ابتداء كلام ؛ والخبر « يقولون رَبَّنَا اغفر لنا » . وقال إسماعيل ابن إسحاق : إن قوله « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » « والذين جاءوا » معطوف على ما قبلُ ، وأنهم

(1) آية ٧١ سورة يونس .

شركاء في الفيء ؛ أي هذا المال للهاجرين والذين تبوءوا الدار . وقال مالك بن أوس : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « ما أفاء الله على رسوله — حتى بلغ — للفقراء المهاجرين » ، « والذين تبوءوا الدار والإيمان » ، « والذين جاءوا من بعدهم » ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعيَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر[1] نصيبه منها لم يَعْرَق فيها جبينه . وقيل : إنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك، وقال لهم : تثبتوا الأمر وتدبروه ثم آغدوا عليّ . ففكر في ليلته فتبين له أن هذه الآيات في ذلك أنزلت . فلما غَدَوْا عليه قال : قد مررت البارحة بالآيات التي في سورة « الحشر » وتلا « ما أفاءَ اللهُ على رسوله من أهل القُرَى — إلى قوله — للفقراء المهاجرين » فلما بلغ قوله : « أولئك هم الصادقون » قال : ما هي لهؤلاء فقط . وتلا قوله « والذين جاءوا من بعدهم — إلى قوله — رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك . والله أعلم .

الثالثة — روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال : لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَيْبَر . وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة ، أن عمر أبقى سواد العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم ؛ لتكون من أُعطيات المقاتلة وأرزاق الحشوة والذَّراري ، وأن الزبير وبلالاً وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم ؛ فكره ذلك منهم . واختلف فيما فعل من ذلك ؛ فقيل : إنه استطاب أنفس أهل الجيش ؛ فمن رضي له بترك حَظّه بغير ثمن لِيُبْقِيَه للسلمين قبله . ومن أبى أعطاه ثمن حظه . فمن قال : إنما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعل فعله كفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قسم خَيْبر ، لأن اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها . وقيل : إنه أبقاها بغير شيء أعطاه أهل الجيوش . وقيل : إنه

(١) سرو حمير : منازل حمير بأرض اليمن . والسرو من الجبل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل .

تأوّل فى ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « للفقراء المهاجرين ـ إلى قوله ـ ربّنا إنك رءوف رحيم » على ما تقدّم . والله أعلم .

الرابعة ـ واختلف العلماء فى قسمة العَقار ؛ فقال مالك : للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين . وقال أبو حنيفة : الإمام مخيّر بين أن يقسمها أو يجعلها وقْفًا لمصالح المسلمين . وقال الشافعيّ : ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم ، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال . فمن طاب نفسًا عن حقه للإمام أن يجعله وقْفًا عليهم فله . ومن لم تَطِب نفسُه فهو أحق بماله . وعمر رضى الله عنه استطاب نفوس الغانمين وآشتراها منهم .

قلت : وعلى هذا يكون قوله : « والذين جاءوا من بعدهم » مقطوعًا مما قبله ، وأنهم نُدبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم .

الخامسة ـ قال ابن وهب : سمعت مالكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تُبوِّئت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القُرَى افتتحت بالسيف ؛ ثم قرأ « والذين تبوّءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم » الآية . وقد مضى الكلام فى هذا ، وفى فضل الصلاة فى المسجدين : المسجد الحرام ومسجد المدينة ؛ فلا معنى للإعادة .

السادسة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَىْء وغيره ؛ كذلك قال الناس . وفيه تقدير حذف مضافين ؛ المعنى مَسّ حاجةٍ من فَقْدِ ما أوتوا . وكل ما يجد الإنسان فى صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة . وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فلما غَنِم عليه الصلاة والسلام أموال بنى النضير ، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم . ثم قال : " إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النَّضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم " . فقال سعد بن عُبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسلّمنا يارسول الله . فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار " . وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم . ويحتمل أن يريد به «ولا يَجِدُون فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلا [بل] يقنعون به ويرضون عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم دُنْيا ، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم بحكم الدنيا . وقد أنذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : " سترون بعدى أَثَرَة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض " .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فى الترمذيّ عن أبى هريرة : أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه؛ فقال لامرأته : نوّمى الصِّبية وأطفئى السِّراج وقرّبى للضيف ماعندك؛ فنزلت هذه الآية «ويُؤْثِرُون على أنفسِهِم ولو كان بهم خَصَاصةٌ» قال : هذا حديث حسن صحيح . خرّجه مسلم أيضا . وخرّج عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود . فأرسل الى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل الى الأخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلهنّ مثلَ ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال : "مَن يُضيف هذا الليلة رحمه الله . ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله. فانطلق به الى رحلِه فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت: لا ، إلا قُوت صِبيانى . قال : فَعلِّليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئى السِّراج وأرِيه أنا نأكل ؛ فإذا أهوى ليأكل فقومى الى السراج حتى تطفئيه . قال : فقعدوا وأكل الضيف . فلما أصبح غدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " قد عَجِبَ اللهُ — عز وجل — من صنيعكما بضيفكما الليلة " . وفى رواية عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضيفه فلم يكن عنده مايضيفه . فقال : " ألا رجل يضيف هذا رحمه الله " ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة ، فانطلق به الى رحله ... ؛ وساق الحديث بنحو الذى قبله ، وذكر فيه نزول الآية . وذكر المهدويّ عن أبى هريرة أن هذا نزل فى ثابت بن قيس ورجل

من الأنصار — نزل به ثابت — يقال له أبو المتوكل ، فلم يكن عنـد أبى المتوكل إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ وقدّم ما كان عنده الى ضيفه . وكذا ذكر النحاس قال قال أبو هريرة : نزل برجل من الأنصار — يقال له أبو المتوكل — ثابت بن قيس ضيفًا ، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ فنزلت « ويُؤْثِرُونَ علَى أنفسِهِم ولو كان بِهِم خصاصة — الى قوله — فأولئك هُمُ المُفْلِحُونَ » . وقيـل : إن فاعل ذلك أبو طلحة . وذكر القشيرى أبو نصر عبد الرحيم ابن عبد الكريم : وقال ابن عمر أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج الى هذا منا ؛ فبعثه إليهم ؛ فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها سبعة أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِم » . ذكره الثعلبى عن أنس قال : أُهدِىَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة وكان مجهودا فوجّه به الى جارٍ له ، فتداولته سبعة أنفس فى سبعة أبيات ، ثم عاد الى الأول ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِم » الآية . وقال ابن عباس قال النبى صـلى الله عليه وسلم للأنصار يوم بنى النَّضِير : " إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم فى هـذه الغنيمة وإن شـئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئا " فقالت الأنصـار : بل نقسم لإخواننـا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهـم بالغنيمة ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِـم » الآية . والأول أصح . وفى الصحيحين عن أنس : أن الرجل كان يجعل للنبى صـلى الله عليه وسـلم النَّخَلات من أرضه حتى فُتِحت عليـه قُرَيْظة والنَّضِير ؛ فجعل بعد ذلك يردّ عليه ما كان أعطاه . لفظ مسـلم . وقال الزّهرى عن أنس بن مالك : لمـا قـدم المهاجرون من مكة المدينةَ قَدِموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعَقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطَوْهم أنصاف ثمـار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمَؤُونة ؛ وكانت أم أنس بن مالك تُدْعَى أمّ سُلَيم ، وكانت أمّ عبدِ الله بن أبى طلحة ، كان أخًا لأَنَس لأمّه ؛ وكانت أعطت أمّ أنَس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عِذاقًا[1] لهـا ؛ فأعطاها رسول الله صلى

(١) العذاق : بكسر العين جمع عذق بفتحها ومعناها النخلات .

الله عليه وسلم أمّ أيمن مولاته ، أمّ أسامة بن زيد . قال ابن شهاب : فأخبرني أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم . قال : فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عِذاقها، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ أيمن مكانهنّ من حائطه . خرّجه مسلم أيضا .

الثامنة — الإيثار، هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية، ورغبةً في الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة . يقال : آثرته بكذا ؛ أي خَصصته به وفضّلته . ومفعول الإيثار محذوف ؛ أي يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غِنًى بل مع احتياجهم إليها ؛ حسب ما تقدّم بيانه . وفي مُوطّأ مالك : « أنه بلغه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن مسكينا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ؛ فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ؛ فقالت : ليس لكِ ما تُفطِرين عليه ؛ فقالت : أعطيه إياه . قالت : ففعلت . قالت : فلما أمسينا أهدى لنا أهلُ بيت أو إنسانٌ ما كان يُهدى لنا : شاةً وكَفَنَها (1) . فدعتني عائشة فقالت : كُلِي من هذا ، فهذا خير من قُرصك . قال علماؤنا : هذا من المال الرابح والفعل الزاكي عند الله تعالى يعجل منه ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدّخر عنه . ومن ترك شيئا لله لم يجد فَقْده . وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة ، وأن من فعل ذلك فقد وُقِيَ شُحّ نفسه وأفلح فلاحًا لا خَسارة بعده . ومعنى (شاةً وكَفَنَها) فإن العرب — أو بعض العرب أو بعض وجوههم — كان هذا من طعامهم ، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غطّوه كلّه بعجين البُرّ وكَفّنوه به ثم علّقوه في التَّنّور ، فلا يخرج من وَدَكه شيء إلا في ذلك الكفن ؛ وذلك من طيب الطعام عندهم . وروى النَّسائيّ عن نافع

(1) أي أنها كانت ملفوفة بالرغف ؛ وسيأتي معناه بأوضح من هذا . وقولها : « ما كان يهدى لنا » تريد أن عائشة رضي الله عنها لم تعلم بذلك ولم تحتسب به فتثق به وتعول عليه ، ولكن الله سبحانه عوضها من حيث لا تحتسب (شرح الموطأ) .

أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبا ، فاشْتُرِى له عنقود بدرهم ، فجاء مسكين فسأل ؛ فقال : أعطوه إياه ؛ فخالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر ، فجاء المسكين فسأل ، فقال : أعطوه إياه ؛ ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إليه ؛ فأراد السائل أن يرجع فمنع . ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه؛ لأن ما خرج لله لا يعود فيه . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا محمد بن مطرف قال حدّثنا أبو حازم عن عبد الرحمن بن سعيد ابن يَرْبُوع عن مالك الدار : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها فى صُرّة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجرّاح، ثم تَلَكَّأْ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها . فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ؛ فقال : وَصَلَه الله ورَحمه، ثم قال : تعالى يا جارية، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان؛ حتى أنفذها . فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل ؛ وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل؛ وتَلَكَّأْ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع؛ فذهب بها إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ؛ فقال : رحمه الله ووَصَله ، وقال : يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا و بيت فلان بكذا ؛ فاطّلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن !والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها . فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسُرّ بذلك عمر وقال : إنهم إخوة ! بعضُهم من بعض . ونحوه عن عائشة رضى الله عنها فى إعطاء معاوية إياها ؛ وكان عشرة آلاف وكان المُنْكَدِر دخل عليها . فإن قيل : وردت أخبار صحيحة فى النّهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء ؛ قيل له : إنما كره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه . فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم ، فلم يكونوا بهذه الصفة؛ بل كانوا كما قال الله تعالى : « وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ »(1) . وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك . والإمساك لمن لا يصبر

(1) آية ١٧٧ سورة البقرة .

ويتعرض للسألة أولى من الإيثار . وروى أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال : هــذه صدقة ؛ فرماه بها وقال : " يأتى أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفّف الناس " . والله أعلم .

التاسعـــة : — والإيثار بالنفس فـوق الإيثار بالمـال وإن عاد إلى النفس . ومن الأمثال السائرة :

* والجُودُ بالنّفس أقصَى غاية الجُودِ(1) *

ومن عبارات الصوفية الرشيقة فى حدّ المحبـة : أنها الإيثار ؛ ألا ترى أن امرأة العزيز لـمّـا تناهت فى حُبّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت : أنا راودته عن نفسه . وأفضل الجود بالنفس الجودُ على حماية رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ ففى الصحيح أن أبا طَلْحة تَرّس على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحد ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتطلّع ليرى القوم . فيقول له أبو طلحة : لا تُشرف يا رسـول الله ! لا يصيبونك ! نحـرى دون نحرك ! ووَقَى بيده رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فشَلّت . وقال حُذيفة العَدَوِىّ : انطلقت يوم اليَرْمُوك أطلب ابن عمٍّ لى — ومعى شىء من المـاء — وأنا أقـول : إن كان به رَمَقٌ سـقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؛ فأشار برأســه أنْ نَعم ؛ فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم . فسمع آخر يقول : آه ! آه ! فأشار هشام أن انطلق إليـه ؛ فجئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قـد مات . فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات . وقال أبو يزيد البِسْطَامِىّ : ما غَلَبَنِى أحد ما غلبنى شابٌّ من أهل بَلْخ ؛ قَدِم علينا حاجًّا فقال لى : يا أبا يزيد ، ما حَدُّ الزهـد عندكم ؟ فقلت : إنْ وَجَدْنا أكلنا ، وإن فقـدنا صَبَرْنا .

---

(1) هو من بيت لمسلم بن الوليد، صدره :

* تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها *

يقول : تجود بنفسك فى الحرب إذ أنت الضنين بها فى الذم . ويروى :

* يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها *

فقال : هكذا كلاب بلخ عنـدنا . فقلت : وما حدّ الزهد عندكم ؟ قال : إن فقـدنا شكرنا وإن وجدنا آثارنا . وسُئل ذو النُّون المصرى : ما حدّ الزاهد المنشرح صدره ؟ قال ثلاث : تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القُوت . وحكى عن أبى الحسن الأنطاكى : أنه ٱجتمع عنده نَيِّف وثلاثون رجلا بقرية من قُرَى الرِّيّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهـم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا ؛ إيثارًا لصاحبه على نفسه .

العاشـــرة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الخصاصة : الحاجة التى تختل بها الحال . وأصلها من الاختصاص وهــو الانفراد بالأمر . فالخصاصة الانفراد بالحاجة؛ أى ولو كان بهم فاقة وحاجة . ومنه قول الشاعر :

أمّا الربيع إذا تكون خصاصـة * عاش السقيم به وأثْرَى الْمُقْـتِرُ

الحادية عشرة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الشح والبُخْل سواء ؛ يقال : رجل شحيح بيّن الشُّح والشَّح والشَّحاحة . قال عمرو بن كلثوم :

ترى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أُمِرّتْ (١) * عليـــه لِمـالِه فيهـا مُهِينـــا

وجعل بعض أهــل اللغة الشُّحّ أشـدّ من البخل . وفى الصحاح : الشح البخل مـع حِرص ؛ تقول : شَحِحت (بالكسر) تَشَح . وشَحَحْتَ أيضا تَشُحّ وتَشِحّ . ورجل شحيح ، وقومٌ شِحاح وأشِحّة . والمراد بالآية الشُّح بالزكاة وما ليس بفـرض من صـلة ذوى الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك . فليس بشحيح ولابخيل من أنفق فى ذلك وإن أمسك عن نفسه . ومن وَسّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يُوقَ شُحّ نفسه . وروى الأَسْوَد عن ٱبن مسعود أن رجلا أتاه فقال له : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! قال :

---

(١) فى شرح التبريزى : « اللحز : الضيق البخيل . وقيل : هو السيئ الخلق اللئيم . وقوله : إذا أمرت عليه . أى أديرت . والمعنى : أن الخمر إذا كثر دورانها عليـه أهان ماله ؛ يقال : فلان مهين لمـاله : إذا كان سخيا . وفلان معز لمـاله ؛ إذا كان بخيلا » .

وما ذاك ؟ قال : سمعت الله عز وجل يقول : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدى شيئا . فقال ابن مسعود : ليس ذلك بالشُّح الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ، إنما الشُّحّ الذى ذكره الله تعالى فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا؛ ولكن ذلك البخل ، وبئس الشئ البخل . ففرق رضى الله عنه بين الشح والبخل . وقال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده، والشّح أن يشح بما فى أيدى الناس ؛ يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحِلّ والحرام ؛ لا يقنع . ابن جبير : الشح منع الزكاة وٱدّخار الحرام . ابن عُيَيْنة : الشح الظلم . الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . ابن عباس : من ٱتبع هواه ولم يقبل الإيمان فذلك الشحيح . ابن زيد : من لم يأخذ شيئا [لشىء] نهاه الله عنه ، ولم يَدْعُه الشح [على أن يمنع شيئا من شىء] أمره الله به ، فقد وقاه الله شح نفسه . وقال أنس : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " بَرِئَ من الشّح من آدّى الزكاة وقَرَى الضيف وأعطى فى النائبة " . وعنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو " اللّهمّ إنى أعوذ بك من شُحّ نفسى وإسرافها ووساوسها " . وقال أبو الهَيّاج الأسدى : رأيت رجلا فى الطّواف يدعو : اللهم قِنِى شُحّ نفسى . لا يزيد على ذلك شيئا ؛ فقلت له ؟ فقال : إذا وُقِيتُ شُحّ نفسى لم أسرق ولم أزْنِ ولم أفعل . فإذا الرجل عبد الرحمن ابن عَوْف .

قلت : يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " ٱتقوا الظلمَ فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وٱتقوا الشّح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم " . وقد بيناه فى آخر « آل عمران » (1) . وقال كِسْرَى لأصحابه : أىّ شىء أضرّ بٱبن آدم ؟ قالوا : الفقر . فقال كِسْرَى : الشح أضرّ من الفقر ؛ لأن الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدا .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى التابعين ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة . قال ٱبن أبى لَيْلَى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم . فٱجْهَدْ ألّا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن شَمْسًا فإن لم تستطع فكن قَمَرًا، فإن لم تستطع فكن كَوْكَبًا مضيئا، فإن لم تستطع فكن كوكبا صغيرا ، ومن جهة النور لا تنقطع . ومعنى هذا : كن مهاجريًّا . فإن قلت : لا أجد ؛ فكن أنصاريًّا . فإن لم تجد فٱعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبّهم واستغفر لهم كما أمرك الله . وروى مُصْعَب بن سعد قال : الناس على ثلاثة منازل ؛ فمضت منزلتان وبَقِيت منزلة ؛ فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت . وعن جعفر بن محمد ابن على عن أبيه عن جدّه علىّ بن الحسين رضى الله عنه، أنه جاءه رجل فقال له : يٱبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما تقول فى عثمان ؟ فقال له : يا أخى أنت من قوم قال الله فيهم : « لِلفقراءِ المهاجِرين » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم : « والذينَ تَبوَّءوا الدّارَ والإيمان » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام ! وهى قوله تعالى : « وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » الآية . وقد قيل : إن محمد ابن على بن الحسين ، رضى الله عنهم ، روى عن أبيه أن نفرًا من أهل العراق جاءوا إليه ، فسَبُّوا أبا بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ ثم عثمان ــ رضى الله عنه ــ فأكثروا ؛ فقال لهم : أمِنَ المهاجرين الأوّلين أنتم ؟ قالوا لا . فقال : أفمن الذين تبوءوا الدار والإيمان من

قبلهم ؟ فقالوا لا . فقال : قد تبرأتم من هذين الفريقين ! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » قوموا ، فعل الله بكم وفعل . ذكره النحاس .

الثانيــة — هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفَيْء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، وأن مَن سبّهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيه شرًّا إنه لاحق له في الفيء . روى ذلك عن مالك وغيره . قال مالك : من كان يُبْغِض أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أوكان في قلبه عليهم غِلّ ، فليس له حق في فيء المسلمين . ثم قرأ « والذين جاءوا من بعدهم » الآية .

الثالثــة — هذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول ، وإبقاء العقار والأرض شملا[1] بين المسلمين أجمعين ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه ؛ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمرا فيمضي عمله فيه لاختلاف الناس عليه وان هذه الآية قاضية بذلك ؛ لأن الله تعالى أخبر عن الفيء وجعله لثلاث طوائف : المهاجرين والأنصار — وهم معلومون — « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمانِ » . فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين . وفي الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المَقْبُرة فقال : " السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددْت أن رأيت[2] إخواننا " قالوا : يارسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال " بل أنتم أصحابي وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ وأنا فَرَطُهم على الحَوْض " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتي بعدهم ؛ لا كما قال السُّدّي والكلْبي : إنهم الذين هاجروا بعد ذلك . وعن الحسن أيضا « والذين جاءُوا من بعدِهم » مَن قصد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة .

(١) كذا في الأصول . والمراد جعلها عامة شاملة بين المسلمين .
(٢) في صحيح مسلم : « أنا قد رأينا ... » .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ نصب في موضع الحال؛ أى قائلين . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ أمروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمني أهل الكتاب . قالت عائشة رضي الله عنها : فأمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم . الثاني ــ أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . قال ابن عباس : أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنهم سيُفْتَنُون . وقالت عائشة : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم ، سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " لاتذهب هذه الأمة حتى يلعن آخِرُها أوّلَها " وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا لعن الله أشرّكم " . وقال العَوّام بن حَوْشَب : أدركت صدر هذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب ، ولاتذكروا ماشَجَر بينهم فتجسُرُوا الناس عليهم . وقال الشعبيّ : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخَصْلة ؛ سئلت اليهود: مَن خير أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى . وسئلت النصارى : مَن خير أهل مِلّتكم؟ فقالوا : أصحاب عيسى . وسئلت الرافضة مَن شرّ أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب محمد ؛ أُمِرُوا بالاستغفار لهم فسبُّوهم ، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة ، لا تقوم لهم راية ، ولاتثبت لهم قَدَم ، ولاتجتمع لهم كلمة ؛ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم . أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة . ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى حِقدا وحسداً ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾

تعجب[1] من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لايعتقدون دينًا ولا كتابا . ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَىّ بن سلول وعبد الله بن نبتل ورفاعة بن زيد . وقيل : رافعة بن تابوت وأوس بن قيظى ، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا وقالوا ليهود قُريظة والنضير : ﴿ لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ . وقيل : هو من قول بنى النضير لقُريظة . وقوله : ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لا نطيعه فى قتالكم . وفى هذا دليل على صحة نُبُوّة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة علم الغيب ؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا ، وقوتلوا فلم ينصروهم ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى فى قولهم وفعلهم .

قوله تعالى : لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ أى منهزمين . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ قيل معنى « لا ينصرونهم » طائعين . « ولئن نصروهم » مكرهين « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » . وقيل : معنى « لا ينصرونهم » لا يدومون على نصرهم . هذا على أن الضميرين متفقان . وقيل : إنهما مختلفان ؛ والمعنى لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم . « ولئن نصروهم » أى ولئن نصر اليهود المنافقين « ليولن الأدبار » . وقيل : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم » أى علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن أخرجوا . « ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » أى علم الله منهم ذلك . ثم قال : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » فأخبر عما قد أخبر أنه لايكون كيف كان يكون لو كان ؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[2] . وقيل : معنى « ولئن نصروهم » أى ولئن شئنا أن ينصروهم زيّنّا ذلك لهم . « ليولن الأدبار » .

---

(١) فى نسخة : « يعجب » . (٢) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ ﴾ يا معشر المسلمين . ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أى خوفًا وخشية . ﴿ فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعنى صدور بنى النَّضير . وقيل : فى صدور المنافقين . ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين ؛ أى يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم ذلك الخوف . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أى لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته .

قوله تعالى : لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا ﴾ يعنى اليهود ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أى بالحيطان والدُّور ، يظنون أنها تمنعهم منكم . ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ أى من خلف حيطان يسترون بها لجُبْنهم ورَهْبتهم . وقراءة العامة « جُدُرٍ » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم ؛ لأنها نظير قوله تعالى : « فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ » وذلك جمع . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن مُحَيْصن وأبو عمرو « جِدارٍ » على التوحيد ؛ لأن التوحيد يؤدّى عن الجمع . وروى عن بعض المكيّين « جَدْر » (بفتح الجيم وإسكان الدال) ؛ وهى لغة فى الجدار . ويجوز أن يكون معناه من وراء نخلهم وشجرهم ؛ يقال : أجدر النخل إذا طلعت رءوسه فى أوّل الربيع . والجَدْر نبتٌ واحدته جَدْرة . وقُرِئَ « جُدْر » (بضم الجيم وإسكان الدال) جمع الجدار . ويجوز أن تكون الألف فى الواحد كألف كِتاب ، وفى الجمع كألف ظِراف . ومثله ناقة هِجانٌ ونُوقٌ هِجان ؛ لأنك تقول فى التثنية : هِجانان ؛ فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين فى اللفظ مختلفين فى المعنى ؛ قاله ابن جِنّى .

قوله تعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعنى عداوة بعضهم لبعض . وقال مجاهد : « بأسهم بينهم شديد » أى بالكلام والوعيد لنفعلن كذا . وقال السُّدّى : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد . وقيل : « بأسهم بينهم شديد » أى إذا لم يلقَوْا عدوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوّ انهزموا . ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ يعنى اليهود والمنافقين ؛ قاله مجاهد . وعنه أيضا يعنى المنافقين. الثَّورِىّ: هم المشركون وأهل الكتاب . وقال قتادة : «تحسبهم جميعا» أى مجتمعين على أمر ورأى . «وقلوبهم شتّى» متفرّقة . فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم؛ وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق . وعن مجاهد أيضا أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود . وهذا ليقوّى أنفس المؤمنين عليهم . وقال الشاعر :

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقّت العَصَا * هى اليوم شَتّى وهى أمس جُمَّعُ

وفى قراءة ابن مسعود « وقلوبهم أَشَتّ » يعنى أشدّ تشتيتا؛ أى أشدّ اختلافا . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى ذلك التشتيت والكفر بأنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله .

قوله تعالى : كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

قال ابن عباس : يعنى به قَيْنُقَاع؛ أمكن الله منهم قبل بنى النَّضير . وقال قتادة : يعنى بنى النضير؛ أمكن الله منهم قبل قُرَيْظة . مجاهد : يعنى كفار قريش يوم بدر . وقيل : هو عام فى كل من انتقم منه على كفره قبل بنى النَّضير من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى ﴿ وَبَالَ ﴾ جزاء كفرهم . ومن قال : هم بنو قُريظة؛ جعل « وبال أمرهم » نزولهم على حكم سعد بن معاذ ؛ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسَبْى الذرّية . وهو قول الضحاك . ومن قال المراد بنو النَّضير قال : « وبال أمرهم » الجلاء والنفى . وكان بين النضير وقريظة سنتان . وكانت وقعة بدر قبل غَزْوة بنى النَّضير بستة أشهر؛ فلذلك قال : « قريبا » وقد قال قوم : غزوة بنى النضير بعد وقعة أُحُد. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة .

قوله تعالى : كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ هذا ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين واليهود فى تخاذلهم وعدم الوفاء فى نُصْرتهم . وحَذَف حرف العطف، ولم يقل : وكمثل الشيطان ؛ لأن حذف حرف العطف كثير ؛ كما تقول : أنت عاقل أنت كريم أنت عالم . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الإنسان الذى قال له الشيطان اكفر، راهب تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ لِيَدْعُوَ لها ، فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح، فدلّ الشيطان قومها على موضعها ، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاءه الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه . ذكره القاضى إسماعيل وعليّ بن المدِينى عن سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذكر خبره مطولا ابن عباس ووهب بن مُنَبّه . ولفظهما مختلف . قال ابن عباس فى قوله تعالى « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » : كان راهب فى الفَتْرة يقال له : برصيصا ؛ قد تعبّد فى صَوْمعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طَرْفة عين ، حتى أعيا إبليس . فجمع إبليس مَرَدة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفينى أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء ، وهو الذى قصد النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحى، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند ؛ فذلك قوله تعالى : « ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ »(١) فقال : أنا أكفيكه ؛ فانطلق فتزيّا بزِيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ؛ وكان لاينفتل من صلاته إلا فى كل عشرة أيام يوما ، ولا يُفطر إلا فى كل عشرة أيام ؛ وكان يواصل العشرة

(١) آية ٢٠ سورة التكوير .

الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيض أنه لايجيبه أقبل على العبادة فى أصل صومعته؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته ، رأى الأبيض قائما يصلّى فى هيئة حسنة من هيئة الرهبان ؛ فندم حين لم يجبه ، فقال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن أكون معك ، فأتأدّب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة ؛ فقال : إنى فى شغل عنك ؛ ثم أقبل على صلاته ؛ وأقبل الأبيض أيضا على الصلاة ؛ فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده وعبادته قال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن تأذن لى فأرتفع إليك . فأذن له فأقام الأبيض معه حَوْلًا لا يُفطر إلا فى كل أربعين يوما يوما واحدا ، ولا ينفتل من صلاته إلا فى كل أربعين يوما ، ورُبّما مدّ الى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه . ثم قال الأبيض : عندى دعوات يَشْفِى الله بها السقيم والمبتلى والمجنون ؛ فعلمه إيّاها . ثم جاء الى إبليس فقال : قد والله أهلكت الرجل . ثم تعرض لرجل فخنقه ، ثم قال لأهله — وقد تصوّر فى صورة الآدميين — : إن بصاحبكم جنونا أفأطِبّه ؟ قالوا نعم . فقال : لا أقوى على جِنّيته ، ولكن اذهبوا به الى برصيصا، فإن عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، و إذا دعى به أجاب ؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان . ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك و يرشدهم الى برصيصا فيعافَوْن . فانطلق الى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم ملِكا فمات واستخلف أخاه ، وكان عمها ملكاً فى بنى إسرائيل ؛ فعذبها وخنقها . ثم جاء إليهم فى صورة رجل متطبّب ليعالجها فقال : إن شيطانها مارد لا يطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده ، فاذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت ؛ فقالوا : لا يجيبنا إلى هذا؛ قال : فٱبْنُوا صومعةً فى جانب صومعته ثم ضعوها فيها ، وقولوا : هى أمانة عندك فاحتسب فيها . فسألوه ذلك فأبى ، فبنّوا صومعة ووضعوا فيها الجارية ؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأُسْقِط فى يده ، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها . وكان يكشف عنها و يتعرض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال : وَيْحَكَ ! واقِعها، فما تجد

مثلها ثم تتوب بعد ذلك . فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملها . فقال له الشيطان : ويحك ! قد افتضحت . فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح ، فان جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب بها . فقتلها برصيصا ودفنها ليلا ؛ فأخذ الشيطان طَرَف ثوبها حتى بقى خارجا من التراب ؛ ورجع برصيصا إلى صلاته . ثم جاء الشيطان إلى إخوتها فى المنام فقال : إن برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا ، وقتلها ودفنها فى جبل كذا وكذا ؛ فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا : ما فعلت أختنا ؟ فقال : ذهب بها شيطانها ؛ فصدقوه وانصرفوا . ثم جاءهم الشيطان فى المنام وقال : إنها مدفونة فى موضع كذا وكذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب ؛ فانطلقوا فوجدوها ، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه ، وحملوه إلى الملك فأقر على نفسه فأمر بقتله . فلما صُلب قال الشيطان : أتعرفنى ؟ قال لا والله ! قال : أنا صاحبك الذى علّمتك الدعوات ، أما اتقيت الله أما استحييت وأنت أعبد بنى إسرائيل ! ثم لم يَكْفك صنيعك حتى فضحت نفسك ، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ! فإن متّ على هذه الحالة لم يُفلح أحد من نظرائك بعدك . فقال : كيف أصنع ؟ قال : تطيعنى فى خَصْلة واحدة وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم . قال : وما ذاك ؟ قال : تسجد لى سجدة واحدة ؛ فقال : أنا أفعل ؛ فسجد له من دون الله . فقال : يا برصيصا ، هذا أردت منك ؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين . وقال وهب ابن مُنَبّه : إن عابدا كان فى بنى إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرا ، ليست لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلّفون أختهم ، ولا عند مَن يأمنون عليها ، ولا عند مَن يضعونها . قال : فاجتمع رأيهم على أن يخلّفوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة فى أنفسهم ؛ فأتوه فسألوه أن يخلّفوها عنده ؛ فتكون فى كنفه وجواره إلى ان يقفلوا من غَزاتهم ؛ فأبى ذلك عليهم وتعوّذ بالله منهم ومن أختهم . قال فلم يزالوا به حتى أطمعهم[1] فقال : أنزلوها فى بيت حِذاء صَوْمعتى ؛ فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها ؛ فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانا ، يُنزل إليها الطعام من

(١) كذا فى الأصول . ولعلها « أطاعهم » .

صومعته ، فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه و يصعد فى صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام . قال : فتلطّف له الشيطان فلم يزل يرغّبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها . قال : فلبث بذلك زمانا ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر ، وقال له : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظمَ لأجرك ؛ قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه فى بيتها؛ قال : فلبث بذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغّبـه فى الخير وحَضّـه عليـه ؛ وقال : لو كنت تكلّمها وتحدّثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشةً شديدة . قال : فلم يزل به حتى حدّثها زمانا يطلع عليها من فوق صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها وتقعد على باب بيتها فتحدّثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدّثها،وتخرج الجارية من بيتها؛ فلبثا زمانا يتحدّثان؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال : لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتهـا كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . قال : فلبثا زماناً ؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دَنَوْتَ من باب بيتها فحدّثتها ولم تخرج من بيتها ؛ ففعل . فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثهـا . فلبثا بذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها تحـدثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسنَ بك . فلم يزل به حتى دخل البيت ؛ فجعل يحدّثها نهاره كله، فإذا أمسى صعد فى صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزيّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبّلها . فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ويسوّل له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت له غلاما . فجاءه إبليس فقال له : أرأيت أن جاء إخوة هـذه الجارية وقـد ولدت منك ! كيف تصنع! لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك؟ فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه؛ فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ؛ ففعل . فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلتَ ابنهـا ! خذها فاذبحها وادفنها مـع ابنها . فلم يزل به حتى ذبحها

وألقاها فى الحَفيرة مع ابنها ، وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسوّى عليها التراب ، وصعد فى صومعته يتعبّد فيها ؛ فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ؛ حتى قفل إخوتها من الغزو ، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لهم وترحّم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خيرَ أَمَة ، وهذا قبرها فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحّموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا إلى أهاليهم . فلما جَنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، أتاهم الشيطان فى صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ؛ فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها ؛ فكذّبه الشيطان وقال : لم يَصْدُقكم أمر أختكم ، إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم ، وألقاها فى حَفيرة احتفرها خلف الباب الذى كانت فيه عن يمين من دخله . فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله ؛ فإنكم ستجدونهما هنالك جميعا كما أخبرتكم . قال : وأتى الأوسط فى منامه وقال له مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم . فأقبل بعضهم على بعض ، يقول كل واحد منهم لقد رأيت عجبًا ؛ فأخبر بعضهم بعضا بما رأى . قال أكبرهم : هذا حُلم ليس بشىء ؛ فامضوا بنا ودعوا هذا . قال أصغرهم : لا أمضى حتى آتى ذلك المكان فأنظر فيه . قال : فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وُصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم ؛ فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما . فاستعدَوْا عليه ملكهم ، فأنزل من صومعته فقدّموه ليُصْلَب ؛ فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها ؛ فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك خلّصتك مما أنت فيه . قال : فكفر العابد بالله . فلما كفر خلّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه . قال : ففيه نزلت هذه الآية «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ — إلى قوله — جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » .

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلًا للمنافقين مع اليهود . وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام أن يُجلي بنى النَّضير من المدينة ، فدسّ إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم ، فإن قاتلوكم كنا معكم ، وإن أخرجوكم كنا معكم ؛ فحاربوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فخذلهم المنافقون ، وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من بَرْصيصا العابد . فكان الرُّهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتّقية والكتمان . وطمع أهل الفسوق والفجور فى الأحبار فرموْهم بالبهتان والقبيح ؛ حتى كان أمر جُريج الراهب ، وبرّأه الله فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس . وقيل : المعنى مَثَل المنافقين فى غدرهم لبنى النَّضير[(1)] كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ[(2)] » الآية . وقال مجاهد : المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم . ومعنى قوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ » أى أغواه حتى قال : إنى كافر . وليس قول الشيطان : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » حقيقة ، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان ؛ فهو تأكيد لقوله تعالى : « إني بريء منك » . وفتح الياء من « إنى » نافع وابن كثير وأبو عمرو . وأسكن الباقون . ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أى عاقبة الشيطان وذلك الإنسان . ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب على الحال . والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة فى الراهب والشيطان . ومن جعلها فى الجنس فالمعنى : وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين . ونصب «عاقبتهما» على أنه خبر كان . والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ» . وقرأ الحسن « فكان عاقِبَتُهُمَا » بالرفع على الضد من ذلك . وقرأ الأعمش « خَالِدَانِ فِيهَا » بالرفع وذلك خلاف المرسوم . ورفعه على أنه خبر « أنّ » والظرف مُلْغًى .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

---

(١) فى بعض الأصول : « وعدهم » (٢) آية ٤٨ سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه . ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعنى يوم القيامة . والعرب تَكْنِى عن المستقبل بالغَدِ . وقيل : ذِكْرُ الغَدِ تنبيهًا على أن الساعة قريبة ؛ كما قال الشاعر :

* وإن غدًا للناظرين قريب * (١)

وقال الحسن وقتادة : قَرّب الساعةَ حتى جعلها كغَدٍ . ولا شك أن كل آتٍ قريبٌ ؛ والموت لا محالة آتٍ . ومعنى « مَا قَدَّمَتْ » يعنى من خير أو شر . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا تكريرا ، كقولك : اعجل اعجل ، اِرْمِ اِرْمِ . وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب ، والثانية اتقاء المعاصى فى المستقبل . ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير : أى بما يكون منكم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أى تركوا أمره . ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيرا ؛ قاله ابن حبّان . وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ؛ قاله سفيان . وقيل : « نسوا الله » بترك شكره وتعظيمه . « فأنساهم أنفسهم » بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا ؛ حكاه ابن عيسى . وقال سهل بن عبد الله : « نسوا الله » عند الذنوب . « فأنساهم أنفسهم » عند التوبة . ونسب تعالى الفعل إلى نفسه فى « أنساهم » إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذى تركوه . وقيل : معناه وجدهم تاركين أمره ونهيه ؛ كقولك : أحمدت الرجل إذا وجدته محمودا . وقيل : « نسوا الله » فى الرخاء . « فأنساهم أنفسهم » فى الشدائد . ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون . وقال ابن زيد: الكاذبون. وأصل الفسق الخروج ؛ أى الذين خرجوا عن طاعة الله .

---

(١) فى فرائد اللآل أن قائل هذا هو قراد بن أجدع النعمان بن المنذر . ولفظ البيت :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى * فإن غدا لناظره قريب

قوله تعالى : لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أى فى الفضل والرتبة . ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى المقربون المكرمون . وقيل : الناجون من النار . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى « المائدة » عند قوله تعالى : « قل لا يَسْتَوِى الخبيثُ والطَّيِّبُ »[1] . وفى سورة « السجدة » عند قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يَسْتَوون »[2] . وفى سورة « ص » « أم نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ كالمُفْسِدِينَ فِى الأرض أم نجعل المُتَّقِين كالفُجَّارِ »[3] فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حَثّ على تأمل مواعظ القرآن ، وبيّن أنه لا عذر فى ترك التدبّر ؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدّعة ؛ أى متشققة من خشية الله . والخاشع : الذليل . والمتصدّع : المتشقق . وقيل : « خاشعًا » لله بما كلّفه من طاعته . « متصدّعًا » من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه . وقيل : هو على وجه المَثَل للكفار .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أى إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدّع لوعيده ؛ وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من

---

(١) آية ١٠٠ راجع جـ ٦ ص ٣٢٧ (٢) آية ١٨ راجع جـ ١٤ ص ١٠٥

(٣) آية ٢٨ راجع جـ ١٥ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

وعيده ! وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ، وتصدّع من نزوله عليه ؛ وقد أنزلناه عليك وثبّتناك له ؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال . وقيل : إنه خطاب للأمة ، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشية الله . والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا ؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع ، ويقدر على ردّه إن عصى ؛ لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قال ابن عباس : عالم السر والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقال سهل : عالم بالآخرة والدنيا . وقيل : « الغيب » ما لم يعلم العباد ولا عاينوه . « والشهادة » ما علموا وشاهدوا . ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم[1] .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ أى المنزه عن كل نقص ، والطاهر عن كل عيب . والقَدَس (بالتحريك) : السَّطْل بلغة أهل الحجاز ؛ لأنه يُتَطَهَّر به . ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء من البئر بالسانية[2] . وكان سيبويه يقول : قَدُّوس وسَبُّوح ؛ بفتح أولها . وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يُكْنَى أبا الدينار يقرأ « القَدّوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) من معنى السانية : الدلو وأدواته . والمراد هنا الأدوات التى يستخرج بها الماء .

فَعُول فهو مفتوح الأول، مثل سَفُّود[1] وكَلُّوب وتَنُّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبوح والقُدّوس فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان . وكذلك الذُّرُّوح[2] (بالضم) وقد يفتح . ﴿ السَّلَامُ ﴾ أى ذو السلامة من النقائص . وقال ابن العربيّ : اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا فى الله «السلام» : النسبة ؛ تقديره ذو السلامة . ثم اختلفوا فى ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال : الأول — معناه الذى سَلِم من كل عيب وبَرِئ من كل نقص . الثانى — معناه ذو السلام؛ أى المسلِّم على عباده فى الجنة؛ كما قال : «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ» . الثالث — أن معناه الذى سلم الخلقُ من ظلمه .

قلت : وهذا قول الخطابى؛ وعليه والذى قبله يكون صفة فعل . وعلى أنه البرىء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات . وقيل : السلام معناه المسلِّم لعباده . ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ أى المصدّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم ، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب ، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب . وقيل : المؤمن الذى يؤمن أولياءه من عذابه، ويؤمن عباده من ظلمه؛ يقال : آمنه من الأمان الذى هو ضدّ الخوف ؛ كما قال تعالى : « وآمَنَهم مِن خَوْفٍ » فهو مؤمن؛ قال النابغة :

والمُؤْمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها * رُكْبانُ مَكّةَ بين الغِيلِ والسَّنَدِ[3]

وقال مجاهد : المؤمن الذى وَحّد نفسه بقوله : « شَهِدَ الله أنه لا إِلٰه إلّا هو »[4] . وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار . وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبيّ، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبيّ قال الله تعالى لباقيهم : أنتم

---

(١) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم؛ والجمع سفافيد . والكلوب : حديدة معطوفة كالخطاف . والتنور : الكانون يختبز فيه . والسمور : حيوان برى يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها ودفائها وحسنها . والشبوط : سمك رقيق الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس . والجمع شبابيط .

(٢) الذروح : دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، وهى من السموم القاتلة .

(٣) العائذات : ما عاذ بالبيت من الطير . والغيل : الشجر الكثير الملتف . والسند : ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح .

(٤) آية ١٨ سورة آل عمران .

المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن؛ فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين .

﴿ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ ﴾ تقدّم الكلام فى المهيمن فى «المـائدة»(1) وفى « العزيز » فى غير موضع.(2)

﴿ الْجَبَّارُ ﴾ قال ابن عباس : هو العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات؛ من قولهم : نخلة جَبّارة . قال امرؤ القَيْس :

سـوامق جبّـار أثيث فـروعُه * وعالين قنـوانا من البُسْر أحمـرا(3)

يعنى النخلة التى فاتت اليَدَ . فكان هـذا الاسم يدل على عظمة الله وتقديسـه عن أن تنـاله النقائص وصفات الحدث . وقيـل : هو من الجَبْر وهو الإصلاح؛ يقـال : جبرت العظم بِجَبْر؛ إذا أصلحته بعـد الكسر؛ فهو فعّال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير . وقال الفراء : هو من أجبره على الأمر أى قهره . قال : ولم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى جبار ودرّاك من أدرك . وقيل : الجبار الذى لا تطاق سَطْوَته . ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذى تكبر بربوبيّته فلا شىء مثله . وقيل : المتكبر عن كل سـوء ، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم . وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد . وقال حُميد بن ثَوْر :

عَفَت مثل ما يعفو الفَصِيل فأصبحت * بهـا كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبرياء فى صفـات الله مدح ، وفى صفات المخـلوقين ذم . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن رَبّه تبارك وتعالى أنه قال : " الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته ثم قذفته فى النار " . وقيل : المتكبر معناه العـالى . وقيل : معناه الكبير لأنه أجلّ من أن يتكلف كبرًا . وقد يقال: تظلّم بمعنى ظلم، وتشتّم بمعنى شتم، واستقرّ بمعنى قرّ(4) . كذلك المتكبر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل إذا نسب إلى ما لم يكن منه . ثم نزّه نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى تنزيهًا لجلالته وعظمته . ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(1) راجع جـ ٦ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .
(3) سوامق : مرتفعات . والأثيث : الملتف . والقنوان : العذق . (4) فى نسخة : «واستمر بمعنى مرّ» .

قوله تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ «الخالق» هنا المقدِّر . و«البارئ» المنشئ المخترع . و «المصور» مصوّر الصور ومركبها على هيئات مختلفة . فالتصوير مرتب على الخلق والبراية(١) وتابع لها . ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل . وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق : جعله عَلَقَة ، ثم مُضْغة ، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويُتميز عن غيره بسِمَتها . فتبارك الله أحسن الخالقين . وقال النابغة :

الخالق البارئ المصوّر في الـ * ـأرحامِ ماءً حتى يصير دمَا

وقد جعل بعض الناس الخلق بمعنى التصوير ؛ وليس كذلك ، وإنما التصوير آخرا والتقدير أوّلا والبراية بينهما . ومنه قوله الحق : « وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ »(٢) . وقال زُهير :

وَلأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُق ثم لا يَفْري

يقول : تُقَدِّر ما تُقدِّر ثم تَفْريه ؛ أي تُمضيه على وَفْق تقديرك ، وغيرك يقدر ما لا يتم له ولا يقع فيه مراده ؛ إما لقصوره في تصوّر تقديره أو لعجزه عن تمام مراده . وقد أتينا على هذا كله في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . وعن حاطب ابن أبي بَلْتَعَة أنه قرأ « البارئ المصوَّرَ » بفتح الواو ونصب الراء ؛ أي الذي يبرأ المصوَّر ؛ أي يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات . ذكره الزَّمَخْشَري . ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم الكلام فيه(٣) . وعن أبي هريرة قال : سألت خليلي أبا القاسم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : "يا أبا هريرة

(١) كذا في نسخ الأصل . والذي في كتب اللغة : « برأ الله الخلق برءا وبروءا » .

(٢) آية ١١٠ سورة المائدة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٦ ص ١٣١ وجـ ١٠ ص ٢٦٦

عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها " فأعدت عليه فأعاد علىّ فأعدت عليه فأعاد علىّ . وقال جابر بن زيد : ان اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية . وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر " . وعن أبى أمامة قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قرأ خواتم سورة الحشر فى ليل أو نهار فقبضه الله فى تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة " .

ســـورة الممتحنـــة

مدنيّة فى قول الجميع ، وهى ثلاث عشرة آية

الممتحنة (بكسر الحاء) أى المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازا ، كما سُمِّيت سورة «براءة» المبعثرة والفاضحة ، لما كشفت من عيوب المنافقين . ومن قال فى هذه السورة : الممتحَنة (بفتح الحاء) فإنه أضافها إلى المرأة التى نزلت فيها ، وهى أم كُلْثُوم بنت عُقْبة بن أبى مُعَيْط . قال الله تعالى : « فامتحنوهنّ اللهُ أعلمُ بإيمانهن » الآية . وهى امرأة عبد الرحمن ابن عَوْف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ عدّى اتخذ إلى مفعولين، وهما «عدوّكم أولياء» . والعدوّ فعول من عدا كعفوّ من عفا . ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد . وفي هذه الآية سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن عليّ رضي الله عنه قال : بعثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنا والزّبير والمِقْداد فقال : "ائتوا رَوْضَة خاخ (١) فإن بها ظَعينة (٢) معها كتاب فخذوه منها" ، فانطلقنا تَعادَى (٣) بنا خَيْلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا : أخرجي الكتاب، فقالت : ما معي كتاب . فقلنا : لَتُخْرِجِنّ الكتاب أو لَتُلْقِيَنّ الثياب ؛ فأخرجته من عِقاصها . فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا حاطب ما هذا ؟ قال لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأً مُلْصَقًا في قريش — قال سفيان : كان حَليفًا لهم، ولم يكن من أنفُسها — وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن دِيني، ولا رِضًا بالكفر بعد الإسلام . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "صَدَق" . فقال عمر : دَعْني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : "إنه قد شهد بدرًا وما يُدرِيك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" فأنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» . قيل : اسم المرأة سارّة من موالي قريش . وكان في الكتاب : « أمّا بعدُ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل، وأقسم بالله لو لم يَسِرْ إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له مَوْعِده فيكم ؛ فإن الله وليّه وناصره . ذكره بعض المفسرين .

(١) موضع بين مكة والمدينة على اثني عشر ميلا من المدينة .

(٢) الظعينة : هي المرأة في الهودج . ولا يقال ظعينة إلا وهي كذلك . (٣) أي تجري .

وذكر القُشَيْرِىّ والثَّعْلَبِىّ أن حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ كان رجلا من أهل اليمن، وكان له حِلْف بمكة فى بنى أسد بن عبد العُزَّى رَهْط الزبير بن العَوّام . وقيل : كان حليفًا للزبير بن العَوّام ، فقدمت من مكة سارة مولاة أبى عمرو بن صَيْفِىّ بن هاشم بن عبد مَنَاف إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز لفتح مكة . وقيل : كان هذا فى زمن الحُدَيْبِيَة؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمهاجرة جئتِ يا سارة " . فقالت لا . قال : " أمسلمة جئت" قالت لا . قال : " فما جاء بك" قالت : كنتم الأهل والموالى والأصل والعَشِيرة ، وقد ذهب الموالى — تعنى قُتلوا يوم بدر — وقد احتجتُ حاجةً شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : " فأين أنتِ عن شباب أهل مكة " وكانت مُغَنِّيَة ، قالت : ما طُلب منى شىء بعد وقعة بدر . فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب وبنى المطلب على إعطائها ، فكسَوْها وأعطوْها وحملُوها فخرجت إلى مكة ، وأتاها حاطب فقال : أعطيك عشرة دنانير وبُرُدًا على أن تبلغى هذا الكتاب إلى أهل مكة . وكتب فى الكتاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حِذْركم . فخرجت سارة ، ونزل جبريل فأخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث عليًّا والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِىّ . وفى رواية : عليًّا والزبير والمِقْداد . وفى رواية : أرسل عليًّا وعَمّار بن ياسر . وفى رواية : عليًّا وعمارا وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد — وكانوا كلهم فرسانا — وقال لهم : " انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخٍ فإن بها ظَعِينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلها فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها " فأدركوها فى ذلك المكان ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت ما معها كتاب ؛ ففتّشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتابا ، فهمُّوا بالرجوع فقال علىّ : والله ما كَذَبْنا ولا كُذِّبْنا ! وسلّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجردنّك ولأضربنّ عنقك ؛ فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها — وفى رواية من حُجْزَتها[1] — فخلّوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل إلى حاطب فقال :

---

(١) الحجزة : معقد الإزار ، وموضع التكة من السراويل .

" هل تعرف الكتاب ؟ " قال نعم . وذكر الحديث بنحو ما تقدّم . ورُوِى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هى أحدهم .

الثانيـــة — السورة أصلٌ فى النّهي عن موالاة الكفار. وقد مضى ذلك فى غير موضع.[1] من ذلك قوله تعـالى : « لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » . « يأيّها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » . « يأيهـا الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ » . ومثـله كثير . وذكر أن حاطباً لمـا سمع « يأيها الذين آمنوا » غُشِىَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ يعنى بالظاهر ؛ لأن قلب حاطب كان سليماً؛ بدليل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " أما صاحبكم فقد صدق ". وهذا نص فى سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده . والبـاء فى « بالمودّة » زائدة ؛ كما تقول : قرأت السورة وقرأت بالسورة ، ورميت إليه ما فى نفسى وبما فى نفسى . ويجوز أن تكون ثابتـة على أن مفعول « تُلْقُون » محذوف ؛ معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودّة التى بينكم وبينهـم . وكذلك « تُسِرون إليهم بِالْمَوَدَّةِ » أى بسبب المـودّة . وقال الفرّاء : « تلقون إليهم بالمودّة » من صلة « أولياء » ودخول الباء فى المودّة وخروجها سواء . ويجوز أن تتعلق بـ « لا تتّخِذوا » حالاً من ضميره . وبـ « أولياء » صفة له . ويجوز أن تكون استئنافا . ومعنى « تلقون إليهـم بالمودّة » تخبرونهـم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم ؛ وقاله الزجاج .

الرابعــة — من كثر تطلّعه على عَوْرات المسلمين وينبّـه عليهم ويعرّف عدوّهـم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغرض دُنْيَوِىّ واعتقاده على ذلك سليم ؛ كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَد ولم يَنْوِ الرِّدّة عن الدِّين .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٧ و ١٧٨ و جـ ٦ ص ٢١٦ .

الخامسة ـ إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدا أم لا ؟ اختلف الناس فيه ؛ فقال مالك وابن القاسم وأشهب : يجتهد في ذلك الإمام . وقال عبد الملك : إذا كانت عادته تلك قُتل؛ لأنه جاسوس . وقد قال مالك بقتل الجاسوس ـ وهو صحيح ـ لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض . ولعل ابن الماجشون إنما اتخذ التكرار في هذا لأن حاطبا أخذ في أول فعله . والله أعلم .

السادسة ـ فإن كان الجاسوس كافرا فقال الأوزاعي : يكون نقضا لعهده . وقال أصبغ : الجاسوس الحربي يقتل، والجاسوس المسلم والذمي يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان . وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بعين للشركين اسمه فُرات بن حيّان، فأمر به أن يقتل؛ فصاح : يا معشر الأنصار، أُقتَل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فخلى سبيله . ثم قال : "إن منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرات بن حيّان" . وقوله : « وقد كفروا » حال، إمّا من « لا تتخذوا » وإما من « تُلقُون » أى لا تتولوهم أو توادّوهم؛ وهذه حالهم . وقرأ الجحدري « لما جاءكم » أى كفروا لأجل ما جاءكم من الحق .

السابعة ـ قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ ﴾ استئناف كلام كالتفسير لكفرهم وعُتُوهم ، أو حال من « كفروا » . ﴿ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ تعليلٌ لـ« يخرجون » المعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله ؛ أى لأجل إيمانكم بالله . قال ابن عباس : وكان حاطب ممن أخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي . وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فلا تلقوا إليهم بالمودة . وقيل : «إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي » شرطٌ وجوابه مقدّم . والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي فلا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء . ونصب « جهادا » و « ابتغاء » لأنه مفعول له . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بدل من

« تلقون » ومبيّن عنه . والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال : «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً. يُضاعَفْ لَه العذابُ»[1]. وأنشد سيبويه :

مَتَى تأتِنَا تُلْمِمْ بنــا فى ديارنا * تَجِــدْ حَطَباً جَزْلًا ونارًا تأجّجا

وقيل : هو على تقدير أنتم تُسِرّون إليهــم بالمودّة ؛ فيكون استئنافا . وهــذا كلّه معاتبةٌ لحاطب . وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه ؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من مُحِبّ لحبيبه . كما قال :

أعاتب ذا المــودّة من صديقٍ * إذا ما رابنى منــه اجتناب

إذا ذهب العِتــاب فليس وُدٌّ * ويبقى الــودّ ما بقى العتــاب

ومعنى « بِالمودّةِ » أى بالنصيحة فى الكتاب إليهم . والباء زائدة كما ذكرنا، أو ثابتــة غير زائـــدة .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَــا أَخْفَيْتُمْ ﴾ أضمــرتم . ﴿ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أظهرتم . والبــاء فى « بمــا » زائدة ؛ يقال : علمت كذا وعلمت بكذا . وقيل : وأنا أعلم من كل أحد بمــا تخفون وما تعلنون ؛ فحذف من كل أحد . كما يقال : فلان أعلم وأفضــل من غيره . وقال ابن عباس : وأنا أعلم بمــا أخفيتم فى صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أى من يسرّ إليهم ويكاتبهم منكم . ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَــوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى أخطأ قَصْد الطريق .

قوله تعــالى : إِن يَثْقَفُوكُمْ يَــكُونُوا لَــكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْــكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَــكْفُرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعــالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يلقوكم ويصادفوكم ؛ ومنه المثاقفة ؛ أى طلب مصادفة الغرّة فى المسايفة وشبهها . وقيل : « يثقفوكم » يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم . ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ

(١) آية ٦٨ سورة الفرقان .

أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أى [أيديهم] بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم . (وودوا لو تكفرون) بمحمد، فلا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم .

قوله تعالى : لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (لن تنفعكم أرحامكم) لما اعتذر حاطب بأن له أولاداً وأرحاماً فيما بينهم ، بيّن الرب عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئا يوم القيامة إن عُصِىَ من أجل ذلك . (يفصل بينكم) فيُدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار . وفى «يفصل» قراءات سبع : قرأ عاصم « يَفْصِل » بفتح الياء وكسر الصاد مخففًا . وقرأ حمزة والكسائى « يُفَصِّل » بضم الياء وكسر الصاد مشددًا . وقرأ الحسن وابن عامر « يُفَصَّل » كذلك مشدّدا إلا أنه على ما لم يسم فاعله . وقرأ طلحة والنَّخَعى بالنون وكسر الصاد مشدّدة . وروى عن عَلْقَمة كذلك بالنون مخففة . وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة « يُفْصِل » بضم الياء وكسر الصاد مخففة من أفصل . وقرأ الباقون « يُفْصَل » بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، واختاره أبو عبيد . فمن خفف فلقوله : « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ »(١) وقوله : « إنّ يَوْمَ الْفَصْلِ »(٢) . ومن شدّد فلأن ذلك أبين فى الفعل الكثير المكرر المتردّد . ومن أتى به على ما لم يسم فاعله فلأن الفاعل معروف . ومن أتى به مُسَمّى الفاعل ردّ الضمير إلى الله تعالى . ومن قرأ بالنون فعلى التعظيم . (والله بما تعملون بصير) .

قوله تعالى : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

---

(١) آية ٥٧ سورة الأنعام . (٢) آية ٤٠ سورة الدخان .

وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ لما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار؛ أى فاقتدوا به وأتموا؛ إلا فى استغفاره لأبيه . والإسْوة والأُسْوة ما يُتأسى به ، مثل القِدْوة والقُدْوة . ويقال : هو إسوتك ؛ أى مثلك وأنت مثله . وقرأ عاصم « أُسْوَة » بضم الهمزة . لغتان . ﴿ وَالَّذِينَ معه ﴾ يعنى أصحاب إبراهيم من المؤمنين . وقال ابن زيد : هم الأنبياء . ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الكفار . ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام . وبُرآء جمع برىء؛ مثل شريك وشركاء ، وظريف وظرفاء . وقراءة العامة على وزن فُعلاء . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق « بِرَاء » بكسر الباء على وزن فِعال ؛ مثل قَصير وقِصار ، وطَويل وطِوال ، وظَريف وظِراف . ويجوز ترك الهمزة حتى تقول : بَرًا؛ وتنوّن . وقُرئ «بَرَاء» على الوصف بالمصدر . وقرئ «بُراء» على إبدال الضم من الكسر؛ كرُخَال ورُباب[1] . والآية نصٌّ فى الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام فى فعله . وذلك يصحّح أن شرع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله . ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أى بما آمنتم به من الأوثان . وقيل : أى بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن تكونوا على حق . ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ أى هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم . ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة . ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فلا تتأسّوا به فى الاستغفار فتستغفروا للمشركين ؛ فإنه كان عن

(١) رخال : جمع رخل ، الأنثى من أولاد الضأن . والرباب : جمع الربى ، الشاة التى وضعت حديثا . وقيل : إذا مات ولدها .

موعدة منه له ؛ قاله قتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه ، ثم بيّن عذره في سورة « التوبة »(١) .

وفي هذا دلالة على تفضيل نبينا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء ؛ لأنا حين أُمِرْنا بالاقتداء به أُمِرْنا أمرًا مطلقا في قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٢) وحين أُمِرْنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله . وقيل : هو استثناء منقطع ؛ أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك، إنما جرى لأنه ظنّ أنه أسلم ، فلما بان له أنه لم يُسلم تبرأ منه . وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يُظَنّ أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، فلِمَ توالوهم . ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئا إن أشركت به . ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه . وقيل : علّم المؤمنين أن يقولوا هذا . أي تبرءوا من الكفار وتوكّلوا على الله وقولوا : « رَبَّنَا عليك تَوَكَّلْنَا » أي اعتمدنا . ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي رجعنا . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لك الرجوع في الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لا تُظهر عدوّنا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك . وقيل : لا تسلّطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا . ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ أي في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء . ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي في التبرؤ من الكفار . وقيل : كُرِّر للتأكيد . وقيل : نزل الثاني بعد

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ (٢) آية ٧ سورة الحشر .

الأوّل بمدة ؛ وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي عن الإسلام وقبول هـذه المواعظ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي لم يتعبّدهم لحاجته إليهم . ﴿الْحَمِيدُ﴾ في نفسه وصفاته . ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين ؛ فعلم الله شدّة وجد المسلمين في ذلك فنزلت ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ وهذا بأن يُسلم الكافر . وقد أسلم قوم منهم بعـد فتح مكة وخالطهم المسلمون ؛ كأبي سفيان بن حَرْب والحارث بن هشام وسُهيل بن عمـرو وحَكيم بن حِزام . وقيـل : المودّة تزويج النبيّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حَبيبة بنت أبي سفيان ؛ فلانت عنـد ذلك عَرِيكة أبي سـفيان ، واسترخت شَكيمته في العداوة . قال ابن عباس : كانت المودّة بعـد الفتح تزويج النبيّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ؛ وكانت تحت عبـد الله بن جَحْش ، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة . فأمّا زوجها فتنصّر وسألها أن تتابعه على دينـه فأبت وصبرت على دينهـا ، ومات زوجها على النصرانيـة . فبعث النبيّ صلى الله عليـه وسلم إلى النجاشي فخطبها ؛ فقال النجاشي لأصحابه : من أولاكم بهـا ؟ قالوا : خالد بن سـعيد بن العاص ، قال فزوّجها من نبيّكم . ففعل ؛ وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار . وقيل : خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عَفّان ، فلما زوّجه إياها بعث إلى النجاشي فيها ؛ فساق عنه المهر وبعث بهـا إليه . فقال أبو سفيان وهو مشرك لمـا بلغه تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنتـه : ذلك الفَحْل لا يُقْدَع أنْفُه . « يقدع » بالدال غير المعجمة ؛ يقال : هـذا فحل لا يقدع أنفه ؛ أي لا يضرب أنفه . وذلك إذا كان كريما .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ هذه الآية رُخصة من الله تعالى في صِلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . قال ابن زيد : كان هـذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ . قال قتادة : نسختها «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . وقيل : كان هذا الحكم لعلّة وهو الصلح ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم وبقي الرسم يُتْلَى . وقيـل : هي مخصوصة في حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بينه و بينه عهد لم ينقضه ؛ قاله الحسن . الكلبي : هم خُزَاعة و بنو الحارث بن عبـد مناف . وقاله أبو صالح ، وقال : هم خزاعة . وقال مجاهد : هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيـل : يعني به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقـاتل ؛ فأذن الله في بِرّهم . حكاه بعض المفسرين . وقال أكثر أهل التـأويل : هي محكمة . واحتجوا بأن أسمـاء بنت أبي بكر سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل تَصِـلُ أُمّها حين قدمت عليها مشركة ؟ قال : " نعم " خرّجه البخاري ومسلم . وقيل : إن الآية فيهـا نزلت . روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيـه أن أبا بكر الصديق طلّق امرأته قُتَيـلة في الجاهليـة ، وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قُرْطا وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فأنزل الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » . ذكر هذا الخبر المـاوَرْدِيّ وغيره ، وخرجه أبو داود الطّيالسي في مسنده .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ « أن » في موضع خفض على البـدل من « الذين » ؛ أي لا ينهاكم الله عن أن تبرّوا الذين لم يقاتلوكم . وهم خُزاعة ، صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليـه أحدا ؛ فأمر ببرّهم والوفاء لهم إلى أجلهم ؛ حكاه الفراء . ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصّـلة . وليس يريد به من العدل ؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له : « استدل به بعض من تُعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر . وهذه وهلة عظيمة إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدلّ على وجوبه ، وإنما يعطيك الإباحة خاصة . وقد بيّنا أن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عليه ذِمّي فأكرمه ، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك ؛ فتلا هذه الآية عليهم » .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي جاهدوكم على الدين ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ وهم عُتاة أهل مكة . ﴿ وَظَاهَرُوا ﴾ أي عاونوا على إخراجكم وهم مشركو أهل مكة . ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ « أنْ » في موضع جَرٍّ على البدل على ما تقدّم في « أنْ تبرّوهم » . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ ﴾ أي يتخذهم أولياء وأنصارًا وأحبابًا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فيه ست عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة؛ فبيّن أحكام مهاجرة النساء . قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحُدَيْبِيَة، على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم؛ فجاءت سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية بعدَ الفراغ من الكتاب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعدُ؛ فأقبل زوجها وكان كافرا ــ وهو صَيْفِيّ بن الراهب . وقيل : مسافر المخزومي ــ فقال: يا محمد، اردد عليّ امرأتي فإنك شرطت ذلك! وهذه طِينة الكتاب لم تجف بعدُ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : جاءت أم كُلْثُوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردّها . وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عِمارة والوليد ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها؛ فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ردّها علينا للشرط ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "كان الشرط في الرجال لا في النساء" فأنزل الله تعالى هذه الآية . وعن عُرْوَة قال : كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ الحُدَيْبِيَة : ألّا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا؛حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل. يومئ إلى أن الشرط في ردّ النساء نُسخ بذلك. وقيل : إن التي جاءت أُمَيّة بنت بشر، كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ ففرّت منه وهو يومئذ كافر ، فتزوّجها سَهْل بن حُنيف فولدتْ له عبد الله ؛ قاله زيد بن حبيب . كذا قال الماوردي : أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ . وقال المهدوي : وروى ابن وهب عن خالد أن هذه الآية نزلت في أُمَيّة بنت بشر من بني عمرو بن عوف . وهي امرأة حسان بن الدَّحداح، وتزوّجها بعد هجرتها سَهل بن حُنيف . وقال مقاتل : إنها سُبَيْعة زوجة صَيْفِي بن الراهب مشرك من أهل مكة . والأكثر من أهل العلم أنها أم كلثوم بنت عقبة .

الثانيــة — واختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عقـد المهادنة لفظًا أو عموما ؛ فقالت طائفة منهـم : قد كان شرط ردّهن فى عقـد المهادنة لفظًا صريحًا فنسخ الله ردّهن من العقد ومنع منه ، وبقّاه فى الرجال على ما كان . وهـذا يدلّ على أن للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجتهد رأيه[1] فى الأحكام ، ولكن لا يقرّه الله على خطأ . وقالت طائفة من أهـل العلم : لم يشترط ردّهن فى العقد لفظا ، وإنما أطلق العقد فى ردّ من أسـلم ؛ فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال . فبيّن الله تعـالى خروجهنّ عن عمومه . وفرّق بينهنّ وبين الرجال لأمرين : أحدهما — أنهنّ ذوات فروج يحرمن عليهم . الثانى — أنهنّ أرقّ قلوبًا وأسرع تقلّبًا منهم . فأما المقيمة منهنّ على شركها فمردودة عليهم .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ قيل : إنه كان من أرادت منهن إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلذلك أمر صلى الله عليه وسلم بآمتحانهنّ . وآختلف فيما كان يمتحنهنّ به على ثلاثة أقوال :

الأوّل — قال آبن عبـاس : كانت المحنة أن تُستحلف بالله أنهـا ما خرجت من بغض زوجها ، ولا رغبةً من أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقًا لرجل منّا ؛ بل حبًّا لله ولرسوله . فإذا حلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك ، أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها ؛ فذلك قوله تعالى : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ »

الثـانى — أن المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، قاله ابن عباس أيضا .

الثـالث — بما بيّنه فى السورة بعدُ من قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ » قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن إلّا بالآية التى قال الله : « إذا جاءك المؤمنات يُبَايِعْنَكَ » رواه مَعْمَر عن الزُّهْرِى عن عائشة . خرّجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(١) الاجتهاد : بذل الوسع فى طلب الأمر .

الرابعــة ــ أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشا ، من أنه يردّ إليهم من جاءه منهم مسلمًا؛ فنُسخ من ذلك النساء . وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن . وقال بعض العلماء : كله منسوخ فى الرجال والنساء ، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العدوّ على أن يردّ إليهم من جاءه مسلما ؛ لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز . وهذا مذهب الكوفيين . وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك . وقد احتج الكوفيون لما ذهبوا إليه من ذلك بحديث إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى قوم من خَثْعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم، فوَداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الدّية ؛ وقال : "أنا برىء من كل مسلم أقام مع مشرك فى دار الحرب لا تَرَاءَى نارُهما" قالوا : فهذا ناسخ لردّ المسلمين إلى المشركين؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد برئ ممن أقام معهم فى دار الحرب. ومذهب مالك والشافعى أن هذا الحكم غير منسوخ . قال الشافعىّ : وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل بأمره ؛ لأنه يَلِى الأموال كلها . فمن عقد غير الخليفة هذا العقد فهو مردود .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أى هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن ؛ لأنه متولّى السرائر . ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أى بما يظهرن من الإيمان . وقيل : إن علمتموهنّ مؤمنات قبل الامتحان . ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أى لم يُحِلّ الله مؤمنةً لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدلّ دليل على أن الذى أوجب فرقةَ المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتها . وقال أبو حنيفة : الذى فرّق بينهما هو اختلاف الدارين . وإليه إشارة فى مذهب مالك.

(١) الأصل فى « تراءى » تتراءى . والتراءى تفاعل من الرؤية ؛ يقال : تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا . وإسناد التراءى إلى النارَين مجاز . أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى إذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها فى منزله . ولكنه ينزل مع المسلمين فى دارهم . وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لاعهد لهم ولا أمان . وحث المسلمين على الهجرة . (عن نهاية ابن الأثير) .

بل عبارة . والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعالى قال : « لا هُنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهن » فبيّن أن العلة عدم الحِلّ بالإسلام وليس باختلاف الدار . والله أعلم . وقال أبو عمر : لا فرق بين الدارين لا في الكتاب ولا في السنة ولا في القياس ، وإنما المراعاة في ذلك الدينان ؛ فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما ؛ لا بالدار . والله المستعان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ أمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يُرَدّ على زوجها ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ؛ لأنه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام ، أمر برد المال [إليه] حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال .

السابعة — ولا غُرْم إلا إذا طالب الزوج الكافر ؛ فإذا حضر وطالب منعناها وغَرِمنا . فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نَغْرَم المهر إذ لم يتحقق المنع . وإن كان المسمّى خمرًا أو خنزيرا لم نَغْرَم شيئا ؛ لأنه لا قيمة له . وللشافعيّ في هذه الآية قولان : أحدهما — أن هذا منسوخ . قال الشافعيّ : وإذا جاءتنا المرأة الحُرّة من أهل الهُدْنة مسلمةً مهاجرةً من دار الحرب إلى الإمام في دار السلام أو في دار الحرب ، فمن طلبها من وَلِيٍّ سوَى زوجها مُنع منها بلا عِوَض . وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته ففيه قولان : أحدهما — يعطى العِوض ؛ والقول ما قال الله عز وجل . وفيه قول آخر — أنه لا يعطى الزوج المشرك الذى جاءت زوجته مسلمةً العِوَض . [فإن شرط الإمامُ (١) ردّ النساء كان الشرط ورسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يردّ النساء كان شرط من شرط ردّ النساء منسوخا وليس عليه عِوض ؛ لأن الشرط المنسوخ باطل ولا عوض للباطل] .

---

(١) ما بين المربعين هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وهو مضطرب . وقد نقل المؤلف رحمه الله هذه المسألة من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ونصها فيه : وان شرط الامام رد النساء كان الشرط منتقضا . ومن قال هذا قال : ان شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الحديبية فيه أن يرد من جاء منهم ، وكان النساء منهم كان شرطا صحيحا ؛ فنسخه الله ورد العوض ، فلما قضى الله عز وجل ثم رسوله صلى الله عليه وسلم الا يرد النساء كان شرط من شرط رد النساء منسوخا وليس عليه أن يعوض ؛ لأن شرطه المنسوخ باطل ولا عوض للباطل » .

الثامنــــة ــ أمر الله تعالى بردّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمامُ، ينفذ مما بين يديه من بيت المـال الذى لا يتعين له مصرف . وقال مقاتل : يردّ المهر الذى يتزوجها من المسـلمين ، فإن لم يتزوجها من المسـلمين أحد فليس لزوجها الكافـر شىء . وقال قتادة : الحكم فى ردّ الصـداق إنما هو فى نساء أهـل العهد ؛ فأما من لا عهـد بينه و بين المسلمين فلا يردّ إليهم الصداق . والأمر كما قاله .

التاسـعة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ يعنى إذا أسـلمن وانقضت عدتهنّ ؛ لمـا ثبت من [تحريم] نكاح المشركة والمعتدة . فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح فى الحال ولها التزوّج .

العاشــرة ــ قوله تعالى : ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أباح نكاحها بشرط المهـر ؛ لأن الإسلام فرّق بينها و بين زوجها الكافر .

الحادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمسـاك . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله تعالى : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » . وقـرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمـرو « ولا تُمَسِّكُوا » مشدّدة من التمسك . يقال : مَسَّك يمسّك تمسُّكا ؛ بمعنى أمسـك يمسك . وقرئ « ولا تَمَسَّكوا » بنصب التاء ؛ أى لا تتمسـكوا . والعِصَم جمع العِصْمة ؛ وهو ما اعتصم به . والمراد بالعصمة هنا النكاح . يقول : من كانت له امرأة كافـرة بمكة فلا يعتدّ بها ، فليست له امرأة ، فقـد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين . وعن النَّخَعِىّ هى المسـلمة تلحق بدار الحرب فتكفـر ؛ وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات ؛ ثم نسخ ذلك فى هذه الآية . فطلق عمر بن الخطاب حينئـذ امرأتين له بمكة مشركتين : قُرَيبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سـفيان وهما على شركهما بمكة . وأم كُلْثوم بنت عمـرو الخُزَاعِيّة أم عبد الله بن المغـيرة ؛ فتزوجها أبو جَهم بن حُذافة وهما على شركهما . فلما وَلِىَ عمر قال أبو سـفيان لمعاوية : طلّق قُرَيبة لئلا يرى عمر سَلَبه فى بيتك ؛ فأبى معاوية من ذلك . وكانت عند طلحة بن عبيد الله أَرْوَى

بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما ، ثم تزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت ممن فرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ، فحبسها وزوّجها خالدا . وزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب ابنته — وكانت كافرة — من أبي العاص بن الربيع ، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها . ذكر عبد الرزاق عن ابن جُريج عن رجل عن ابن شهاب قال : أسلمت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهاجرت بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في الهجرة الأولى ، وزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى مشرك بمكة . الحديث ؛ وفيه : أنه أسلم بعدها . وكذلك قال الشعبي . قال الشّعْبيّ : وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبي العاص بن الربيع ، فأسلمت ثم لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى زوجها المدينة فأمّنته فأسلم فردّها عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس : بالنكاح الأوّل ؛ ولم يحدث شيئا . قال محمد بن عمر في حديثه : بعد ست سنين . وقال الحسن بن عليّ : بعد سنتين . قال أبو عمر : فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين : إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها ، وإما أن الأمر فيها منسوخ بقول الله عز وجل : «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ» يعني في عدّتهن . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنه عنى به العدّة . وقال ابن شهاب الزهري رحمه الله في قصة زينب هذه : كان قبل أن تنزل الفرائض . وقال قتادة : كان هذا قبل أن تنزل سورة « براءة » بقطع العهود بينهم وبين المشركين . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ المراد بالكوافر هنا عَبَدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها ، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب . وقيل : هي عامة ؛ نسخ منها نساء أهل الكتاب . ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه . وعلى القول الأول إذا أسلم وثنيّ أو مجوسيّ ولم تُسلم امرأته فرّق بينهما . وهذا قول بعض أهل العلم . ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة . فمن قال يفرق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تسلم مالكُ بن أنس . وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء

وعكرمة وقتادة والحَكَم؛ واحتجوا بقوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافِر » . وقال الزهرى : ينتظر بها العدّة . وهو قول الشافعى وأحمد . واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ، وكان إسلامه بمَرّ الظَّهْران[(١)] ثم رجع إلى مكة وهندٌ بها كافرة مقيمة على كفرها ، فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضال . ثم أسلمت بعده بأيام ؛ فاستقرا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن انقضت . قالوا : ومثله حَكيم بن حِزام أسلم قبل امرأته ، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما. قال الشافعى: ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافِرِ» لأن نساء المسلمين محرمات على الكفار؛ كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيات بقول الله عز وجل : « لا هنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لَهُنّ » ثم بيّنت السنة أن مراد الله من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الباقى منهما فى العدة . وأما الكوفيون وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا فى الكافرَيْن الذّميّيْن : إذا أسلمت المرأة عُرِض على الزوج الإسلام ، فإن أسلم وإلا فُرّق بينهما . قالوا : ولو كانا حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعا فى دار الحرب أو فى دار الإسلام . وإن كان أحدهما فى دار الإسلام والآخر فى دار الحرب انقطعت العصمة بينهما ؛ فراعوا الدار ؛ وليس بشىء . وقد تقدم .

الثالثة عشرة — هذا الاختلاف إنما هو فى المدخول بها ، فإن كانت غير مدخول بها فلا نعلم اختلافا فى انقطاع العصمة بينهما ؛ إذ لا عِدّة عليها . وكذا يقول مالك فى المرأة ترتد و زوجها مسلم : انقطعت العصمة بينهما . وحجته « ولا تُمْسِكوا بِعصم الكوافِر » وهو قول الحسن البصرى والحسن بن صالح بن حَىّ . ومذهب الشافعى وأحمد أنه ينتظر بها تمام العدة .

الرابعة عشرة — فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة ففيها أيضا اختلاف . ومذهب مالك وأحمد والشافعى الوقوف إلى تمام العدة . وهو قول مجاهد. وكذا الوثنىّ تُسلم زوجته ، إنه إن أسلم فى عدتها فهو أحق بها ؛ كما كان صَفْوان بن أُمَيّة وعِكْرمة بن أبى جهل

(١) مر الظهران : قرية قرب مكة .

أحق بزوجتيهما لما أسلما فى عدّتيهما ؛ على حديث ابن شهاب . ذكره مالك فى الموطأ . قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام زوجته نحو من شهر. قال ابن شهاب : ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينه وبينها؛ إلا أن يقدَم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضى عدتها . ومن العلماء من قال : ينفسخ النكاح بينهما . قال يزيد بن علقمة : أسلم جدّى ولم تُسلم جدّتى ففرق عمر بينهما رضى الله عنه ؛ وهو قول طاوس . وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا : لا سبيل عليها إلا بخطبة .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ قال المفسرون : كان مَن ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها . ويقال للسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة : ردّوا إلى الكفار مهرها . وكان ذلك نَصَفًا وعَدْلًا بين الحالتين . وكان هذا حكم الله مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة ؛ قاله ابن العربى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أى ما ذُكر فى هذه الآية . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم فى غير موضع (1) .

قوله تعالى : وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ فى الخبر : أن المسلمين قالوا : رضينا بما حكم الله ؛ وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت « وإنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ من

(1) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وروى الزهريّ عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : حكم الله عز وجل بينكم فقال جل ثناؤه : « وَآسألوا ما أنفقتم ولْيَسْألُوا ما أنفقوا » فكتب إليهم المسلمون : قد حكم الله عز وجل بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منّا أن توجّهوا إلينا بصداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجّهنا إليكم بصداقها . فكتبوا إليهم : أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئا ، فإن كان لنا عندكم شيء فوجّهوا به ؛ فأنزل الله عز وجل « وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وقال ابن عباس في قوله تعالى : « ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » أى بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم إلى بعض . قال الزهريّ : ولولا العهد لأمسك النساء ولم يردّ إليهم صداقا . وقال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفَيْء والغَنيمة . وقالا : هي فيمن بيننا وبينه عهد وليس بيننا وبينه عهد . وقالا : ومعنى « فعاقبتم » فاقتصصتم . ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى الصدُقات . فهى عامة فى جميع الكفار . وقال قتادة أيضا : وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار الذين[1] بينكم وبينهم عهد ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا . ثم نسخ هذا فى سورة « براءة » . وقال الزهريّ : انقطع هذا عام الفتح . وقال سفيان الثوريّ : لا يعمل به اليوم . وقال قوم : هو ثابت الحكم الآن أيضا . حكاه القُشيْريّ .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ قراءة العامة « فعاقبتم » . وقرأ عَلْقمة والنَّخَعيّ وحُميد والأعرج « فعقّبتم » مشدّدة . وقرأ مجاهد « فأعقبتم » وقال : صنعتم كما صنعوا بكم . وقرأ الزهريّ « فعقَبتم » خفيفة بغير ألف . وقرأ مسروق وشَقيق بن سَلَمة « فعقِبتم » بكسر القاف خفيفة . وقال : غنمتم . وكلها لغات بمعنًى واحد . يقـال : عاقب وعقَب وعقّب وأعقب وتعقّب واعتقب وتعاقب إذا غنم . وقال القتبيّ « فعاقبتم » فغزوتم معاقبيـن غزواً بعد غَزْو . وقال ابن بحر : أى فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « إلى الكفار الذين ليس بينكم وبينهم عهد » بزيادة « ليس » .

الثالثــة — قوله تعـالى: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال ابن عباس: يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قِبَلكم فغنمتم، فأعطوا هـذا الزوجَ المسلمَ مهره من الغنيمة قبل أن تُخَمَّس. وقال الزهرىّ: يعطى من مال الفيء. وعنه يعطى من صداق من لحق بنا. وقيل: أى إن امتنعوا من أن يَغْرَمُوا مهر هذه المرأة التى ذهبت إليهم، فآنبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش: هى منسوخة. وقال عطاء: بل حكمها ثابت. وقد تقـدم جميع هـذا. القُشيرىّ: والآية نزلت فى أمّ الحكم بنت أبى سفيان، ارتدت وتركت زوجها عياض ابن غَنْم القرشى، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام. وحكى الثعلبى عن ابن عباس: هن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولَحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: أمّ الحكم بنت أبى سفيان كانت تحت عياض بن أبى شدّاد الفهرى[(١)]. وفاطمة بنت أبى أُمَيّة بن المُغيرة أخت أم سلمة، وكانت تحت عمـر بن الخطاب، فلما هاجر عمرُ أبَتْ وآرتدت. وبَرْوَع بنت عقبة، كانت تحت شَمّاس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العُزّى، كانت تحت هشام بن العاص. و[أم] كلثوم بنت جَرْوَل، تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غَيْلان. فأعطاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿وَآتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا أن تتعدّوا ما أمرتم به.

قوله تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثمـانى مسائل:

---

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد القرشى الفهرى.

الأولى ـــ لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه؛ فأمر أن يأخذ عليهن ألا يشركن. وفى صحيح مسلم عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمتحنّ بقول الله تعالى: « يأيها النَّبِيُّ إذا جاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ » إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انطلقنَ فقد بايعتكن" ولا والله ما مَسّتْ يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأة قطُّ، غير أنه بايعهن بالكلام. قالت عائشة: والله، ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قطّ إلا بما أمره الله عز وجل، وما مسّتْ كَفُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كفَّ امرأة قطّ؛ وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن "قد بايَعْتُكُنّ كلاما". وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء و بين يديه وأيديهن ثوب، وكان يشترط عليهن. وقيل: لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصّفَا ومعه عمرُ أسفلَ منه، فجعل يشترط على النساء البَيْعة وعمر يصافحهن. ورُوِى أنه كلّف امرأة وقفت على الصّفَا فبايعتهن. ابن العربى: وذلك ضعيف، وإنما ينبغى التعويل على ما فى الصحيح. وقالت أمّ عَطِيّة: لما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت، ثم أرسل إلينا عمرَ بن الخطاب، فقام على الباب فسلّم فردَدْن عليه السلام، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ؛ ألّا تشركن بالله شيئا. فقلن نعم. فمدّ يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت؛ ثم قال: اللّهمّ اشهد. ورَوَى عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء، فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه.

الثانيـــة ـــ رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قال: "على ألّا يُشْرِكْنَ بالله شيئا" قالت هنْد بنت عُتْبة وهى مُتَنَقِّبة خوفاً من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعته بحَمْزة يومَ أُحُد: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال ـــ وكان بايع الرجال

يومئذ على الإسلام والجهاد فقط — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولا يَسْرِقن" فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شَحيح وإنى أصيب من ماله قُوتَنَا . فقال أبو سفيان : هو لك حلال . فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وعَرَفها وقال : "أنت هند" ؟ فقالت : عفا الله عما سلف . ثم قال : "ولا يزنين" فقالت هند : أوَ تزْنِى الحُرّة ! ثم قال : "ولا يقتلن أولادهن" أى لا يَئِدْنَ المَوْءُودَات ولا يُسقطن الأجِنّة . فقالت هند : رَبّيناهم صغارا وقتلتهم كبارًا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر . وروى مقاتل أنها قالت : رَبّيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا، وأنتم وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . وكان حَنْظلة بن أبى سفيان وهو بكرُها قُتل يوم بَدْر . ثم قال: «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنّ وأَرْجُلِهِنّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » . قيل : معنى « بَيْنَ أَيْدِيهِنّ » ألسنتهنّ بالنّميمة . ومعنى بين « أَرْجُلِهِنّ » فروجهن . وقيل : ما كان بين أيديهن من قُبْلة أوجَسّة ، وبين أرجلهن الجماع . وقيل: المعنى لا يُلْحقن برجالهن ولدًا من غيرهم . وهذا قول الجمهور . وكانت المرأة تلتقط ولدًا فتُلحقه بزوجها وتقول : هذا ولدى منك . فكان هذا من البهتان والافتراء . وقيل : مابين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأن بطنها الذى تحمل فيه الولد بين يديها، وفَرْجها الذى تلد منه بين رجليها . وهذا عامّ فى الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج وإن سبق النهى عن الزنى . وروى أن هندًا لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ؛ ما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق ! . ثم قال : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قال قتادة : لا يَنُحْن . ولا تخلُو امرأة منهنّ إلا بذى مَحْرَم . وقال سعيد بن المُسَيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم: هو ألّا يَخْمِشْنَ وجهًا، ولا يَشْقُقْن جَيْبًا، ولا يَدْعُون وَيْلًا ولا يَنْشُرْن شعرًا ولا يحدّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم . وروت أم عطية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ذلك فى النَّوْح . وهو قول ابن عباس . وروى شَهر بن حَوْشَب عن أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « ولا يعصينك فى معروف » قال : "هو النوح" . وقال مصعب بن نوح : أدركت عجوزا ممن بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فحدّثتنى عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله « ولا يعصينك فى معروف » فقال :

" النوح " . وفى صحيح مسلم عن أم عطية لمـا نزلت هـذه الآية « يُبَايِعنك على ألا يشركن بالله شيئا — الى قوله — ولا يعصينك فى معروف » قال : " كان منـه النياحة " قالت : فقلت يارسول الله ، إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدونى فى الجاهلية ؛ فلا بُدّ لى من أن أُسعدهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلا آل فلان " . وعنها قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألا ننُوح ؛ فما وَفت منا امرأة إلا خمس : أم سُلَيم ، وأم العلاء ، وابنةُ أبى سَـبْرة امرأةُ معاذ أو ابنة أبى سـبرة ، وامرأة معاذ . وقيل : إن المعروف هاهنا الطاعة لله ولرسوله ؛ قاله ميمون بن مِهران . وقال بكر بن عبد الله المُزَنِىّ : لا يَعْصِينك فى كل أمر فيه رشدهن . الكلبىّ : هو عام فى كل معروف أمر الله عز وجل ورسولُه به . فروى أن هندا قالت عند ذلك : ماجلسنا فى مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

الثالثـــة — ذكر الله عز وجل ورسـولُه عليه الصلاة والسلام فى صفة البيعة خصالاً شتّى ؛ صُرّح فيهنّ بأركان النهى فى الدّين ولم يُذكر أركان الأمر . وهى ستة أيضا : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاغتسال من الجنابة . وذلك لأن النهى دائم فى كل الأزمان وكل الأحوال ؛ فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد . وقيل : إن هذه المناهى كان فى النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهنّ عنها شرف النسب ، فَخُصّتْ بالذكر لهذا . ونحوٌ منه قوله عليه الصلاة والسلام لوَفد عبد القيس : " وأنهاكم عن الدُّبّاء والحَنْتَم والنَّقير والمُزَفَّت "(١) فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمـر دون سائر المعاصى ؛ لأنها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصى هان عليه ترك سائرها ممـا لا شهوة له فيها .

---

(١) الدباء : هو القرع اليابس . والحنتم : الجـرة . والنقير : أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء . والمزفت : الإناء الذى طلى بالزفت . قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « عن أبى بكرة قال : أما الدباء فان أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت . وأما النقير فان أهل اليمـامة كانوا ينقرون أصـل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت . وأما الحنتم فجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر . وأما المزفت فهى الأوعية التى فيها الزفت... ومعنى النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية بخصوصها لأنه يسرع إليها الإسكار ؛ فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك . ثم ثبتت الرخصة فى الانتباذ فى كل وعاء مع النهى عن شرب كل مسكر » .

الرابعــة — لما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى البيْعة : "ولا يَسْرقن" قالت هند : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل مَسِيك فهل علىّ حرج أن آخذ مايكفينى وولدى ؟ قال : "لا إلّا بالمعروف" فخشيتْ هند أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع ، أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة . فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا" أى لاحرج عليك فيما أخذت بالمعروف ؛ يعنى من غير استطالة الى أكثر من الحاجة . قال ابن العربىّ : وهذا إنما هو فيما لا يَخْزُنه عنها فى حجاب ولا يضبط عليه بقُفْل ؛ فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه كانت سارقة تعصى به وتقطع يدها .

الخامســة — قال عُبادة بن الصّامت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ؛ ألّا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضًا ولا تَعْصُوا فى معروف أمركم به " . معنى « يَعْضَـه » يسحر . والعَضْهُ : السحر . ولهذا قال ابن بحر وغيره فى قوله تعالى : «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ» إنه السحر . وقال الضحاك : هذا نهى عن البهتان؛ أى لا يَعْضَهْن رجلا ولا امرأة . ﴿ بِبُهْتَانٍ ﴾ أى بسحر . والله أعلم . ﴿ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ والجمهور على أن معنى « ببهتان » بولد . « يفترينه بين أيديهن » ما أخذْنَه لقيطًا . « وأرجلهن » ما ولدته من زنًى . وقد تقدّم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فى البخارى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ولا يعصينك فى معروف » قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء. واختلف فى معناه على ما ذكرنا . والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم و ينهى عنه ؛ فيدخل فيه النَّوْح وتخريق الثياب وجَزّ الشعر والخَلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك . وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية . وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية " فذكر منها النياحة . وروى يحيى بن أبى كَثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه النوائح يُجعلن يوم القيامة صفّين صفًا عن اليمين وصفًّا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب فى يوم

كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصلي الملائكة على نائحة ولا مُرِنَّة[1] " . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدِّرة حتى وقع خمارها عن رأسها . فقيل : يا أمير المؤمنين ، المرأةَ المرأةَ ! قد وقع خمارها . فقال : إنها لا حُرْمة لها . أسند جميعه الثعلبي رحمه الله . أما تخصيص قوله : « فِي مَعروفٍ » مع قوة قوله : « ولا يَعْصِينك » ففيه قولان : أحدهما ــ أنه تفسير للمعنى على التأكيد ، كما قال تعالى : « قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ[2] » لأنه لو قال احكم لكفى . الثانى ــ إنما شرط المعروف فى بَيْعة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكون تنبيها على أن غيره أولى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال .

السابعة ــ روى البخارى عن عُبادة بن الصّامت قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا " قرأ آية النساء . وأكثر لفظ سفيان قرأ فى الآية " فمن وَفَى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها " . وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب ؛ فنزل نبي الله صلى الله عليه وسلم فكأنى أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : " « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جاءكَ المُؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ على ألاّ يُشْرِكْنَ باللهِ شيئا ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادَهُنّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أيدِيهِنّ وأَرْجُلِهِنّ » ــ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ ــ : أنتنّ على ذلكِ " ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ، لا يَدْرِى الحسن[3] من هى . قال : "فتصدّقن" وبسط بلال ثوبه فجعلن يُلْقِين الفَتَخ[4] والخواتيم فى ثوب بلال . لفظ البخارى .

(١) الإرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء ؛ يقال : رنت المرأة ترن رنينا ، وأرنت ؛ صاحت . (٢) آخر سورة الأنبياء . (٣) هو الحسن بن مسلم راوى الحديث .

(٤) الفتخ (بفتحات وآخره خاء معجمة) : الخواتيم العظام ؛ أو حلق من فضة لا فص فيها .

الثامنــة ــ قال المهدوى : أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا ؛ والأمر بذلك ندب لا إلزام . وقال بعض أهل النظر : إذا آحتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعنى اليهود . وذلك أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين و يواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهُوا عن ذلك . ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ يعنى اليهود ؛ قاله ابن زيد . وقيل : هم المنافقون . وقال الحسن : هم اليهود والنصارى . قال آبن مسعود : معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا . وقيل : المعنى يئســوا من ثواب الآخرة ؛ قاله مجاهد . ومعنى ﴿ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ ﴾ أى الأحياء من الكفار . ﴿ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ أن يرجعــوا إليهم ؛ قاله الحسن وقتادة . قال ابن عرفة : وهم الذين قالوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »[1] . وقال مجاهد : المعنى كما يئس الكفار الذين فى القبور أن يرجعوا إلى الدنيا . وقيل : إن الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار ؛ وهى خطاب لحاطب بن أبى بَلْتَعَة وغيره . قال آبن عباس : « يأيها الذين آمنوا لا تتولّوا » أى لا توالوهم ولا تناصحوهم ؛ رجع تعالى بطَوْله وفضله على حاطب بن أبى بلتعــة . يريد أن كفار قريش قد يئســوا من خير الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لهم فى الآخرة من رحمة الله تعالى . وقال القاسم بن أبى بَزّة فى قوله تعــالى « قــد يَئِسُوا من الآخرةِ كما يَئِسَ الكفارُ من أصحاب القُبُورِ » قال : من مات من الكفار يئس من الخير . والله أعلم .

---

(١) آية ٢٤ سورة الجاثية .

سورة الصف

مدنية في قول الجميع ، فيما ذكر الماوردي . وقيل : إنها مكيّة ؛ ذكره النحاس عن ابن عباس . وهي أربع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

تقدّم (١) .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ روى الدّارِميّ أبو محمد في مسنده أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سَلَام قال : قعدنا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه ؛ فأنزل الله تعالى « سَبَّحَ لِلَّهِ ما في السّموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . يَأَيُّها الّذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تَفْعَلُونَ » حتى ختمها . قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سَلَام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد (٢) . وقال ابن عباس قال عبد الله بن رَوَاحة : لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٥ (٢) هذا الحديث كما ورد في مسند الدارمي . وقد ذكر في الأصول مضطربا .

لعملناه؛ فلما نزل الجهاد كرهوه . وقال الكلبي : قال المؤمنون يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؛ فنزلت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] فمكثوا زمانا يقولون : لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين. فدلّهم الله تعالى عليها بقوله : « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » الآية . فابتُلوا يوم أُحُد ففرّوا؛ فنزلت تعيّرهم بترك الوفاء . وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بَدْر قالت الصحابة : اللّهُمّ اشهد! لئن لَقينا قتالا لنُفْرِغَنّ فيه وُسْعَنا؛ ففروا يوم أُحُد فعيّرهم الله بذلك . وقال قتادة والضحاك : نزلت في قوم كانوا يقولون : نحن جاهدنا وأبْلَيْنا ولم يفعلوا . وقال صُهيب : كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته . فقال رجل يا نبيّ الله، إني قتلت فلانا؛ ففرح النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عَوْف : يا صُهيب ، أما أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك قتلت فلانا! فان فلانا انْتَحَل قتله؛ فأخبره فقال: "أكذلك يا أبا يحيى"؟ قال نعم، والله يا رسول الله؛ فنزلت الآية في المنتحل . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين؛ كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا ؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا .

الثانية — هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعةٌ أن يَفِيَ بها . وفي صحيح مسلم عن أبي[2] موسى أنه بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرءوا القرآن؛ فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم، فاتلُوه ولا يَطُولَنّ عليكم الأمد فتَقْسُوَ قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم . وإنّا كنا نقرأ سورةً كنا نشبهها في الطُّول والشدة بـ «براءة» فأُنسيتُها؛ غير أني قد حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جَوْف ابن آدمَ إلا التراب» . وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسبِّحات فأنسيتها ؛ غير أني

---

(١) آية ١٠ من هذه السورة . (٢) الذي في صحيح مسلم : حدّثني سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن داود عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال : بعث أبو موسى ... الخ » .

حفظت منها « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون » فتُكْتَب شهادةً في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة . قال ابن العربي : وهذا كله ثابت في الدِّين . أما قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون» فثابت في الدِّين لفظًا ومعنًى في هذه السورة . وأما قوله : « شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة » فمعنًى ثابتٌ في الدِّين ؛ فإن من التزم شيئًا لزمه شرعا . والملتَزَم على قسمين : أحدهما — النذر ؛ وهو على قسمين ؛ نذرُ تقرّب مبتدأ كقوله : لله على صلاة وصوم وصدقة ؛ ونحوه من القُرَب . فهذا يلزم الوفاء به إجماعا . ونذرُ مباح وهو ما عُلّق بشرط رغبة ؛ كقوله : إن قدم غائبي فعليّ صدقة ، أو عُلّق بشرط رهبة ؛ كقوله : إن كفاني الله شرّ كذا فعليّ صدقة . فاختلف العلماء فيه ؛ فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به . وقال الشافعيّ في أحد أقواله : إنه لا يلزمه الوفاء به . وعموم الآية حجة لنا ؛ لأنها بمطلقها تتناول ذمّ من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط . وقد قال أصحابه : إن النذر إنما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة . وهذا و إن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة ، و إنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل . قلنا : القُرَب الشرعية مَشَقّات وكُلَف و إن كانت قربات . وهذا تكلّف التزام هذه القربة بمشقة لجَلْب نفع أو دفع ضر ، فلم يخرج عن سَنَن التكليف ولا زال عن قصد التقرب . قال ابن العربي : فإن كان المقول منه وعداً فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقوله : إن تزوّجتَ أعنتُك بدينار ، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك [كذا](1) . فهذا لازم إجماعا من الفقهاء . وإن كان وعدًا مجرّدًا فقيل يلزم بتعلقه(2) . وتعلقوا بسبب الآية ؛ فإنه روى أنهم كانوا يقولون : لو نعلم أيّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله لعملناه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وهو حديث لا بأس به . وقد روى عن مجاهد أن عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال : لا أزال حبيسًا في سبيل الله حتى أُقْتَل . والصحيح عندى أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر .

---

(1) زيادة عن ابن العربي .

(2) في ابن العربي : « بمطلقه » .

قلت : قال مالك : فأما العدة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم ؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه . وقال ابن القاسم : إذا وعد الغرماء فقال : أشهدكم أنى قد وهبت له من أن يؤدى إليكم (١) ؛ فان هذا يلزمه . وأما أن يقول نعم أنا أفعل؛ ثم يبدو له فلا أرى عليه ذلك .

قلت : أى لا يقضى عليه بذلك ؛ فأما فى مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم . وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال : « والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا (٢) » ، وقال تعالى : « واذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنه كَانَ صادِقَ الوَعْدِ (٣) » وقد تقدم بيانه .

الثالثة — قال النَّخَعِىّ : ثلاث آيات منعتنى أن أقص على الناس « أتأمرون الناس بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم (٤) » ، « ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْه (٥) » ، «يأيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وخرج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثُمامة أن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتيتُ ليلةَ أُسرِىَ بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار كلما قرضت وفت (٦) " قلت : " من هؤلاء يا جبريل " ؟ قال : "هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرءون كتاب الله ولا يعملون". وعن بعض السلف أنه قيل له : حَدِّثنا ؛ فسكت . ثم قيل له : حدِّثنا . فقال : أترونَنى (٧) أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله ! .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله . أما فى الماضى فيكون كذباً، وأما فى المستقبل فيكون خُلْفًا ؛ وكلاهما مذموم . وتأول سفيان بن عُيَينة قوله تعالى : « لِمَ تقولون ما لا تفعلون » أى لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون . فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره فى إنكار القول .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : «من أين» ولعل صوابها : « وهبت له ما يؤدى إليكم » .
(٢) آية ١٧٧ سورة البقرة . (٣) آية ٥٤ سورة مريم . راجع جـ ١١ ص ١١٤ (٤) آية ٤٤ سورة البقرة .
(٥) آية ٨٨ سورة هود . (٦) رفت : تمت وطالت . (٧) فى بعض نسخ الأصل : «أتأمروننى» .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قد يحتج به فى وجوب الوفاء فى اللّجاج والغضب على أحد قولى الشافعى . و « أَنْ » رفع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعـلون مذموم . ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف . الكسائى : « أن » فى موضع رفع ؛ لأن « كَبُرَ » فعلٌ بمنزلة بئس رجلا أخوك . و « مَقْتًا » نصب بالتمييز ؛ المعنى كبر قولهم ما لا يفعلون مقتًا . وقيل : هو حال . والمقت والمَقَاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقيت وممقوت إذا لم يحبّه الناس .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ أى يصفون صفا . والمفعول مضمر؛ أى يصفون أنفسهم صفًّا . ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قال الفرّاء: مرصوص بالرصاص . وقال المبرّد : هو من رصصت البناء إذا لاأمْتَ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرَّصيص وهو انضمام الأسـنان بعضها إلى بعض . والتراصّ التلاصق؛ ومنه وتراصّوا فى الصف . ومعنى الآية : يحبّ مَن يثبت فى الجهاد فى سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء . وقال سعيد بن جُبير : هذا تعليم من الله تعالى للؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم .

الثانيــة ــ وقد استدلّ بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأن الفرسان لا يصطفّون على هذه الصفة . المهدوى : وذلك غير مستقيم؛ لمـا جاء فى فضل الفارس فى الأجر والغنيمة . ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات .

الثالثــة ــ لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحـاجة تَعرِض للإنسان ، أو فى رسالة يرسلها الإمام؛ أو فى منفعة تظهر فى المقام؛ كفرصة تُنتهز ولا خلاف فيها. وفى الخروج عن

الصف للبارزة خلاف على قولين : أحدهما — أنه لا بأس بذلك إرهابًا للعدوّ ، وطلبًا للشهادة وتحريضا على القتال . وقال أصحابنا : لا يبرز أحد طالبا لذلك ؛ لأن فيه رياءً وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوّ . وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر ؛ كما كانت فى حروب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر وفى غَزْوة خَيْبر . وعليه دَرَج السلف . وقد مضى القول مستوفًى فى هذا فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(1) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا فى سبيل الله ؛ وحلّ العقاب بمن خالفهما . أى واذكر لقومك يا محمد هذه القصة .

قوله تعالى : ﴿ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرة ؛ حسب ما تقدّم فى آخر سورة « الأحزاب »(2) . ومن الأذى ما ذكر فى قصة قارون : إنه دس إلى امرأة تدّعى على موسى الفجور(3) . ومن الأذى قولهم : « اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ »(4) . وقولهم : « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا »(5) . وقولهم : إنك قتلت هارون(6) . وقد تقدّم هذا . ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يُحترم ويُعظّم . ودخلت « قد » على « تعلمون » للتأكيد ؛ كأنه قال : وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه . ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أى مالوا عن الحق . ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى أمالها عن الهُدَى . وقيل : « فلما زاغوا » عن الطاعة . « أزاغ الله قلوبهم » عن الهداية .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٦١ طبعة ثانية .
(2) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠
(3) راجع جـ ١٣ ص ٣١٠
(4) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣
(5) راجع جـ ٦ ص ١٢٨
(6) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

وقيل : « فلما زاغوا » عن الإيمان . « أزاغ الله قلوبهم » عن الثواب . وقيل : أى لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب ، خلق الله الضلالة فى قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى واذكر لهم هذه القصة أيضا . وقال : « يابنى إسرائيل » ولم يقل « يا قوم » كما قال موسى ؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه . ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى بالإنجيل . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لأن فى التوراة صفتى ، وأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة فتنفروا عنى . ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ ﴾ مصدقا . « ومبشرا » نصب على الحال ، والعامل فيها معنى الإرسال . و « إليكم » صلة الرسول . ﴿ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « من بعدىَ » بفتح الياء . وهى قراءة السُّلَمِىّ وزِرّ بن حُبَيش وأبى بكر عن عاصم . واختاره أبو حاتم لأنه اسم ؛ مثل الكاف من بعدك ، والتاء من قمت . الباقون بالإسكان . وقرئ « من بعدى اسمه أحمد » بحذف الياء من اللفظ . و « أحمد » اسم نبينا صلى الله عليه وسلم . وهو اسم علَم منقول من صفة لا من فعل ؛ فتلك الصفة أفعل التى يراد بها التفضيل . فمعنى « أحمد » أى أحْمَدُ الحامدين لربه . والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله ، ونبيّنا أحمدُ أكثرهم حمدًا . وأما محمد فمنقول من صفة أيضا ، وهى فى معنى محمود ؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار . فالمحمَّد هو الذى حُمِد مرّةً بعد مرة . كما أن المُكَرَّم من الكرم مرة بعد مرة . وكذلك الممدّح ونحو ذلك . فاسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه سمّاه قبل أن يُسَمّىَ به نفسه . فهذا علَمٌ

من أعلام نبوّته ، إذ كان اسمه صادقا عليه ؛ فهو محمود فى الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة . وهو محمـود فى الآخرة بالشفاعة . فقد تكرر معنى الحمـد كما يقتضى اللفظ . ثم إنه لم يكن مُحَمَّدًا حتى كان أحمدَ ، حَمِد ربّه فنبّأه وشرّفه ؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذى هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال : « اسمه أحمد » . وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه : تلك أمة أحمـد ؛ فقال : اللّهُمّ اجعلنى من أمة أحمد . فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ؛ لأن حَمْـدَه لربّه كان قبل حمد الناس له . فلما وُجد وبُعث كان محمـدا بالفعل . وكذلك فى الشفاعة يحمـد ربّه بالمحامد التى يفتحها عليـه ؛ فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اسمى فى التوراة أُحيد لأنى أحيـد أمتى عن النـار واسمى فى الزبور المـاحى محا الله بى عَبَدة الأوثان واسمى فى الإنجيل أحمد واسمى فى القرآن محمد لأنى محمود فى أهل السماء والأرض " . وفى الصحيح " لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا المـاحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحـاشر الذى تحشر الناس على قدمى وأنا العاقب " . وقد تقدّم (1) . ﴿ فَلَمَّـا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قيل عيسى . وقيل محمد صـلى الله عليهما وسـلّم . ﴿ قَالُوا هَـذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قرأ الكسائى وحمزة « ساحر » نعتًا للرجل . وروى أنها قراءة ابن مسعود . الباقون « سحر » نعتا لمـا جاء به الرسول .

قوله تعـالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْـلَمُ ﴾ أى لا أحدَ أظلم . ﴿ مِمَّنِ ٱفْـتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ تقدّم فى غير موضع (2) . ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْـلَامِ ﴾ هذا تعجّب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التى ظهـرت لهما . وقـرأ طلحة بن مُصَرِّف « وهو يَدّعِى » بفتح الياء والدال وشدّها وكسر العين ؛ أى ينتسب . ويَدّعى وينتسب سواء . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى من كان فى حكمه أنه يختم له بالضلالة .

(1) راجع جـ ١٤ ص ٢٠٠ (2) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ و جـ ٧ ص ٣٩

قوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ الإطفاء هو الإخماد ، يستعملان فى النار ، ويستعملان فيما يجرى مجراها من الضياء والظهور . ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه ؛ وهو أن الإطفاء يستعمل فى القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل فى الكثير دون القليل ؛ فيقال : أطفأت السراج ؛ ولا يقال أخمدت السراج . وفى « نور الله » هنا خمسة أقاويل : أحدها ــ أنه القرآن ؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ؛ قاله ابن عباس وابن زيد . والثانى ــ أنه الإسلام ؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السُّدّى . الثالث ــ أنه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف ؛ قاله الضحاك . الرابع ــ حجج الله ودلائله ؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ؛ قاله ابن بحر . الخامس ــ أنه مَثَل مضروب ؛ أى من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق ؛ حكاه ابن عيسى . وسبب نزول هذه الآية ماحكاه عطاء عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوَحْى أربعين يوما؛ فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود ، أبشروا ! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتمّ أمره ؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحى بعدها ؛ حكى جميعَه الماوردىّ رحمه الله . ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ أى بإظهاره فى الآفاق . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ » بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وشبهه ، حسب ما تقدم بيانه فى « آل عمران »[1] . الباقون « مُتِمٌّ نُورَهُ » لأنه فيما يستقبل ؛ فعمل . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ من سائر الأصناف .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أى محمدا بالحق والرشاد . ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى بالحجج . ومن الظهور الغلبةُ باليد فى القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان ، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين . ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام فى آخر الزمان . قال مجاهد : وذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام . وقال أبو هريرة : «لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه» بخروج عيسى . وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيَنْزِلَنّ ابن مريم حَكَمًا عادلًا فلَيَكْسِرَنّ الصّليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجِزْيَة وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص(١) فلا يُسْعَى عليها وَلَتَذْهَبَنّ الشَّحْناءُ والتّباغضُ والتّحاسدُ وَلَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يَقْبَلُه أحدٌ" . وقيل : «لِيُظْهِرَه» أى ليطلع محمدا صلى الله عليه وسلم على سائر الأديان ، حتى يكون عالما بها عارفًا بوجوه بطلانها ، وبما حرّفوا وغيّروا منها . ﴿على الدِّين﴾ أى على الأديان؛ لأن الدِّين مصدر يعبّر به عن جمع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

---

(١) القلاص (بكسر القاف) : الناقة الشابة .

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ قال مقاتل : نزلت فى عثمان بن مَظْعُون ؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أذنتَ لى فطلّقتُ خَوْلة، وتَرَهَّبْتُ واخْتَصَيْت وحَرَّمتُ اللحم، ولا أنام بليل أبدًا، ولا أفطر بنهار أبدًا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ مِنْ سُنّتى النكاحَ ولا رَهْبانيةَ فى الإسلام إنما رهبانيةُ أمتى الجهادُ فى سبيل الله وخِصاءُ أُمتى الصومُ ولا تُحَرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم . ومِنْ سُنّتى أنام وأقوم وأُفطِر وأصوم فمَنْ رَغِب عن سُنّتى فليس منى " . فقال عثمان : والله لَوَدِدْتُ يا نبيّ الله أى التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها؛ فنزلت . وقيل : « أَدُلّكم » أى سأدلكم . والتجارة الجهاد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » (1) الآية . وهذا خطاب لجميع المؤمنين . وقيل : لأهل الكتاب .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ تُنْجِيكُمْ ﴾ أى تخلصكم . ﴿ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى مؤلم . وقد تقدّم (2) . وقراءة العامة « تُنْجِيكم » بإسكان النون من الإنجاء . وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حَيْوة « تُنَجِّيكم » مشدّدًا من التنجية . ثم بين التجارة وهى المسألة : ــ

الثالثــة ــ فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ذكر الأموال أوّلًا لأنها التى يُبدأ بها فى الإنفاق . ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى هذا الفعل ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . و « تؤمنون » عند المبرد والزجاج فى معنى آمنوا؛ ولذلك جاء « يَغْفِرْ لَكُمْ » مجزوما على أنه جواب الأمر . وفى قراءة عبد الله « آمنوا بالله » وقال الفراء « يغفر لكم » جواب الاستفهام ؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى ؛ وذلك أن يكون « تؤمنون بالله ، وتجاهدون » عطف بيان على قوله : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كأن التجارة لم يُدْرَ ماهى؛ فبُيِّنت بالإيمان والجهاد؛ فهى هما فى المعنى . فكأنه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم . الزَّمَخْشَرِيّ : وجه قول الفراء أن متعلق الدلالة

---

(1) آية ١١١ سورة التوبة . (2) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو التجارة والتجارة مفسّرة بالإيمان [والجهاد] . كأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم . قال المهدوىّ : فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة ؛ لأن التقدير يصير إن دُللتم يغفر لكم؛ والغفران إنما نُعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة . قال الزجاج : ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن على «تؤمنوا» ، «وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر . كقوله :

محمّدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ * إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا(١)

أراد لِتَفْدِ . وأدغم بعضهم فقال : «يغفر لكم» والأحسن ترك الإدغام ؛ لأن الراء حرف متكرر قوىّ فلا يحسن إدغامه فى اللام؛ لأن الأقوى لا يُدغم فى الأضعف .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرّج أبو الحسين الآجُرّى عن الحسن قال : سألت عمران بن الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيّبة» فقالا : على الخبير سقطت، سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: "قصرٌ من لؤلؤة فى الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتاً من زَبَرْجدة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش سبعون امرأةً من الحُور العِين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام فى كل بيت سبعون وَصيفاً ووصيفة فيعطى الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوّة فى غداةٍ واحدة ما يأتى على ذلك كله" . ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى إقامة . ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى السعادة الدائمة الكبيرة . وأصل الفوز الظفَر بالمطلوب . .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ قال الفرّاء والأخفش : «أخرى» معطوفة على «تجارة» فهى فى محل خفض . وقيل : محلها رفع؛ أى ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبّونها . ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى هو نصر من الله ؛ فـ «نصر» على هذا تفسير

---

(١) اختلف فى قائله ؛ فقيل إنه لحسان ، وقيل لأبى طالب عم الرسول صلوات الله عليه ، وقيل للأعشى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الثمانين بعد السمائة) . والتبال : سوء العاقبة ؛ وهو بمعنى الوبال .

« وأخرى » . وقيل : رفع على البدل من « أخرى » أى ولكم نصر من الله . ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أى غنيمة فى عاجل الدنيا ؛ وقيل فتح مكة . وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم . ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكد أمر الجهاد؛ أى كونوا حوارِىّ نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حوارِىّ عيسى على من خالفهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع « أنصاراً لله » بالتنوين . قالوا : لأن معناه اثبتوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه . وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام « أنصارَ الله » بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى . واختاره أبو عُبيد لقوله : « نحن أنصارُ الله » ولم ينوّن؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله . ثم قيل : فى الكلام إضمار؛ أى قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله؛ أى كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريّين . والحواريّون خواصّ الرسل . قال مَعْمَر : كان ذلك بحمد الله ؛ أى نصروه وهم سبعون رجلا ، وهم الذين بايعوه ليلة العَقَبة . وقيل : هم من قريش . وسمّاهم قتادة : أبا بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة — واسمه عامر — وعثمان بن مَظْعُون وحمزة بن عبد المطلب ؛ ولم يذكر سعيدا فيهم ، وذكر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا، وقد مضت أسماؤهم فى « آل عمران »(1) ، وهم أوّل من آمن به من بنى إسرائيل؛ قاله ابن عباس. وقال مقاتل :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٧ ويلاحظ أنه لم تذكر أسماؤهم ، بل ذكر سبب تسميتهم .

قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهـر الذى عليه القصّارون[1] فاسألهم النُّصرة ، فأتاهم عيسى وقال : من أنصارى الى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك . فصدقوه ونصروه . ومعنى « من أنصارى إلى الله » أى مَن أنصارى مع الله ؛ كما تقـول : الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل ؛ أى مع الذَّود . وقيل : أى مَن أنصارى فيما يقرّب إلى الله . وقد مضى هذا فى « آل عمران[1] » . ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ والطائفتان فى زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء ؛ على ماتقدّم فى « آل عمران[2] » بيانه . ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى . ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أى غالبين . قال ابن عباس : أيّد الله الذين آمنوا فى زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار . وقال مجاهد : أيّدوا فى زمانهم على من كفر بعيسى . وقيـل أيّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين : من قال كان الله فارتفع ، ومن قال كان ابنَ الله فرفعه الله إليـه ؛ لأن عيسى بن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن فى دين أصحابه بعده قتال . وقال زيد بن على وقتادة : « فأصبحوا ظاهرين » غالبين بالحجة والبرهان ؛ لأنهم قالوا فيما روى : ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لاينام ، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل ! . وقيل : نزلت هذه الآية فى رسل عيسى عليه الصلاة والسلام . قال ابن إسحاق : وكان الذى بعثهم عيسى من الحواريّين والأتبـاع فطرس وبولس إلى رُومِيَة . واندرا يبس ومثى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس . وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق . وفيلبس إلى قَرْطَاجَنّة وهى أفريقية . ويحنّس إلى دقسوس قرية أصحاب الكهف . ويعقوبس إلى أورِيشَلِم وهى بيت المقدس . وابن تلمـا الى العرابية وهى أرض الحجاز . وسيمن إلى أرض البربر . ويهودا وبردس الى الإسكندرية وما حولها[3] . فأيدهم الله بالحجة . ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أى عالين ؛ من قولك : ظهرت على الحائط أى علوتُ عليه . والله سبحانه وتعـالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

---

(١) القصار : محوّر الثياب راجع جـ ٤ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٠

(٣) يلاحظ أن هذه الأسماء وردت محرفة فى نسخ الأصل ، وأثبتناها كما وردت فى تاريخ الطبرى (جـ ٣ قسم أوّل ص ٧٣٧ طبع أوربا) .

ســـورة الجمعـــة

مدنيّة فى قول الجميع ، وهى إحدى عشرة آية . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "خير يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخِل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة" . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن الآخِرون [الأوّلون[1]] يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب مِن قَبْلنا وأوتيناه من بعدهم فآختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه هدانا الله له ـ قال ـ يوم الجمعة فاليوم لنا وغدًا لليهود وبعد غدٍ للنصارى" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

تقدّم الكلام فيه . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم « الملكُ القدوسُ العزيزُ الحكيمُ » كلها رفعًا ؛ أى هو الملك .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : الأمّيّون العرب كلهم ؛ مَن كتب منهم ومن لم يكتب ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب . وقيل : الأمّيّون

(١) زيادة من صحيح مسلم .